عودة بطلة ذهب مع الريح

سكارليت

تأليف : الكسندرا ريبلى

ترجمة وتقديم : نبيل زكى

رسوم الشخصيات · محمد عفت
ماكيت عبد الكريم محمود

مقدمة

من منا لم يقرأ رواية « ذهب مع الريح » ؟ وهل فات من لم يقراها ان يشاهد الفيلم السينمائى الذى يحمل هذا الاسم ؟

لقد اصبح هذا الفيلم من العلامات الخالدة فى تاريخ الفن السابع منذ عرضه لأول مرة فى عام ١٩٣٩ ، ومازال يحتفظ بمكانه فى القمة يحقق اعلى الايرادات فى تاريخ السينما إلى ان ظهر فيلم « صوت الموسيقى » عام ١٩٦٦ . ومع ذلك فإن « ذهب مع الريح » يعتبر حتى الآن من الافلام الخمسة الاولى فى العالم من حيث ضخامة ايراداته . وقد فاز الفيلم بعشر جوائز بعد عرضه ، ومازال يعرض دوريا فى دور السينما فى انحاء العالم لكى تكتشفه الأجيال الجديدة كنموذج للعمل الأدبى والفنى الناجح الذى تتوافر له وتكتمل فيه كل عناصر نجاحه .. بل إن الأجيال القديمة تعيد اكتشاف هذا الثراء الفنى والتقنى والأدبى الذى يتميز به الفيلم .

وكانت الروائية الامريكية مارجريت ميتشل قد نشرت روايتها « ذهب مع الريح » فى عام ١٩٣٦ والتى حصلت على جائزة بوليتزر فى عام ١٩٣٧ وحققت نجاحا منقطع النظير . واصبحت بطلتها « سكارليت أوهارا » بسحرها وقوة شخصيتها وتعلقها بالأرض .. محور اهتمام كل نساء العالم .

وقد تمت ترجمة رواية « ذهب مع الريح » الى ٢٧ لغة وبيع منها ٢٨ مليون نسخة ، أى انها اعلى الكتب توزيعا فى العالم .

وادى عرض الفيلم السينمائى الى زيادة مبيعات الكتاب .

ومما يثير الدهشة ان الكتاب ـ مثل الفيلم ـ مازال يجتذب الملايين من القراء مع مرور الأيام بحيث تنطبق على الكتاب والفيلم على السواء .. صفه التحفة الخالدة التى لا تتضاءل حلاوتها وعذوبتها على مر السنين

والمؤلفة للرواية الأصلية « ذهب مع الريح » ـ مارجريت ميتشل ـ كانت من حسناوات الجنوب الامريكى . وكانت فى العاشرة من عمرها وهى تستمع الى كبار السن يتذكرون بحيويه قصص الحرب الاهلية التى نشبت بين ولايات الجنوب التى تريد الاحتفاظ بالعبيد والولايات التى تريد تحرير العبيد ، وكانت الأخيرة بقيادة الرئيس العظيم ابراهام لينكولن وقد استمرت تلك الحرب من عام ١٨٦١ حتى عام ١٨٦٥ وسقط فيها آلاف الضحايا .. وانتشر الخراب والدمار فى مناطق عديدة .. واحترقت مدن بكاملها .

● ● ●

وربما كانت « ذهب مع الريح » اول محاولة . لطرح وجهة نظر الجنوب بجراة فى تلك الأحداث الدامية ، وخاصة وجهة نظر هؤلاء الذين كانوا يعتبرون الجنوب الامريكى مركزا للرقى والتحضر والازدهار فى امريكا الشمالية كلها

والرواية تقدم للقراء صوره حيه لتاثير الحرب الأهلية على الجنوب الأمريكى غير ان طموح مارجريت ميتشل لم يقتصر على ذلك ، وانما أرادت ايضا تقديم « التاريخ غير المروى للنساء » .. ذلك ان الجميع لم يكفوا عن تقديم الروايات عن قصص الرجال .. بينما هى تريد « أن تروى قصص النساء وكيف كانت اثناء الحرب » .

وكان لمارجريت ميتشل نشاطها الاجتماعى فى اتلانتا ، كما انها كانت صحفية فى « اتلانتا جورنال » فى وقت كان فيه الصحفيون والرجال يتخذون موقف العداء تجاه الصحفيات ! ولحسن حظ عشاق الادب والفن فى العالم أن مارجريت اصيبت فى رسغ قدمها .. مما اضطرها للتقاعد من العمل فى الصحيفة .. وبالتالى التفكير فى كتابة « ذهب مع الريح » ! وكانت والدة مارجريت ميتشل شخصت قوية مدافعة عن حقوق النساء وفى المقدمة الحق فى التصويت

● ● ●

وقد ادعت مؤلفه « ذهب مع الريح » انها اصيبت بالدهشة عندما اعجب القراء بشخصية سكارليت اوهارا التى ترفضها ـ هى ـ كامراة « فاترة العواطف تحب ان تلفت الانظار اليها كما تحب ان تسمع

عبارات الاطراء والتملق لمجرد أنها ترغب فى ذلك ، ولكنها لا تملك سوى القليل من الاحساس بالمشاعر العميقة الحقيقية ، أو لاتملكها على الاطلاق » .

بيد ان القدر الاكبر من الشحنات العاطفية فى الرواية مستمد من مشاعر المؤلفة المتباينة والمتضاربة حيال بطلتها . وثمة عنصر هام فى حياة مارجريت ميتشل هو اختيارها دائما لما يؤيد حجتها ويتفق مع مصلحتها . وهو احد العناصر الاساسية فى شخصية سكارليت غير ان القضية الاساسية التى كانت تشغل مارجريت ميتشل هى ان الحرب الأهلية الامريكية كانت تتطلب مؤهلات جديدة للنساء . وهناك من يرى أن السمة الاساسية لشخصية سكارليت بطلة « ذهب مع الريح » هى قدرتها على ان تنتصر على الأحداث التى يجرى خلالها تدمير العديد من الشخصيات الأخرى . وأحيانا يحتدم الصراع فى مواجهة الأنوثة والنزوات .

ويبقى اسم « سكارليت » حيا فى اذهان كل من قرأوا او شاهدوا « ذهب مع الريح » .

انها الفتاة التى ولدت فى منطقة « تارا » فى جنوب الولايات الامريكية والتى فرضت نفسها على مجتمعها بمزاجها الصعب وعنادها او بجمالها الساحر . وقد ظلت سكارليت نجمة حفلات الرقص .. ونموذج الفتاة التى « تدير الرؤوس » وتسلب عقول الرجال .. تبدو الفتاة اللاهية الى ان تصيبها صدمة زواج الرجل الذى تحبه - « اشلى ويلكس » - من « ميلانى هاميلتون » . لقد رفض اشلى حبها الذى عرضته عليه وفضل عليها ميلانى ذات الجمالى الهادىء والقلب الطيب . وتقرر سكارليت ان تتزوج شقيق ميلانى (تشارلس هاميلتون) لمجرد النكاية .. وبدافع الغيظ من اشلى .. ويموت زوجها الشاب فى الحرب .

وكانت قد تعرفت على المغامر « ريت باتلر » فى حفل فى تارا . وعرف بطريق المصادفة حكاية حبها الفاشل لآشلى وأسلوبها فى خطف قلوب الرجال وإثارة غيرة النساء من حولها وأنانيتها . ويلتقى ريت بالارملة سكارليت فى اتلانتا خلال اسوأ ايام الحرب الاهلية .. عندما كانت المدينة تتعرض لهجوم الشماليين (اليانكى) . وتضطر سكارليت الى البقاء فى المدينة الى جانب ميلانى التى توشك على الوضع فى غياب زوجها آشلى الذى ذهب الى جبهة القتال . ويتولى ريت باتلر انقاذ سكارليت وميلانى ووليدها فى مشهد من اقوى مشاهد الرواية واكثرها اثارة وهو مشهد « حريق اتلانتا » . وعندما تعود سكارليت الى تارا تجد ان أمها قد لفظت انفاسها للتو متأثرة بمرض معد وان اباها فقد عقله .. وان الشماليين دمروا كل

. شيء وسلبوا كل شيء في المنزل والمزرعة .

● ● ●

وهنا يبرز دور « مامى » مربية ووصيفة سكارليت السوداء . ومن خلال جهد خارق تقوم به سكارليت .. ومعها « مامى » - وبارغام شقيقتيها سوايلين وكارين على التعاون في العمل في المزرعة - تنجح سكارليت في انقاذ نفسها واهلها .. وميلانى وطفلها من الجوع . ولأول مرة في حياتها ، تستخدم سكارليت المسدس في قتل رجل من الشماليين اقتحم المنزل للسرقة ثم حاول اغتصابها .. كانت تلك هى اقسى أيام سكارليت . ويعود اشلى من الحرب محطما ويائسا . لقد خسر الجنوب الحرب .. كما خسر اشياء كثيرة .

ويموت جيرالد اوهارا والدسكارليت .

ويتقرر فرض ضرائب خيالية على مزرعة « تارا » مما يهدد بضياعها كلها . وتقرر سكارليت الزواج من « فرانك كنيدى » الذى كان ينوى الزواج من شقيقتها سوايلين لكى تحصل منه على مبلغ الثلثمائة دولار قيمة الضرائب المفروضة على تارا . وهى تعتبر انها انقذت « تارا » بهذه التضحية من جانبها !

وتقيم سكارليت مع زوجها فرانك كنيدى التاجر في اتلانتا . وتبدأ في توجيه كل اهتمامها نحو العمل بالتجارة وجمع المال . وتصر على اشراك اشلى معها في ورشة لصناعة الخشب . ويلقى فرانك كنيدى مصرعه في حادث وتصبح سكارليت أرملة للمرة الثانية .

ويعرض عليها ريت باتلر الزواج .. وتوافق فهو رجل قوى وجذاب ، كما انه ثرى . وتبدأ مرحلة هدوء واستقرار في حياة سكارليت ويتصرف ريت معها كما يتصرف المحبون والعشاق ، ولايبخل عليها بشىء . وتنجب سكارليت فتاة جميلة ، هى « بونى » التى يعبدها ريت . ومع مرور الوقت .. يتضح ان سكارليت لاتزال تفكر في أشلى وتتعلق به ، الأمر الذى لم يعد يخفى على احد بما في ذلك زوجها الذى يحاول بكل السبل ان يتقى شر الفضائح . وتقف « ميلانى » أو « ميلى » زوجة اشلى الى جانبها وتقطع الطريق على كل من يحاول التشهير بسكارليت أو ترديد الاقاويل عنها . وفي لحظة من اللحظات ، تحاول سكارليت تنقية علاقتها مع ريت ولكنه لايتجاوب معها . وعندما يقع حادث يؤدى الى اجهاضها ، يحاول من جانبه ان يفتح صفحة جديدة معها ولكنها لاتستجيب . ويقع الحادث المروع الذى ينهى كل شىء فقد ماتت « بونى » في حادث ويتلقى الرجل -

الذى لم يوجد فى العالم من يعبد ابنته مثله ـ اكبر صدمة فى حياته . وبعدها تموت ميلانى . ويقتنع ريت بانه يجب ان يخلى الطريق لسكارليت لكى ترتبط باشلى الذى اصبح حرا بعد وفاة زوجته .

● ● ●

هذه خلاصة لرواية مارجريت ميتشل التى كانت كاتبة مجهولة فى الثلاثينات قبل ان تسلم روايتها « ذهب مع الريح » الى الناشر .

ووقعت الرواية بعد نشرها فى أيدى اصدقاء المنتج السينمائى الأمريكى ديفيد سيلزنيك الذى كان يحلم بإنتاج فيلم يخلد اسمه فى عاصمة السينما (هوليوود) .

وسمع المنتج اقتراحا بتحويل الرواية التى تدور أحداثها فى الجنوب الأمريكى إلى فيلم . وخشى الرجل من تبديد امواله فى مشروع قد لايجد اى صدى لدى الجمهور ، وخاصة لأن الأفلام السابقة التى تناولت حكايات الجنوب الأمريكى لم تحقق نجاحا . ولم يمض وقت طويل حتى لفتت رواية « ذهب مع الريح » الانظار ، وقفزت ارقام التوزيع . إلى مليون نسخة فى ستة اشهر منها خمسون الف نسخة فى يوم واحد ، وتدفقت الارباح . وسارع سيلزنيك الى شراء حقوق تحويل الرواية الى فيلم سينمائى .

وكانت اصعب مشكلة تواجه المنتج هى العثور على الفنانة التى تستطيع القيام بدور سكارليت اوهارا . واضطر سيلزنيك الى الانتظار حوالى عامين وانفاق ٩٢ الف دولار .. من اجل العثور على البطلة بعد ان اتضح ان اكبر نجمات هوليوود لايصلحن للدور . لاتصلح بيتى ديفيز او لوسيل بول أو بوليت جودار أو چوان كراوفورد أو سوزان هيوارد او باربرا ستانويك أو جين ارثر .. وفشل بعض هؤلاء فى الاختبارات الأولية .

لم يكن الدور ينتظر نجمة كبيرة لكى تؤديه ، وانما الدور هو الذى سيصنع ويخلق النجمة الكبيرة ، ومن ناحية أخرى فإنه كانت للشهيرات أكثر من قصة حب فى افلام كبيرة سابقة وفى الحياة .. بينما المنتج يفضل فنانة يكتشفها فى دور سكارليت ولايعرفها الجمهور حتى لاتفقد البطلة ـ على الشاشة ـ براءتها .

ولم يكن ذلك سهلا .. اذ أين هى الشخصية التى تنافس ، على الشاشة ، بطلة كتاب « ذهب مع الريح » بل وتتفوق عليها . حتى لايشعر المتفرجون فى دور السينما بصدمة بالغة حين يقارنون بين ما يشاهدونه على الشاشة

وبين ما قراوه فى الكتاب ؟ ومن هنا اضطر المخرج جورج كيوكور ـ الذى حل محله المخرج فيكتور فيلمنج بعد ذلك ـ الى تصوير بعض المشاهد قبل العثور على بطلة الفيلم !

وانتهت المحنة عندما دخل ميرون شقيق سيلزنيك (وكيل اعمال فنانين فى هوليوود) على شقيقه وبصحبته ممثلة مسرح بريطانية وقال له « قدم التحية لسكارليت » .

وكانت هى الفنانة « فيفيان لى » التى قرأت الرواية اكثر من مرة واعجبت بها وتتمتع بمواصفات سكارليت ، واقتنع بها سيلزنيك على الفور . وبدأت مهمة تدريبها على الحديث بلكنة اهل الجنوب الأمريكى .

● ● ●

واليوم لايستطيع احد تصور سكارليت بملامح غير ملامح « فيفيان لى » التى تركت بصماتها التى لا تمحى على شخصية سكارليت . فقد جسدت الشخصية على الشاشة بنجاح تجاوز بكثير كل توقعات المنتج والمخرج وكافة المشاركين فى مشروع الفيلم . وإنصافا للفنان الأمريكى « كلارك جيبل » فانه يمكن أن يقال انه حقق نفس النجاح .

غير أن نجاح أو فشل ذلك العمل الفنى كان يتوقف فى الاساس على شخصية سكارليت والتفوق فى اداء دورها

وعلى سبيل المثال فإن هناك مايشبه الاجماع على ان من بين اجمل ماصورته هوليوود فى السينما حتى يومنا هذا ـ تلك اللقطة الاخيرة من الفيلم التى تظهر فيها سكارليت وهى واقفة امام بيتها فى اتلانتا ممسكة بحفنة من التراب فى يدها ومودعة بدموعها الزوج الحبيب الذى هجرها قائلة : « غدا .. يوم آخر »

وربما كان لهذه اللقطة علاقة مباشرة بموضوع هذا الكتاب .. لأن اللقطة تفتح المجال واسعا أمام إمكانية ظهور تتمة فى يوم من الأيام لحكاية سكارليت والرجل الذى احبته و .. « ذهب مع الريح » .

● ● ●

وبعد عشر سنوات من نشر رواية « ذهب مع الريح » .. كانت مارجريت ميتشل تشكو من انها تتلقى رسائل من الناشرين ووكلاء المؤسسات الفنية يطلبون فيها المزيد من الفصول الاضافية للرواية او جزءا ثانيا .. او تتمة .

وكانت مؤلفة « ذهب مع الريح » تحتج قائلة « إنهم لايصدقوننى عندما ارد عليهم لكى أؤكد ان الرواية انتهت حيث انتهت » . وحتى سيلزنيك

نفسه .. افترض بعد نجاح الفيلم امكانية تصوير حكاية مكملة لـ « ذهب مع الريح » فى فيلم جديد يمكن ان يدور حول مغامرات ابنة سكارليت بعد سنوات طويلة من نهاية الرواية الأولى . غير ان مشروعه لم ير النور .

وكانت مارجريت ميتشل قد رفضت طوال حياتها كتابة جزء ثان لروايتها .. رغم ان ملايين الناس كانت تشعر بالأسى ازاء الفراق الذى حدث بين سكارليت وريت ولم يتصوروا ان هذا الفراق يمكن ان يكون خاتمة لقصة حب هائلة وعاصفة أصبحت جزءا من حياتهم !

● ●

ومنذ توفيت مارجريت ميتشل فى الثانى عشر من اغسطس عام ١٩٤٩ ، وهى فى التاسعة والاربعين من عمرها ، والورثة الشرعيون لها يرفضون بيع حقوق رواية « ذهب مع الريح » . وكان اصحاب عروض الشراء يستهدفون من وراء الصفقة المقترحة ازالة العقبة التى تحول دون كتابة ونشر تتمة للرواية ، فاحتفاظ الورثة بحقوق الرواية يمنع أى شخص من حق كتابة او نشر مثل هذه التتمة .

وتصرف الورثة بذكاء .. فقد وجدوا انهم سيفقدون « حق الملكية الأدبية » بعد سنوات معدودة وفقا للقوانين الامريكية مما يعنى ان أى شخص يستطيع بعد فترة ان ينشر مايشاء من روايات مكملة لـ « ذهب مع الريح » دون ان يملك الورثة حق الشكوى او الاعتراض .. لأن المدة القانونية لحق الملكية تكون قد استنفدت . ووجد الورثة ان مصالحهم المادية تقتضى الموافقة على عرض من احدى دور النشر لكى يكسبوا الملايين . ووضع الورثة شروطهم وهى : عدم تناول حالة زواج شخص ابيض من شخص غير ابيض ، وخلو الرواية من اية اشارات جنسيه صارخة .. واهم الشروط هو ان تتولى كتابة الرواية .. الكاتبة « الكسندرا ريبلى » ، التى ولدت فى اتلانتا ايضا مثل الكاتبة الراحلة مارجريت ميتشل ، وتعرف تلك الأنحاء معرفة وثيقة وترددت عشرات المرات على الأماكن التى شهدت وقائع واحداث « ذهب مع الريح » . وكان الاتفاق بين الكاتبة الكسندرا ريبلى ودار النشر وورثة مارجريت ميتشل .. سريا بحيث لم يعرف احد بالخبر الا قبل ايام معدودة من ظهور رواية سكارليت .. تتمة « ذهب مع الريح » فكانت مفاجاة مدوية لها وقع القنبلة فى كل عواصم العالم .. ووصلت السرية واجواء التكتم الى حد ان الناس فوجئوا بنشر الرواية فى دول مختلفة فى وقت واحد .. ومترجمة !

هكذا ولدت « سكارليت » .

وبهذا الصدور المباغت والنشر المفاجيء لروايتها تعود سكارليت الى الحياة بعد اكثر من نصف قرن ، وبالتحديد بعد ٥٢ سنة .

فماذا حدث مع سكارليت هذه المرة ؟

تم نشر الرواية بالفعل فى اربعين دولة بثمانى عشرة لغة منها الصينية واليابانية والكورية . وتم طبع مليون نسخة من الرواية فى الولايات المتحدة فى البداية . وبعد اسبوع واحد ، قال الناشرون هناك انهم يطبعون خمسين الف نسخة يوميا وانهم يضطرون لشحن النسخ من معامل التجليد الى المكتبات مباشرة . وتدفق مئات الآلاف من الناس على المكتبات فى الولايات المتحدة واوربا لشراء « سكارليت » التى وصلت الى القمة بسرعة باعتبارها احسن الكتب رواجا فى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وعلى نحو اثار دهشة المؤلفة نفسها .

حتى الرواية « الأصل » « ذهب مع الريح » لم يصل معدل توزيعها الى هذه السرعة فى البداية . ومما يلفت النظر ان نشر رواية « سكارليت » ادى الى زيادة فى توزيع « ذهب مع الريح » مرة اخرى . فقد تزاحم القراء لشرائه حتى يعرفوا « كيف كانت البداية » ؟

وضربت رواية سكارليت الرقم القياسى العالمى فى التوزيع اليومى .

● ● ●

ويقول بائعو الكتب والناشرون ومسئولو شئون الكتب فى المجلات المتخصصة إنهم لايتذكرون ان هناك كتابا وزع بهذه السرعة وبهذه المعدلات القياسية .

والطريف ان ثمة سباقا الآن بين روايتى « سكارليت » و « ذهب مع الريح » فى ارقام التوزيع !

ويعترف لورنس كيرشباوم رئيس دار نشر « وارنر » التى اصدرت « سكارليت » بأن « رد فعل صدور الكتاب قد اصابنا بالذهول » .. وقد دفع الناشر ٤,٩ مليون دولار نظير حقوق التتمة . كما دفع المنتج الامريكى روبرت هالمى ٩ ملايين دولار مقابل شراء حقوق عرض الرواية فى مسلسل تليفزيونى ، وعرض على الممثل الامريكى « توم سيليك » اكثر من ٦ ملايين دولار لكى يقوم بدور « ريت باتلر » فى المسلسل .. وكما حدث من قبل ، فإن هناك صعوبة كبيرة فى ايجاد الفتاة التى تقوم بدور سكارليت . واصبحت كل فتاة فى الولايات المتحدة ـ ممثلة او غير ممثلة ـ تحلم بالقيام بهذا الدور . وتجرى مسابقات فى عدة ولايات امريكية للترشيح للدور ..

● ● ●

وقد أمضت مارجريت ميتشل عشر سنوات فى كتابة « ذهب مع الريح » .. وتقول الكسندرا ريبلى (٥٧ سنة) انها أمضت خمس سنوات فى كتابة « سكارليت » زارت خلالها المكتبات ودور المحفوظات والارشيفات .. ومناطق تمتد من اتلانتا الى دبلن فى ايرلندا .. والواضح ان الخلفية التاريخية والثقافية والاجتماعية عن الجنوب الامريكى .. كانت العنصر الحاسم فى اختيار الكسندرا ريبلى لاستكمال « ذهب مع الريح » ، فقد سبق أن نشرت كتابين عن مدينة شارلستون - مسقط رأسها هى و« ريت » بطل « ذهب مع الريح » - كما نشرت كتاب « ميراث نيو اورليانز » وهو من اكثر كتب دار وارنر توزيعا ..

وكما يحدث دائما فى مثل هذه « الظواهر » الادبية والفنية غير العادية .. يرتفع صوت المعارضين ، وخاصة فى مقاطعة كليتون جنوبى اتلانتا ، حيث تقع « تارا » مقر مزرعة جيرالد اوهارا والد سكارليت . ويقول هؤلاء ان « ذهب مع الريح » الجديدة (سكارليت) هى محاولة لابعاد الانظار عن مقاطعة كليتون ، التى جرت فيها اهم احداث الرواية الأولى .. ومحاولة للابتعاد عن جذور مارجريت ميتشل ! وتشكلت جمعية فى « اتلانتا » تحمل اسم « انا لا أريد قراءة التتمة » !

ويرى اعضاء الجمعية انه من القسوة « الكشف » عن مصير ريت وسكارليت على يد الكسندرا ريبلى . والطريف ان الاخيرة حصلت على عضوية الجمعية المذكورة ، وقالت انها مدركة لمشاعر بعض المعجبين بـ « ذهب مع الريح » المتعصبين الذين يرفضون التجاسر واستكمال ما سبق ان قالت عنه مارجريت ميتشل انه انتهى ولايحتاج الى تتمة . وهناك نقاد احبوا الرواية الأولى يرفضون من حيث المبدأ تسليم شخصيتها إلى كاتبة أخرى . وثمة ادباء لايعجبهم ظهور تتمة لما يعتبرونه « اجمل كتاب فى العالم » .

وفى رواية « سكارليت » تتخيل « ريبلى » تتمة لرواية لم تكن هى التى وضعتها ومع ذلك تحقق هذا النجاح المنقطع النظير . وتنتهى احداث رواية « ذهب مع الريح » فى عام ١٨٧٣ ، وهو نفس تاريخ بدء احداث رواية « سكارليت » وكان « ريت » قد هجر سكارليت فى خاتمة الرواية الأولى وهو يقول عبارته الشهيرة : « عزيزتى .. لايهمنى شىء ، ان الامر يستوى بالنسبة لى » ..

وبعد بضعة أيام من نهاية الرواية الأولى . تبدأ احداث الرواية الجديدة مع دفن « ميلانى ويلكس » زوجة اشلى الذى ظنت سكارليت طوال السنوات الماضية انها تحبه . وعندما تكتشف ان ذلك الحب لم يكن سوى

وهم .. تكون قد فقدت الرجل الوحيد الذى احبته حبا حقيقيا جارفا .. وهو « ريت » ذلك « المغامر ، الطبيب فى اعماقه ، الذى يعشق ملاطفة ومداعبة الاطفال ويحمل كل مودة لوالدته والرجل المتعلم الذى تحقق الكتابة عنه متعة لمن يكتب » على حد تعبير الكسندرا ريبلى .. اما « اندفاعات » سكارليت فانها مخيفة ، وما يعجب ، المؤلفة فى شخصيتها هو انها تفى دائما بوعودها ، غير ان الأهم هو ان هذه الشخصية « تنضج » باعترافها بالهزيمة فى الرواية الجديدة خلال رحلة طويلة (٨٢٣ صفحة فى النسخة الانجليزية) لاستعادة « ريت » .. والعودة الى الجذور . هل نستطيع ان نخفى ، نحن جميعا ، لهفتنا على معرفة ما فعله « ريت » بعد ان اختفى بعيدا فى الضباب فى خاتمة الرواية الأولى ؟

قرأت الكسندرا ريبلى رواية « ذهب مع الريح » خمس او ست مرات ونسخت منها مئات من الصفحات بطريقة الكتابة العادية ـ بدون اختزال ـ ووضعت خطوطا تحت اجزاء منها بقلم ملون فى محاولة لكى تتفهم ماتسميه اكثر الاساليب غير الاعتيادية التى حطمت قواعد قديمة فى تركيب وبناء الجمل وغيرت ترتيب كلمات الجملة فى أشكالها المالوفة واستخدمت (مارجريت ميتشل) ـ كما تقول ريبلى ـ اسلوب التركيز والتكثيف بصورة ممتازة .

ووفقا لكتب السير الذاتية ، فان ريبلى تستنتج ان مارجريت ميتشل عانت من الألم اكثر مما لقيت من البهجة عقب نجاحها الاسطورى .. أما « ريبلى » فإنها تقول عن نفسها انها أسعد الناس حظا فى العالم . وتؤكد مؤلفة سكارليت ان مارجريت ميتشل « كاتبة تستحق تقديرا اكبر من ذلك الذى منحه لها النقاد .. فهى احسن من الكسندرا ريبلى » !

ومؤلفة سكارليت التى تعمل استاذة بجامعة فيرجينيا وتعيش فى المدينة التى تحمل نفس الاسم مع زوجها وابنتيها من زواج سابق .. حاولت ان تحاكى أسلوب ميتشل طوال المائة صفحة الأولى من رواية سكارليت لكى تكسب ثقة القارىء .. ثم .. وبصورة تدريجية « تمكنت من أن انسل خلسة وأتحول الى استخدام صوتى » على حد تعبيرها .

● ● ●

ولما كان الادب هو مرآة الشعوب . فإننا لن نتمكن من فهم الشعوب الأخرى دون قراءة آدابها ، وخاصة تلك الأعمال الكبرى الباقية التى لا تلحق بها الشيخوخة مع مرور السنين والاحقاب بل تزداد تالقا ويتجدد شبابها . ولسنا فى حاجة الى التذكير بأن هذا « البقاء » هو المكافاة التى يستحقها بجدارة كل عمل أدبى أو فنى مدروس ومن ثمار ابداع العقول

البشرية الخلاقة والجهد المخلص والدؤوب والجاد لانتاج أدب حقيقى رفيع المستوى . ويكفى التذكير فى هذا الصدد بأن كلا من مارجريت ميتشل والكسندرا ريبلى عكف على دراسة كل مايتعلق بالحرب الأهلية وتاثيراتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى الجنوب الامريكى .. وحتى العادات والتقاليد فى تلك الفترة الزمنية وبشكل تفصيلى .. وصراعات المصالح والبشر .. مما جعل من صفحات عديدة من الروايتين دارسة مشوقة لفترات تاريخية هامة .. كل ذلك من خلال قصة حب جميلة تتأثر بكل ما فى اعماق البشر من منحنيات وعقد وجراح غائرة .

ولم يكن فى الامكان تقديم النص الكامل لرواية سكارليت نظرا لأنها عبارة عن ٨٢٣ صفحة بالقطع الكبير فى النص الانجليزى .. غير ان التلخيص تفادى بقدر الامكان اغفال كل ما يؤثر على مجرى الرواية وبنائها الفنى .

وهكذا عادت « سكارليت » مع الريح وربما عاد معها « ريت باتلر » أيضا بعد ٥٢ سنة .. فهل يمضى نصف قرن آخر قبل أن نسمع عن تتمة لرواية « سكارليت » أيضا ؟

● نبيل زكى

• القسم الأول •

تائهة فى الظلام



● شخصية « مامى » فى « ذهب مع الريح » و « سكارليت » من أكثر الشخصيات جاذبية ورغم أن الجنوب الأمريكى كان يتخذ الموقف المحافظ تجاه المواطنين السود إلا أن « مامى » بمودتها وحنانها وتفانيها فى العمل وإخلاصها كانت نموذجا للشخصية السوداء الايجابية والمحببة التى تحرك المشاعر . وقامت بدورها فى فيلم « ذهب مع الريح » الفنانة السوداء « هاتى ماك دانيل » .

العـودة إلى « تـارا »

سينتهى كل شىء سريعا ، وعندئذ أستطيع العودة إلى موطنى .. إلى « تارا » ها هى سكارليت أوهارا هاميلتون كنيدى باتلر .. تقف وحيدة على مسافة بضع خطوات من المعزين الآخرين أثناء مراسم دفن « ميلانى ويلكس » .

السماء تمطر ، والرجال والنساء فى ملابس الحداد ، يرفعون فوق رؤوسهم مظلات سوداء ، ويتكئون على بعضهم البعض . ويرتفع نحيب النساء وهن يتشاركن فى الاماكن التى تحميها المظلات من الأمطار .. كما يتشاركن فى الأحزان . أما سكارليت ، فإنها لم تشرك أحدا معها فى الوقوف تحت مظلتها .. أو فى أحزانها

الرياح العاصفة التى تحملها الأمطار ، تطلق جداول من المياه الباردة تحت المظلة ، فتتساقط فوق رقبتها . ولكنها لم تكن تشعر بشىء ، فالاحساس بأنها فقدت مخلوقا عزيزا جعلها تفقد الاحساس بأى شىء آخر . سوف تحزن فيما بعد ، عندما تقدر على تحمل الألم .. أما الآن ، فقد أقامت حاجزا بينها وبين كل الآلام والمشاعر والأفكار ، فيما عدا كلمات تتردد مرة بعد أخرى فى عقلها .. كلمات تبشر بالشفاء الآتى ، وبالتماسك والقوة الى ان تتعافى وتلتئم الجراح ..

سينتهى كل شىء سريعا ، وعندئذ استطيع العودة الى موطنى .. « تارا » .

.. « من الرماد إلى الرماد ، ومن التراب الى التراب .. » اخترق صوت الكاهن درع اللامبالاة السميك . هذه الكلمات تسجل « الحدث » رسميا . لا ! وبكت سكارليت فى صمت . هذا ليس قبر « ميلى » إنه أكبر مما يجب . إنها ضئيلة الحجم ، وعظامها لا تزيد على عظام عصفور . لا ! لا يمكن أن تكون قد ماتت . لايمكن ..

استدار رأس سكارليت بغتة إلى الناحية الأخرى ، لكى لا ترى فوهة القبر المفتوحة ، بينما كان النعش المصنوع من خشب الصنوبر يهبط فى بطء الى القاع .

صندوق النعش يحمل آثار المطارق التى دقت المسامير لإغلاق الغطاء على وجه ميلانى الرقيق المحبوب الذى كان على شكل .. قلب .

لا ! كيف يتجاسرون ؟ كيف يفعلون ذلك ؟ السماء تمطر ، وهم يضعونها هناك حيث يهطل فوقها المطر ، إنها تشعر بالبرودة . كيف يتركونها تحت المطر البارد . لا استطيع أن اتابع النظر . لا اتحمل رؤية هذا الذى يجرى . لا اصدق انها رحلت . انها تحبنى ، وهى صديقتى ، صديقتى الحقيقية الوحيدة . « ميلى » تحبنى ، ولن تتركنى الآن فى الوقت الذى احتاج فيه إليها اكثر من اى وقت مضى .

تطلعت سكارليت الى هؤلاء الذين يتحلقون حول القبر ، وانفجر فى داخلها غضب عارم . لا احد منهم يبالى بما حدث . لا يوجد بينهم من هو مهموم مثلى . ولا احد منهم فقد ما فقدته . ولا احد يعرف الى اى حد احبها . ولكن « ميلى » تعرف . ولكن هل تعرف حقا ؟ نعم إنها تعرف ويجب أن اقتنع بانها تعرف . ومع ذلك ، فإن هؤلاء الذين يتراصون امامى لن يصدقوا هذه الحقيقة ابدا . لا السيدة ميريويزار ، او عائلة ميدز او عائلة ويتينج او عائلة السينج .

انظر اليهم وقد تجمعوا مثل حزمة القش ، وهم يتلاصقون حول « انديا ويلكس » و « آشلى » مثل سرب من الغربان المبتلة التى ترتدى ملابس الحداد . إنهم يواسون العمة « بيتيبات » حسنا ومع ذلك فإن كلا منهم يعرف أن هذه العجوز تنفعل وتنشج بالبكاء وتذرف الدموع لأقل شىء تافه حتى لو كان احتراق قطعة من الخبز المحمص .

انهم جميعا لن يتصوروا او يدخل فى روعهم اننى ربما الأكثر احتياجا منهم الى بعض العزاء ، واننى كنت اقرب الى « ميلانى » من اى شخص منهم .

انهم يتصرفون كما لو لم اكن موجودة ، ولم يبد اى منهم ادنى قدر من الاهتمام بى .. حتى آشلى . انه يعرف ماذا فعلت خلال اليومين الحالكين بعد وفاة ميلى ، عندما احتاج الى مجهودى لكى ادبر الأمور . كلهم افصحوا عن حاجتهم الى مساعدتى ، حتى انديا .. التى ظلت تثغو مثل العنزة الباكية : « ماذا نفعل لاعداد الجنازة ياسكارليت » ؟ و « ماذا عن الطعام للمعزين ؟ » و « كيف نتصرف بخصوص النعش ؟ » و « ماذا عن حاملى بساط الرحمة ؟ » .. و « شكل ومساحة المقبرة ؟ » .. و « الحروف المنقوشة على شاهد القبر ؟ » .. و « النعى فى الصحيفة ؟ »

الآن .. هم جميعا يتساندون على بعضهم البعض يبكون ويعولون . حسنا .. لن اشبع رغبتهم واجعلهم يروننى وانا ابكى وحدى دون ان يقف إلى جانبى من استند الى ذراعه .

يجب الا ابكى . ليس هنا . ليس الآن . اذا شرعت فى البكاء ، فقد لا استطيع أن اتوقف ابدا . عندما اذهب الى « تارا » استطيع أن ابكى .

رفعت سكارليت راسها ، وضغطت على اسنانها لكى لا تصطك من الصقيع ، ولكى تحتجز فى داخلها ما يجيش فى صدرها من انفعالات تكاد تخنقها .

سوف ينتهى ذلك سريعا ، وعندئذ استطيع العودة الى موطنى .. « تارا » .

الشظايا المتناثرة من حياة سكارليت المحطمة .. كلها توجد هنا فى مقبرة اوكلاند فى اتلانتا ..

كل الأجزاء المصقبة والمعطوبة ترقد هنا . وهذه المقبرة الحجرية الرمادية التى يتساقط فوقها مطر رمادى هى النصب التذكارى لعالم انتهى الى الأبد .. العالم السعيد الخالى من الهموم الذى عرفته فى شبابها فى زمن ما قبل الحرب . إنها النصب التذكارى لتحالف رابطة الولايات[1] رمز الشجاعة الأبية الطائشة التى غمرت الجنوب باعلام زاهية ترفرف .. فى الدمار . وهذا النصب . تمجيد لذكرى اصدقاء طفولتها النبلاء الشجعان الذين يتصفون بالشهامة واشتهروا بالتودد الى النساء ومغازلتهن واستجداء مشاركتهن لهم فى رقصات الفالس واستجداء القبلات فى الأيام التى لم تكن هناك شواغل لديها فى الحياة سوى مشكلة اختيار ثوب السهرة المناسب لكل حفل . وهو نصب تذكارى لزوجها الاول تشارلس هاميلتون ، شقيق ميلانى ، ولأبناء واشقاء وازواج وآباء كل المعزين الذين ابتلت ملابس الحداد التى يرتدونها تحت وابل الأمطار فوق الهضبة المستديرة الصغيرة التى تدفن فيها ميلانى .

ثمة مقابر اخرى ، وشواهد قبور اخرى .

فرانك كنيدى ، زوج سكارليت الثانى .. و .. ذلك القبر الصغير .. الصغير .. الذى يحمل شاهده اسم « اوجينى فيكتوريا باتلر » .. وتحته اسم آخر صغير من كلمة واحدة : « بونى » . إنها طفلتها الصغيرة التى احبتها اكثر من اى مخلوق ..

الاحياء ، وكذلك الأموات ، كانوا جميعا حولها . ولكنها وقفت وحيدة على انفراد ، ويبدو أن نصف سكان اتلانتا قد جاءوا ، ولم تتسع الكنيسة

---

(١) تحالف رابطة الولايات المتحدة الأمريكية الاحدى عشرة التى انفصلت عن الولايات المتحدة الأمريكية فى عامى ١٨٦٠ و ١٨٦١

للحاضرين . والآن ينتشرون فى حلقة كبيرة .. تنتفخ فى ناحية وتنبعج فى ناحية أخرى .. حلقة معتمة فوق قطعة من الأرض الفضاء حول القبر المحفور فى تربة جورجيا الحمراء ليكون مثوى لجثمان ميلانى ويلكس .

يقف فى الصف الأول من المعزين .. أقرب الناس الى ميلانى .. من البيض والسود . وجوههم تبللها الدموع .. ما عدا وجه سكارليت .

العم بيتر المدرب العجوز يقف مع ديلسى وكوكى فى شكل مثلث اسود يلتف حول « بو » إبن ميلانى الصغير المذهول .

الجيل الأكبر سنا فى أتلانتا كان حاضرا .. ومعه العدد الضئيل الذى تبقى لهم بعد المأساة .

وهناك الأصغر سنا .. ولكنها تبدو مسنة مثل الآخرين . إنها « انديا ويلكس » التى تختبىء داخل المجموعة وتراقب شقيقها أشلى بعينين حزينتين يظللهما احساس بالذنب .

أشلى يقف منفردا مثل سكارليت ، عارى الراس تحت المطر لا يرى « المخابىء » المعروضة عليه تحت المظلات لكى يحتمى من المطر ، ولا يشعر بالصقيع الناجم عن غرق ملابسه .. فهو غير قادر على تقبل الاذعان للنهاية والاستسلام للموت كما جاء فى كلمات الكاهن ، ولا يرى سببا لهبوط النعش الضيق الى قاع القبر الموحل .

أشلى طويل ونحيل وشاحب ، يبدو شعره الذهبى الباهت وكأنه يتحول الى اللون الرمادى . ووجهه المتقع بلا تعبير مثل عينيه الرماديتين اللتين تحملقان فى الفراغ دون ان تريا شيئا . وقف مشدود القامة ، وقفة التحية .. الأثر الباقى من سنوات الخدمة فى سلك الضباط .. وقف بلا حراك وبلا يقظة أو ادراك لما يدور حوله .

أشلى .. انه محور ورمز حياة سكارليت المهشمة . بسبب حبه أعرضت عن السعادة التى كانت من نصيبها وملك يديها وتجاهلت هذه السعادة التى كانت متاحة امامها . لقد أدارت ظهرها لزوجها ولم تعترف بحبها له لأن الرغبة فى أشلى كانت تعترض طريقها دائما .

الآن ، مضى ريت .. ذهب بعيدا .. ولم يبق منه فى هذا المكان سوى غصن من زهور الخريف الذهبية بين كل الغصون الأخرى . لقد خانت صديقتها الوحيدة وسخرت من اخلاص ميلانى العنيد وحبها الذى لا يهتز .

.. والآن أيضا ، رحلت ميلانى ، وتلاشى حب سكارليت لأشلى ، فقد ادركت ـ بعد فوات الأوان ـ ان ادمان التعلق بأشلى قد أصبح مجرد عادة

حلت محل الحب ذاته منذ وقت طويل .. انها لم تحبه ، ولن تمارس تلك « العادة » مرة أخرى أبدا .

وها هو آشلى ملك يديها بعد أن فقدت رغبتها فيه . انه الارث الذى تركته ميلانى لها . وقد وعدت سكارليت صديقتها المخلصة وهى على فراش الموت بأنها ستوليه عنايتها ، هو ، وطفلها « بو » .

آشلى هو سبب تدمير حياتها ، والشىء الوحيد الذى تبقى لها من انقاض هذه الحياة .

وقفت سكارليت وحدها .. لايوجد بينها وبين الشخصيات التى عرفتها فى أتلانتا سوى فراغ معتم بارد .. فراغ ملأته ميلانى ذات يوم مما جعلها بمنأى عن أشباح العزلة . فقد مدت ميلانى يدها لكى تحميها وتحبط محاولات وصمها والحكم عليها بان تكون منبوذة من المجتمع .

الرياح القارصة الرطبة ترتطم بمظلتها وتعصف تحت المظلة .. فى المكان الذى كان يجب أن يقف فيه « ريت » الآن ليحميها بمنكبيه العريضتين .. وبحبه .

رفعت راسها فى مواجهة الريح . ولم تبال بصفعاته ، فهى لا تشعر بشىء ، فقد كانت كل احاسيسها تتركز على الكلمات التى تمدها بالقوة والأمل : « سينتهى كل شىء سريعا ، وعندئذ استطيع العودة الى موطنى .. تارا » .

همست سيدة تضع خمارا اسود لرفيقتها تحت المظلة

— « انظرى اليها ! إنها قاسية ، صلبة كالأظافر ، سمعت أنها كانت طول الوقت تتولى الاشراف على ترتيبات الجنازة ، ولم تذرف دمعة واحدة ، كل اهتمامها بالأعمال والاشغال والتجارة ، هذه هى سكارليت .. بلا قلب .. »

همسة مقابلة من رفيقة المظلة : « أتعرفين ما يقوله الناس ؟ أن عندها قلبا يشغله آشلى ويلكس . هل تعتقدين حقا أنهما » ..

اسكتهما المعزون الذين كانوا يقفون بجوارهما . ولكن هؤلاء الذين أسكتوهما .. كانوا يفكرون بنفس الطريقة . الجميع يفكرون على هذا النحو .

الصوت الرهيب لارتطام التراب الذى يلقى به المعزون .. بخشب الصندوق جعل سكارليت تقبض على يديها . كم ترغب فى أن تضع يديها على أذنيها وتصرخ وتنادى وتطلق صيحة .. اى شىء لكى توقف هذا الصوت المخيف للقبر وهو يطبق على ميلانى .

ضغطت بأسنانها على شفتيها بطريقة آلمتها . انها لن تصرخ . لن .. ومع ذلك فقد اخترقت السكون المهيب الذى تكتنفه الرهبة .. صرخة أخرى ، هى صرخة أشلى :

« ميلى .. ميل ... ى .. ى .. ى »

ومرة أخرى « ميل .... ى .. ى .. ى »

صرخة روح تتعذب وتنبض بالخوف من الوحدة والوحشة والخواء . تعثر فى طريقه إلى الحفرة العميقة الموحلة وكأنه رجل فقد بصره فجأة ، ومد يديه بحثا عن المخلوقة الهادئة الصغيرة التى كان يستمد منها كل قوته . ولكن لم يكن هناك ما يمسك به سوى قطرات المطر الفضية الباردة المتدفقة .

وتطلعت سكارليت إلى الدكتور ميد وانديا وهنرى هاميلتون . لماذا لا يفعلون شيئا ؟ لماذا لا يوقفونه ؟ يجب ايقافه والامساك به .

— « ميل .... ى .. ى .. ى » ..

يا لله انه سيكسر عنقه ، وهم جميعا يتسمرون فى أماكنهم ويحملقون فيه ببلاهة ويتمايلون ويتارجحون ويترنحون على حافة القبر .

صاحت : « أشلى . قف ! »

وكررت النداء : « أشلى » .

كانت قد بدأت تمد خطواتها بالفعل . تزل احدى قدميها ، وتنزلق الأخرى على العشب المبلول . والقت المظلة من يدها ، فتدحرجت على الأرض وطارت مع الريح الى أن سدت طريقها كومة من الزهور .

وامسكت سكارليت باشلى من وسطه وحاولت أن تجذبه بعيدا عن الخطر وهو يقاومها .

واستجمعت قوتها لتصارعه · « اشلى ، لا تفعل ، ميلى لا تستطيع أن تساعدك الآن » .

كان صوتها خشنا .. يتحدى حزن أشلى الأصم .. والمخبول .

توقف .. وتدلت يداه الى جانبيه . وصدر منه أنين خافت ثم انهار جسمه كله بين ذراعى سكارليت وعندما فقدت القدرة على تحمل ثقله ، أمسك الدكتور ميد وانديا بذراعى أشلى المتهاويتين لمساعدته على أن يقف منتصبا .

وقال الدكتور ميد : « يمكن أن تذهبى الآن سكارليت ، لم يبق الآن شىء لم تلحقى به الضرر » .

— ... « ولكننى ... »

وتطلعت الى الوجوه من حولها . كانت العيون تتلهف على المزيد من الاثارة . واستدارت ، وابتعدت .. والأمطار تلاحقها . وانسحب الجمهور الى الوراء وكأن حفيف ثوبها قد ازاحهم من طريقها .

يجب ألا يعلموا أنها مهتمة بشيء ، لن تسمح لهم بأن يشعروا بانهم يمكن أن يجرحوا مشاعرها . رفعت رأسها متحدية ، وتركت المطر يتدفق على وجهها ورقبتها . كان ظهرها وكتفاها مشدودين إلى أن بلغت بوابات المقبرة ، واختفت عن الأنظار . عندئذ تشبثت بأحد الأعمدة الحديدية ، شعرت بدوار من الارهاق يعجزها عن التماسك والوقوف على قدميها .

سائق عربتها « الياس » هرول نحوها وفتح مظلتها ليحملها فوق رأسها المطرق . اتجهت سكارليت إلى عربتها ، متجاهلة اليد التى امتدت لتستند عليها .

وغاصت في ركن من مقعد العربة وجذبت الحبل . كانت ترتعد من الصقيع حتى العظام ، وتشعر برعب مما فعلته ، كيف تاتى لها ان تجعل آشلى يخجل على هذا النحو امام الجميع بينما وعدت « ميلانى » منذ ليال قليلة بأن تعنى به وتحميه كما كانت تفعل ميلانى دائما ؟ ولكن ، ما الذى كان يمكن أن تفعله غير ذلك ؟ هل كانت تتركه يلقى بنفسه في المقبرة ؟ كان لابد أن توقفه .

.. الآن تشعر بألم في ذراعها ، انها تستطيع تحمل هذا الألم ، أما الألم الذى لم تستطع تحمله فهو ذلك الألم الآخر .. المؤجل ، الذى تأخر ، الأمل الخفى الذى لا يظهر على السطح ، ليس الآن ، ليس هنا ، ليس عندما تكون وحدها كما هو الحال الآن عليها أن تذهب الى تارا ، لابد ، فإن « مامى » هناك ، سوف تضع « مامى » ذراعيها السوداوين حولها وتحتضنها ، وتوسد رأسها على صدرها حيث كانت تبكى طوال سنوات طفولتها لتخفف من متاعبها

قالت   « أسرع يا الياس ، أسرع » ..

● ● ●

— « ساعدينى على التخلص من هذه الأشياء المبتلة يا بانسى .. بسرعة » . كان وجه سكارليت شاحبا مما جعل عينيها الخضراوين أكثر لمعانا وافزاعا . كانت الفتاة الصغيرة بانسى عصبية .

— « أسرعى ، وإذا تسببت في عدم لحاقى بالقطار ، فسوف أجلدك ! » .

لم يكن بوسعها أن تفعل ، وكانت بانسى تعرف ذلك ، فقد ولدت أيام

العبودية ، ولم تكن سكارليت تمتلكها ، فالفتاة تستطيع أن تتركها فى اية لحظة تريدها . ولكن الوميض اليائس المحموم فى عينى سكارليت الخضراء .. جعل بانسى تشك فى معلوماتها عن انتهاء زمن العبودية ! لقد بدت سكارليت قادرة على اى شىء

.. إنها يمكن أن تظل فى حداد بقية أيامها .. الحداد على « بونى » مستمر ، والآن الحداد على « ميلانى » . كان يجب أن اجد شيئا اكثر سوادا من السواد .. شيئا يرمز إلى الحداد لكى ارتديه واعلن الحداد على نفسى ..

لن افكر فى ذلك الآن . سوف يصيبنى الجنون إذا فعلت ذلك .. سافكر فيه عندما اعود إلى تارا .. أستطيع أن اتحمل .. هناك .

الآن .. يجب ان يبدأ السباق فى الشارع للحاق بالقطار .. ساموت إذا لم الحق به .. إذا لم أجد « مامى » و « تارا » سوف يصيبنى الانهيار .

صرخت : « الياس » ، لا ابالى إذا الهبت ظهور الجياد بالسياط حتى الموت .. لا ابالى إذا دهست كل شخص يمشى فى الطريق » ..

ولحقت بالقطار .. اخيرا ، أصبحت فى طريقها الى هناك .. إلى « تارا » .

كل شىء سيصبح على ما يرام بعد الآن .

الأمطار الغزيرة تضرب زجاج النافذة الى جانب مقعدها فى القطار .. ولكنها لا تهتم . ففى تارا .. ستكون النار موقدة فى غرفة المعيشة . وسوف تسمع طقطقة قطع الاخشاب فى المدفاة ، وستكون الستائر مسدلة . تحجب الأمطار والظلمة .. والعالم . وستضع رأسها على صدر « مامى » الحنون ، وتحكى لها عن الاشياء المروعة التى حدثت ، وبعدها .. ستكون قادرة على أن تفكر وتتدبر الأمور ..

شقيقتها سوايلين هى سيدة المنزل فى تارا الآن .

اطفال سكارليت فى تارا أيضا : « ويد » و « ايلا » . لقد ارسلتهما مع بريسى ، ممرضتهما عندما علمت بأن « ميلانى » تموت ، ربما كان يجب أن يكونا معها فى جنازة ميلانى . ولكن قطط اتلانتنا المتوحشة كانت ستجد موضوعا اكثر دسامة للنميمة .. كيف انها أم غير طبيعية .. و فليتكلموا كما يشاءون ، أنها لم تكن لتتحمل تلك الأيام والليالى الموحشة التى اعقبت موت ميلانى لو كان « ويد » و « ايلا » معها لترعاهما ..

إنها لن تفكر فيهما .. إنها عائدة الى موطنها ، الى « تارا » والى « مامى » ولن تدع نفسها تفكر فى اشياء تزعجها ، الله يعلم ، لقد صادفت ما يكفى لازعاجى . إننى مرهقة جدا .

مال راسها على صدرها واغلقت عينيها .

قال الكمسارى : « محطة جونز بورو . يا سيدتى » .
أفاقت ونهضت .. لتغادر القطار ..
« تارا » على مسافة خمسة أميال الآن . سرعان ما سأكون فى البيت .. البيت !

● ● ●

كان « ويل بنتين » زوج سوايلين ينتظر على رصيف المحطة .
رؤية ويل .. صدمة .. الثوانى القليلة الأولى كانت تحدث دائما صدمة . احبت سكارليت ويل بحق واحترمته ، ولو كان لديها شقيق ـ كما كانت ترغب دائما ـ لتمنت أن يكون مثل ويل ، فيما عدا ساقه الخشبية ، وألا يكون طبعا متبجحا ، يخطىء المرء لو يتصور ويل جنتلمانا أو سيدا مهذبا ، فقد كان يبدو عليه بوضوح انه من طبقة أدنى لقد نسيت ذلك عندما كانت بعيدة عنه ونسيت ذلك بعد دقيقة من لقائه ، لأنه كان رجلا طيبا ، حتى « مامى » كانت تحبه رغم أنها كانت أقسى قاض فى العالم عندما يتعلق الأمر بتقييم سيدة أو جنتلمان .
— « ويل » ! سار نحوها بمشيته الخاصة المتمايلة وألقت بذراعيها حول رقبته واحتضنته بوحشية .
— « أوه ، ياويل ، اننى مسرورة برؤيتك حتى دفعنى الفرح الى البكاء » تقبل ويل عناقها بلا عواطف ، وقال « وأنا مسرور أيضا برؤيتك يا سكارليت ، لقد مضى وقت طويل دون أن أراك » .
— « طويل جدا . يا للعار . إنه يكاد يكمل السنة » .
— « يكاد يكون سنتين » .
ذهلت سكارليت ، هل غابت كل هذه المدة ؟ اذن لا غرابة فى أن تكون حياتها قد وصلت إلى مثل هذه الحالة المتردية .
لقد أعطتها تارا دائما حياة جديدة وقوة جديدة عندما احتاجت اليهما ، كيف استطاعت أن تمضى فى حياتها كل هذا الوقت بدونهما ؟
ودعاها ويل الى ركوب العربة التى كانت تنتظرها خارج المحطة قبل أن يحل الظلام وفى الطريق الطويل الى تارا لزمت الصمت وكذلك فعل ويل .
أخذت تستمتع بهدوء الريف وتستعيد انتعاشها . كان الهواء مغسولا لتوه ، وشمس ما قبل المغيب دافئة على كتفيها . كانت على حق فى العودة إلى البيت . « تارا » سوف تمنحها الملاذ الذى تحتاجه .. ومع « مامى » ستكون قادرة على ايجاد وسيلة لترميم عالمها المحطم .
مالت الى الأمام والعربة تستدير عبر الطريق المألوف ، وابتسامتها

تسبق المشهد المرتقب

ولكن عندما لاح البيت على مرمى البصر ، خرجت منها صيحة احباط :

— « ويل ، ماذا حدث » ؟

مدخل تارا كان مغطى بكرمة هنا وهناك حبال قبيحة الشكل معلقة تحمل أوراقا ميتة ، أربع نوافذ مصاريعها مدلاة ونافذتان بلا مصاريع على الاطلاق ..

— « لاشىء حدث . انه الصيف يا سكارليت ، انني أقوم بعمليات الترميم والاصلاح فى الشتاء ، عندما لا تكون هناك مزروعات يجب العناية بها ، سأبدأ فى اصلاح هذه المصاريع بعد بضعة أسابيع ، ان شهر اكتوبر لم يحل بعد » .

— « أوه » ياويل .. لماذا بالله عليك لا تدعنى أعطيك بعض النقود ؟ كان يمكنك أن تستأجر من يعاونك ، لماذا يبدو الطوب ظاهرا .. بعد أن سقط طلاء الجدران ، ان المنظر يبدو كانه بقايا حطام ونفايات بكل ما فى الكلمة من معنى » .

كان رد ويل صبورا : « المعونه المطلوبة هى الحب وليس المال ، وهؤلاء الذين يريدون العمل . هناك الكثير من العمل ، وهؤلاء الذين لايريدون لا يخدموننى ، اننا نصنع أمورا جيدة ، سام الكبير ، وانا . ولا أحد يحتاج إلى « اموالك » .

عضت سكارليت شفتيها وابتلعت الكلمات التى كانت تريد أن تقولها . لقد جرحت كبرياء ويل من قبل ، وكانت تعرف أنه لاينحنى . انه على حق ، فالمزروعات والماشية يجب أن تكون لها الأولوية .. واحتياجاتها لا تقبل التاجيل ، بينما طبقة جديدة من الطلاء يمكن تأجيلها . انها الآن ترى الحقول ممتدة الى ما وراء البيت . خالية من الأعشاب الضارة بعد أن تم تمهيد الأرض وتسويتها حديثا ، وثمة رائحة غنية للسماد الذى وضع فى التربة لاعدادها للزراعة الجديدة بدت الأرض الحمراء دافئة وخصبة .

شعرت بارتياح . هذا هو قلب تارا وروحها .

قالت لويل : « انت على صواب » .

انفتح باب البيت .. وامتلأ المدخل بالناس . وفى المقدمة وقفت سوايلين وهى تحمل أصغر اطفالها بين ذراعيها فوق بطن منتفخ يشد خيوط ثوبها القطنى الذى بهت لونه . وسقط شالها على إحدى ذراعيها .. وتكلفت سكارليت بهجة لم تكن تشعر بها فى أعماقها .

— « يا إلهى .. ياويل .. هل تنتظر سوايلين طفلا جديدا ؟ إن عليك

أن تشيد غرفا جديدة »
وصدرت عن ويل ضحكة خافتة « اننا مازلنا نحاول من أجل الحصول على ولد » . ورفع يده علامة التحية لزوجته وثلاث بنات .
ولوحت سكارليت بيدها أيضا وشعرت بأنها كان ينبغى أن تحضر معها بعض اللعب للأطفال .
يا إلهى ، انظر اليهم جميعا سوايلين عابسة تقطب جبينها ، وتطلعت عيون سكارليت الى الوجوه الأخرى . باحثة عن الوجوه السوداء . بريسى كانت هناك ، « ويد » و « ايلا » كانا يختبئان وراء فستانها ، وزوجة سام الكبير « دليلة » تحمل فى يدها الملعقة التى لابد انها كانت تقلب بها الطعام على الموقد . وكانت هناك ـ ما اسمها ؟ ـ آه .. نعم ، انها « لوتى » أم أطفال تارا ، ولكن أين « مامى » ؟ ونادت سكارليت أطفالها . « كيف حالكم يا أحبائى . والدتكم هنا » ثم استدارت نحو « ويل » ووضعت يدها على ذراعه .
— « أين مامى ياويل ، انها ليست عجوزا جدا للدرجة التى تجعلها غير قادرة على أن تقابلنى » .
الخوف كان يخنق الكلمات فى حلق سكارليت .
— « انها مريضة طريحة الفراش يا سكارليت » .
قفزت سكارليت من فوق العربة التى كانت لا تزال تتحرك ، وتعثرت فى طريقها ، ثم استطاعت ان تستعيد توازنها وهرولت نحو البيت « أين مامى » ؟ كانت توجه السؤال الى سوايلين ولا تسمع تحيات ونداءات الأطفال .
قالت سوايلين : « تحية عظيمة يا سكارليت ، ولكنها اسوا مما توقعته منك . ماذا تظنين انك تفعلين ، ترسلين بريسى وأطفالك ، الى هنا .... بينما تعرفين أن أعبائى كثيرة » .
ورفعت سكارليت يدها متأهبة لتوجيه صفعة الى شقيقتها : « سوايلين ، اذا لم تخبرينى أين مامى سوف أصرخ »
وجذبت بريسى سكارليت من كم ثوبها . « أنا أعرف أين مامى ياسيدتى سكارليت .. أنا أعرف ، أنها مريضة جدا ، ولذا فقد خصصنا لها تلك الغرفة الصغيرة المجاورة للمطبخ ، أنها الغرفة التى كانت تستخدم لتعليق كل أفخاذ الخنازير عندما كان هناك الكثير من الخنازير ، أنها غرفة لطيفة ودافئة ، هناك ، قرب المدخنة ، لقد وجدتها هناك عندما جئت الى هنا ، ولذلك لا استطيع أن أقول بدقة أننا رممنا الغرفة ولكننى نقلت اليها

مقعدا حتى يتوافر مكان للجلوس ، اذا ارادت مامي النهوض ، أو إذا كان هناك زائر » ..

بريسى كانت تتحدث الى الفراغ ، لأن سكارليت كانت قد بلغت باب غرفة مامي وقد استندت على اطار الباب حتى لا تسقط .

● ● ●

هذا .. هذا الشيء الذى في الفراش ليس « مامي » التى تعرفها . كانت « مامي » امراة ضخمة ، قوية ، بدينة ، ذات بشرة بنية دافئة ، ولم يكن قد مضى اكثر من ستة اشهر منذ غادرت « مامي » اتلانتا ، وهى مدة ليست طويلة الى الحد الذى « تستهلك » خلالها « مامي » على هذا النحو ، لايمكن ، لم تتحمل سكارليت الموقف ، هذه ليست « مامي » .. انها لا تصدق ذلك . ان هذا « المخلوق » رمادى متغضن ذابل ، يكاد لا يقوى على النهوض تحت الأغطية المصنوعة من قطع من اقمشة مختلفة الألوان والأشكال .. بهتت كل الوانها ، وتلوح اصابع ملتوية تتحرك في وهن عبر ثنيات الاغطية .

شعرت سكارليت بقشعريرة .

ثم سمعت صوت مامي خافتا متقطعا اقرب الى الحشرجة ، ولكنه صوت « مامي » المحب والمحبوب :

— « الآن ياسيدتى ، الم اقل لك ، واقل لك ، الا تضعى قدمك في الخارج دون ان ترتدى قلنسوة الراس وتحملى الغطاء الواقى من الشمس الم اقل لك .. واقل لك .. » ؟ ..

— « مامي » !

وخرت سكارليت على ركبتيها الى جانب الفراش .

— « مامي .. انا سكارليت ، حبيبتك سكارليت ، ارجوك أن تشفى من مرضك يا مامي ، لا اتحمل ذلك ، ليس انت » ووضعت راسها على الفراش إلى جانب الكتفين النحيلتين اللتين برزت عظامهما ، وبكت بحرقة مثل طفل صغير .

بيد في خفة الريشة مسحت على راسها المائل على صدرها .

— « لا تبكى ياطفلتى ، ليس هناك شيء لا يمكن اصلاحه » . وانفجرت دموع سكارليت مرة اخرى : « كل شيء ، كل شيء فسد يامامى » .

— « اسكتى ، الآن ، انه فنجان واحد ، وستحصلين على مجموعة فناجين الشاى على اى حال وفي منتهى الجمال أيضا . حفل الشاى سيقام لك تماما كما وعدتك مامي » ..

تراجعت سكارليت الى الوراء مذعورة . وحملقت فى وجه « مامى » ، ورأت الحب الذى يشع فى العينين الغائرتين ، عينان لا تريانها ، وهمست « لا .. » . إنها لا تستطيع تحمل ذلك ، اولا ، « ميلانى » ، ثم « ريت » والآن « مامى » ، كل شخص احبته ، تركها ورحل ، كيف تتحمل هذه القسوة ؟

قالت بصوت عال . « مامي .. اصغي إلىّ .. انا سكارليت » وأمسكت بحافة حاشية الفراش وحاولت هزها « انظرى إلىّ » . وارتفع نشيجها « هذا انا . تحسسى وجهى ، يجب أن تعرفينى ، مامى ، انه انا سكارليت أمامك »

قبضت يدا ويل الضخمتان على معصميها ..

قال : « لا اعتقد انك راضية عما تفعلينه » .

كان صوته ناعما ، ولكن قبضته حديدية :

— « إنها سعيدة عندما تكون كذلك ، يا سكارليت .. انها تعود إلى الماضى . تعتنى بوالدتك عندما كانت طفلة صغيرة . كانت تلك هى ايامها السعيدة . كانت شابة وقوية ، ولم تكن تتالم . اتركيها تستعيد تلك الأيام » .

حاولت سكارليت ان تتملص من يديه .

— ولكننى اريدها ان تعرفنى ياويل ، اننى لم اقل لها قط الى اى حد لها مكانتها فى قلبى ويجب أن اشرح لها ذلك .

— « ستجدين الفرصة . فى اوقات كثيرة تكون مختلفة عما هى عليه الآن وتعرف كل شخص ، وتعرف ايضا انها تموت . انها تكون افضل حالا فى تلك الأوقات .. والآن تعالى معى . الجميع ينتظرونك .. ان دليله تتابع حالة مامى من المطبخ »

سمحت سكارليت لويل بأن يساعدها على الوقوف على قدميها . كانت فاقدة الحس حتى قلبها لم يعد يشعر بشىء وكانه اصبح مخدرا . وتبعته فى صمت الى غرفة المعيشة . وشرعت سوايلين على الفور فى توبيخها ، واستانفت اعلان شكاواها من النقطة التى توقفت عندها ، ولكن ويل أسكتها . قال وهو يصب الويسكى فى كوب ويضعه فى يد سكارليت :

« لقد عانت سكارليت من صدمة شديدة ياسو ، اتركيها بلا مضايقة » .

وخفف الويسكى آلامها .. قالت لطفليها :

« اهلا احبائى ، تعاليا الى احضان امكما »

سمعت سكارليت صوتها وبدا كانه يصدر عن شخص آخر ، ولكن

الصوت كان على الاقل ، يقول الشيء الصحيح .
أمضت كل ماتستطيعه من الوقت في غرفة مامي . إلى جانبها . كانت تعلق كل آمالها في الطريق الى تارا على ما ستنعم به من راحة عندما تحيطها « مامي » بذراعيها ، أما الآن .. فإن يديها ـ هي ـ التي تلتف حول المرأة السوداء العجوز المحتضرة .
رفعت سكارليت ما تبقى من هيكل المرأة لكي تجعلها تغتسل وتستحم ولتغيير اغطية الفراش ، ولتساعدها عندما يصبح التنفس بالغ الصعوبة ولتضع ملعقة الدواء بين شفتيها .
وكانت تغنى لها اغانى ما قبل النوم للأطفال والتى كانت « مامى » تغنيها لها وهى طفلة ، وعندما كانت مامى تتحدث فى هذيانها الى والدة سكارليت الميتة ، تجيب سكارليت بكلمات تظن ان والدتها كان يمكن ان ترد بها على حديث مامى . واحيانا كانت عينا مامى الدامعتان تتعرفان عليها ، فتنفرج شفتا العجوز المتشققة عن ابتسامة حلوة ترحب بها .. بصغيرتها المفضلة ، ثم يخرج صوتها المتهدج المرتعش بكلمات تأنيب لسكارليت كما كانت تفعل .. وسكارليت لاتزال طفلة .
ـــ « شعرك عبارة عن لخبطة بلا ترتيب بالمرة يا انسة سكارليت ، الآن اذهبى لتمشيط شعرك مائة مرة كما علمتك مامى » . أو « لا احد سيدعوك للرقص وانت ترتدين ثوبا غير منسق بهذا الشكل ، اذهبى وارتدى شيئا جيدا قبل ان يراك أحد » . أو « انت شاحبة مثل الشبح يا انسة سكارليت ، هل تضعين مسحوقا على وجهك ؟ اغسلى وجهك فى الحال » .
وكل ماكانت تامر به مامى .. تقدم سكارليت وعدا بتنفيذه . وتصدع للأوامر . ولم يكن يمر قط الوقت الكافى للتنفيذ لأن مامى تدخل مرة اخرى فى الغيبوبة ، أو ذلك العالم الآخر الذى لاتوجد فيه سكارليت .
خلال النهار والمساء ، كانت كل من سوايلين او لوتى او حتى ويل ياخذ نصيبه من العمل فى غرفة المريضة حتى تفوز سكارليت بنصف ساعة من النوم وهى متكورة فى المقعد الهزاز المتاكل .
اما فى الليل فقد كانت سكارليت تتولى دائما « نوبة السهر » منفردة .. فتخفض شعلة مصباح الزيت ، وتاخذ يد مامى النحيلة الجافة ـ بين يديها . وبينما كل سكان البيت نيام و « مامى » مستغرقة فى النوم ايضا .. كانت سكارليت تستطيع أخيرا ان تبكى .. ودموع القلب الكسير تخفف الامها قليلا .
وذات مرة ، فى الساعة التى تسبق الفجر ، استيقظت مامى ، وهمست

قائلة « لماذا تبكين ياحبيبتى ؟ .. مامى العجوز مستعدة لكى تتخفف من حملها الثقيل وتستريح بين ذراعى الله . » وتحركت يدها بين يدى سكارليت وسحبتها وتحسست رأس سكارليت المطرق .. « اسكتى لاشىء سيىء للغاية كما تظنين » وانفجرت دموعها : « آسفة ، اننى لا استطيع ان أكف عن البكاء » ودفعت أصابع مامى الملتوية خصلات شعر سكارليت المتموج بعيدا عن وجهها : « قولى لمامى ، ما الذى يضايق حملها الوديع » .

وتطلعت سكارليت الى العينين المحبتين الحكيمتين العجوزين . وشعرت بألم لم تشعر به من قبل فى حياتها .

— « فعلت كل ماهو خطأ يامامى . لا اعرف لماذا ارتكبت كل هذه الاخطاء العديدة .. لا أفهم . »

— « يا سيدة سكارليت . انك فعلت ما كان عليك ان تفعليه . الا يوجد من يفعل ما هو اكثر من ذلك ؟ لقد ارسل الله لك بعض الاحمال الثقيلة ، وقد حملتها . لامعنى لسؤالك عن السبب فى تحميلك اياها ، او الجهد الذى بذلته لكى تحمليها . ما حدث قد حدث . لاتكدرى نفسك الآن » واطبقت جفون مامى الثقيلة على الدموع التى تلألأت فى الضوء الخافت وابطات انفاسها المرهقة وهى تستغرق فى النوم .

كيف لا اتكدر ؟ ارادت سكارليت ان تصرخ . لقد تحطمت حياتى ولا ادرى ما افعل . اننى فى حاجة الى « ريت » . وقد ذهب . واحتاج اليك وانت تتركينني ايضا .

رفعت رأسها ومسحت دموعها بكم ثوبها وبسطت كتفيها الموجوعتين . كاد الفحم فى الموقد ان ينفد ، والدلو خال . ولابد ان نملأه لكى تغذى النار . بدأ الصقيع ينتشر فى الغرفة ، ويجب المحافظة على الجو دافئا حول مامى وسحبت سكارليت الاغطية فوق هيكل مامى الهش لكى تمنع عنها البرودة ، واخذت الدلو الى الظلام البارد فى الفناء ، واسرعت نحو صندوق الفحم وشعرت بأنها كانت فى حاجة الى ان تتدثر بوشاحها ليقيها من البرودة .

السماء غاب عنها القمر ، وثمة هلال فضى يختفى وراء سحابة . والهواء ثقيل مع رطوبة الليل . والنجوم القليلة التى لاتخفيها السحب تبدو بعيدة .. بعيدة ، وتلمع كالثلج .. ارتعدت سكارليت . السواد حولها بلا شكل .. ولانهائى .. اندفعت بطريقة عمياء الى وسط الفناء ، ولم تستطع عندئذ ان تتعرف على الاشكال المألوفة لمخزن الفحم والحظيرة التى لابد ان تكون على مسافة قريبة . استدارت فى رعب مفاجىء لتنظر

الى الكتلة البيضاء للبيت الذى غادرته للتو ، ولكنه كان داكنا ايضا وعديم الشكل والصورة لا يوجد بصيص من الضوء فى أى مكان .. وشعرت كأنها ضلت طريقها فى عالم مظلم ومجهول وصامت . لاشىء يتحرك فى الليل ، ولا ورقة شجر ولا ريشة فى جناح طائر . الرعب يشد بقوة اعصابها المتوترة ، وارادت ان تجرى ، ولكن الى اين ؟ الظلمة الخرساء فى كل مكان .

ضغطت سكارليت على اسنانها . ما هذه السخافة ؟ اننى فى البيت ، فى تارا وسوف ينحسر الصقيع المظلم مع شروق الشمس . وانتزعت ضحكة ، الصوت الحاد الثاقب غير الطبيعى جعلها تقفز .

خطر على بالها ما يقال من ان الظلمة تشتد قبل طلوع الفجر . مدت يدها امامها فى الظلام وسارت قدما نحو المكان الذى تعتقد انه موقع مخزن الفحم قرب كوم الخشب .. وتعثرت ، وسقطت على الأرض . وأحدث تطاير الدلو من يدها صوتا عاليا . فقد تدحرج بعيدا عن متناول يديها .

فكرت فى الاستسلام والبقاء حيث هى الى ان يطلع النهار ، ولكن « مامى » تحتاج الى الدفء . واستطاعت ان تنهض ببطء على ركبتيها . وتحسست حولها مكان دلو الفحم . من المؤكد انه لم يحل ظلام دامس على هذا النحو من قبل فى الدنيا . ولم يلفح وجهها مثل هذا الهواء الليلى البارد الرطب . وارادت ان تصرخ الى ان توقظ احدا فى البيت يحضر معه مصباحا ويعثر عليها ويقودها الى البيت الذى لم تعد تعرف موقعه . ولكن كبرياءها حال دون ذلك . تضل طريقها فى فناء بيتها على بعد خطوات فقط من باب المطبخ !! انها لن تتحمل هذا الخزى وبدأت تزحف على يديها وركبتيها على الأرض المعتمة . عاجلا أو آجلا سوف تصطدم بشىء ما : البيت .. كوم الاخشاب .. مخزن الفحم ، البئر .. الاسرع ان تنهض وتسير على قدميها ولكنها قد تسقط مرة اخرى ، وفى هذه المرة قد تلتوى قدمها أو يصيبها شىء آخر . وعندئذ تصبح عاجزة الى ان يعثروا عليها أين الحائط ؟ لابد انه فى مكان ما .

شعرت بأنها زحفت حتى منتصف الطريق الى جونز بورو ! ولكن الا يجوز ان الظلمة لن تنقشع ابدا وتظل هى تزحف الى الأبد دون ان تصل الى شىء ! قالت لنفسها : كفى ! كفى فورا . وجاهدت لكى تقف على قدميها . واخذت تلتقط انفاسها ببطء واستدعت كل طاقاتها الذهنية . قالت لنفسها انها سكارليت اوهارا ، وانها فى تارا ، وانها تعرف كل شبر من هذا المكان افضل مما تعرف راحة يدها . وماذا فى الامر اذا كانت لم تر لمسافة

اربع بوصات امامها ؟ انها تعرف ماذا هناك وكل ما عليها هو ان تجد ما تريده وستفعل ذلك وهى واقفة وليس وهى تزحف على اربع كالاطفال أو الكلاب . شكرا لله ان أحدا لم يرها وهى تزحف وتخشى النهوض . لم يحدث فى حياتها ان شعرت بمثل هذا الانكسار ولا على يد جيش تشيرمان . كلا ، لن يهزمها احد ما لم تدعه يفعل ، وفى هذه الحالة سوف تستحق الهزيمة .

سارت بخطى ثابته . عثرت على الدلو . الذى اصطدم وهى تكمل سيرها بشىء ما . واطلقت ضحكة الانتصار وهى تشم رائحة خشب الصنوبر .. لقد بلغت كومة الاخشاب والى جوارها بالضبط يقع مخزن الفحم .

الباب الحديدى للموقد اغلق على السنة اللهب التى تجددت قوتها بصوت عال جعل « مامى » تتحرك فى سريرها . واسرعت سكارليت لتثبيت الاغطية فوقها فقد كانت الحجرة باردة . وتطلعت مامى بعينين نصف مغمضتين لكى تنظر شذرا الى سكارليت .

« وجه قذر ، ويداك ايضا »

كانت تتمتم بصوت ضعيف .

قالت سكارليت « اعرف ، سوف أغسلهما فى الحال »

وقبل ان تغيب العجوز فى اللاوعى ، قبلت سكارليت جبينها وهى تقول :

— « أحبك يا مامى »

— « لا حاجة لأن تقولى لى ما اعرفه بالفعل » .

وراحت مامى فى النوم هربا من الألم .

— « بل هناك حاجة ، هناك كل انواع الحاجة ، اننى لم اقل ذلك لميلانى قط ، ولم اقل ذلك لريت الى ان كان الوقت قد فات ، لم أجد الوقت قط لكى اعرف اننى أحبهم ، وكذلك معك ، على الأقل فإننى لن أكرر معك الخطأ الذى ارتكبته معهم .. »

كانت تعرف ان مامى لاتسمعها ، ولكنها ظلت تتكلم بصوت مسموع ، ولكى تحدث نفسها .

وحملقت سكارليت الى الوجه الذى يشبه الجمجمة للمرأة العجوز التى تموت وهمست « أحبك يا مامى » ما الذى سيحدث لى ، عندما أجد نفسى محرومة من حبك لى ؟ »

● ● ●

رغبـــة أخـــيرة

استدعى ويل .. سكارليت من غرفة مامى لتناول طعام الافطار .. وطلبت سكارليت حساء للحم البقرى الدافء لمامى . وحتى لاتوقظها وضعت غطاء على الطبق وتوجهت لتناول الافطار . الرائحة الذكية للحساء الذى يتصاعد منه البخار جعلت معدتها تتلوى من الجوع . وغسلت وجهها ويديها بسرعة فى المطبخ . كان ثوبها متسخا . سوف ترتدى ثوبا نظيفا بعد ان تاكل طعامها . كان ويل يتهيا لترك المائدة عندما دخلت ، سكارليت غرفة الطعام .

المزارعون لايضيعون وقتهم ، وخاصة فى يوم مشرق ودافىء كهذا اليوم .

— « هل استطيع ان اساعدك يا عم ويل » .

هكذا سال « ويد هاميلتون » فى رجاء .

انه ولد وسيم يبدو أكبر من سنه وكأنه فى الثالثة عشرة بينما هو لم يبلغ بعد الثانية عشرة . ولم تكن سوايلين تشعر بالغبطة وهى تشترى له الملابس لأن الغلام ينمو بسرعة شديدة .

يا للسماء ! ماذا افعل بشأن ملابس ويد ؟ كان ريت يفعل دائما اى شىء يجب عمله .. اننى لا اعرف ما الذى يرتديه الغلمان ، أو حتى من أين اشترى ملابسهم . كان من الواضح انه فى حاجة إلى ملابس أكبر حجما .. وبسرعة لأن المدرسة توشك ان تفتح فصولها .

والآن تريد « ايلا » ايضا ان تذهب مع العم ويل الى الحقول . وكذلك سوزى ابنة سوايلين .

قال ويد « أنتما لستما مدعوتين ، فالحقول .. عمل الرجال ، والبنات مكانها هو .. البيت » .

قالت سوايلين لسكارليت : انظرى الآن ، ماذا فعلت ؟

« انا ؟ ليست طفلتى هى التى تصنع كل هذه الضوضاء » .

كانت سكارليت تتعمد تجنب المشاحنات مع سوايلين منذ جاءت الى « تارا » ولكن العادات التى استمرت على مدى الحياة كانت اقوى ، والطبع يغلب التطبع . لقد بداتا التشاجر والتشاحن وهما لاتزالان طفلتين . ولم تتوقف المشاحنات قط فى اى وقت .

بكت « ايلا » وهى تقول · « العم ريت كان يمكن ان يسمح لى » لن اسمع ، ساغلق عينى واستمتع بطعام الافطار .. هكذا حدثت سكارليت نفسها .

— « ماما .. ماما ، متى ياتى العم ريت الى تارا ؟ » كان صوت « ايلا »

حادا ثاقبا .

وسمعت سكارليت الكلمات رغما عنها ، وتحول الطعام الشهي في فمها الى نشارة خشب . ما الذى تستطيع ان تقوله ؟ كيف ترد على السؤال الموجه من « ايلا » ؟

« لن ياتي ابدا » .. هل هذه هي الاجابة ؟

انها ، في قرارة نفسها ، لاتستطيع ان تصدق ولا تريد ان تصدق . تطلعت الى وجه ابنتها الاحمر في نفور .. لقد دمرت « ايلا » كل شيء . الم يكن في استطاعتها ان تتركني وحدى على الأقل حتى انتهى من تناول افطارى ؟

كانت « ايلا » ذات شعر مجعد بني اللون مثل ابيها فرانك كنيدى .. انها تقترب من السابعة من عمرها بينما سوزى ابنة سوايلين وويل في السادسة والنصف .

لا غرابة في ان « ايلا » تريد عودة ريت . هكذا فكرت سكارليت . انه يعنى بها بالفعل ، بينما انا لا افعل . انها تثير اعصابي كما كان يفعل والدها فرانك . ومهما حاولت بشدة فإنني لا استطيع ان احبها .

سالت « ايلا » مرة اخرى : « متى سياتي العم ريت يا امي » ؟ دفعت سكارليت مقعدها بعيدا عن المائدة ، ونهضت . قالت : « هذا شان الكبار ، ساذهب لأرى مامي » . انها لاتستطيع تحمل التفكير في « ريت » الآن ، ستفكر في كل ذلك فيما بعد . عندما لاتكون مضطربة الى هذا الحد . الأهم بكثير الآن اغراء مامي على تناول حسائها .

● ● ●

— « مجرد ملعقة اخرى صغيرة يا حبيبتي مامي ، فذلك سيسعدني » .

ادارت العجوز راسها بعيدا عن الملعقة ، وتنهدت قائلة : « تعبانة » .

قالت سكارليت : « اعرف ، اعرف ، نامي ، ولن ازعجك مرة اخرى » . والقت نظرة على طبق الحساء الذى يكاد يكون ممتلئا كما كان ، كان حجم ما تاكله « مامي » يتضاءل يوما بعد يوم .

نادت مامي بصوت ضعيف : السيدة الين ؟

اجابت سكارليت : « انا هنا يا مامي »

كانت تشعر بالضيق عندما لاتتعرف عليها مامي .. عندما تظن ان الايدى التي ترعاها بكل حب هي ايدى أم سكارليت . وكانت سكارليت تقول لنفسها في كل مرة : يجب الا يضايقني هذا . فقد كانت امي هي التي تعتني دائما بالمريض ، وليس انا . كانت امي طيبة مع الجميع .. وملاكا . كانت

سيدة كاملة . ويجب ان اعتبر الخلط بينى وبينها مديحا لى وثناء على شخصى . اننى اتوقع ان اذهب الى الجحيم .. فانا أشعر بالغيرة من والدتى لأن « مامى » تحبها اكثر .. المشكلة اننى لم أعد أؤمن بالجحيم .. او بالسماء .

— « السيدة إلين .. »

— « انا هنا يا مامى » .

العينان العجوزتان .. العجوزتان ، فتحتا نصف فتحة .

— « انت لست السيدة الين »

— « انا سكارليت يا مامى سكارليت حبيبتك وعزيزتك »

— « السيدة سكارليت .. اننى اريد السيد ريت . شىء اريد ان اقوله .. »

انغرست اسنان سكارليت فى شفتيها . اننى اريده ايضا .

كانت تبكى فى صمت . اريده كثيرا جدا ، ولكنه ذهب يامامى . لا استطيع تلبية طلبك .

كانت مامى قد راحت فى شبه غيبوبة مرة أخرى .

شعرت سكارليت بامتنان جارف . على الأقل فإن مامى متحررة من الألم الآن . اما قلبها هى .. فإنه يتمزق ، كانه يزخر بالسكاكين . كيف تحتاج الى ريت ، وخاصة الآن ومامى تنزلق على نحو أسرع الى هاوية الموت ؟ لو كان هنا معى يشعر بنفس الأسى الذى اشعر به ؟ لقد احب « ريت » .. « مامى » ، وأحبته مامى .. كان « ريت » يقول انه لم يحاول فى حياته بهذا القدر من الصعوبة ان يكسب أحدا الى صفه كما فعل مع مامى ، ولم يحرص بهذا القدر على احترام راى أى شخص فى حياته كما فعل مع مامى . سوف يحزن عندما يعرف انها ماتت لابد انه كان يحب كثيرا لو استطاع ان يودعها ..

رفعت سكارليت راسها واتسعت عيناها .

طبعا .. ! كم هى حمقاء . تطلعت الى المراة العجوز الذابلة ، التى بدت ضئيلة جدا وشديدة النحول تحت الاغطية .

« أوه يامامى الحبيبة ، شكرا لك »

التقطت انفاسها .. « جئتك يامامى طلبا للمساعدة ، جئتك لكى يتسنى تصحيح كل الأمور مرة اخرى ، وسوف تفعلين ، بنفس الطريقة التى كنت تتصرفين بها دائما » .

وجدت ويل فى الاسطبل يمسح على ظهر حصان .

قالت سكارليت « اننى مسرورة بأن اجدك ياويل » . كانت عيناها تتالقان ، وقد تورد خداها بلونهما الطبيعى . قالت : « هل استطيع ان استخدم الحصان والمركبة ؟ اننى مضطرة للذهاب الى جونز بورو مالم .. ربما تعتزم انت الذهاب بنفسك الى جونز بورو لسبب ما .. هل فى نيتك الذهاب » ؟

حبست انفاسها فى انتظار الاجابة ..

نظر إليها « ويل » فى هدوء . كان يفهم سكارليت اكثر مما تتصور .. قال : « هل هناك شىء استطيع ان افعله من اجلك ؟ نعم .. فانا فى نيتى الذهاب الى جونز بورو » .

- « يا ويل .. انت مخلوق عزيز وحلو .. انا افضل كثيرا البقاء مع مامى ، ومع ذلك اريد بالفعل ابلاغ ريت بشأن حالتها . انها تطلبه ، وقد كان يعتز بها دائما ولن يسامح نفسه أبدا إذا خذلها »

أضافت وهى تعبث باصابعها بعرف الحصان :

« انه فى شارلستون فى شأن عائلى ، ان امه تكاد لاتستطيع ان تسحب الشهيق الى رئتيها دون ان تطلب مشورة ريت » .

كان وجه ويل جامدا بلا تعبير . وحولت سكارليت انظارها بعيدا . وبدات تعبث بأجزاء من عرف الحصان وهى تحملق فيما تفعله كما لو كان يتصف باهمية فائقة . واضافت .. « اذن فإن كل ماعليك هو ان ترسل برقية . ساعطيك العنوان ، والافضل ان تكون البرقية ، موجهة منك يا ويل .. ذلك ان ريت يعرف شعورى نحو مامى وقد يتصور اننى أبالغ فى تصوير سوء حالتها .. »

رفعت رأسها وابتسمت ، وهى تقول لنفسها « إنه يظن انه لم يعد عندى شعور اكثر من حشرة البق فى شهر يونيو »

قال ويل : « اعتقد انك على صواب » على ريت ان يحضر بأسرع مايمكن ، سأتحرك فورا .. ان ظهر الجواد اسرع من العربة » .

تراخت يدا سكارليت وقالت : « شكرا ، العنوان فى جيبى » .

وقال ويل : « ساعود وقت الغداء » .

ووضع السرج على الجواد بمساعدة سكارليت . شعرت بطاقة هائلة .. كانت واثقة من ان ريت سيحضر .. انه يستطيع الوصول الى « تارا » خلال يومين اذا غادر شارلستون فور تلقيه البرقية .

● ● ●

ولكن ريت لم يحضر خلال يومين .. أو ثلاثة او اربعة او خمسة .

وكفت سكارليت عن متابعة الاصغاء لصوت العجلات أو ضربات حوافر الجياد . لقد انهكت نفسها من التوتر وهى تصغى الى تلك الاصوات إلى أن اصابها الياس .

والآن .. هناك صوت آخر هو الذى يشد كل انتباهها : الضوضاء الخشنة المخيفة التى تشبه الصرير التى تحدثها محاولة « مامى » التنفس .. كان يبدو من المستحيل ان يستطيع هذا الجسد الهزيل المتهدم ان يستجمع القوة اللازمة لالتقاط الهواء وسحبه الى داخل رئتيها ، ثم يدفعه الى الخروج مرة اخرى . ولكنها فعلت ، مرة بعد اخرى ، بينما الحبال فى رقبتها المليئة بالتجاعيد .. غليظة ومرتعشة .

انضمت سوايلين الى نوبات السهر الليلية التى كانت تضطلع بها سكارليت . « انها مامى حبيبتى انا ايضا ياسكارليت » . وتوارت الى الخلف الغيرة والقسوة بين الاثنتين فى محاولتهما المشتركة مساعدة المرأة السوداء العجوز . احضرتا كل الوسائل المتوافرة فى المنزل لمساعدتها على اتخاذ وضع مريح ، وجعلتا الموقد مشتعلا طول الوقت ، ووضعتا الزبد على شفتيها المتشققتين ودستا قطرات من المياه بينهما .

ولكن صراعات مامى لم تخف ونظرت « مامى » اليهما بحنان ، وقالت لاهثة « لا ترهقا نفسيكما .. لاشىء تستطيعان ان تفعلاه »

وضعت سكارليت اصابعها على شفتى مامى وتوسلت اليها « اسكتى ، لا تحاولى الكلام ، ادخرى قوتك » .

وثارت فى صمت وهى تتجه برأسها الى السماء : « لماذا ؟ . لماذا ؟ . لماذا لم تدعها تموت . بسهولة . عندما كانت تتحرك بسهولة فى الماضى ؟ لماذا توقظها وتجعلها تتعذب هكذا ، لقد كانت طيبة طوال حياتها ، تعمل دائما من اجل الآخرين ، لم تفعل شيئا قط لنفسها ، انها تستحق ما هو افضل من ذلك » .

ولكنها قرأت بصوت مسموع لمامى من انجيل قديم ممزق الى جانب الفراش . ولم يكشف صوتها عن ذلك الغضب المتمرد .. فى قلبها .

كانت جالسة على الأرض وظهرها المتعب يميل الى الحائط وهى تصغى الى الاصوات المخيفة للموت الزاحف .

وعندما ظهر اول شعاع من ضوء النهار خلف النوافذ تغيرت الأصوات بطريقة فجائية .. كل شهيق اصبح اكثر صخبا ، وفترات الصمت بين شهيق وآخر اكثر طولا . وانتفضت سكارليت مذعورة ، وجلست الى جانب الفراش .

— « هل تريدينني ان امسك يدك يا مامى ؟ دعيني امسك يدك » .
وتغضن جبين مامى من الجهد الذى تبذله .
— « تعبانه .. جدا »
— « اعرف .. اعرف .. لاترهقى نفسك اكثر بالكلام » .
— « اردت .. انتظر .. السيد ريت » .
وكتمت سكارليت مشاعرها .. انها لاتستطيع البكاء الآن .
— « انت غير مضطرة للمقاومة يا مامى . تستطيعين ان تستريحى انه لم يستطع الحضور » .
وسمعت وقع اقدام سريعة فى المطبخ .
وواصلت سكارليت حديثها « سوايلين فى طريقها اليك الآن وكذلك مستر ويل . اننا جميعا سنكون هنا الى جانبك يا حبيبتى . اننا جميعا نحبك » .
ووقع ظل على الفراش ، وابتسمت مامى .
وجاء صوت ريت « انها تريدنى » .
وتطلعت سكارليت الى أعلى .. غير مصدقة .
وقال بلطف : « افسحى .. دعيني اقترب من مامى » .
ووقفت سكارليت ، وهى تشعر بقربه . انه قريب ، وكبير ، وقوى ، ويمتلىء بالرجولة .. ركبتاها ضعيفتان . واندفع ريت بجانبها وركع على مقربة من مامى .
لقد جاء .. كل شىء سيصبح على ما يرام . وركعت سكارليت بجانبه ، وكتفها تلمس ذراعه ، كانت سعيدة وسط حزنها الطاغى على مامى . لقد أتى . « ريت » هنا . كم كنت حمقاء وأنا اتخلى عن الأمل فى حضوره .
فى تلك اللحظة كانت « مامى » تتكلم
— « اريدك ان تفعل شيئا من أجلى »
كان صوتها يبدو قويا كما لو كانت قد ادخرت كل قوتها من أجل هذه اللحظة . وكان تنفسها سطحيا وسريعا . ويكاد يكون لهاثا
قال ريت : « أى شىء يامامى ، سأفعل أى شىء تريدينه
— « ادفنى فى ثوبى الحريرى الاحمر الانيق الذى اهديته لى .
تابع هذه المسالة بنفسك . اننى اعرف ان لوتى وضعت عينها عليه »
.وضحك ريت . وشعرت سكارليت بالصدمة . ضحك على فراش الموت ولكنها ادركت ان مامى كانت تضحك ايضا بلا صوت
وضع ريت يده على قلبه : « اقسم لك ان لوتى لن تضع بصرها عليه يامامى .. ساضمن ان هذا الثوب سيذهب معك الى السماء » .

وامتدت يد مامى تتحسس طريقها اليه ، فى ايماءة لكى تقترب أذنه من شفتيها ، وقالت « ارجوك ان ترعى السيدة سكارليت ، انها تحتاج الى رعاية ، وانا لا استطيع ان افعل ذلك بعد الآن » .

وحبست سكارليت انفاسها .

قال ريت « سافعل يامامى »

قالت : « عليك ان تقسم على ذلك » .. كان الصوت الذى صدر به الأمر ضعيفا ولكنه صارم ..

قالت ريت « اقسم على ذلك » . وتنهدت مامى فى هدوء . وتركت سكارليت انفاسها تخرج مع بكائها .

وصاحت : « اوه ، يامامى ياحبيبتى . شكرا ـ مامى .. »

— « انها لم تعد تسمعك ياسكارليت ، لقد ماتت » هكذا قال ريت وهو يمد يده الضخمة برقة عبر وجه مامى ليغلق عينيها . وقال بنعومة « ان عالما باسره قد انقضى .. وعصرا قد انتهى .. فلتسترح فى سلام » .

وقال ويل الذى كان يقف عند الباب « آمين » . وقف ريت واستدار : « كيف حالكما يا ويل وياسوايلين » صاحت سوايلين : « كانت كل افكارها الاخيرة تتركز حولك يا سكارليت ، لقد كنت دائما المحببة لديها » . وبدأت تبكى بصوت عال .. واخذها ويل بين ذراعيه وربت على ظهرها ، وتركها تبكى على صدره .

وجرت سكارليت نحو ريت ومدت ذراعيها لكى تحتضنه وهى تقول « لقد افتقدتك كثيرا » .

وامسك ريت بمعصميها وخفض ذراعيها لكى تعود الى جانبيها .

« لاتفعلى ياسكارليت .. لاشىء تغير » كان صوته هادئا .

ولم تكن سكارليت لتقدر على تحمل هذا التحفظ .

وصاحت بصوت عال « ماذا تعنى ؟ »

وانتفض ريت : « لا ترغمينى على ان اقولها مرة اخرى ياسكارليت ، انت تعرفين جيدا ما اعنيه » .

— « لا اعرف . ولا اصدقك ، ولا تستطيع ان تتركنى ، لا يمكنك ان تعنى ذلك بحق ، ليس عندما احبك واحتاج اليك بشدة . اوه يا ريت لاتنظر الى بهذه الطريقة . لماذا لاتلف ذراعيك حولى وتواسينى ؟ انك وعدت مامى »

وهز ريت راسه ، وظهرت ابتسامة باهتة على شفتيه :

— « انك طفلة ياسكارليت . لقد عرفتنى كل هذه السنين ، ومع ذلك

فإنك عندما تشائين ، تستطيعين نسيان كل ما تعلمته .. كانت كذبة . لقد كذبت لكى أجعل اللحظات الأخيرة لامرأة عجوز عزيزة .. لحظات سعيدة .. تذكرى يا صغيرتى . انا وغد ولست سيدا مهذبا » .

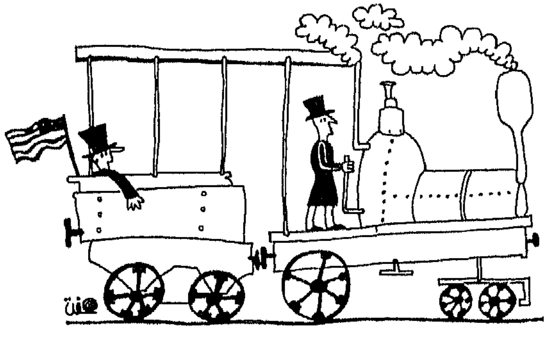
وسار نحو الباب .

وبكت سكارليت وهى تقول « لاتذهب ياريت ارجوك » ثم وضعت كلتا يديها على فمها لتمنع نفسها من مواصلة الكلام . انها لن تستطيع ان تحترم نفسها أبدا . إذا توسلت اليه مرة اخرى . وادارت راسها بحدة وهى عاجزة عن تحمل رؤيته وهو يرحل . ورأت الانتصار فى عينى سوايلين والشفقة فى عينى ويل .

قالت وهى ترفع راسها عاليا « سيعود .. انه يعود دائما » وحدثت نفسها : اذا قلتها مايكفى من المرات ، ربما ساصدق ما اقول ، وربما يصبح حقيقة .

قالت وهى تاخذ نفسا عميقا : « .. دائما . اين ثوب مامى ياسوايلين ، اننى انوى ان اتابع بنفسى عملية دفنها وهى ترتدى هذا الثوب » .

● ● ●



حـــديـث الـذكـــريـات

ظلت سكارليت قادرة على السيطرة على مشاعرها الى ان انتهت عملية غسل جثمان مامى وإلباسه الثوب الاحمر الحريرى ، ولكن عندما احضر ويل النعش ، بدأت تنتفض . وبدون ان تتفوه بكلمة ، هربت بعيدا عن المكان .. وشرد ذهنها بعيدا .. ماتت « ميلانى » .. وماتت « مامى » . وتركها « ريت » وهو يقول ان زواجهما قد مات ايضا . وهذا هو الاسوأ . رحيل ريت ، وهذا ما ستواجهه .. استعادت صوته : « لا شيء تغير » . ان ذلك لا يمكن ان يكون صحيحا . ولكنه حدث . ان عليها ان تجد وسيلة لاعادته . لقد كانت دائما قادرة على ان تحصل على اى رجل تريده . و « ريت » رجل مثل اى رجل آخر .. اليس كذلك ؟

كلا ، انه ليس كبقية الرجال .. ولهذا ، فهى تريده . وارتعدت . وشعرت بخوف مفاجيء . لتفترض انها لم تنجح هذه المرة ؟ لقد كانت تفوز دائما بطريقة او باخرى . كانت على الدوام تحصل على ما تريده ، بشكل ما .. حتى الآن .

عليها ان تفكر وان تتذكر ما قاله ريت . ليس هذا الصباح ، ولكن ما قاله فى بيتنا ، فى الليلة التى غادر فيها اتلانتا . لقد تحدث طويلا ، شارحا الامور . كان هادئا تماما وصبورا على نحو مخيف ، نفس الطريقة التى يمكن اتباعها مع الناس الذين لاتحرص عليهم بما يكفى لكى تثور عليهم .

التقط ذهنها عبارة تكاد تكون منسية . ولم تشعر عندئذ بما تعانيه من ارهاق . لقد وجدت ما كانت تحتاج إليه .

نعم ، نعم ، لقد تذكرتها بوضوح . لقد عرض ريت عليها طلاقا . ثم ، بعد رفضها العصبى لهذا العرض ، قال تلك العبارة . اغلقت سكارليت عينها .. لتسمع صدى صوته :

« ساعود من وقت لآخر بما يكفى لابعاد السنة النميمة » .

وابتسمت . انها لم تفز بعد ، ولكن هناك فرصة . فرصة تكفى لاستمرار المحاولة والتريث . انها لن تنظر الى الوراء . ما حدث قد حدث . لابد ان تتحرك .

وعليها الآن ان تغير ثيابها الرثة . لقد علمتها « مامى » كيف تعتنى بنظافتها وهندامها .

مامى ترقد الآن فى هذا القبر الملاصق لقبر السيدة الين اوهارا والدة سكارليت .. حبها الاول .. وليس فى قبر « العبيد » بعد ان أصرت سكارليت على ذلك .

هواء الريف منعش ومهدىء ، غير ان تارا لم تعد مكانا للراحة . حتى غرفة النوم التى كانت تظن انها مازالت غرفتها ، اصبحت الآن غرفة سوزى ، أكبر أطفال سوايلين . وشعرت سكارليت بانها كالغريب . غير انها تحتاج الى الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع سوايلين اذا كانت تريد ان تنفذ خطتها . سوايلين تحب الشكوى . ولابد من ترضيتها . وها هى سكارليت تعرض عليها ان ترعى « ايلا » و « ويد » على ان ترسل اليها مالا لرعايتهما .. ثم ان هواء الريف سوف يفيدهما وهما يشعران بالملل من الحياة فى المدينة .

سوايلين ، مترددة لأن طفلها الجديد فى الطريق وسيصبح البيت مزدحما . ولكن سكارليت تغازل شراهتها ..

« ويد هاميلتون » ياكل مثل الحصان .. وربما كان مبلغ مائة دولار شهريا يكفى لاعالتهما وشراء احذية لهما .

كانت تشك فى قدرة ويل على كسب مائة دولار على مدار السنة من عمله الشاق فى تارا . ولزمت سوايلين الصمت مما اثار ارتياح سكارليت . وكانت واثقة من ان شقيقتها ستقبل العرض بعد ان قالت لها انها ستكتب حوالة « دسمه » على البنك .

ورات سكارليت انها يجب ان تعود الى اتلانتا . كان عليها ان تفعل شيئا من اجل « بو » و « اشلى » ايضا .. حسب وعدها لميلانى . ولكنها ستفكر فى ذلك فيما بعد . لقد جاءت الى تارا من اجل هدوء وراحة الريف وكانت مصممة على ان تحصل على قدر منهما قبل ان تغادر المكان .

المؤكد ان ويد سيكون أسعد حالا هنا مما لو كان فى اتلانتا . صحيح ان البيت فى حالة رثة ، ولكن ماذا تفعل ازاء عناد ويل ؟ كل الاثاث والستائر فى حاجة الى تجديد . وكان فى امكانها ان تفعل ذلك اذا تركها ويل تفعل .

كان يجب ان يكون هذا البيت ملكا لى . قال والدى انه سيترك تارا لى . ولكنه لم يكتب وصية قط ، لانه لم يفكر قط فى الغد . ومع ذلك فإن البيت سيصبح فى يوم من الايام بيت « ويد » .

كتبت الشيك ووقعت عليه وصدمت عندما عرفت تاريخ اليوم . انه ١١ اكتوبر ١٨٧٣ .

انقضت اكثر من ثلاثة اسابيع على موت ميلانى . انها فى تارا منذ ٢٢ يوما ، وكانت ترعى « مامى » فى مرضها .

التاريخ له معان اخرى ايضا .. لقد مضى اكثر من ستة شهور على وفاة « بونى » وتستطيع سكارليت ان تتخلى عن ثياب الحداد السوداء

الكريهة ، وتستطيع قبول دعوات اجتماعية ، وتدعو الناس الى بيتها ، انها تستطيع العودة الى العالم .

أريد ان اعود الى اتلانتا . اريد بعض المرح . لقد كان هناك حزن كثير .. وموت كثير .. انني اتطلع الى الحياة . وافتقد المتجر ايضا ، ولابد ان دفتر الحساب في حالة ارتباك ، ثم ان « ريت » سياتي الى اتلانتا « لقطع دابر النميمة » ويجب ان اكون هناك .

وصلت الى اسماعها دقات الساعة البطيئة - في الصالة - وراء الباب المغلق .. الهدوء الذى اشتاقت اليه كثيرا .. اصبح الآن - فجاة - يدفعها الى الجنون . ووقفت فجاة : ساعطى الشيك لسوايلين بعد الغداء .. بعد عودة « ويل » الى الحقول ، ثم استقل المركبة واقوم بزيارة سريعة لسكان فيرهيل وميموزا . انهم لن يغفروا لى إذا لم اوجه إليهم التحية . وفى الليل ساحزم حقائبى وغدا استقل قطار الصباح .

بيتى فى اتلانتا . لم تعد « تارا » بيتا لى بعد الآن مهما كان مقدار حبى لها . لقد حان وقت الرحيل .

الطريق الى فيرهيل ملىء بالحفر والاخاديد والاعشاب النامية . وتذكرت سكارليت كيف كان يتم رش المياه كل اسبوع لتسكين التراب .. فى ذلك الوقت كانت هناك عشر مزارع على مدى قريب .. واناس تذهب وتجىء طول الوقت . الآن لم يبق سوى « تارا » ومزرعتى « تارلتون » و « فونتين » .. أما الباقى فمداخن محروقة وجدران ساقطة .

حقا يجب ان اعود الى المدينة ، ان كل شىء فى الريف يجعلنى حزينة . انها تحتاج الى العودة الى البيت فى اتلانتا .

الحبور الصاخب فى فيرهيل اخرجها من حالتها الكئيبة . كالمعتاد تحدثت بياتريس تارلتون طويلا عن جيادها .. وبدا جيم تارلتون عجوزا بشعره الابيض ..

كانت اسرة تارلتون قادرة على ان تضحك على اى شىء .

وقررت تاجيل زيارة اسرة فونتين حتى اليوم التالى .

فقد حل الظلام ولابد من العودة الى تارا .

وكان أول ما سمعته لدى وصولها وقبل ان يفتح الباب .. صوت طفلة سوايلين وهى تصرخ بالبكاء . المؤكد انه حان وقت عودتها الى اتلانتا .. ولكن جاءت اخبار غيرت تفكيرها فى الحال .. قالت سوايلين التى بدت اكثر جمالا مما كانت عليه حتى وهى لاتزال فتاة صغيرة : سكارليت هناك انباء مثيرة .. لن تخمنى ابدا . افرحى الآن ياجميلتى ، لقد عاد تونى ! لقد جاءت سالى فونتين لكى تخبرنا وغادرت الآن للتو . لقد عاد تونى ! سليما

معاق . وسنذهب الى منزل فونتين للعشاء ليلة الغد .. اليس هذا مدهشا ياسكارليت » ؟

كانت ابتسامة سوايلين تشع بالسعادة . الريف يمتلىء مرة أخرى .

شعرت سكارليت بانها تريد ان تحتضن شقيقتها ، شعور لم يتملكها من قبل .. سوايلين على حق . انه شىء مدهش ان يعود تونى : كانت تخشى الا يعود مرة أخرى .. الآن يمكن ان ينسى إلى الابد ما حدث له فى آخر يوم فى هذه المنطقة قبل ان يرحل كان منهكا وقلقا ومرتعدا . ومن الذى كان يمكن ان يكتم مشاعر الخوف ؟ كان الشماليون يلاحقونه وكان يعدو لينقذ حياته بعد ان قتل الرجل الأسود الذى كان يسىء معاملة « سالى » ثم الوغد الذى حرض الأحمق الأسود لكى يلاحق امراة بيضاء .

اخيرا عاد تونى ! يكاد يكون من الصعب عليها ان تنتظر حتى مساء اليوم التالى .

المقاطعة تعود الى الحياة .

● ● ●

مزرعة فونتين كانت تسمى ميموزا « الشجرة المستحية » بسبب خميلة الاشجار التى تحيط بالمنزل المطلى بالجير الأصفر الباهت .

كم اتمنى الا يكون تونى قد تغير كثيرا . هكذا كانت تفكر سكارليت بعصبية .. سبعة اعوام . وقت طويل .. هل سيبدو تونى عجوزا ومكدودا .. ومهزوما مثل اشلى . هذا ما سيكون فوق احتمالها .

عندما فتح الباب تلاشت مخاوفها .

« من هذا الذى يمشى على مهل كما لو كان يدخل كنيسة ؟

الا تعرفون ما يكفى لكى تندفعوا للترحيب ببطل عائد الى موطنه ؟ »

كان صوت تونى يمتلىء بالضحك ، كعادته ..

شعره اسود وعيناه سوداوان كما كانتا دائما .

صاحت سكارليت : « تونى » انت لم تتغير ..

— « اهذه انت ياسكارليت ؟ تعالى واعطينى قبلة . وانت ايضا يا سوايلين انت لم تكونى سخية بالقبلات مثل سكارليت فى سالف الايام ، ولكن لابد ان ويل علمك اشياء قليلة بعد زواجكما ، اننى انوى ان اقبل كل انثى تجاوزت السادسة من عمرها فى كل ولاية جورجيا بمناسبة عودتى » .

وضحكت سوايلين بعصبية ونظرت الى ويل . وظهرت ابتسامة خفيفة على وجهه الهادىء النحيل تعنى صدور الاذن من جانبه ، ولكن تونى لم يبال

بانتظار هذا الاذن ، فقد امسك بها من خصرها السمين وطبع قبلة على شفتيها بصوت مسموع . وتورد خداها من الاضطراب والسرور عندما . اطلق سراحها .

وصرخ تونى « سكارليت حبيبتى » وفتح ذراعيه . والقت سكارليت بنفسها بين ذراعيه لتعانقه . وصاحت : « لقد ازددت طولا فى تكساس .. وضحك تونى وهو يقبلها فى شفتيها اللتين كانتا فى الانتظار . ثم ازاح بنطلونه من على ساقه ليريهم النعل ذا الكعب العالى الذى يرتديه . قال إن كل شخص اصبح اكثر طولا فى تكساس ، وانه لن يدهش اذا كان هناك قانون ينص على طول القامة . واطل اليكس فونتين من فوق كتف تونى ، وقال : سوف تسمعون عن تكساس اكثر مما يحتاج المرء لكى يعرف .. ففى تكساس الجميع يعيشون حول نيران المعسكرات تحت النجوم بدلا من ان تكون لديهم جدران وسقوف ..

الدموع طفرت فجاة من عينيها . كانت عودة تونى المصحوبة بالحيوية والنشاط الى مسقط راسه اول حدث سار فى المقاطعة منذ اجتاحت قوات تشيرمان هذه الارض ومعها ارواح ابنائها . لم تكن تعرف بالضبط كيف تتصرف مع هذه الدفقة من السعادة .

سالى زوجة اليكس امسكت يدها عندما دخلت غرفة المعيشة المعتمة ، وقالت لها هامسة : « انى اعرف شعورك بالدقة ياسكارليت ، لقد كدنا ننسى كيف نمرح ، لقد ترددت ضحكات فى هذا المنزل اليوم اكثر مما حدث خلال السنوات العشر الماضية ..

كانت عينا سالى مليئة بالدموع ايضا . وجاءت عائلة تارلتون ، ووجهت بياتريس تارلتون التحية إلى تونى قائلة : « شكرا للسماء ياولدى انك عدت قطعة واحدة ، تستطيع ان تتخير اى واحدة من بناتى الثلاث ، وعندى حفيدة فقط ، وليس عندى اصغر من ذلك » واحتجت الفتيات الثلاثة ، هيتى وكاميلا وميراندا تارلتون ، فى صوت واحد . ثم انفجرن فى الضحك ، فقد كان كل اهل المقاطعة يعرفون ولع والدتهن بتربية الجياد والبشر .

وقبل غروب الشمس اصرت بياتريس تارلتون على ان ترى الجياد التى احضرها تونى معه من تكساس وعلى المفاضلة بين مزاياها ومزايا الانواع الاخرى .. إلى ان صاح اليكس لكى ينهى المناقشة معلنا عثوره على بعض الويسكى « الحقيقى » وتمنت سكارليت الا تكون السيدات مستبعدات تلقائيا من متعة الشراب . وكانت تريد ايضا ان تتمتع بالحديث مع الرجال بدلا من ان تكون فى « المنفى » بالجانب الآخر من الغرفة تستمع الى حديث

النساء عن الاطفال وشئون التدبير المنزلى ! فهى لم تفهم او تقبل قط الفصل التقليدى بين الجنسين ، ولكن هكذا كانت الأمور دائما وقد استسلمت لهذه الأوضاع . على الأقل كان يمكن ان تسلى نفسها بمراقبة فتيات تارلتون يتظاهرن بأنهن لايفكرن بطريقة متطابقة مع والدتهن .

ومضى الوقت وتونى يروى مغامراته وحكاياته عن الهنود .. وعن السرج الفضى على جواده . وابتسمت سكارليت . كانت تعرف ان تونى وشقيقه اليكس كانا دائما اكثر الرجال تانقا وعناية بمظهرهما فى كل شمال جورجيا . ولم يتغير تونى على الاطلاق .. كعوب عالية واحذية مبهرجة وسرج فضى . انها مستعدة ان تراهن على انه عاد وجيوبه خاوية مثلما كان الحال عندما هرب من الجلاد . انها حماقة ان تكون لديك سروج فضية بينما المنزل فى ميموزا يحتاج الى سقف جديد . ولكن بالنسبة لتونى ، هذا هو الصواب ، وهو مايعنى انه لايزال تونى . اما اليكس فانه فخور به كما لو كان قد جاء معه بعربة محملة بالذهب . كم تحبهما كليهما !

وتوالى حديث الذكريات : التوأمان برنت وستيوارت تارلتون اللذان رحلا الى الابد و « ليف مونرو » و « كيد ويفورد كالفيرت » و « توم وبويد تارلتون » و « جوفونتين » وكل الشبان الذين ودعوا الحياة فى وقت مبكر .

القصص هى الثروة المشتركة للذاكرة والحب ، وبينما كانت تروى .. اصبحت الظلال فى زوايا الغرفة مزدحمة بالشباب المبتسم والمتلالىء من هؤلاء الموتى ولكنهم الآن ـ اخيرا ـ لم يعودوا مفقودين لأن هناك من يتذكرهم بضحكة مزهوة بدلا من المرارة اليائسة المحبطة . والجيل الاسبق ايضا لم يذهب فى طى النسيان .. كل هؤلاء الذين يجلسون الى المائدة لديهم ذكريات غنية عن السيدة فونتين العجوز جدة اليكس وتونى ذات اللسان الحاد والقلب الحنون . وعن أمهما التى كانت تسمى السيدة الصغيرة حتى وفاتها وهى فى عيد ميلادها الستين . واكتشفت سكارليت انها تستطيع ايضا المشاركة فى هذا التضاحك الخافت الودود بان تحكى عن عادة ابيها التى لم تتغير فى ترديد الأغانى الايرلندية عن الثورة بعد ان يشرب على حد تعبيره « قطرة أو قطرتين »

ساعة بعد ساعة .. ووقت طويل مضى بعد ان فرغت اطباق العشاء والنيران تحولت الى جمرات داخل المدفاة .. والحديث مستمر ، والاثناعشر الذين ظلوا احياء اعادوا الى الحياة كل الاحياء الذين لم يتمكنوا من الحضور للترحيب بتونى . كانت أمسية سعيدة .. تضمد الجراح . والضوء الخافت لمصباح الغاز يومض ويخبو وسط المائدة ولايكشف

الندوب التى خلفها رجال تشيرمان فى الغرفة التى يلوثها الدخان وجرى ترميم اثاثها . الوجوه حول المائدة بلاخطوط . والثياب بلا زخارف تجميلية .. انها لحظات لذيذة من الوهم ، كما لو كانت ميموزا قد تحولت الى مكان سرمدى والى زمان بلا الم لم يشهد اى حروب من قبل .

منذ سنوات ، كانت سكارليت قد الزمت نفسها بألا تنظر ابدا الى الوراء .. ذلك ان استرجاع ذكريات الأيام الذهبية السعيدة السابقة على الحرب والترحم عليها والتشوق اليها لن يحقق شيئا لها سوى الاضرار بها واضعافها ، وهى فى حاجة إلى كل قوتها وتصميمها على البقاء وحماية اسرتها . ولكن المشاركة فى استعادة الذكريات فى غرفة المائدة فى ميموزا لم تكن قط سببا للضعف ، فقد منحتها شجاعة ، وكانت دليلا على ان الناس الطيبين يمكن ان يعانوا من كل انواع الفقد او الخسارة او الحرمان من الاعزاء ، ومع ذلك يحتفظون بالقدرة على الحب وعلى الضحك ، كانت فخورة بأن تكون فى زمرتهم ، وفخورة بان تدعوهم اصدقاءها وفخورة لانهم على ماهم عليه .

تاخر الوقت .. وفى طريق العودة كان النعاس يداعب سوايلين ، اما سكارليت فكانت تقاوم النعاس .. فهى لم تكن تريد لهذه الامسية ان تنتهى . كانت تريد ان تدوم الى الابد تلك الراحة الدافئة والسعادة التى شعرت بها فى هذه الزيارة .

وفى منتصف الطريق الى تارا ، ادركت انها لم تفكر فى « ريت » لساعات . وحلت عليها الكابة والكدر كاحمال ثقيلة ، وشعرت لاول مرة ببرودة الطقس وبان جسمها يرتجف .

قررت سكارليت العودة الى اتلانتا فى قطار بعد ظهر اليوم التالى . ورحبت سوايلين بذلك ، خاصة وهى تحتاج الى غرفة النوم التى تشغلها سكارليت لكى تستخدمها سوزى وايلا . وكانت سكارليت على اى حال قد قررت السفر من قبل لولا عودة تونى .. فى اتلانتا سوف يسعد الناس برؤيتها ايضا . ان لديها العديد من الاصدقاء هناك .

قالت سكارليت : « ويد هاميلتون ، ايلا ، والدتكما مضطرة للذهاب الى اتلانتا بعد طعام الغداء اليوم .. اريدكما ان تعدانى بان تكونا على احسن مايكون . والا تسببا اى متاعب للخالة سوايلين »

وتوقعت سكارليت الاحتجاجات والدموع ، ولكن الطفلين كانا مستغرقين تماما فى الحديث عن اشياء ممتعة شاهداها فى صباح ذلك اليوم .

استقلت مركبة يقودها ويل ، وفى منتصف الطريق الى جونز بورولكى تستقل القطار قالت :

« ويل .. عن ريت .. الطريقة التى غادر بها بسرعة ، اعنى ، أمل الا تثرثر سوايلين حول هذا الموضوع فى كل المقاطعة »

وتطلع إليها ويل بعينيه الشاحبتين الزرقاوين : « سكارليت ، انت تعرفين أحسن من ذلك ان العائلة لاتتحدث بالسوء عن العائلة ، كنت اشعر باسف دائما لأنك لا ترين ما هو طيب فى سوايلين هذه الطيبة موجودة ، ولكنها لاتظهر عندما تحضرين . ثقى فى كلامى ، بصرف النظر عن الكيفية التى تبدو بها سوايلين بالنسبة لك ، فانها لن تتحدث ابدا عن متاعبك الخاصة لأى انسان .. »

شعرت سكارليت بارتياح الى حدما ، فهى تثق بويل تماما . كلمته اضمن من أموال البنوك ، وكان حكيما ايضا . وهو لم يخطىء فى اى شىء .. اللهم - ربما - فيما يتعلق بسوايلين !

— « انت تعتقد انه سيعود ، اليس كذلك ياويل ؟ »

لم يكن ويل فى حاجة لان يسالها عن الشخص الذى تقصده . لقد سمع رنين القلق فى صوتها ، وضغط بهدوء على قشة فى زاوية من فمه بينما كان يفكر فى طريقة الرد على السؤال . واخيرا قال ببطء : « لا استطيع ان اقرر ذلك ياسكارليت ، ولكنى ، لست الشخص الذى يعرف ريت ، فاننى لم اره قط اكثر من اربع أو خمس مرات فى حياتى »

شعرت وكانه طعنها وحل الغضب السريع محل الالم : « انك لاتفهم شيئا على الاطلاق ياويل بنتين ! ان ريت غاضب الآن ، ولكنه سيتخلص من هذا الغضب . انه لايمكن ان يفعل اى شىء وضيع كان يذهب ويترك زوجته مهجورة وحيدة »

واوما ويل براسه . وكان فى استطاعة سكارليت ان تعتبر تلك الايماءة تعبيرا عن الموافقة اذا ارادت ذلك . غير ان ويل لم ينس الوصف الذى قاله ريت عن نفسه : انه وغد . وطبقاًلكل ما قاله الناس ، فقد كان هكذا دائما والارجح انه سيظل .

وحملقت سكارليت فى الطريق ، امامها . تصلب فكها .. واشتعلت افكارها غضبا . ريت سيعود . يجب ان يعود ، لانها تريده وهى تحصل دائما على ماتريد .. كل ما عليها ان تفعله هو ان تصمم على ذلك ..

● ● ●

الطقوس الأخيرة للقديسة

الضوء والعمل في « فايف بوينتس » في اتلانتا هو القوة الدافعة لروح سكارليت . فوضى على مكتبها حتى في المنزل . انها تحتاج للحياة والعمل حولها بعد مسلسل الوفيات وتحتاج ان تعمل . مجموعات الصحف .. واكوام من حسابات العمل اليومية من المحل الذى تملكه في قلب « فايف بوينتس » ، تلال من الفواتير التى تستحق الدفع . نشرات واعلانات تنتظر التمزيق .

تنهدت سكارليت في ابتهاج وسحبت مقعدها القريب من المكتب . اشعلت المصباح . سيحل الظلام قبل وقت طويل من الانتهاء من كل هذه الاكوام المكدسة وقد تضطر الى تناول العشاء الليلة على صينية اثناء عملها . بدات في لهفة .. تعكف على حساب المحل وتوقفت ايديها في الهواء قبل ان تمتد الى اوراق الحسابات . فقد التقطت عيناها مظروفا كبيرا كان فوق الصحف . فوق المظروف كلمة واحدة هى ببساطة « سكارليت » وبخط « ريت » .

لن اقراه الآن .. هكذا فكرت على الفور ، انه سيعترض طريق كل الأشياء التى يجب ان افعلها الآن . لست قلقة بشان محتوياته .. على الاطلاق . كل ما اريده هو الا اقراه الآن .. سادخره مثل الحلوى عقب وجبة الطعام .

والتقطت حفنة من الأوراق ، غير ان عقلها عجز عن متابعة ومراجعة الحسابات ، وامتدت اصابعها الى المظروف لتقرا محتويات الرسالة :

« صدقينى عندما ابلغك اعمق مواساتى في فجيعتك .. ان وفاة مامى خسارة هائلة . انني اشعر بامتنان نحوك لأنك ارسلت في طلبى في الوقت المناسب لكى اراها قبل رحيلها » ..

وانفجرت غاضبة وتحدثت بصوت عال : ممتن يا حقير !! اذن فقد كذبت عليها وعلىّ ايها النذل وتمنت ان تحرق الخطاب وتلقى رماده في وجه كاتبه وان يسمع شتائمها .. لقد اهانها امام سوايلين وويل .. وسوف تنتقم لنفسها مهما طال الزمن . ليس له الحق في ان يعاملها بهذه الطريقة وان يعامل مامى بهذه الطريقة ، وان يهزا من امنياتها الاخيرة على فراش الموت .

وقررت ان تحرق الخطاب .. فهى لاتريد ان تصافح عيناها المزيد من اكاذيبه ! وبعد تردد ادركت انها لابد ان تقرا بقية الخطاب .

يقول ريت انها لن تجد في حياتها اى تغيير .. فواتير المنزل سوف يدفعها محاموه ، وهو ترتيب اعده منذ سنوات . وكل الاموال التى تسحب من حساب سكارليت في البنك عن طريق شيكات سوف تحل محلها تلقائيا

نفس الكمية من المال بحيث لاتنقص ابدا . وفى استطاعتها ان تصدر تعليمات الى اى محال تجارية جديدة حيث فتحت حسابات عن الاجراءات التى تستخدمها اماكن التسوق الحالية بحيث ترسل هذه الاماكن فواتيرها مباشرة الى المحامين التابعين لريت أو تدفع سكارليت فواتيرها بشيك ويحل محل المبلغ مايساويه فى حسابها فى البنك .

قرات سكارليت كل ذلك بإعجاب . كل ما يتعلق بالمال كان يثير اهتمامها دائما منذ ذلك اليوم الذى اضطرها فيه الجيش الاتحادى الشمالى الى اكتشاف معنى الفقر ففى اعتقادها ان المال هو الأمان لقد ادخرت المال الذى كسبته هى نفسها ، والآن تشعر بصدمة مفرحة من سخاء ريت المفرط .

ما اشد حمقه ، اننى استطيع ان اسرقه اذا شئت .. كذلك ربما كان محاموه يلفقون دفاتر الحسابات منذ قرون وهو لايدرى .

اذن ، لابد ان « ريت » شديد الثراء اذا كان فى استطاعته ان ينفق بهذه الصورة دون اهتمام باوجه هذا الانفاق ، لقد كنت اعرف دائما انه غنى ، ولكن ليس الى هذا الحد ، وانى اتساءل ماحجم ثروته ؟

اذن .. هو لايزال يحبنى . وهذا الخطاب برهان على ذلك . لايوجد رجل يمكن ان يفرط فى تدليل امراة بالطريقة التى دللنى بها « ريت » كل هذه السنوات مالم يكن يحبها الى حد الجنون ، وسيواصل اعطائى كل شىء . واى شىء اريده . لابد ان مشاعره لم تتغير او انه يكبح جماحها .

كنت اعرف ذلك واثق من اننى اعرفه ! انه لم يقصد كل الاشياء التى قالها . كل الحكاية انه لم يصدقنى عندما قلت له اننى اعرف الآن انى أحبه .

ووضعت سكارليت خطاب ريت على خدها كما لوكانت تمسك باليد التى كتبته . سوف تثبت له ، انها تحبه من كل قلبها ، وعندئذ سيكونان سعيدين ، أسعد الناس على وجه الارض !

اغرقت الخطاب بالقبلات قبل ان تضعه بعناية فى احد الأدراج .

وعادت الى اوراق الحسابات وكلها حماس . ونامت نوما هادئا .. لقد حقق المحل التجارى نتائج طيبة فى غيابها .. انه لشىء جميل ان يعود الانسان الى بيته ، وخاصة اذا وضعت خطاب ريت تحت وسادتها .

● ● ●

تذكرت سكارليت وعدها لميلانى ، ان تعتنى باشلى و « بو » ما الذى جعلها تقدم هذا الوعد ؟ ولكنها وعدت ، ولابد أن الالسن تخوض فى كل انحاء المدينة حول ما حدث عند المقبرة ، ولا داعى لإضافة المزيد من

الوقود الى حريق الشائعات والنميمة بان تلتقى باشلى وحدها .. وقررت ان تاخذ معها احدى الخادمات .

وعندما وصلت عربتها الى واجهة منزل اشلى وميلانى فى شارع ايفى ، لاحظت سكارليت ان باقة زهور الحداد اختفت من امام الباب وان النوافذ كلها مغلقة . لابد ان إنديا شقيقة اشلى اخذت اشلى و « بو » ليعيشا فى منزل العمة « بيتيبات » والمؤكد انه مكان مريح بالنسبة لآشلى وبو حيث يجدان الرعاية الكافية .

كانت انديا هى العدو اللدود لسكارليت على الدوام .

لو لم تكن سكارليت قد وعدت ميلانى ؟ .. ولكنها فعلت . وأمرت السائق بان يتوجه الى منزل بيتيبات هاميلتون وطلبت من الخادمة العودة الى المنزل على قدميها .

فتحت انديا الباب .. قالت سكارليت « جئت لأطمئن على آشلى » . ردت انديا : « انت شخص غير مرغوب فيه هنا » وبدات تغلق الباب . ومنعتها سكارليت من اغلاقه . وقالت : « انديا ويلكس .. هل تجسرين على اغلاق الباب فى وجهى . لقد وعدت ميلانى وساق بوعدى حتى لواضطررت لقتلك من اجل الوفاء بهذا الوعد »

وردت انديا باستخدام كتفها للضغط على الباب لاغلاقه ، وبعد ثوان من المقاومة .. جاء صوت اشلى : « هل هذه هى سكارليت يا انديا ، انى أريد التحدث معها » وانسحبت انديا غاضبة . كان يبدو مريضا ودوائر سوداء تحيط بعينية الذابلتين . والتجاعيد تملأ وجهه .. وبدت ثيابه أوسع من حجمه .

واهتز قلب سكارليت . لم تعد تحب اشلى بالطريقة التى احبته بها كل تلك السنوات ، ولكنه لايزال جزءا من حياتها .. ذكريات مشتركة كثيرة عبر زمن طويل . ولم تستطع تحمل ان تراه فى هذه الحالة من الألم .

تحدث اشلى طويلا عن زوجته الراحلة وقلبها الطيب ونبلها ونكرانها لذاتها وحبها لسكارليت ولابنها « بو » . كان صوته خفيضا وخاويا من الحرارة . وفى النهاية يعلن اشلى انه لايستطيع ان يستمر فى الحياة بدون ميلانى .

وقالت سكارليت ان اشلى ويلكس ليس الوحيد الذى احب ميلانى واعتمد عليها وانها تشعر بالخزى وهى تراه يموت موتا بطيئا ، وهو لايعرف الآلام التى عانتها ميلانى لكى تنجب « بو » .. انها آلام كانت تكفى لقتل اقوى الرجال . والآن .. الابن وحيد ويتيم لأن والده يشعر بالأسى ،

على نفسه ولايستطيع العناية به . ودعت سكارليت اشلى لكى ينتزع نفسه من آلامه وان يلتقى بابنه وياخذه بين ذراعيه ويدعوه الا يخاف .. ان على آشلى ان يفكر فى شخص آخر غير نفسه .

وغادرت سكارليت الغرفة وهى تدفع بيدها انديا لكى تبتعد عن طريقها .

وتوجهت الى مكتب محاميها هنرى هاميلتون . لقد ارادت ان تتاكد من ان زوجها الراحل تشارلس ترك لها نصف منزل العمة « بيتى » فى شارع بيتشترى ضمن كل املاكه . انها تريد ان يخرج آشلى من هناك حتى لا ترعاه كل من انديا والعمة « بيتى » حتى قبره . انها تريده ان يعود الى منزله وسوف تجد له مديرة منزل .

قال المحامى ان منزل اشلى قد بيع بالفعل وان اوراق البيع قد استكملت بالامس فقط . وقال المحامى انه هو الذى نصحه بالانتقال إلى منزل بيتى وشرائه . وكل ذلك لم يحدث بسبب آلام المنكوبين وذكريات المنزل وليس لان المحامى معنى بمن الذى سيرعاه هو وولده ، ولكنه نصحه بالانتقال لأنه يحتاج الى المال من صفقة البيع حتى يستطيع ان يحول دون انهيار تجارة الاخشاب التى يعمل بها .

وفى البداية لم تصدق سكارليت .. ذلك ان كل الانشاءات تحتاج الى اخشاب فكيف تواجه تجارة اشلى هذه الازمة ؟

ويحدثها المحامى عن فضيحة مالية كبرى فى نيويورك انفجرت منذ اسبوعين او ثلاثة .

كان احد المضاربين ويدعى جاى كوك اساء تقدير الموقف وانهار واخذ معه فى سقوطه شركة للسكك الحديدية ، تدعى الباسيفيك الشمالى ، واخذ معه ايضا حزمة من المضاربين الآخرين ، وبسقوطهم جميعا .. سقطت صفقات عديدة خارج اطار شركات كوك ، تماما كما يسقط منزل من اوراق اللعب . وفى نيويوك يسمون ما حدث « الرعب » وهو ينتشر ، والمحامى يتوقع ان يجتاح هذا الرعب كل انحاء البلاد .. شعرت سكارليت بالفزع تجاه مصير محلها التجارى واموالها والبنوك .. ويطمئنها المحامى الى ان العمالقة هم الذين يتساقطون وليس صغار او متوسطو التجار والنشاط التجارى مستمر ، ولكن الناس خائفون من استثمار اموالهم فى اى شىء ، وهذا يشمل الانشاءات ايضا ، فإذا لم يكن هناك من يبنى او يشيد .. فلا احد يحتاج الى اخشاب .

إذن فالانهيار الاقتصادى يصيب بالشلل مؤسسة نشر الاخشاب ،

وبالتالى لا يحصل منها اشلى على اى عائد مالى .. وربما استطاع أن يبيع منزله لأن سكان اتلانتا لم تصل اليهم بعد موجة الرعب .

ولكن سكارليت تريد ان تساعد هذا الرجل الميت الذى يسير على قدمين ، ويدعى اشلى .

اما المحامى فإن له رأيا آخر :

« انت آخر شخص يستطيع مساعدة اشلى الآن .. كانت هناك شائعات كثيرة عنك وعن اشلى فى وقت من الأوقات . وقد تصدت السيدة ميلى لهذه الشائعات دفاعا عنك وسار معظم الناس وراءها ـ حبا فيها ، وليس اعجابا بك ، لقد ظنت انديا اسوأ الظنون بك ، وباحت بها ، وحشدت مجموعة المؤمنين باقوالها ، وماذا فعلت انت من نفسك عند قبر ميلانى ، القيت بذراعيك حول زوجها لابعاده عن زوجته الميتة التى ظن الكثير من الناس انها اقرب الى القديسين .. اعرف ما ستقولينه ، لا ترهقى نفسك بقوله ، كان اشلى على وشك ان يلقى بنفسه فى القبر ، وقد يكسر عنقه . لقد كنت هناك ورايت كل شىء . ليست هذه هى المسالة ، انت فتاة ذكية ، ولكنك لا تفهمين الدنيا على الاطلاق ، لو كان اشلى قد القى بنفسه فوق النعش .. لكان الجميع قد وصفوا هذا المشهد بانه « مؤثر » ولو كان قد قتل نفسه وهو يفعل ذلك لكانوا قد شعروا باسف حقيقى ، ولكن هنك قواعد لمعالجة الأسف . والمجتمع يحتاج الى قواعد ، لقد اديت المشهد على الملأ . وضعت يديك على رجل لم يكن زوجك .. وعلنا .. انت صنعت ضجة تعكر صفو اجراءات الدفن وتقطع تسلسلها وهى مراسم يعرف كل امرىء قواعدها . انت حطمت الطقوس الأخيرة لقديسة .. ولا توجد سيدة فى هذه المدينة إلا وتقف الى جانب انديا الآن .. اى ضدك . ولا يوجد صديق لك ياسكارليت ، وإذا تصرفت اى تصرف مع اشلى ، فسوف تؤكدين الشائعات والاقاويل فيصبح منبوذا مثلك ، السيدات ضدك ، كان الله فى عونك يا سكارليت ، وعندما تنقلب السيدات المسيحيات ضدك فإنه من الافضل الا تنتظرى غفرانا مسيحيا يا سكارليت .. انهن لن يسمحن حتى لرجالهن بالمغفرة لأنهن يمتلكن رجالهن جسدا وروحا »

نهض المحامى من مقعده وهو يقول : « انفضى يدك من اشلى ، واتركى منزل بيتيبات على حاله بما فى ذلك النصف الذى تملكينه ، ولا تكفى عن ارسال المال عن طريقى لدفع فواتير صيانته .. كما كنت تفعلين دائما ، وهذا سيحقق وعدك لميلانى .. هيا ساصحبك الى مركبتك »

● ● ●

الضـــيوف الحـثـــالة

السبيل الوحيد لتهدئة القلق هو التوجه الى البنك ، حتى تعرف حقيقة ما قاله المحامى هنرى هاميلتون حول الأزمة المالية التى بدات فى وول ستريت (حى المال والأعمال فى نيويورك) وتنتشر فى انحاء امريكا . وبينما كان مدير البنك يبدد مخاوفها إذا به يقول بطريقة عفوية ان زوجها ريت باتلر اشترى منذ شهر مضى اسهما جديدة فى البنك ، وشعرت سكارليت بانها تريد ان تقفز من مقعدها تعبيرا عن الارتياح ، فإذا كان ريت يشترى اسهما فى البنك ، فلابد ان هذا هو اكثر البنوك امانا فى امريكا ، لقد كان يجنى المال دائما فى وقت يتعرض فيه بقية انحاء العالم للانهيار ، ويكفى بالنسبة لها ان ريت يضع ثقته فى هذا البنك .. فهو يملك تلك « الكرة البلورية العزيزة » التى يرى من خلالها المستقبل ، كما قالت ضاحكة لمدير البنك ، وطلبت تحويل كل اموالها السائلة الى ذهب ، فهى لا تثق على الاطلاق .. فى الأوراق .

هى الآن فى متجرها « سوق كنيدى التجارى » وهو ما ورثته من زواجها القصير من فرانك كنيدى .. علاوة على الطفلة « ايلا » وكان سرورها من هذا المتجر الكبير هو الذى طغى على خيبة املها من الطفلة . ويتولى « ويلى كيرشو » وظيفة رئيس حسابات المتجر ، وقد تلقى الآن اوامر من صاحبة المتجر بفتح حساب دائن ، ودهش الرجل لان مثل هذا التصرف لم يحدث منذ تولت سكارليت ادارة المتجر ، ولكنه اصغى بحرص الى التعليمات ، واقسم الا يبوح لأحد بالسر . وكان يعرف انه من الافضل له ان يلتزم بقسمه لأنه كان مقتنعا بان لسكارليت عيونا وراء راسها وتستطيع ان تقرا افكار الناس !

واثناء الغداء قرات سكارليت الصحف ، ولم تستطع مواصلة تناول الطعام .. لقد كان « العم هنرى » ـ المحامى ـ على حق بعد ان كانت تتصور انه يغالى فى تقدير الموقف او يتوهم اشياء لا وجود لها .. وتتحدث الصحف عن الانهيار فى عالم النشاط الاقتصادى واغلاق بورصة نيويورك لمدة عشرة ايام عقب ما اسماه الصحفيون يوم « الجمعة الأسود » الذى انهارت فيه اسعار البورصة لأن الجميع يبيعون ولا احد يشترى .. والبنوك تغلق ابوابها فى المدن الامريكية الرئيسية لأن عملاءها يريدون اموالهم ، بينما الأموال تبددت بعد ان استثمرتها البنوك فى اسهم « امنة » اصبحت بلا قيمة فعلية .. والمصانع فى المناطق الصناعية تغلق ابوابها بمعدل مصنع كل يوم تقريبا تاركة آلاف العمال بلا عمل وبلا نقود .

ورغم هذا الرعب الذى سيطر على البلاد والقلق الذى عاودها .. فقد عزمت سكارليت على ان تقوم بالزيارة التى كانت تنوى القيام بها .

● ● ●

طوال حياتها كانت تسمع عن الاشخاص الذى شهرت بهم الفضائح ، وكيف انه لا يوجد شخص مهذب يمكن ان يفتح لهم باب منزله ، غير انها لم تتصور فى ابشع تخيلاتها ان ذلك يمكن ان يحدث لها .. هى سكارليت اوهارا ابنة الين روبيلار من سهول روبيلاروز ! غير ان هذا لا يمكن ان يحدث ، انها الآن تدق جرس باب منزل العمة بيتيبات ولا احد يريد ان يفتح الباب .

انني هنا لكى اصنع خيرا .

هكذا كانت تفكر وهى فى حالة من الارتباك والذهول الجريح ، وشعرت بأن الدموع تكاد تبلل عينيها ثم اجتاحتها موجة من الغضب والهياج ، اللعنة انها تملك نصف هذا المنزل ، كيف يجرؤ اى شخص على ان يغلق الباب امامها ؟

دقت على الباب بقبضتها واخذت تدير مقبضه المغلق بعنف فتحدث خشخشة وتكتكة غير ان مزلاج الباب يظل هامدا .. وصرخت من خلال ثقب المفتاح : « انني اعرف انك هنا يا .. انديا ويلكس ، لقد جئت اتحدث اليك يا انديا ولن اغادر هذا المكان قبل ان افعل . سوف اجلس على عتبة الباب الى ان تفتحي او الى ان يحضر اشلى الى البيت ومعه مفتاحه ، عليك ان تختارى »

وفتح الباب . وهمست انديا بخشونة « بحق السماء ادخلى ، سوف تجعليننا مضغة فى افواه الجيران » وقالت سكارليت بجفاء ، وهى تنظر الى انديا باحتقار : « ربما كان يجب ان تخرجى وتجلسى على السلالم معى ، فقد نزل قدم صعلوك اعمى .. ويتزوجك مقابل غرفة ووجبات الطعام »

وتراجعت سكارليت بسرعة واعتذرت لانديا ، التى كانت تتاهب لاغلاق الباب من جديد . انها لم تات لتتشاجر مع انديا ، ومنعتها من اغلاق الباب .

كم كان ريت يحب ذلك ! هذا ما خطر فجاة على ذهن سكارليت ، فى الأيام السعيدة لزواجهما كانت تقص عليه دائما حكايات انتصاراتها فى العمل وفى العالم الاجتماعى الصغير لمدينة اتلانتا ، الامر الذى كان يدفعه الى الضحك لفترة طويلة وبصوت عال . وكان يعتبر تلك الحكايات مصدرا لا ينتهى ابدا للحبور ، ربما كان سيضحك مرة اخرى لو اخبرته كيف كانت انديا

تنفخ كالتنين المضطر الى التراجع .
كانت سكارليت تريد ان تفرغ من مهمتها قبل حضور اشلى ، قالت ان ميلى طلبت منها على فراش الموت ان تعدها بان ترعى « بو » واشلى ، واهتز جسد انديا ، كما لو كان قد تلقى رصاصة ، وحذرتها سكارليت الا تنطق بكلمة لأنه لا شىء يخرج من فمك سيكون له معنى بعد كلمات ميلى الأخيرة .. قالت انديا : ستدمرين اسم اشلى ، كما دمرت اسمك .. لا اريدك ان تتبعيه فى كل مكان لتجلبى العار لنا جميعا ..
قالت سكارليت : « آخر شىء اريد ان افعله على ارض الله الخضراء يا انديا ويلكس هو ان امضى دقيقة اخرى فى هذا المنزل اكثر من الوقت الذى اضطر الى الجلوس فيه ، لقد جئت لابلاغك باننى قمت بترتيبات فى متجرى لكى تحصلوا على كل شىء تريدونه »
— عائلة ويلكس لا تتلقى الاحسان يا سكارليت .
— انت يا ساذجة .. اننى لا اتحدث عن الاحسان ، اننى اتحدث عن وعدى لميلانى ، انت لا تدرين مدى السرعة التى يكبر بها « بو » ويحتاج الى احذية اكبر ، ولا تدرين مدى تكلفة هذه الأحذية ، هل تريدين ان يتحمل اشلى أعباء صغيرة كهذه بينما هو كسير القلب بسبب اشياء اكبر ؟ ام هل تريدين ان يكون « بو » اضحوكة فى المدرسة ، اننى اعرف مقدار الدخل الذى تحصل عليه العمة بيتى .. لقد اعتدت ان اعيش هنا ، هل تذكرين ؟ انه يكفى لكى يسد رمق العم بيتر ونفقات العربة ولوضع القليل من الطعام على المائدة ولدفع ثمن النشادر الذى تعالج به نفسها من الصداع والاغماءات .. وهناك شىء صغير يسمى « الرعب » ايضا .. نصف النشاط الاقتصادى والتجارى فى البلاد ينهار .. والأرجح ان اشلى سيحصل على قدر اقل من المال مما كان يحصل عليه ، وإذا كنت ابتلع كبريائى وادق على الباب الامامى مثل امراة مجنونة فانت تستطيعين ان تبتلعى كبرياءك وتاخذى ما اعطيك اياه ، وليس من حقك ان ترفضى ، لانه لو كان الامر يتعلق بك فقط .. لتركتك تموتين جوعا دون ان يطرف لى جفن ، اننى اتكلم عن « بو » واشلى وميلى لاننى وعدتها بما طلبت منى .
— كيف اعرف ان هذا ما قالته ميلانى ؟
— لاننى اقول ذلك ، وكلماتى مثل الذهب ، وبصرف النظر عما تظنينه عنى يا انديا ، فإنك لن تجدى ابدا اى انسان يقول اننى حنثت بوعد او تراجعت عن كلمتى .
وترددت انديا وادركت سكارليت انها تنتصر ، وقالت :

— لست مضطرة للذهاب الى المتجر بنفسك ، يكفى أن ترسلى قائمة مع اى شخص آخر .

واخذت انديا نفسا عميقا ، وقالت على مضض .

— فقط من اجل ملابس بو .

وكتمت سكارليت ابتسامتها ، فما ان تدرك انديا كم هو شائق ان تحصل على الأشياء مجانا فإنها ستطلب اكثر بكثير من ذلك ، وكانت سكارليت على يقين من توقعاتها .

قبل ان تغادر البيت ، قالت سكارليت : « مستر كيرشو رئيس الحسابات ، هو الوحيد الذى يعرف هذا الموضوع ، اكتبى اسمه على قائمة السلع المطلوب شراؤها ، وسوف يتولى كل شىء »

● ● ●

الآن .. تتاكد سكارليت بنفسها من صحة ما قاله « العم هنرى » المحامى . السيدات يرفضن التحدث معها او مجرد القاء التحية او رد التحية فى المحال التجارية وفى الشوارع ، وتقرر الذهاب الى مصنع الأخشاب لتطلب من آشلى ان يكف عنها سموم انديا شقيقته . وعندما تصل الى هناك .. تشعر بانها هبطت من حالق .. الواح الخشب ـ بعد نشرها ـ مكدسة تبرق تحت شمس الخريف . ولا توجد عربات للشحن لأنه لا توجد طلبيات .. لا احد يشترى شيئا . ولم يكن آشلى افضل حالا مما كان عليه فى لقائهما الأخير ، وليس هناك ما يشجع سكارليت على ان تتحدث معه عن انديا او عن العمل . انه يهمل نفسه تماما ، فلماذا يهتم بى ويدرك اننى اخاطر بما تبقى من سمعتى بحضورى الى مصنعه بدون مرافقة ؟ وفوجئت به يعاتبها لأنها منعته من إلقاء نفسه فى قبر ميلانى .. فهو يجزم بان مكانه هناك او فى اى قبر ..! وهو يحمل نفسه مسئولية موت تجارته فى الأخشاب ، وهى التجارة التى سبق ان كرست لها سكارليت كل طاقاتها وحققت فيها كل النجاح .

وعندما تعود سكارليت الى بيتها كان ما يشغلها هو كيفية تنفيذ وعدها لميلانى ، الأمر الذى سيكون اصعب مما تظن . فالمشكلة لن يحلها توفير الملابس وسلع الاستهلاك اليومى لتلك الأسرة ، والواضح ان آشلى لن يرفع اصبعا ليساعد نفسه . وتقع على عاتقها مسئولية ان تجعل منه رجلا ناجحا سواء تعاون لتحقيق هذا الغرض او لم يفعل . لقد وعدت ميلانى ، كما انها لا تتحمل ان ترى صناعة الأخشاب التى تعبت لكى تكفل لها كل وسائل الازدهار .. يكون مصيرها الانهيار ، ثم انها لا تتصور انه لا يوجد

اى سوق الآن للأخشاب حتى فى ظل موجة « الرعب » التى تسود عالم التجارة والمال .. فالناس لابد أن يشيدوا المبانى ولن يكفوا عن بناء اى شىء حتى لو كان حظيرة للأبقار او اسطبلا للجياد ، ووجدت الحل : لماذا لا تستثمر الأرض الزراعية التى تركها لها تشارلس هاميلتون .. المزارع لم تعد تدر عائدا حقيقيا على الاطلاق . ما قيمة ان تحصل على سلتين من القمح وبالة من القطن ؟ المهم ان تجد المقاول المناسب ، من بين المقاولين المتعطشين للعمل ، الذى يتولى بناء مائة منزل او مائتين .. عندئذ يمكن الاستفادة من المائة فدان التى تملكها على مشارف اتلانتا ، وخاصة مع تمدد المدينة وتوسعها .

لا شك ان الظروف الآن تحتم على كل من يخسر امواله ان يفرض على نفسه التقشف ويتخلص من منزله الكبير ، ويقيم فى منزل اصغر حجما لا يكلفه سوى الحد الادنى من النفقات .

هذا المشروع لن يحقق لى مكسبا او يدر ارباحا ، ولكننى على الاقل .. لن اخسر الكثير من النقود . واهم ما يعتمد عليه نجاح المشروع هو ان تكون كل الأخشاب اللازمة فى عمليات البناء .. التى يستخدمها المقاول ، من مصنع آشلى فقط ومن احسن ما عنده ايضا ، فى هذه الحالة سوف يكسب آشلى مالا .. وليس ثروة ، وسيتوافر له دخل ثابت معقول . ولن يعرف ابدا مصدر هذا الدخل . ويمكن أن توجد الوسائل لضمان بقاء الامور فى طى الكتمان لو استطعت ان اجد المقاول الذى يحتفظ بلسانه فى فمه والذى لا يسرق كثيرا . وقد عثرت سكارليت على هذا المقاول . انه جو كولتون .

ما ان تسترجع الذاكرة شخصية « ميلانى » وكلماتها .. حتى تشعر سكارليت بانها احسن حالا ..

ما دامت « ميلى » قد اكدت ان ريت يحبها .. إذن .. فهو يحبها ، وتكون هذه هى الحقيقة وليست التمنيات .

وترى سكارليت انها ليست مضطرة لأن تكون وحيدة .. فهى ترتبط بصداقات عديدة خارج اطار « الحرس القديم » فى اتلانتا ، وينتمى أصدقاؤها الى طبقة الرجال الناجحين الذين صنعوا ثرواتهم من الحرب الأهلية .. وكان ريت يحتقرهم دائما ويسميهم بـ « الحثالة » ويغادر المنزل عندما تقيم سكارليت لهم الحفلات التى تنفق عليها بسخاء .. وكانت سكارليت تعتبر موقف ريت سخيفا ، ذلك انها تعتقد ان « الاغنياء اكثر مرحا على الدوام من الفقراء .. وملابسهم ومركباتهم ومجوهراتهم افضل ، وهم يقدمون لك اشياء افضل لكى تاكل وتشرب عندما تزورهم فى منازلهم ،

وقررت ان تقيم اعظم حفل استقبال بين جميع الحفلات التى أقامتها . غير ان الحفل انتهى بطريقة غير متوقعة ، فقد سمعت سكارليت بطريق الصدفة وهى تطوف بين المدعوين ، رجل الأعمال « بيل ويلار » وهو يتحدث عن « الجنوبيين المغفلين » ويتفاخر بانه كان يستثمر غباءهم فى تكديس الأموال عن طريق ايهام الأمهات الثكلى ، والأرامل بان المحاربين القدماء فى الجيش الجنوبى يصنعون نصبا تذكارية تحفر أسماء الضحايا القتلى على رخامها .. لكى يستولى على نقودهم ..

وجدت سكارليت نفسها تصرخ وسط ضحكات الرجال الذين يستمعون اليه فى اجلال واعجاب .. وتقول « هذه هى أكثر الحكايات التى سمعتها فى حياتى قذارة ووضاعة ، أنت تثير اشمئزازى يا بيل ويلار ، كلكم تثيرون اشمئزازى ، ماذا تعرف عن الجنوبيين ، او عن الناس المهذبين فى اى مكان .. أنت وهؤلاء المعجبون بك حثالة .. كلكم حثالة .. اخرجوا من بيتى ، انتم تثيرون قرفى »

لقد تصورت سكارليت هذا الرجل - بيل ويلار - وهو يغش اهلها واعزاءها .. ربما يرسل رجاله الآن الى سيدة مثل بياتريس تارلتون او كاثلين كالفيرت او ديميتى مونرو ، او اى امراة اخرى فى مقاطعة كليتون تكون قد فقدت ابنها او شقيقها او زوجها فى الحرب ليستولوا على ما يمكن ان يكون فى حوزتها من نقود .

● ● ●

الوحدة تطبق عليها من جديد وهى تتجول فى ردهات منزلها التى تكاد تكون معتمة .. وتجلس الى المائدة التى اعتاد ريت ان يجلس اليها ويشرب كئوسا من البراندى ، وتستعيد وسط موجات الألم والرغبة ذكرى ليلة لا تنسى مع ريت .. وخرج صوتها فى الصمت الأجوف فى الغرفة التى تضيئها شمعة واحدة : « ريت .. ريت اننى احتاج اليك »

● ● ●

القرصـان ذو اللحية السوداء

جاء الشتاء ومعه المزيد من الكوارث فى عالم المال والأعمال .. طوابير الخبز ، ومطابخ الحساء الجماعية فى المدن الأمريكية الكبيرة .. الآلاف من الأمريكيين يفقدون وظائفهم كل اسبوع مع افلاس الشركات .

واقترب عيد الميلاد لكى تبدأ سكارليت التفكير فى الهدايا التى ترسلها الى ابنتها « ايلا » وابنتى « سوايلين » والى « ويد » و« ويل » أما « بو » ابن « ميلانى ».. فإن المؤكد ان انديا سوف ترفض الهدية وتعيدها دون فتحها .. كما ان « بو » لا ينقصه شيء الآن .. ذلك ان حسلب عائلة ويلكس فى متجرها يتضخم كل اسبوع . وابتاعت سكارليت قاطعة سيجار ذهبية لتهديها الى « ريت » ولكنها لم ترسلها . وبدلا من ذلك ارسلت هديتين الى خالتيها فى شارلستون . فقد تتحدثان عنهما الى والدة « ريت » التى قد تحكى بدورها لـ « ريت »

اتساءل عما إذا كان سيرسل لى هدية عيد الميلاد ؟ ربما ياتى الى البيت فى هذه المناسبة ليقطع الطريق على الشائعات .

مجرد هذا الاحتمال كان كافيا لكى يدفع سكارليت - وهى فى حالة من النشوة - الى تجميل المنزل . وعلمت سكارليت ، بطريق الصدفة ، ان هناك حفلة تنكرية راقصة كبرى يجرى الاعداد لها فى اتلانتا .. ولكنها لم تتلق دعوة للحضور . وتمنت لو كانت قد تركت آشلى يدق عنقه فى قبر ميلانى ! فها هم يفرضون عليها العزلة فى مجتمع اتلانتا . وقرات فى الجريدة أن مدينة شارلستون سوف تشهد حفلات كل يوم وطوال اليوم وحفلة راقصة كل ليلة .. لأسابيع . وحدثت سكارليت نفسها : المؤكد ان ريت سيكون حاضرا فى كل هذه الحفلات .

والتقطت عيناها عنوانا فى الجريدة « الكرنفال يختتم بحفلة تنكرية » لابد ان هذه هى الحفلة التى سمعت عنها . إذن كل شخص فى العالم - ما عداى - يذهب الى حفلات مدهشة ! اما التفاصيل .. فتقول ان الحفلة ستقام فى دار أوبرا دى جيفز التى ستتحول الى « ارض العجائب » بمعنى الكلمة وان ثلثمائة دعوة ستوزع على اعظم « فرسان » اتلانتا وسيداتها الأول .

اللعنة ! هكذا صاحت سكارليت والحزن يمزقها ، وبدات تبكى كالطفل . ليس من العدل ان يرقص ريت ويضحك فى شارلستون وأن يقضى كل اعدائها فى اتلانتا وقتا طيبا بينما تبقى ، هى ، وحيدة فى منزلها الكبير الصامت . انها لم ترتكب إثما يجعلها تستحق مثل هذه العقوبة .

ولكن .. كيف تدعهم يدفعونها الى البكاء ؟

تجفف دموعها وهى تحدث نفسها فى غضب . انها لن تفسح مكانا للأسى ، فهى ستمضى وراء ما تريده . ستذهب الى الحفل ، وستجد وسيلة لذلك بطريقة او باخرى .

واتضح انه لم يكن من المستحيل او من الصعب الحصول على دعوة للحفل . فقد علمت انه سيسبق هذا الحفل موكب الكرنفال الذى سيتكون من مركبات مزينة بالزخارف تعلن عن سلع ومتاجر . وعلى كل من يريد الاشتراك ان يدفع الرسوم علاوة على تكلفة تزيين العربات ذات المنصات . اما عن الثوب الذى ترتديه فى الحفل الراقص التنكرى ، فإنه لابد ان يكون متميزا ومبتكرا بالمقارنة مع جميع الأثواب الأخرى . ثوب طويل له ذيل من الفراء الأبيض . وكل المجوهرات التى تريدها . انها لا تدرى لماذا كان ريت شحيحا فى شراء المجوهرات لها . لقد اشترى لها كل شىء آخر تريده ، ولكن النوع الوحيد من المجوهرات الذى كان يتحمس له .. هو اللآلىء . والآن ستضع اللآلىء فى شعرها وحول رقبتها ومعصميها . وستعتمد على ثوبها وقناعها فى حمايتها من السيدة ميريويزار ومن انديا ويلكس والأخريات . وستقضى وقتا ممتعا وتشارك فى كل رقصة وتعود لتصبح جزءا من نبض الحياة .

وفى الكرنفال المهيب .. شعرت سكارليت بدموع مفاجئة على يديها . لم تكن دموع الهزيمة ، وإنما دموع الكبرياء . فقد احرق رجال تشيرمان مدينة اتلانتا . ونهب الشماليون جورجيا ، ولكنهم لم يتمكنوا من تدمير الجنوب . ورات الدموع فى عيون النساء والرجال .. الذين وقف كل منهم لتقديم التحية للعلم بعد نزع غطاء راسه وتنكيس مظلته .

● ● ●

ارتدت سكارليت ثوب ملكة القلوب ، وكانت تفضل ثوب ملكة الماس ، واللآلىء تليق بملكة حقيقية .. ذيل ثوبها مشغول بفراء ثعلب ابيض .. قناعها من الساتان الأحمر ويغطى وجهها حتى أعلى الأنف .. طلاء احمر للشفتين يتلاءم مع لون القناع .

وتشعر سكارليت بجراة شديدة وبامان كامل . فهذه الليلة سترقص لتمتع نفسها دون ان يتعرف احد على شخصيتها فيوجه اليها اهانة او يؤذى مشاعرها ، ما اجمل فكرة القناع !

ورغم القناع على وجهها .. فقد كان يغلب عليها التوتر وهى تدخل قاعة الرقص بلا مرافق . وانضمت الى قافلة من المقنعين اثناء عبور الباب الى

داخل القاعة دون أن يلحظ احد انها وحدها ، فقد اصبحت تبدو كما لو كانت من ضمن افراد المجموعة . وفوجئت عندما دخلت قاعة اوبرا « دى جيفز » بانها تحولت الى قصر ملكى .. وفى احد الأركان شاهدت أكبر مجموعة من افراد الأوركسترا يقع بصرها عليها حتى الآن .

تقدم نحوها رجل يرتدى ثيابا صينية ، ووضع يده حول خصرها واجتذبها الى حلبة الرقص . توحى هيئة الرجل بانه غريب . جو من الغموض والاثارة .. والأوركسترا تعزف الحان الفالس وشريكها فى الرقص يصيبها بالدوار بسبب سرعته . وتلمح سكارليت مع كل دورة سريعة .. دائرة من الثياب التنكرية لهنود ومهرجين ودببة وقراصنة وراهبات وكاردينالات .. الجميع يرقصون بجنون مثلها . وعندما توقفت الموسيقى .. كانت قد تقطعت انفاسها . قالت : « رائع .. ممتع .. الناس كثيرون .. لابد أن كل جورجيا توجد فى هذا المكان لترقص ». قال شريكها : « ليسوا كلهم ، فالبعض لم يتلق دعوات » واشار باصبعه .. فرات سكارليت الشرفات الخارجية تكتظ بالمشاهدين بملابسهم العادية .

سطعت اضواء خاطفة من قرطها الماسى .. وانعكست فى عينى « الصينى » ـ الذى يرتدى ملابس رجال الامبراطورية الصينية القديمة ـ من خلال فتحتى القناع .

رقصت كما لم ترقصّ منذ سنين ، وهى سعيدة لأن احدا لا يعرفها ، ولا يستطيع أن ينال منها . وكان من السهل أن تتعرف على عجائز « الحرس القديم » وأن تلحظ وجود آشلى على الفور رغم قناعه . كان يضع شارة الحداد حول كمه . لابد أن انديا « سحبته » الى هنا حتى يكون لها مرافق . وكان من السهل ملاحظة أن آشلى يكره تواجده فى هذا المكان .

.. الوقت يمضى . ويحاول بعض المعجبين بسكارليت أن يعرفوا اسمها ، ويحاول احدهم أن ينزع قناعها ، ولكنها تزيحهم بلا مشقة .. والابتسامة لا تفارق شفتيها : لم انس كيف اردع الأولاد المشاكسين .

كانت قد قررت أن تبحث عن مقعد لتستريح بعد أن سحق احد « الفرسان » الراقصين معها اصبع قدميها تحت حذائه ، غير انها سمعت الأوركسترا تعزف احدى اغانيها المفضلة ، فلم تستطع مقاومة الرغبة فى الرقص . ورأت العمة بيتيبات والسيدة السينج فى طريقها .. هل يمكن أن تكونا قد تعرفتا عليها ؟ مزيج من الغضب والخوف يعكر شعورها بالنشوة ، ولكنها حاولت أن تتخلص من أى شىء يفسد عليها هذه المتعة .

وعلى غير ارادتها .. كانت عيناها تتطلعان مرارا الى جانبى قاعة

الرقص ، والى الرجال والنساء الجالسين والواقفين هناك . ووقعت عيناها على « قرصان » ملتح طويل القامة كان يتكىء على مقبض الباب ، وانحنى لها . واحتبست انفاسها .. هناك شىء ما .. مظهر خارجي يوحى بالوقاحة .

كان القرصان يرتدى قميصا ابيض وبنطلونا داكن اللون ، ولا شىء آخر باستثناء حزام حريرى احمر عريض يلتف حول خصره ومسدسين مثبتين فى الحزام ، وقوسين ازرقين مربوطين بنهايات لحيته الكثيفة ، اما قناعه فقد كان بسيطا واسود اللون فوق عينيه ، انه ليس من الذين صادفتهم هذه الليلة . هل هو ؟ قلائل من الرجال يضعون لحى كثيفة هذه الايام . ومع ذلك فالطريقة التى يقف بها ، والطريقة التى يركز بها بصره نحوها مباشرة من خلال القناع .... وعندما نظرت اليه سكارليت للمرة الثالثة ، ابتسم وظهرت اسنانه الناصعة البيضاء من خلال لحيته السوداء وبشرته الداكنة .. وشعرت سكارليت بدوار انه « ريت » ولكن لا يمكن .. لابد انها تتخيل الاشياء .. لا .. انها لا تتوهم ، لو كان من تراه شخصا آخر لما كان هذا هو شعورها ، اليست هذه هى طريقته ؟ الظهور فى حفل لم يستطع معظم الناس الحصول على دعوة لحضوره .. ان « ريت » يستطيع ان يفعل اى شىء !

وتركت « الصينى » وهى تقول « معذرة ، لابد ان اذهب » واسرعت نحو زوجها .

● ● ●

انحنى ريت مرة اخرى ليقدم لها نفسه : « ادوارد تيتش ، فى خدمتك يا سيدتى »

— من ؟

هل يظن انها لم تتعرف عليه ؟

داعب ريت شعيرات من لحيته ، وهو يقول : « ادوارد تيتش المشهور باسم ذو اللحية السوداء ، اعظم وغد شق حتى الآن مياه الأطلنطيك ! »

قفز قلب سكارليت ، وحدثت نفسها : انه يمزح ، يلقى بنكاته التى يعرف اننى اكاد لا افهمها ، انها طريقته التى اعتاد عليها قبل ... قبل ان تسوء الامور . ولا يجب ان اخطىء موضع قدمى الآن . لا يجب . ماذا كنت ساقول قبل ان احبه كثيرا جدا ؟

قالت : « اننى مندهشة لانك جئت ، إلى حفل فى اتلانتا ، بينما هناك الكثير من الروائع والسهرات فى جوهرتك الثمينة . شارلستون »

هكذا .. وهو ما يجب أن يقال . انه ليس كلاما موجعا تماما .. ولكنه ليس كلاما وديا تماما ، ايضا ، وارتفع حاجبا « ريت » ف شكل هلالين اسودين فوق قناعه . وحبست سكارليت انفاسها . لقد كان وجهه يكتسب هذه الملامح عندما يتذوق ما يسمع . إذن .. فهى تحسن التصرف . قال :

— كيف اصبحت مطلعة الى هذا الحد على احوال شارلستون الاجتماعية يا سكارليت ؟

— اقرأ الصحف .. وعلمت ان بعض النسوة الحمقاوات يذهبن هنا وهناك سعيا وراء سباق الخيل .

اللعنة على هذه اللحية ، انها تعتقد انه يبتسم ، ولكنها لا تستطيع أن ترى شفتيه اللتين تختفيان تحت شعرها الكثيف . قال « ريت » :

— اننى اقرأ الصحف ايضا ، وحتى ف شارلستون يعتبرون إصرار بلدة مبتدئة مثل اتلانتنا على ان تتظاهر بانها نيو اورليانز .. من الأخبار المثيرة .

نيو اورليانز .. لقد امضيا فيها شهر العسل .

خذنى الى نيو اورليانز .. مرة اخرى . هذا ما تريد أن تقوله .. أن نبدأ من جديد ، وكل شيء سيتغير الى الأحسن ، ولكنها يجب الا تقول هذا الكلام . ليس الآن . وقفز عقلها بسرعة من ذكرى الى ذكرى .. نيو أورليانز وذكرياتها .. شوارع ضيقة مرصوفة بالحصى .. غرف مستطيلة .. ظلال وارقة ، مرايا ضخمة داخل اطر ذهبية باهتة .. اطعمة ممتازة وغريبة .

قالت على مضض : « اعترف بأن الشراب والطعام هنا ليس فاخرا » ضحك ريت ، وقال : « تصريح قوى ، ولكنه اقل من الحقيقة » . اننى ادفعه الى الضحك . ولم اسمعه يضحك منذ دهور طويلة . لا شك انه راى الرجال يتزاحمون ويتدافعون للرقص معى .

وسألته : كيف عرفتنى وانا اضع قناعا

— كان يكفى فقط أن اميز المراة الأقدر من غيرها على ان ترتدى ثوبا لافتا للأنظار .

ونسيت انها تحاول ان تدخل السرور الى قلبه . وقالت : « أوه .. انت .. انت رجل بغيض . انك لست انيقا يا ريت باتلر بهذه اللحية السخيفة . ويظهر انك نسيت ان تلصق على وجهك جلد الدب »

— لو اننى فعلت ، لأصبح تنكرى اكثر اتقانا واكمل .. ويا ليتنى فعلت .. فهناك عدد من الأشخاص ف اتلانتا لا اتشوق لجعلهم يتعرفون على شخصى بسهولة .

— إذن ، لماذا جئت ؟ ليس لمجرد اهانتى فيما اعتقد ؟

— لقد وعدتك بان اجعل نفسى ظاهرا بالدرجة الكافية لمنع الشائعات يا سكارليت ، وهذه مناسبة ممتازة .

— وما جدوى ذلك فى حفلة تنكرية ؟ لا أحد يعرف شخصية أحد

— فى منتصف الليل ، تنزع الاقنعة ، اى بعد أربع دقائق من الآن ، سوف نرقص الفالس امام الناس ، ثم نغادر المكان ..

واخذها ريت بين ذراعيه ، ونسيت سكارليت غضبها ، ونسيت خطر نزع الاقنعة امام اعدائها ، ونسيت العالم .. لا شىء مهم سوى انه هنا .. ويحتضنها .

● ● ●

ظلت سكارليت ممددة معظم الليل بلا نوم .. تحاول ان تفهم ما جرى ، كان كل شىء رائعا فى الحفل ، وعندما دقت الساعة منتصف الليل ، قال الدكتور « ميد » ان كل شخص يجب أن ينزع قناعه . وكان ريت يضحك عندما خلع لحيته ايضا . اقسم انه كان يمتع نفسه ، ووجه التحية الى الطبيب ، وانحنى للسيدة « ميد » ثم دفعنى الى مغادرة المكان بسهولة مثل خنزير مطلى بالدهن ، ولم يلاحظ الطريقة التى ادار بها الحضور ظهورهم لى ، او على الأقل فإنه تظاهر بانه لم يلحظ ذلك ، كان يبتسم ابتسامة عريضة . وفى العربة ، اثناء الطريق الى البيت ، كانت الظلمة شديدة بحيث يصعب رؤية وجهه ، ولكن صوته بدا مرتاحا ، ولم اعرف ما اقوله . وسألنى عن سير الامور فى تارا وعما إذا كان محاميه يدفع الفواتير فى وقتها ، وعندما فرغت من اجابته كنا قد وصلنا الى البيت ، وفى تلك اللحظة حدث ما حدث . كان هنا يقف فى الدور الأرضى .. وببساطة قال طابت ليلتك .. كان مرهقا ، وتوجه الى غرفة ملابسه .. لم يكن متحاملا ، او فاترا .. قال ببساطة « طابت ليلتك » وذهب الى الطابق العلوى ، ماذا يعنى ذلك ؟ ولماذا ارهق نفسه وقطع كل هذه المسافة ، ليس لمجرد ان يذهب الى حفل بينما هذا هو موسم الحفلات فى شارلستون ، وليس لحضور حفلة تنكرية ، فقد كان يستطيع ان يذهب الى اعظم الحفلات التنكرية .. وعلاوة على كل ذلك فإن له اصدقاء عديدين فى نيواورليانز . انه سبق ان قال « لكى يمنع انطلاق الشائعات » فى لحظة .. هو الذى بدا .. نازعا تلك اللحية البشعة ، اخذت تسترجع ما حدث فى تلك الأمسية مرة بعد اخرى الى أن اصيبت بالصداع .. عندما عادت الى البيت بعد السهرة ، كان نومها قصيرا ومضطربا ، ومع ذلك استيقظت فى الوقت المناسب لتنزل الى الطابق

الأرضى . لتناول الافطار وهى ترتدى اكثر ثيابها جاذبية .. فهى لا تريد اليوم أن يحملوا اليها وجبة الافطار فى صينية الى غرفتها .

كان ريت يتناول افطاره فى غرفة الطعام ، قال :

— استيقاظك فى هذا الوقت المبكر يا عزيزتى تعبير عن مدى حرصك على مشاعر الآخرين .. فانا لم اكن أرغب فى أن أترك لك رسالة وداع .

ورفع منديل المائدة : « لقد حزمت بعض الاشياء من بقايا ملابسى ، وسوف آخذها فيما بعد ، وانا فى طريقى الى القطار »

توسل قلب سكارليت : لا تتركنى . وادارت راسها الى الناحية الأخرى ، حتى لا يرى عينيها ترجوانه ان يبقى . قالت :

— بحق السماء ، اشرب قهوتك يا ريت ، فإننى لن أؤدى مشهدا عاطفيا او اثور .. واتجهت صوب البوفيه وصبت لنفسها فنجانا من القهوة وهى تراقبه فى المرآة ، يجب أن تلتزم بالهدوء ، فقد يقنعه هدوؤها بالبقاء . نهض واقفا ، وساعته مفتوحة فى يده ، وقال « لم يعد هناك وقت فهناك اشخاص لابد أن التقى بهم وانا فى هذه البلدة ، ساكون مشغولا جدا حتى الصيف ، ولذلك سوف أشيع اننى مسافر الى أمريكا الجنوبية لأداء بعض الأعمال . ولن تتردد شائعات حول غيابى لهذه الفترة الطويلة . فمعظم الناس فى اتلانتا لا يعرفون اين تقع أمريكا الجنوبية وها أنت ترين يا عزيزتى اننى احافظ على وعدى لكى حتفظ بطهارة سمعتك »

ابتسامة عريضة على وجهه تنطوى ، هذه المرة على تحامل . واغلق الساعة ووضعها فى جيبه « وداعا سكارليت »

— ولماذا لا تذهب بالفعل الى امريكا الجنوبية وتضيع هناك الى الابد ؟»

عندما اغلق الباب وراءه ، امتدت يد سكارليت الى زجاجة البراندى . لماذا تصرفت على هذا النحو ؟ لم يكن هذا التصرف يعبر عن شعورها الحقيقى .. ولكنه كان يفعل ذلك معها دائما ، انه يستفزها لتقول اشياء لا تعنيها .. وكان يجب أن تعرف كيف تتجنب أن يتملكها الغضب بهذه الطريقة ، غير انه ما كان يصح ان يعايرنى بشأن سمعتى .. كيف عرف اننى منبوذة فى هذه البلدة ؟

ولم تكن فى أى يوم من أيام حياتها تشعر بهذا القدر من التعاسة

● ● ●

جاء الصيف .. ولم تتحقق زيارة ريت المرتقبة ، ولا كلمه منه ، وكانت سكارليت تسرع كل يوم من المتجر الى البيت حتى تكون فى انتظاره إذا وصل فى قطار الظهيرة ، وفى المساء ترتدى أجمل ثيابها وتتزين

باللآلىء وتجلس الى مائدة العشاء .. متأهبة لحضوره .. وتمتد المائدة الطويلة أمامها تلمع فوقها الأوانى الفضية .. ويزداد شعور سكارليت بالوحدة فى تلك الأيام ، بدأت تشرب البراندى بانتظام لكى تنأى بنفسها عن أشباح الصمت والهزيمة ، وهى ترهف السمع .. لعلها تسمع وقع أقدام تقترب . ولم تلحظ إلا عند حلول الخريف انها تفرط فى الخمر .

● ● ●

فى بريد اليوم رسالة من الخالة « اولالى » التى تقيم فى شارلستون . لماذا لا تقرأها ؟ قد تحتوى على شىء عن « ريت » خاصة ان والدته من اقرب اصدقاء الخالة . وصدق حدسها فالخالة تتهمها بأنها تستغرق نفسها تماما فى التجارة وتقضى أيامها فى المتجر رغم انها ليست مضطرة لكل هذا العناء ، وفوق ذلك فإن هذا النوع من النشاط لا يليق بسيدة يجب أن تكون فى مكانها الصحيح . الى جانب زوجها ، وثمة تنويه من الخالة بأن واجبها يفرض عليها أن تصارح ابنة شقيقتها سكارليت بكل هذه الأمور وتوجه اليها النصح .

ألقت سكارليت بالرسالة فوق المائدة .

إذن ، فهذه هى القصة التى يرويها ريت ويبرر بها موقفه : انها لا تريد ترك المتجر والذهاب معه الى شارلستون يا له من كاذب اسود القلب لقد توسلت اليه أن يصحبها معه وهو يهم بالخروج من هذا الباب . فكيف يجرؤ على الترويج لهذه الفرية ؟

كلمات منتقاة ستلقيها فى وجه السيد باتلر عندما يعود

اتجهت نحو البوفيه ، وصبت البراندى فى كأسها .. وتناثرت كمية منه فوق السطح الخشبى للبوفيه أزالتها بأكمام ثوبها

قد يتنصل ذلك الحقير وينكر انه وراء هذه الأكاذيب . وعندئذ ستلوح برسالة الخالة « اولالى » فى وجهه ودعونا نراه بعد ذلك وهو يصف أحسن صديقات والدته بانها كذابة !

وفجأة انحسر غضبها وشعرت ببرودة فى أطرافها ، انها تعرف ما سيقوله

— هل تفضلين أن أقول الحقيقة ؟ انتى تركتك لأن الحياة معك لا يمكن احتمالها !!

كلا . أى شىء يقال . سيكون أفضل من ذكر الحقيقة حتى أحاسيس الوحدة فى انتظار عودته أفضل

وشربت جرعة كبيرة من البراندى وتأملت وجهها فى المرآة وهى

تخفض يدها بالكاس الفارغة ، ونظرت الى عينيها . وروعتها الصدمة ، انها لم تنظر الى نفسها .. ولم تر صورتها منذ شهور .

وهى لا تصدق الآن ان هذا الوجه الشاحب الذابل ذا العينين الغائرتين .. هو وجهها ، وشعرها يبدو وكانه لم يغسل منذ أسابيع . ماذا حدث لها ؟

وامتدت يدها بطريقة تلقائية الى الزجاجة . وهنا أدركت الاجابة على سؤالها ، واصابها جزع صاعق . وسحبت يدها بعيدا ، ولاحظت أن يدها ترتعش . وهمست : « يا الهى » وتشبثت بحافة البوفيه لكى تحفظ توازنها . وحدقت فى المراة . قالت وكأنها تبصق : « غبية »! وارخت جفونها ، وسالت الدموع ببطء على خديها ، ولكنها مسحتها بالاصابع المرتعشة ، والحت عليها الرغبة أكثر من أى وقت مضى فى حياتها .. فى أن تشرب .. وتحرك لسانها ليرطب شفتيها . وقبضت يدها اليمنى على الكأس . واحست وهى تنظر الى يدها .. بأنها يد شخص اخر . وأمسكت بالزجاجة التى كانت تمثل بالنسبة لها فى وقت من الأوقات وعد الخلاص والمهرب .. وابتعدت عن صورتها المخيفة فى المراة .. وبكل قوتها طوحت بالزجاجة وقذفتها فى سطح المراة ..

رأت سكارليت وجهها يتحطم الى اجزاء .. ولكن ابتسامة الانتصار كانت ترتسم على ملامح هذا الوجه .

انهارت اجزاء من المراة واحدث سقوطها على الارض دويا كطلقة المدفع .

وها هى سكارليت تبكى وتضحك وتصرخ ثم تهلل لتحطيم صورتها وتصف نفسها بكلمة واحدة : « جبانة ! جبانة ! جبانة !» ولم تشعر بالجروح التى اصيبت بها من تناثر شظايا زجاج المراة على ذراعيها ورقبتها ووجهها ..

خيط من الدماء فوق خدها .. ولسانها كقطعة من الملح واصابعها اصطبغت باللون الاحمر .

انها الآن مع نفسها .. سواء أرادت ام لم ترد . ولا توجد اى كمية من البراندى قادرة على ان تغير هذه الحقيقة : ريت لن ياتى الى هذا البيت ، فهو لم يعد بيته . وكان عليها ان تعرف ذلك منذ وقت طويل . لقد رفضت أن تواجه الحقيقة ، كانت جبانة وغبية .

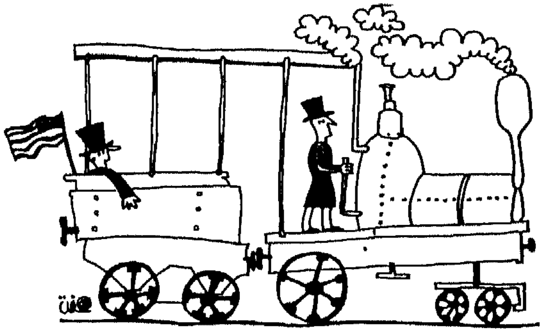
.. ولكن ليست هذه هى سكارليت أوهارا التى واجهت من قبل اسوا ما فى العالم وتصدت له وعالجته واقتحمت الخطر لكى تحصل على ما تريده . هالها الأمر ، وارتعدت ، لقد كانت توشك ان تهزم نفسها .

ولكن ذلك كله قد انتهى . فقد جاء الوقت الذى تضع فيه حياتها بين يديها وتدافع عنها حتى النهاية .. لا براندى بعد الآن . فى نفس تلك اللحظة ، كان جسدها كله يصرخ طلبا للشراب ، ولكنها رفضت أن تستجيب ، لقد فعلت ما هو اقسى من ذلك . واصعب فى حياتها . وتستطيع ان تفعل ذلك الآن .. ويجب .

سكارليت ترتجف من راسها حتى قدميها ، ولكنها تتحامل على نفسها .. وترتقى السلم الى الطابق الأعلى . انها تريد أن تغسل شعرها ، وهى فى حاجة الى اسابيع قليلة ، لكى تتغلب على ضعفها وتقهره ، وتعود كما كانت .. ينبغى أن تكون كما كانت دائما .. قوية وجميلة ، ولا وقت للضياع .

« ريت » لم يرجع اليها ، ولذا فإنها يجب أن تذهب اليه . الى شارلستون .

● ● ●



● القسم الثانى ●

مخاطرة كبرى

● الفنانه البريطانيه « فيفيان لى » (فى دور « سكارليت أوهارا) الذى حققت فده مع كلارك جيبل (فى دور « ريت باتلر ») أعظم نجاح فى تاريخ السينما الامريكيه حتى اليوم



شـــارلســـتون

وداعا اتلانتا ..

انها الآن فى الطريق لاستعادة « ريت » . لقد تحدد هدفها . وكل طاقاتها تحتشد لبلوغه . سوف تحب شارلستون هذه المرة . فهى مصممة على ذلك رغم أن « ريت » يحاول اثارة الناس ضدها كما هو واضح . سوف يتغير كل شىء . لقد كانت تقول لنفسها دائما « لاتنظرى إلى الخلف » .. وهى تتمثل الآن كل ما فى هذه العبارة من معنى . فكل حياتها وراءها .. وتتسع المسافة بينها وبين حياتها الماضية مع كل دورة لعجلات القطار . لقد تركت كل شئون عملها وإدارته المالية للعم هنرى هاميلتون .. مع وضع كل الضمانات التى تكفل امداد المقاول جوكولتون بالمال لاستكمال المشروع . وهكذا يجرى تنفيذ تعهداتها لميلانى . وطفلاها مستقران فى « تارا » . ولأول مرة فى حياتها بعد سن الرشد تحس بانها حرة فى أن تفعل ما تشاء . وسوف تثبت لـ « ريت » انه كان على خطأ عندما رفض أن يصدق انها تحبه . وسوف ياسف على انه هجرها . وسوف يضع ذراعيه حولها ويقبلها . وسيكونان سعيدين إلى الأبد .. حتى لو استقر بهما الحال فى شارلستون إذا اصر « ريت » على البقاء هناك ..

كانت الخالتان « بولين » و « أولالى » فى استقبالها فى منزلهما فى شارلستون . اصبحتا طاعنتين فى السن وتتحدثان فى توافه الأمور . ويدب بينهما الخلاف حول العديد من المسائل . حتى على مدى التشابه بين سكارليت وامها ..

فوجئت سكارليت فى اليوم التالى مباشرة بانهما حددتا موعدا فى نفس اليوم لمقابلة اليانور باتلر والدة « ريت » . وصعقت سكارليت ، فهى لم تكن مستعدة ، حتى تلك اللحظة ، لمواجهة السيدة التى يعبدها ريت والتى تحمل لها ذكرى غائمة عندما التقت بها فى جنازة ابنتها « بونى » ولاتعرف عنها سوى انها طويلة القامة وجليلة ومهيبة فى صمتها .

انى اعرف اننى لابد ان اراها ولكن ليس الآن .. لنفترض أن ريت قال لها كل شىء عن السبب فى تركه اتلانتا وانه أنهى علاقة الزواج ؟

ضحكت الخالتان عندما تحدثت سكارليت عن المركبة التى ستقلهن إلى السيدة باتلر . قالت « اولالى » : لم يعد يوجد مخلوق فى شارلستون يملك مركبة أيتها الطفلة العزيزة باستثناء من تدعى سالى بروتون ، سوف نسير على اقدامنا . الجميع يفعلون ذلك هنا ..

على مرمى البصر ، تبدو المياه الخضراء الداكنة فى الأفق على امتداد ميناء شارلستون ، والاعلام ترفرف على صوارى السفن .. وعلى الناحية الأخرى سلسلة من الأشجار ، وطيور تحلق فى سماء صافية زرقاء قبل أن تستدير وتهبط وتكاد تلامس الأمواج وكأنها تمارس لعبة مسلية .. ونسمة خفيفة تداعب عنق سكارليت .

قالت لخالتيها . « انه طقس رائع » ..

المدينة تعج بالجنود الشماليين بحللهم الزرقاء .. فمازالت شارلستون تخضع للاحتلال العسكرى قالت « أولالى . « الأرجح انهم لن يتركونا أبدا وحدنا ، انهم يكرهوننا لأننا طردناهم من فورت سامتر وصمدنا فيها ضد كل اسطولهم أثناء الحرب » .

وقالت سكارليت همسا : « يا الهى » . ماذا فعلت ؟ لقد جاءت بقدمها إلى احضان العدو . كانت تعرف ما معنى الحكم العسكرى : العجز والغضب والخوف الدائم من أن يصادروا بيتك او يضعوك فى السجن او يطلقوا عليك النار ، إذا تعديت على قوانينهم .. الحكم العسكرى مهيمن بقوته . ولقد عاشت خمس سنوات قاسية تحت هذا الحكم ونزواته واجراءاته التعسفية .

شعرت بضعف فى ركبتيها ، فهى لاتستطيع مواصلة السير ودخول هذا المنزل الكبير الفخم الذى أشارت إليه الخالتان على أنه منزل اليانور باتلر ، فهى لم تر مكانا بهذه الروعة . كيف ستجد شيئا تقوله للمراة التى تعيش فى هذا الفخامة ؟ والتى يمكن أن تدمر كل آمالها بكلمة واحدة لريت ؟

سيدة طويلة انيقة ذات شعر ابيض لامع يتوج وجها جميل القسمات .. قالت لها « أولالى » : عزيزتى اليانور . وقالت السيدة باتلر « انك احضرت سكارليت ، ياطفلتى العزيزة ، يبدو عليك الشحوب » ووضعت يديها بخفة على كتفى سكارليت وانحنت لتقبل خدها .

وشعرت سكارليت بعينيها تفيضان بدموع لاسيطرة لها عليها .. وقالت والدة ريت : « هيا ، هيا ، كل شيء على مايرام ياعزيزتى ، مهما كان ، كل شيء على مايرام الآن .. لقد جئت إلى بيتك فى النهاية ، كنت اتشوق لحضورك » واحاطت زوجة ابنها بذراعيها واحتضنتها .

● ● ●

اســتقبال ودى

اليانور باتلر سيدة جنوبية . صوتها الناعم البطىء وحركاتها الرشيقة المتمهلة تخفى وراءها طاقة هائلة وكفاءة وقدرة منذ الولادة تتدرب الفتاة الجنوبية على الاهتمام بالزخارف والزينات وعلى ان تجيد الاصغاء إلى الآخرين بتعاطف وافتتان .. وعلى أن تكون مستضعفة بطريقة جذابة وخاوية الرأس على نحو يثير الاعجاب . كذلك تتدرب على تولى مسئوليات معقدة وهامة فى منازل ضخمة تكتظ بحشود من الخدم .. فى الوقت الذى تحرص فيه على ان تخلق انطباعا لدى الآخرين بأن المنزل والحديقة والمطبخ والخدم يديرون شئون انفسهم بانفسهم بينما سيدة المنزل تركز اهتمامها على مضاهاة الوان الحرير من اجل تطريزها الرقيق وغير ذلك من الأمور غير الدنيوية . وعندما ادت مشاق الحرب إلى تخفيض جيش الخدم فى المنازل الكبيرة من ثلاثين او اربعين إلى واحد او اثنين .. زادت مسئوليات سيدات المنازل وظلت الطموحات القديمة .. كامنة .. إذ يجب ان يستمر استقبال الضيوف وإيواء العائلات .

أمرت اليانور باتلر بنقل حاجيات سكارليت من منزل خالتيها إلى غرفة النوم الكبيرة التى تطل على الحديقة حيث ينام « ريت » .

وخلال عشر دقائق ، تم كل شىء لنقل سكارليت دون اعتراض او مقاومة او مشاعر جريحة من منزل خالتيها إلى ايقاع الحياة الهادىء ، تحت سقف اليانور باتلر . وشعرت سكارليت بانها عادت فتاة صغيرة ، آمنة من كل اذى ، وتحت حماية الحب الأقوى الطاغى .

أزال استقبال اليانور الودى الحار .. كل المخاوف والذكريات التى عاودتها عندما رات الجنود الشماليين ، وبدد مالديها من هواجس حول نتائج قرارها بأن تتبع ريت إلى شارلستون . سوف تستعيد حب ريت مرة اخرى وستكون محل اعجاب واحترام وتقدير الجميع ولن تعود وحيدة مرة اخرى .. أبدا .

● ● ●

دعتها اليانور باتلر للقيام معها بجولة فى شارع كنج ستريت ، وهو المركز التجارى للمدينة حيث توجد اكبر المحال التجارية ..

وفى ختام الجولة ، قالت اليانور باتلر : « سكارليت » آمل ان تغفرى لى اعرف أنه ما كان يجب ان اقول ذلك ، ولكن واجبى ان أسال .. »

— « ماذا يامس اليانور ؟ هل تشعرين بتعب ؟ الا تريدين منى ان

احضر لك شيئا بسرعة ؟ تعالى واجلسى » . وأشارت إلى مقعد فى حديقة الشارع .

— « كلا ، كلا ، إنى فى حالة طيبة تماما ، اننى فقط لا استطيع أن أظل اجهل . الم تفكرى قط أنت وريت فى طفل آخر ؟ اننى أدرك أنك خائفة من ان تعانى مرة أخرى من قلب كسير كما حدث عندما ماتت بونى .. »

— « طفل .. » كررت سكارليت الكلمة وهى ساهمة .. هل قرأت السيدة باتلر افكارها ؟ لقد كانت تعول على أن تحمل جنينا بأسرع وقت ممكن . عندئذ لن يبعدها « ريت » عنه مطلقا .. لقد كان مجنونا بحب الأطفال ، وسوف يحبها إلى الأبد لو انجبت له طفلا

كان الاخلاص يمتزج بصوتها وهى تقول « مس اليانور » اننى أريد طفلا اكثر من اى شىء آخر فى الدنيا كلها » ..

قالت السيدة باتلر : « شكرا لله . اننى اتلهف على أن اكون جدة مرة اخرى ، عندما احضر ريت معه بونى لزيارتى ، لم تترك احضانى .. كنت اقول « هل ترين يا مارجريت - إنها زوجة ابنى الآخر روس وسوف تقابلينها اليوم - مسكينة مارجريت ، انها عاقر ، وروز مارى ، شقيقة ريت ، اخشى كثيرا .. انها لن تتزوج أبدا » .

وانطلق تفكير سكارليت بطريقة محمومة لتجميع الأجزاء المتناثرة من الوقائع حول عائلة ريت ومغزى هذه الوقائع بالنسبة لها . روز مارى يمكن ان تكون مشكلة ، فالعوانس مزعجات ، أما شقيقه روس فهو رجل ، وهى لا تجد صعوبة فى اكتساب الرجال إلى صفها . اما العاقر مارجريت فإنها لاتستحق ان يقلق المرء بشانها فالأرجح انه لاتاثير لها على ريت . ولكن ما اهمية اى منهم ؟ ان الأم هى التى يحبها ريت كثيرا جدا ، والأم تريد أن يكونا معا ومعهما طفل ، طفلان ، دستة من الأطفال . إذن فإن ريت ينبغى أن يعيدها إليه . قبلت سكارليت .. السيدة باتلر بسرعة على خدها ، وقالت : « إننى اتحرق شوقا لانجاب طفل يامس اليانور ، سوف نقنع ريت .. نحن معا » .

قالت اليانور : « لقد جعلت منى انسانة سعيدة جدا ياسكارليت ، لنعد إلى المنزل الآن . »

كانت فترة بعد الظهر مخصصة فى برنامج اليانور باتلر لما تسميه اجتماع « اللجنة » التى تتولى مهمة بيع الكعك واقامة اسواق للصناعات اليدوية ، وما شابه .. بهدف جمع الأموال للأرامل واليتامى من ضحايا الحرب .

مركبة خفيفة مقفلة قديمة الطراز خضراء اللون يجرها جوادان نزل ركابها و في المقدمة مارجريت زوجة روس . انها شابة ذات عينين جميلتين ووجه نحيل شاحب لا لون له . ونزلت إيما انسون عضو اللجنة ولحقت بها سالى بروتون .. وهى امرأة في الاربعينات ويشبه وجهها .. وجه القرد ، ويبدو مظهرها اشبه بالغلام النشط وأغرب ما في الأمر أنها صاحبة المركبة وتتولى قيادة مركبتها بنفسها .. ونزل إدوارد كوبر الذى يتميز بالاسراف في عبارات الاطراء والمجاملة . وسمعت سكارليت صوتا جديدا يقول « مس اليانور » اغفرى لى ، آسفة لتاخرى ، والتفتت سكارليت إلى مصدر الصوت ، وتجمدت ، كانت هناك فتاة شابة تتكلم بصوت ناعم عند مدخل الباب ذات شعر كستنائى وعينين رماديتين انها تشبه « ميلانى » عندما عرفتها لأول مرة ، هل يمكن أن تكون ابنة عمها ؟ لم اسمع من قبل ان اسرة هاميلتون لها اقارب في شارلستون ، انها آن هامبتون التى تقوم في اللجنة بدور الخبيرة ..

السيدة اليانور تريد من الجميع تناول الشاى والكعك والسندويتشات حتى لاتشرد أذهانهم اثناء مناقشات اللجنة ، وتطلب من سكارليت أن تشد حبل الجرس لاستدعاء احد الخدم حاملا المزيد من الشاى .. ولم يحضر الشاى . شدت سكارليت الحبل مرة ثانية ثم ثالثة بلا نتيجة . ربما يوجد خلل في الجرس ، ولا سبيل إلا النزول إلى المطبخ وابلاغ الخدم . وشرعت تتحرك من ركن الغرفة متجهة إلى الباب ولكن الباب فتح :

— « هل استخدمت الجرس من أجل الشاى يامسز باتلر » ؟

ودفع « ريت » الباب بقدمه لكى ينفتح على مصراعيه . وكان يحمل بين يديه صينية فضية ضخمة فوقها أطباق الشاى والسكر واللبن ، ويبتسم في سرور من المفاجاة التى صنعها .

ريت ! توقفت سكارليت عن التنفس ، كم هو وسيم ، لابد انه كان في مكان مشمس ، فقد أصبحت بشرته غامقة مثل الهنود . يا إلهى ، كم تحبه ، إن قلبها يخفق بقوة حتى يكاد كل الحاضرين يسمعون دقاته .

قالت السيدة باتلر : « ريت ياعزيزى ، اخشى الا اكون قادرة على تحمل الموقف ، لأنك ذكرت « بعض الفضة » في فيلادلفيا . ولم تكن عندى فكرة انه طقم الشاى وكانه لم يمس . انها معجزة »

وقال ريت : انه أيضا ثقيل جدا ، مس إيما هلا تفضلت بإزاحة هذا الصينى المزيف الموضوع على المائدة حتى اضع الصينية ، .. محبوبتى سالى ، متى توافقين على السماح لى بمبارزة زوجك حتى الموت واختطافك » ؟ ووضع ريت الصينية على المنضدة ، ومال عبرها وقبل

النسوة الثلاثة الجالسات وراءها ثم تطلع حوله .
انظر إلىّ . هكذا تمنت سكارليت فى صمت من الركن المعتم الذى تقف فيه . قبلنى .. ولكنه لم يرها : « مارجريت كم تبدين جميلة فى هذا الثوب ، إن روس لايستحقك .. كيف حالك يا آن ، اننى مسرور برؤيتك ، إدوارد .. لا استطيع ان اقول لك نفس الشىء ، فانا لا اوافق على أن تجمع حولك « حريما » فى بيتى عندما اكون خارجه تحت وابل المطر فى اسوأ مركبة فى امريكا الشمالية وانا اتشبث بالفضيات العائلية واضمها إلى صدرى لاحميها من « اصحاب الخرج »(*) .
وابتسم « ريت » وهو يخاطب والدته قائلا : « كفى عن هذا البكاء الآن يا امى العزيزة ، وإلا فإننى ساعتقد انك لم تتقبلى مفاجاتى التى حملتها معى » .
وتطلعت اليانور إلى ابنها ، ووجهها يشع بالحب : « حلت عليك البركة يا ابنى ، انت تسعدنى إلى اقصى الحدود » . ولم تستطع سكارليت أن تنتظر اكثر من ذلك . اندفعت إلى الأمام :
— « ريت ، حبيبى » .
وادار راسه نحوها . وتوقفت . كان وجهه صارما .. خاليا من التعبير والانفعال .. سيطرة حديدية تقمع كل الأحاسيس ، ولكن عينيه تلمعان .. واجه كل منهما الآخر لحظة احتبست خلالها الانفاس . ثم انقلبت شفتاه إلى اسفل عند زاوية معينة لتصنع ابتسامة ساخرة تعرفها جيدا وتخشاها كثيرا . قال ببطء ووضوح : « انه لرجل محظوظ ، ذلك الذى يجد فى انتظاره مفاجاة اكبر من تلك التى جاء بها » . ومد يديه لها . ووضعت سكارليت اصابعها المرتعشة فى راحتيه ، وقد فهمت انه تعمد ان يبقى على مسافة بينهما بذراعيه الممدودتين . ولمس شاربه خدها الايمن ثم الأيسر .
وحدثت نفسها قائلة : إنه يود لو يقتلنى . ومنحها هذا الادراك وما ينطوى عليه من اخطار .. شعورا غريبا بالاثارة . ووضع ريت ذراعيه فوق كتفيها ، وامسكت يده بالجزء الأعلى من ذراعها . وقال : « انا متاكد ايها السيدات ، وانت يا إدوارد ، انكم سوف تاذنون لنا بالانصراف ، فقد مضى وقت طويل منذ اتيحت لى فرصة الحديث مع زوجتى . سنصعد إلى

(*) هم القادمون من الشمال الامريكى إلى الولايات الجنوبية وليس معهم غير ما يحملونه فى اكياس من الخيش تشبه « الخرج » .. سعيا وراء الربح الشخصى عقب الحرب الاهلية الأمريكية .

الطابق العلوى ونترككم تحلون مشكلة ضحايا الحرب » .

ودفع سكارليت ناحية الباب دون أن يتيح لها فرصة إلقاء تحية المساء على الحاضرين .



ورقـــة رابحـــة

— « ماذا تصنعين هنا بحق الجحيم ياسكارليت » ؟

انها الآن في غرفة نومه وقد أغلق الباب ووقف مسندا ظهره إليه وارادت ان تمد ذراعيها نحوه ، ولكن الغضب الساخن في عينيه حذرها من اى تفكير في هذا الاتجاه . وحدقت سكارليت ، في تساؤل برىء ، في وجهه وكان صوتها مندفعا ولاهثا . وساحرا عندما تكلمت : « كتبت الخالة أولالى لتخبرنى بما تقوله ياريت حول تشوقك لرؤيتى هنا لولا استغراقى في العمل بالمتجر .. آه ياحبيبى ، لماذا لم تقل لى ؟ إننى لا أبالى مطلقا بالمتجر إذا كان الأمر يتصل بك » .

انها الآن ترقب عينيه بقلق .

— « هذا لايجدى ، ولانفع من ورائه ياسكارليت » ..

— « ماذا تعنى » ؟

— « كل ذلك لا فائدة منه على الاطلاق .. لا التفسير المتحمس الذى يتقد حرارة .. ولا التظاهر البرىء بالعجز عن الفهم . انت تعرفين أنك لن تتمكنى من خداعى بالكذب » كان ذلك صحيحا ، وهى تعرفه ، وعليها أن تكون صادقة .

— « جئت لأننى اردت أن أكون معك » .

عبارة هادئة تحتوى على وقار .. وبساطة .

نظر إليها ريت مباشرة ورفع راسه في كبرياء واصبح صوته أكثر ليونة . قال :

« ياعزيزتى سكارليت ، كان يجب ان نكون أصدقاء في الوقت المناسب ، عندما تخف وطأة الذكريات وتصبح حنيننا مريرا حلوا .. قد نتوصل إلى ذلك في حينه ، إذا كنا من ذوى النزعة الخيرة وصبورين ، ولكن لاشىء أكثر من ذلك » واخذ يخطو في نفاد صبر عبر الغرفة :

« ماذا يجب أن افعل لكى اجعلك تفهمين ؟ اننى لا أريد إيذاء مشاعرك ، ولكنك تضطريننى ، اننى لا اريدك هنا ، عودى إلى اتلانتا ياسكارليت ، اتركينى ، اننى لم اعد احبك ، لا استطيع التحدث على نحو اكثر وضوحا من ذلك . »

امتقع وجه سكارليت ، بينما تالقت عيناها الخضراوان وسط بشرة بيضاء مثل الطيف :

« استطيع أن اتحدث بوضوح أيضا ، ياريت ، انا زوجتك وأنت زوجى »

— « وضع بائس عرضت ان اصححه »
كانت كلماته كلذع السياط . ونسيت سكارليت انها يجب ان تملك زمام نفسها .
« اطلقك ؟ مطلقا ، مطلقا ، مطلقا . ولن اعطيك ابدا سببا لطلاقى ، ومثل ما يجب ان تكون عليه اى زوجة مطيعة وطيبة ، فقد جئت لأكون إلى جانبك ، متخلية عن كل ما اعتبره عزيزا » .
ابتسامة ظافرة ارتسمت على شفتيها قبل ان تلقى بورقتها الرابحة :
— « لقد امتلأت والدتك بهجة لأننى هنا . ما الذى ستقوله لها إذا طردتنى ؟ اما انا فساقول لها الحقيقة وستحطم قلبها » .
وأخذ ريت يذرع الغرفة الفسيحة من اقصاها إلى اقصاها .. وهو يتمتم باللعنات ، وبالكلمات النابية والمبتذلة التى لم تسمعها سكارليت من قبل .
هذا هو « ريت » الذى كان مجرد اشاعة بالنسبة لها ، ريت الذى اندفع وراء جنون الذهب إلى كاليفورنيا ، ودافع عن مصالحه بالسكين والركلات .
هذا هو « ريت » مهرب الخمور الذى ارتاد أحقر الحانات فى هافانا .
« ريت » المغامر الخارج عن القانون ، صديق ورفيق المرتدين من امثاله .
ظلت تراقبه وهى فى حالة من الصدمة والافتتان والاثارة رغم ما يصدر عنه من تهديد ووعيد . وفجاة توقفت خطواته التى تشبه دبيب الحيوان والتفت لكى يواجهها . عيناه السوداوان تلمعان ولكنه لم يعد بريق الغضب وإنما تعكسان المرح والظلمة والمرارة والهموم .. إنه الآن ريت باتلر الجنتلمان من شارلستون .
قال وهو يبتسم ابتسامة ساخرة ملتوية : « الحركة المفاجئة للملكة هى « كش ملك » ولكن الملك لم يمت ياسكارليت » . ورفع راحتيه المفتوحتين علامة الاستسلام . لم تفهم ما قاله ، ولكن حركة يديه ولهجة صوته جعلتاها تدرك انها فازت .. بشىء .
— « إذن .. سابقى » ؟
— « ستبقين إلى ان ترغبى فى الرحيل ، ولا اتوقع ان يكون ذلك بعد وقت طويل جدا » .
— « ولكنك مخطىء ياريت .. إننى احب البقاء هنا » .
تعبير مالوف قديم مر بوجهه .
تعبير يكشف ان صاحبه يضحك على ما يسمعه ويتشكك فيه ويرى النهايات قبل حدوثها .
— « منذ متى وانت فى شارلستون ياسكارليت ؟ »

— « منذ ليلة امس » .

— « وتعلمت ان تحبيها بهذه السرعة ؟ .. اهنئك على حساسيتك ، لقد طردوك من اتلانتا ـ وباعجوبة بدون القار والريش ـ وعوملت هنا بتهذيب من سيدات لايعرفن طريقة أخرى للتعامل مع الناس ، ومن ثم تظنين انك وجدت ملجا وملاذا »

وضحك من تعبيرات وجهها .

وواصل كلامه : « نعم . مازال هناك زملاء لى فى اتلانتا . واعرف كل شىء عن نبذك من المجتمع هناك . وحتى حثالة المجتمع التى اعتدت ان تختلطى بها لن تكون لها علاقة بك بعد الآن » .

وصاحت : « هذا غير صحيح ، انا التى طردتهم » .

وهز ريت كتفيه تعبيرا عن اللامبالاة وقال : « لا داعى للاستمرار فى مناقشة هذه المسالة ، المهم انك الآن هنا ، فى منزل امى وتحت جناحها . ولاننى احرص بشدة على سعادتها ، فإننى لا استطيع فى الوقت الحاضر ان افعل شيئا . ومع ذلك ، فإننى لست مضطرا بحق . انت ستعملين ماهو ضرورى دون اى إشارة من جانبى . وسوف تكشفين حقيقتك ، وعندئذ سيشعر كل شخص بالشفقة على حالى والتعاطف مع أمى . وسوف أحزمك واشحنك إلى اتلانتا وسط التصفيق الصامت لطائفة الأرستقراطيين المحترمين باكملها .. انت تظنين انك تستطيعين الظهور بمظهر السيدة ، اليس كذلك ؟ انت لاتستطيعين خداع شخص ابكم واصم واعمى » .

— « اللعنة عليك . اننى سيدة . المشكلة انك لاتعرف ما معنى ان يكون المرء مهذبا . واكون شاكرة لك لو تذكرت ان والدتى كانت من عائلة روبيلار فى سافانا ، وان عائلة اوهارا تنحدر من سلالة ملوك ايرلندا ! »

كانت ابتسامة ريت ردا على هذا القول متسامحة بشكل مثير .

— « دعى هذا الآن ياسكارليت ، ارينى الملابس التى احضرتها معك » .

جلس ريت فى اقرب مقعد ومد ساقيه الطويلتين . حملقت سكارليت فى وجهه ، وقد اصابها توجس شديد من هدوئه المفاجىء . واخرج ريت سيجاراً من جيبه :

« هل تمانعين .. ان ادخن فى غرفتى ؟ »

— طبعا لا

— شكرا . الآن ، اربنى ملابسك . المؤكد انها جديدة ، فانت لاتشرعين فى محاولة استعادة مودتى دون ترسانة من التنورات والفساتين الحريرية والعباءات ، وكلها بنفس الذوق المقيت المروع الذى هو السمة المميزة

لك ، وأنا لا أريدك ان تجعلى امى مادة للضحك .. ولذلك اريد ان أرى هذه الثياب ياسكارليت ، وسأرى ما يمكن أن يصلح منها »

وأخرج قاطعة من جيبه ، وتجهمت ملامح سكارليت ولكنها سارت ببطء وشموخ إلى غرفة الملابس لجمع ملابسها . ربما كان هذا شيئا طيبا . لقد اشرف ريت دائما على انتقاء ثيابها .. وكان يحب ان يراها ترتدى الملابس التى اختارها ، وكان فخورا عندما كانت تبدو ذات ذوق رفيع وجميلة . فإذا أراد أن يشارك فى مظهرها مرة اخرى وأن يكون فخورا بها ثانية فإنها ستبدى الرغبة فى التعاون . ستجرب ثيابها كلها على جسمها من اجله . وبهذه الطريقة يراها بقميصها الداخلى ..

وتحركت اصابع سكارليت بسرعة لكى تفك الثوب الذى ترتديه . واخرجت نفسها من كوم القماش ثم جمعت ثيابها الجديدة فى يديها وسارت ببطء إلى غرفة النوم .. ذراعاها عاريتان ، ونصف صدرها مكشوف وفوق سيقانها جوارب حريرية . قال ريت : « ضعيها على السرير ، وضعى دثارا فوقك قبل ان تتجمدى ، لقد ازدادت البرودة مع هطول المطر ام لم تلاحظى ذلك » ؟ وقال : « لا تصيبى نفسك بالبرد وانت تحاولين ممارسة الاغراء ياسكارليت ، انك تضيعين وقتك » .

مال لون وجهها إلى الزرقة من الغضب ، واصبحت عيناها اشبه بنيران خضراء ، ولكن ريت لم يكن ينظر إليها ، كان يفحص الملابس المبهرجة فوق الفراش . وطلب اجراء تعديلات على بعض الثياب منها تمزيق اجزاء مزركشة بينما اعتبر ثيابا اخرى لاتصلح إلا لخادمتها .

لم يستغرق الأمر سوى بضع دقائق ، وكان قد استكمل « فرز » جميع الثياب وتصنيفها بحيث تكون ذات ذوق افضل واكثر بساطة . وقال : إن بعضها يحتاج إلى إحلال ازرار سوداء بسيطة محل الأزرار الذهبية . وقال : « سوف تحتاجين إلى بعض الأحذية القوية » .

وقالت سكارليت بصوت ثلجى : « لقد اشتريت هذا الصباح عندما ذهبت مع والدتك للتسوق ، لا ادرى لماذا لاتشترى مركبة لوالدتك مادمت تحبها كثيرا ، لقد ارهقها طول السير »

— « انت لاتفهمين شارلستون ، وهذا هو السبب فى انك ستكونين تعيسة هنا خلال وقت قصير جدا . لقد استطعت ان اشترى لها هذا المنزل لأن منزلنا دمره الشماليون ولأن كل شخص نعرفه مازال لديه منزل بهذه الفخامة ، واستطيع تاثيثه على نحو أروع من منازل اصدقائها لان كل قطعة فيه نهبها الشماليون بينما اصدقاؤها مازالوا يملكون الكثير من اشيائهم . ولكن لا استطيع ان افصلها او اعزلها عن اصدقائها بشراء سلع ترفيه

لا يستطيعون شراءها »

— « ولكن سالى بروتون لديها عربة »

— « ان سالى بروتون ليست مثل أى شخص آخر . لقد كانت كذلك دائما . سالى حالة خاصة ، وشارلستون تحترم غرابة الأطوار وقد تعتز بها ولكنها لاتتسامح مع التفاخر والمباهاة بغرض لفت الأنظار ، وانت ياعزيزتى سكارليت لم تستطيعى يوما مقاومة ولعك بالتفاخر والمباهاة »

— « آمل أن تكون مستمتعا بإهانتى ياريت باتلر » !

وضحك ريت : « الحقيقة ، انا مستمتع ، الآن تستطيعين الشروع فى اعداد احد هذه الثياب وجعله صالحا لكى ترتديه هذا المساء اما انا فساذهب لتوصيل اعضاء اللجنة إلى بيوتهم إذ لايجب ان تتولى سالى بروتون هذه المهمة فى هذه العاصفة » .

بعد خروجه من الغرفة ، جلست سكارليت طويلا تفكر فى ريت . انها لم تعرفه على الاطلاق ، لم تعرفه ابدا .. وثمة أشياء كثيرة حوله تثير حيرتها .. وافاقت بعد وقت غير قصير من احلام اليقظة .. لابد من إعداد ثوبها ، فهى تريد إظهار جمالها وانوثتها من اجل ريت ..

خلال رحلة العودة لاحظ الضيوف نظرات الحب فى عينى آن هامبتون مصوبة نحو ريت باتلر ..

● ● ●

سهرة على العشاء . اليانور وريت وسكارليت .. وحكايات عن الجدود وضحكات ، واليانور تحكى لسكارليت عن والدتها . وخرج ريت لمتابعة عماله . واقتحم روس المنزل وهو مخمور وقام بتقبيل سكارليت بالقوة وهو يقول : إنها عاهرة . وتامره اليانور بالخروج من البيت وعدم العودة إلا إذا اقتنعت بان اعتذاراته تكفى لإزالة آثار ماحدث . واعتذرت زوجته مارجريت وروت الأم لسكارليت ماساة روس الذى يفشل فى كل أعماله ويشعر بالغيرة من شقيقه ومن حب الأم لريت . وسالت سكارليت الأم عن العيب فيها .. ولماذا وصفها روس بتلك الكلمة ؟! وقررت الأم ان لدى سكارليت حيوية يجب المحافظة عليها وكل ما على سكارليت أن تفعله هو عدم المغالاة فى طلاء الوجه وارتداء الملابس المكلفة التى لاتنتقى بعناية .

● ● ●

الـزائـــر الليـــلـى

بدات سكارليت تلبية رغبات ريت فيما يتعلق بشكل ثيابها . وازدادت اقتناعا بان اليانور ستساعدها على استعادة ريت حتى دون ان تعلم ما تفعل . ولما كان السوق ـ كما قالت اليانور ـ هو المكان الذى يلتقى فيه الجميع ، فإنها ستذهب إلى السوق .. فالسوق هو المكان المثالى بالنسبة لسكارليت لكى تبدأ حياتها كسيدة فى شارلستون . ولو لم تكن مضطرة للذهاب إلى السوق فى السادسة من الصباح الباكر . لكانت ستصبح اسعد حالا .

وهاهى سكارليت تثير ذهول سالى بروتون عند لقائها معها فى السوق لانها ارشدتها إلى افضل انواع البصل الذى يمكن ان تشتريه . وقالت سالى : « شكرا إننى ممتنة ، لقد ظلمتك ياسكارليت ، لقد ظننت ان سيدة جميلة مثلك لاتملك عقلا . ماذا زرعت ايضا فى تارا » ؟ وفيما بعد قالت سالى لاليانور : « إن فتاتك اعجوبة يا اليانور » .

اصبحت حياة سكارليت فى شارلستون حافلة بالنشاط .. فهى مشغولة طول الوقت وتتلقى دعوات للزيارات . و « سالى بروتون » متحمسة لهذه السيدة سكارليت التى تفيض بالحيوية والقوة ، وتتوقع أن يرحب بها كل اصدقائها . واحبت سكارليت هذا النشاط الدائم واحبت الاهتمام الذى قوبلت به ، واحبت سماع اسم ريت يتردد على شفاه الجميع . بضع عجائز من النساء كن ناقدات صريحات . لم يوافقن على سلوكه عندما كان صغيرا ، ولكن غالبيتهن صفحن عن خطاياه المبكرة . إنه اكبر سنا الآن واصبح مهذبا وعفيفا ، كما انه مخلص لوالدته . والسيدات المتقدمات فى السن اللاتى فقدن ابناءهن واحفادهن فى الحرب يستطعن أن يفهمن جيدا سر سعادة اليانور المتوهجة .

السيدات الأصغر سنا كن ينظرن إلى سكارليت بحسد لايجدن إخفاءه ، وكن يشعرن بسرور وهن يسترجعن كل الحقائق وكل الشائعات حول ما كان ريت يفعله عندما غادر المدينة بلا تفسير . قال البعض منهن إن ازواجهن عرفوا على وجه اليقين ان ريت كان يقوم بتمويل الحركة السياسية للاطاحة بحكومة الشماليين الدخلاء فى عاصمة الولاية . وهمست اخريات بانه يستعيد صور عائلة باتلر واثاثها واوانيها الفضية تحت تهديد السلاح . جميعهن لديهن حكايات عن ماثره خلال الحرب ، عندما اخترقت سفينته الداكنة الانيقة الحصار الذى فرضه اسطول الاتحاديين .. ونظرة خاصة على وجوههن عندما يتحدثن عنه .. تعكس

مزيجا من الفضول والتخيلات الرومانسية .

كان ريت اسطورة أكثر منه رجلا . وهو زوج سكارليت . لماذا لا يحسدنها إذن ؟

كانت سكارليت في احسن حالاتها وهي مستغرقة تماما في جولاتها الاجتماعية ، وكان هذا هو ما تحتاجه بعد الوحدة المخيفة في اتلانتا . ونسيت بسرعة ذلك الياس الذى كانت تشعر به . لابد أن اتلانتا كانت مخطئة . هذا هو كل ما في الأمر . فهي لم تفعل شيئا يجعلها تستحق مثل تلك القسوة .. وإلا ما كان كل شخص في شارلستون يحبها بهذا القدر ..

وبينما كانت تقوم بزياراتها .. أو تستقبل الزوار مع السيدة باتلر او تزور صديقتها المفضلة آن هامبتون او تثرثر اثناء تناول القهوة في السوق .. كانت سكارليت تتمنى أن يراها ريت . وفي بعض الأحيان كانت تتطلع حولها بسرعة وتتخيل انه على مقربة منها . كم كانت تلك الرغبة ملحة . آه .. لو عاد إلى البيت !

والسيدة باتلر متحدثة بارعة تتقن رواية الحكايات وتعرف فضائح كل عائلات المنطقة . لقد اصبحت هذه السيدة بمثابة « شهر زاد » الخاصة بسكارليت التى كانت ترغب دائما في تذكر الأشياء التى قالها أو فعلها ريت عندما كان طفلا صغيرا .

كانت اليانور باتلر تدرك الضعف والشجاعة اللذين جعلا ابنها المحبوب ينجذب إلى سكارليت . وكانت تحس ايضا بان هناك خللا ما في العلاقة الزوجية .. خللا كبيرا إلى حد ان ريت لم يعد يريد شيئا يفعله بهذا الزواج . كانت تعرف دون ان يخبرها أحد بشيء ، ان سكارليت مصممة على ان تعيده إليها .. اما اليانور فإن لديها اسبابها الخاصة التى تجعلها اكثر تلهفا على حدوث هذه المصالحة من سكارليت نفسها .

ولم تكن اليانور على يقين من قدرة سكارليت على ان تجعل ريت سعيدا ، ولكنها كانت مقتنعة من اعماق قلبها بان طفلا جديدا يمكن ان يحقق النجاح لهذا الزواج . لقد زارها ريت يوما وبصحبته بوني . ولن تنسى اليانور ابدا الفرحة التى جلبتها هذه الزيارة . لقد احبت الطفلة وأحبت اكثر من ذلك ان ترى ابنها سعيدا إلى أقصى حد . انها تريد له أن يكون سعيدا مرة أخرى على هذا النحو وتريد ان يزورها السرور مرة أخرى . إنها راغبة في أن تفعل اى شيء في طاقتها من أجل تحقيق هذه الغاية .

وجاء وقت بدات سكارليت تشعر فيه بالملل من احاديث النساء التى تدور حول الأزياء . فقد فقدت اهتمامها بالملابس بعد ان انحصر المسموح

به منها فى أربعة أنواع بناء على نصيحة والدة ريت . كم تتمنى الآن ان يقع شيء مثير !

● ● ●

تحققت أمنية سكارليت بسرعة . ولكن ليس على النحو الذى تريده ، فقد كانت الاثارة من النوع المخيف .

بدأ الأمر فى شكل شائعة خبيثة يضحك منها الناس فى انحاء المدينة . فقد ادّعت « مارى اليزابيث بيت » وهى عانس فى الأربعينات بانها استيقظت فى منتصف الليل من نومها ورأت رجلا فى غرفتها يغطى وجهه بمنديل .. وكان هذا الرجل المقنع أشبه بـ جيس جيمس » زعيم العصابة المشهورة .. وعلق بعض سكان المدينة بلا شفقة : « المؤكد ان مارى اليزابيث اكبر بعشرين سنة من جيس جيمس » .

غير أن اليوم التالى شهد تحولا دراميا فى القصة .

« اليسيا سافيج » ، فى الأربعينات ايضا ، ولكنها تزوجت مرتين ، والجميع يعرفون أنها امرأة متزنة وهادئة الطبع . لقد استيقظت هى الأخرى وشاهدت رجلا فى غرفة نومها ، يقف إلى جانب فراشها ويتطلع إليها فى ضوء القمر . كان يزيح ستائر النافذة بيده ليسمح للضوء بان يتسلل إلى الغرفة .. وكان يحملق بعينيه فوق المنديل ـ القناع ـ الذى يخفى الجزء الأسفل من وجهه .. اما الجزء الأعلى فقد كان يخفيه بطرف غطاء راسه . وكان يرتدى زى احد الجنود الاتحاديين . وصرخت سافيج والقت فى وجهه بكتاب من فوق منضدة إلى جانب فراشها . وقفز من وراء الستائر إلى الشرفة قبل أن يصل زوجها إلى الغرفة .

ـــ يانكى !

فجأة ساد الخوف الجميع . النساء الوحيدات شعرن بالخوف على انفسهن ، والنساء المتزوجات شعرن بالخوف على انفسهن وبخوف اكثر على ازواجهن لانه إذا اصاب اى شخص .. جنديا اتحاديا فسوف يذهب إلى السجن بل قد يتم شنقه .

فى الليلة التالية ، والتى اعقبتها .. ظهر الجندى فى غرفة نوم إحدى السيدات . اما فى الليلة الثالثة فقد حدث الأسوأ من كل ما سبق . لم يكن ضوء القمر هو الذى ايقظ تيودوسيا هاردنج وإنما حركة يد دافئة على غطاء السرير فوق صدرها . وعندما فتحت عينيها لم تقابل سوى الظلمة ، ولكنها استطاعت ان تسمع انفاسا حارة وأن تحس بوجود كائن يجثم إلى جانبها فى الغرفة . وصرخت ثم فقدت الوعى من الخوف . ولم يعرف احد

ما حدث بعد ذلك . فقد تم إرسال تيودوسيا إلى بنات عمومتها فى مدينة سامرفيل . وقال الجميع إنها فى حالة انهيار .

وتوجه وفد من رجال شارلستون إلى مقر قيادة الجيش ومعهم المحامى العجوز جوسيا أنسون ليتحدث باسمهم . قالوا إنهم سيبدأون تنظيم دوريات ليلية بانفسهم فى القطاع القديم من المدينة وأنهم إذا فاجأوا ذلك الرجل الذى يقتحم غرف النوم فإنهم سيتعاملون معه بانفسهم . ووافق القائد على الدوريات ، ولكنه حذر من اصابة اى جندى اتحادى أو تعرضه للأذى لأن المسئول او المسئولين عن ذلك سيتم إعدامهم . ولن تكون هناك عدالة تتولى توقيع العقاب الفورى او تشن هجمات عشوائية على قوات شمالية تحت ستار حماية نساء شارلستون .

● ● ●

مخاوف سكارليت القديمة استيقظت وهزتها كموجة عاتية ، لقد اصبحت تحتقر قوات الاحتلال وكانت تتجاهلها مثل اى شخص آخر فى شارلستون وتتصرف كما لو كان الجنود غير موجودين ، وكانوا يبتعدون عن طريقها وهى تسير بسرعة فى الطريق لأداء واجب الزيارة للعائلات الصديقة او للتسوق .. الآن .. هى تخشى من كل زى أزرق يقع بصرها عليه . قد يكون اى واحد منهم هو « المعتدى الليلى » .. الذى ينبثق من الظلام .

احلام مزعجة تقطع نومها الآن .. وذكريات مروعة . مرة بعد أخرى تعود صورة ذلك اليانكى المتشرد الذى جاء إلى « تارا » .. رائحته النتنة مازالت فى انفها .. وأمام عينيها مشهد يديه القذرتين اللتين يغطيهما الشعر وهما تنبشان بحوافرهما فى الحلى الصغيرة فى صندوق والدتها وعيناه الحمراوان اللتان تشتعلان بالشهوة العنيفة تحدقان فيها وفمه ذو الأسنان المكسورة يسيل منه اللعاب ويتلوى فى نظرة ماكرة خبيثة . لقد أطلقت عليه النار وأردته قتيلا . وازالت ومحت الفم والعينين فى انفجار من الدم وقطع من العظم وكتل لزجة من المخ مخططة بالدم . لم تستطع قط أن تنسى دوى الطلقة النارية وصداها والرذاذ المتناثر الاحمر الشنيع .. وانتصارها الوحشى والدامى ..

لو كان لديها مسدس لحماية نفسها والسيدة اليانور من اليانكى ! ولكن لايوجد سلاح فى البيت . لم تترك مكانا لم تفتشه فى المنزل : الدواليب وصناديق الثياب والحقائب والادراج وحتى المساحات من الرفوف التى توجد خلف كتب المكتبة . انها عزلاء . بلا حول ولا قوة . ولأول مرة

فى حياتها تشعر بانها ضعيفة وعاجزة عن التغلب على اى عقبة فى طريقها . وسيطر عليها الاحساس بانها مشلولة . وتوسلت إلى اليانور باتلر لكى تبعث برسالة إلى ريت . قالت اليانور وهى تسايرها كسبا للوقت : نعم .. نعم .. وانها سوف ترسل بضع كلمات .. نعم ، ستخبره بما ذكرته اليسيا عن الهيكل الضخم للرجل ، والومضة غير الأرضية لضوء القمر فى عينيه السوداوين غير البشريتين . نعم سوف تعمد إلى تذكيره بانها وسكارليت امراتان تقيمان وحدهما فى المنزل الكبير اثناء الليل بعد ان يعود كل الخدم إلى بيوتهم عقب العشاء باستثناء « مانيجو » وهو رجل عجوز ، « وبانسى » ، وهى فتاة ضئيلة وهزيلة .. نعم ستجعل الرسالة عاجلة ، وسوف ترسلها الآن على الفور .. فى الرحلة التالية للسفينة التى جلبت الآن الصيد من المزرعة .

— « ولكن ، متى سيحدث ذلك يامس اليانور ؟ ريت يجب ان ياتى الآن ! ان شجرة الماجنوليا تصلح كسلم من الأرض إلى الشرفة خارج غرفتينا ! » وامسكت سكارليت بذراع السيدة اليانور وهزته لكى تؤكد على ما تقول وربتت اليانور على يدها : « قريبا جدا ياعزيزتى . لابد ان يكون ذلك قريبا جدا . ليست لدينا اى بطة منذ شهر . والبط المشوى هو طعامى المفضل . وريت يعرف ذلك ، ثم ان كل شىء سيصبح على مايرام الآن . روس واصدقاؤه سيقومون بدوريات كل ليلة » .

روس ! وصرخت سكارليت فى داخلها ، ما الذى يمكن ان يفعله سكير مثل روس باتلر ؟ او كل رجال شارلستون ؟ ان معظمهم عجائز او مصابون بعرج او مازالوا صبية . لو كانت هناك فائدة منهم لما خسروا الحرب الغبية ولماذا يجب على المرء ان يثق فى قدرتهم على محاربة اليانكى الآن ؟

ولفترة من الوقت بدا ان الدوريات فعالة . فلم تقع حوادث . وهدا الجميع . ومزقت اليانور الخطاب الذى اعدته لترسله إلى ريت واستانف الناس الذهاب إلى الكنيسة والتسوق .

وذات صباح عادت سكارليت إلى المنزل بعد جولة من الزيارات وقد تورد خدها من السير بسرعة . وسالت : « اين السيدة باتلر » ؟ ورد مانيجو بانها فى المطبخ . واسرعت سكارليت للقائها وبادرتها اليانور بقولها : « اخبار طيبة ياسكارليت . تلقيت رسالة من روزمارى هذا الصباح . انها ستاتى الينا بعد غد » .

وقاطعتها سكارليت بحدة وبصوت خشن : « لقد وصل اليانكى إلى

هلويت ماديسون الليلة الماضية . لقد سمعت ذلك للتو » ، ولمحت على المائدة بجوار السيدة باتلر عددا من البط .

— إذن فقد وصلت سفينة المزرعة ! أستطيع أن أعود إلى المزرعة على السفينة لاحضار ريت » .

— لاتستطيعين الذهاب وحدك على القارب مع أربعة رجال ياسكارليت

— « أستطيع أن أصحب معى بانسى سواء أرادت أم لم ترد . أعطينى شنطة وبعض هذا البسكويت ، إننى جائعة . سآكلها فى الطريق »

— « ولكن .. ياسكارليت .. »

— « بدون .. ولكن يامس اليانور . ناولينى البسكويت . إنى راحلة »

● ● ●

ما هذا الذى أفعله ؟ بدأت سكارليت تشعر بالفزع .

ما كان يجب أن أندفع بهذه الطريقة سيثور ريت غاضبا فى وجهى .. لنفترض أنه طلب من رجال الزورق أن يستديروا ويعيدونى من حيث جئت ؟

ولم تكن تتصور أن تجد نفسها وسط صناديق وبراميل وأقفاص فوق زورق صغير . ووضع الملاحون المجاديف فى المياه الخضراء السمراء لكى يديروا دفة السفينة وحمل التيار الزورق ببطء . ولم تشعر بأن الزورق يتحرك على الاطلاق .

وتطلعت فى نفاد صبر إلى ضفتى النهر العريض .. حيث تتمايل حشائش طويلة . وخيم الصمت . لا طيور تغنى .. وخيم الظلام . وبدأ هطول الأمطار .

وقبل وقت طويل من بدء عمل المجاديف والتحرك صوب الضفة اليسرى ، كانت سكارليت قد تشبعت بالماء مما جعلها ترتعش وتصبح فى حالة جسمية وذهنية سيئة .

وجاء صوت ارتطام الأنشوطة بعمود الرصيف ليخفف من ضيقها . ونظرت من خلال غبش المطر على وجهها ، ورأت شبحا فى معطف أسود واق من المطر تبدو ملامحه أكثر وضوحا من خلال شعلة من النار ، ولكن الوجه لم يكن مرئيا تحت غطاء واق للرأس والوجه . وظهر ريت وذراعه ممتدة إلى الأمام وهو يقول : ألق إلىّ بالحبل .. رحلة طيبة يا أولاد » ؟

وتوكأت سكارليت على أقرب الأقفاص إليها لكى تقف على قدميها . وخذلتها ساقاها وسقطت إلى الوراء فقلبت أعلى قفص وسقط بصوت مدو .

قال ريت : « ماهذا ؟ » وأمسك بالأنشوطة المعقودة فى الحبل الذى ألقى

إليه بها أحد رجال الزورق ووضع الأنشوطة فى عمود المرساة وقال
— « ما الذى يصنع هذه الجلبة ؟ هل أنتم سكارى يا رجال ؟ » قال رجال الزورق « لا يا مستر ريت » . كانت هذه هى أول مرة يتحدث فيها هؤلاء الرجال منذ غادروا شارلستون وأشار أحدهم إلى المراتين فى مؤخرة السفينة .

وقال ريت : « يا إلهى » .

● ● ●

الـكـابــوس

— « هل تشعرين بانك أحسن حالا الآن » ؟

جاء صوت ريت متحفظا . واومات سكارليت براسها وهى صامتة . كانت ملفوفة فى بطانية ، ترتدى فانلة من ملابس ريت الداخلية وتجلس فوق مقعد قرب النار ، وقدماها العاريتان فى حوض من الماء الساخن .

— « كيف حالك يا بانسى ؟ » كانت خادمة سكارليت تجلس فوق مقعد آخر داخل بطانية أخرى . وقالت انها فى حالة طيبة ولكنها جائعة جدا

ابتسم ريت وقال : « وانا ايضا . وعندما تجف أطرافكم سناكل . جذبت سكارليت البطانية حولها لتلصقها بجسمها . كان رقيقا . لقد رأيته هكذا فى السابق ، يبتسم دائما ، ودافئا مثل اشعة الشمس ، ثم انه كان ينقلب ويصبح مجنونا ويطلق سخائمه طول الوقت . وهو دمث لأن بانسى هنا ولذا فهو يقوم بدور الرجل المهذب . وعندما تخرج سوف ينقلب علىّ . وربما استطيع أن اقول أننى احتاجها لكى تبقى معى ، ولكن لماذا ؟ اننى بالفعل بدون ملابس ، ولا استطيع أن ارتدى ملابسى إلا بعد أن تجف ، والله يعلم متى يحدث ذلك .. والمطر ينهمر فى الخارج ، اما فى الداخل فإن الجو شديد الرطوبة . كيف يتحمل ريت أن يعيش فى مثل هذا المكان ؟ انه فظيع !

الغرفة التى توجد فيها لا تضيئها سوى النيران . انها مربعة واسعة أرضيتها من الطين المجمد وتفوح منها رائحة الويسكى الرخيص والدخان .

— « لماذا لم تمكثى فى شارلستون يا سكارليت ؟ »

كانت قد انتهت من تناول طعام العشاء وتم ارسال بانسى لكى تنام مع السيدة السوداء العجوز التى تطهو الطعام لريت واتخذت سكارليت وضع التحدى ، وقالت « لم ترد والدتك ان تزعجك فى فردوسك هنا » ومسحت الحجرة بعينيها واستطردت قائلة « ولكنى اعتقد انك يجب أن تعرف ما يجرى . هناك جندى من اليانكى يتسلل إلى غرف نوم السيدات فى الليل ويلمسهن ، وقد فقدت إحدى الفتيات عقلها وكان لابد من ابعادها .

حاولت ان تقرأ ملامح وجهه ، ولكنه كان خاليا من التعبير . كان ينظر اليها فى صمت كما لو كان ينتظر شيئا . ووجهت اليه السؤال :! « حسنا ؟ الا يهمك ان والدتك ، وانا يمكن أن يقتلا فى فراشهما او ما هو اسوأ » .

وارتسمت الابتسامة الساخرة على شفتيه ليقول : « الم تخطىء اذنى ما اسمعه ؟ جبن العذارى لدى المراة التى قادت عربة وسط خطوط

الجيش اليانكي باسره لأنها كانت في طريق العودة ؟ والآن ، هيا ياسكارليت .. لقد عرف عنك انك تقولين الحقيقة . لماذا قطعت كل هذا الطريق تحت المطر ؟ هل اوصاك هنري هاميلتون بان تفعلي ذلك كوسيلة لكي استانف دفع فواتيرك مرة اخرى » ؟

— ما الذي تتحدث عنه يا ريت باتلر ؟ ما علاقة العم هنري باي شيء ؟

— « هذا الجهل المقنع ! انني احبك . ولكنك لا يمكن ان تتوقعي مني ان اصدق للحظة واحدة ان محاميك العجوز البارع لم يبلغك بانني قطعت عنك المال الذي كنت ارسله إلى اتلانتا . انني فخور للغاية بهنري هاميلتون إلى حد انني لا اصدق هذا الاهمال من جانبه » .

— « توقفت عن ارسال المال ؟ انك لا تستطيع ان تفعل ذلك » ! وبدات ركبتا سكارليت تترجرجان .. ان ريت لا يمكن ان يعني ذلك . ما الذي سيحدث لها ؟ منزل شارع بيتشتري ... اطنان الفحم التي يستهلكها لتدفئته .. والخدم الذين ينظفونه ويطهون ويغسلون ويعتنون بالحديقة والجياد ويقومون على تلميع المركبات . والطعام لكل هؤلاء ، لماذا ، ان ذلك يكلف ثروة . كيف استطاع العم هنري دفع الفواتير ؟ هل استخدم اموالها هي ؟ لا ، لا يمكن ان يكون الأمر كذلك ، لقد صارعت الحياة بلا طعام في معدتها وباحذية ممزقة في قدميها ، وتحطم ظهرها .. سال الدم من يديها وهي تعمل في الحقول لكي تمنع عن نفسها غائلة الجوع وتخلت عن كبريائها وأدارت ظهرها لكل شيء سبق ان تعلمته .. تعاملت مع اشخاص منحطين لا يستحقون سوى البصق عليهم .. خططت وغشت وعملت نهارا وليلا من اجل النقود . لن تسمح بذلك مرة اخرى . لن تستطيع .

وصرخت في وجه ريت « لن تستطيع ان تاخذ نقودي » .

ولكن الصرخة خرجت من حلقها .. همسة واهنة .

وضحك قائلا : « لم آخذ منك اي شيء يا عزيزتي . كل ما فعلته انني توقفت عن اضافة اموال إلى اموالك مادمت تعيشين في المنزل الذي ارعاه في شارلستون ، فليس هناك مبرر بالنسبة لي للانفاق على منزل خاو في اتلانتا ، وبطبيعة الحال فإنك إذا عدت إلى ذلك المنزل ، فإنه لن يكون خاويا وعندئذ ساكون مضطرا لان ادفع للانفاق عليه »

مشى ريت إلى المدفأة حيث يستطيع ان يرى وجهها في ضوء السنة اللهب . واختفت ابتسامته المتحدية وتغضن جبينه بالقلق :

— « انت لم تعرفي بذلك من قبل .. هل عرفت ؟ انتظري يا سكارليت ساعطيك قليلا من البراندي . يبدو انك ستموتين » .

كان لابد ان يمسك يديها بيده حتى يصل الكاس إلى شفتيها ، فقد كانت ترتعد . وعندما فرغ الكاس وضعه على الأرض وفرك يديها حتى تسرب اليهما الدفء وتوقفت عن الارتعاش .

— « الآن ، قولى لى الحقيقة ، هل هناك جندى يقتحم غرف النوم ؟ » .

— « ريت ، انت لم تقصد ذلك ، هل قصدت ؟ انك لن تكف عن ارسال النقود إلى اتلانتا » ؟

— « فلتذهب النقود إلى الجحيم ياسكارليت ، لقد وجهت اليك سؤالا » .

وقالت : « فلتذهب انت إلى الجحيم ، وانا وجهت اليك سؤالا » .

— « كان يجب ان اعرف انك لن تكونى قادرة على التفكير فى اى شىء آخر إذا ما ذكرت النقود ، حسنا ، سوف ارسل بعض النقود إلى هنرى . والآن ، هل تردين على سؤالى » ؟

— هل تقسم ؟

— اقسم

— غدا ؟

— نعم ! نعم ، اللعنة ، غدا . الآن ، للمرة الاخيرة ، ما هذه القصة عن الجندى اليانكى ؟

تنفست سكارليت الصعداء واحست ان شعورها بالراحة يمكن أن يدوم إلى الابد .. وقالت له كل شىء تعرفه عن المعتدى الليلى .

— تقولين إن اليسيا سافيج رات الزى الذى يرتديه ؟

اجابت سكارليت : « نعم » . ثم اضافت لتثير غيظه « انه لا يهتم باعمار الضحايا ، ربما يكون يغتصب والدتك فى هذه اللحظة » .

وجمع ريت قبضتى يديه الكبيرتين : « يجب ان اخنقك يا سكارليت » .

وظل حوالى الساعة يلقى عليها بالأسئلة إلى أن استخلص منها كل شىء سمعت به حول حادث « الجندى » ، واخيرا قال « حسنا جدا ، سوف تعودين غدا مع عودة المد » ومضى نحو احد الابواب وفتحه .. ودخلت اشعة القمر ثم قال : « السماء صافية ، ستكون رحلة سهلة » وأغلق الباب عائدا إلى وسط الحجرة بعد ان غاب ضوء القمر . وساد الظلام إلى ان اشعل ريت عود ثقاب واضاء مصباحا غازيا ، ورفع المصباح فى يده ليقول : « تعالى معى ، هناك غرفة نوم فى الطابق الأعلى » .

كانت غرفة بدائية مثل غرفة الدور الارضى . وقفزت إلى الفراش . ووقف لحظة إلى جانب الفراش قبل أن يغادر الغرفة . وسمعت وقع اقدامه . كلا ،

إنه لم ينزل إلى الدور الأرضى . سيكون فى غرفة مجاورة . وابتسمت سكارليت وغلبها النوم .

● ● ●

بدأ الكابوس ، كما كان يبدأ دائما .. بالضباب مرت سنوات لم تر سكارليت هذا الحلم . ولكن عقلها الباطن تذكر ، حتى وهو يخلق الحلم ، وبدات تتلوى وتتقلب فى فراشها .. وتئن وتنشج من اعماق حنجرتها .. ثم انها تجرى وتتعثر وتجرى خلال ضباب أبيض كثيف . وهى باردة كالموت وجائعة ومرعوبة . انه نفس الكابوس . وفى كل مرة يكون أسوأ من ذى قبل كما لو كان الرعب والجوع والصقيع قد تراكم ونما وأصبح أقوى .

ومع ذلك لم يكن هو نفس الحلم فى الماضى كانت تجرى وتصل إلى شىء ليس له اسم . شىء غير معروف ، والآن تستطيع أن تلمح أمامها من خلال الضباب ظهر ريت العريض يتحرك مبتعدا دائما ، وكانت تعرف انه . هو . الذى تبحث عنه ، وعندما تقترب منه وتصل إليه . يفقد الحلم قوته ويتلاشى تدريجيا ويذوى إلى غير عودة ، انها تجرى وتجرى ولكنه بعيد دائما . دائما . وظهره فى مواجهتها .. ويزداد الضباب كثافة ثم يبدأ يختفى ، وتناديه · « ريت . ريت . ريت »

— صه .. اسكتى . انت تحلمين .. ليس هذا حقيقيا .

— « ريت . » .

— « نعم ، انا هنا .. اسكتى الآن .. انت بخير » .

ذراعان قويتان رفعتا رأسها من فوق الوسادة وامسكتا بها . انها دافئة وآمنة فى النهاية

سكارليت . نصف مستيقظة .. ولا أثر للضباب . وإنما مصباح على المنضدة يوزع أضواءه . وتستطيع أن ترى وجه ريت قريبا من وجهها صاحت « أوه ، ريت ، كان مخيفا للغاية »

— « الحلم القديم » ؟

— « نعم ـ نعم ، حسنا يكاد يكون هو . كان هناك شىء مختلف ، لا استطيع أن أتذكر ، ولكنى كنت أشعر بالبرد والجوع ، ولم أستطع أن أرى شيئا بسبب الضباب ، وكنت خائفة جدا ياريت ، كان شيئا مروعا » .

كانت قريبة منه . قال ·

« طبعا شعرت بالبرد والجوع ، فالعشاء لم يكن يصلح للأكل ، كما انك نزعت عنك أغطية الفراش . سوف اثبتها عليك وسوف تنامين

نوما هانئا » . ووضع راسها على الوسائد .

— « لا تتركني سوف يعود الكابوس » .

ونثر ريت البطاطين فوقها وهو يقول « سيكون هناك بسكويت لطعام الافطار والسخينة المصنوعة من دقيق الذرة الصفراء المغلى في الحليب او الماء ، وزبدة وفخذ خنزير ريفي وبيض طازج ـ وستنامين كالطفل . لقد كنت دائما اكولة ياسكارليت » . كان صوته متفكها ومرهقا . واطبقت رموش عينيها المثقلة .

— « ريت ؟ »

خرج صوتها ضبابيا ونعسان . وتوقف عند الباب ويده تظلل ضوء المصباح « نعم ياسكارليت » ؟

— « شكرا على مجيئك لا يقاظى .كيف عرفت ؟ »

— كنت تصرخين بصوت عال يكفى لتحطيم النوافذ » .

وكان اخر ما سمعته منه ضحكته الدافئة الرقيقة . كانت اشبه بالهدهدة او الأغنية الرقيقة الهادئة التى تغرى الطفل بالنوم .

● ● ●

وكما تكهن ريت .. تناولت سكارليت وجبة افطار هائلة قبل ان تذهب للبحث عنه وعرفت انه استيقظ قبل الفجر كعادته ـ لقد عاملها ريت برفق ، وكان يجب ان تحضر إلى المزرعة من قبل بدلا من الذهاب إلى مليون حفلة شاى فى شارلستون . خرجت من المنزل .. إلى ضوء الشمس القوى .. ورات جدرانا كثيرة متهدمة من بقايا الحرب . هذا هو موطن ريت وحياته . لا شيء في حياتها المضطربة يعادل هذه الحالة السيئة . انها لن تعرف ابدا مدى الالم الذى لابد ان يكون قد شعر به ومازال . مئات المرات كل يوم عندما يرى حطام بيته ولا غرابة في انه مصمم على إعادة بنائه وعلى العثور على كل شيء من الممتلكات القديمة واستعادتها . كان يمكن ان تساعده ! الم تحرث الحقول وتزرع الأرض وتحصد الثمار بنفسها فى تارا ؟ ستكون فخورة بتقديم المساعدة لأنها تعرف ما يعنيه ذلك ، استطيع ان اعمل معه ولا ابالى بان ارضيه حجرات المنزل قذرة .. مادمت مع ريت . ولكن اين هو ؟ يجب ان اخبره

كانت قد تقطعت انفاسها عندما وصلت إلى المكان الذى يوجد فيه ريت . فقد جرت وقفزت وهى تشعر بمتعة كبيرة من الطبيعة حولها انها تلهث ويدها على صدرها إلى ان تستعيد انفاسها المتقطعة .

قالت « لم اجد مثل هذه المتعة من قبل .. ما اجمل هذا المكان يا ريت .

الآن افهم لماذا تحبه ، هل جريت عندما كنت صغيرا عبر هذه القطعة من الأرض الممهدة المغطاة بالعشب حول البيت ؟ هل شعرت بأنك تكاد تطير ؟ آه يا حبيبى ، كم هو مروع أن ترى الحريق ! اننى كسيرة القلب من اجلك . اننى أود ان اقتل كل يانكى فى العالم ! أوه يا ريت ان عندى الكثير الذى اريد ان اقوله لك . لقد كنت أفكر . كل شىء يمكن أن يعود يا حبيبى مثل العشب . اننى افهم . اننى حقا وبصدق افهم ما تفعله » .

نظر اليها ريت باستغراب وحذر :

— « ما الذى (تفهمينه) يا سكارليت » ؟

— « افهم لماذا انت هنا ، بدلا من المدينة ، لماذا يجب أن تعيد الزرع إلى الحياة . قل لى ماذا فعلت وما الذى تعتزم أن تفعله ، انه لأمر مثير جدا » !

اضاء وجه ريت ، وأشار إلى الصفوف الطويلة من المزروعات خلفه . وقال « لقد احترقت ، ولكنها لم تمت ، انها تبدو كما لو كانت قد ازدادت قوة من جراء الحريق ، ربما اعطاها الرماد شيئا كانت تحتاجه ، يجب أن اعرف السر ، امامى الكثير الذى يجب أن أتعلمه » .

نظرت سكارليت إلى البقايا الكثة المنخفضة . ولم تعرف هذه الأوراق الخضراء اللامعة « ما نوع هذه الشجرة ؟ هل تزرع الخوخ هنا ؟ » .

— انها ليست أشجار يا سكارليت ، فهى شجيرات زهور الكاميليا الأولى من نوعها التى تصل إلى أمريكا هى التى زرعت هنا » .

— هل تعنى انها زهور ؟

— « طبعا ،انها تكاد تكون اكمل زهرة فى العالم ، ان الصينيين يعبدونها » .

— « ولكنك لا تاكل الزهور . ماهى الغلال والمحاصيل التى تزرعها ؟ » .

— « لا استطيع ان افكر فى الغلال والمحاصيل . ان عندى مائة فدان من الحدائق يجب انقاذها » .

— هذا جنون ياريت . ما فائدة حدائق الزهور ؟ يجب أن تزرع شيئا تبيعه . اننى أعرف ان القطن لا يزرع هنا ، ولكن يجب ان تكون هناك غلة تجلب الكثير من النقود ، لماذا نستخدم فى تارا كل شبر من الأرض .. انت تستطيع ان تزرع حتى جدران البيت . انظر كيف ينمو العشب بهذا اللون الاخضر وبهذا القدر من الكثافة على هذا النحو .. أن الأرض يجب أن تكون غنية كأى شىء آخر . كل ما عليك هو أن تحرثها وتضع فيها البذور ،

وربما تنبت وتنمو بسرعة أكبر من تلك التى تدير بها ظهرك بعد البذر »

نظرت اليه بلهفة .. وهى على استعداد للمساهمة بخبرتها .

قال ريت فى تأمل : « أنت بربرية يا سكارليت . اذهبى إلى المنزل واخبرى بانسى بأن تستعد . ساقابلكما عند رصيف السفن » .

ما الخطأ الذى ارتكبته ؟ منذ دقيقة واحدة كان مليئا بالحياة والاثارة ثم ذهب كل شيء فجاة واصبح فاترا وغريبا عنها . انها لن تفهمه أبدا حتى لو اصبح عمرها مائة عام . وتوجهت بسرعة إلى المنزل دون أن تلتفت هذه المرة إلى الشرفات الخضراء الجميلة .

● ● ●

السفينة التى اقلت سكارليت وريت وبانسى هذه المرة فى طريق العودة كانت احسن حالا من ذلك الزورق الذى أقل سكارليت وبانسى إلى المزرعة . وبعد ان أصدر ريت أوامره بشأن اقلاع السفينة حاولت سكارليت مغادرة الكابينة والصعود إلى سطحها ، ولكن ريت منعها من ذلك ، وهو يقول . « أعتقد انك لن تمانعى فى أن أدخن » .

— « امانع كثيرا ، لماذا أنا حبيسة هنا فى الظلام .. بينما بانسى تستمتع بالمشاهدة ، ارجو أن أصعد إلى سطح السفينة .. فى الشمس » .

قال ريت « انها سفينة صغيرة ، وطاقمها من السود ، وبانسى سوداء ، وانت امراة بيضاء . هم فى غرفة القيادة وانت فى المقصورة وتستطيع بانسى ان تدحرج ناظريها على الرجلين وتضحك على غزلهما غير الرقيق إلى حد ما . وسيقضى الثلاثة وقتا طيبا ، وسوف يفسد وجودك هذه المتعة . فى نفس الوقت فإن الطبقة الدنيا تستمتع بالرحلة ، أما أنت وأنا ، النخبة صاحبة الامتيازات ، فسنكون محبوسين فى مكان ضيق يصاحب أحدنا الآخر ، بينما تواصلين انت التجهم والعواء » .

— « اننى لا اتجهم ولا أعوى ! وسوف اشكرك لو توقفت عن الحديث معى كما لو كنت طفلة » ! كانت تكره ان يجعلها ريت تشعر بأنها حمقاء .

— « ما هذا المحجر الذى توقفنا عنده ؟ » .

— « هذا يا عزيزتى هو خلاص شارلستون وجواز مرورى للعودة إلى احضان أهلى . انه منجم فوسفات هناك العشرات منها مبعثرة على طول النهرين » واشعل سيجاره ثم قال : « أرى عينيك تلمعان يا سكارليت انه ليس مثل منجم الذهب فانت لا تستطيعين ان تصنعى عملات او مجوهرات من الفوسفات ، ولكن إذا تم طحنه وغسله ومعالجته ببعض الكيماويات ، فانه يصبح من أعظم المخصبات فى العالم . وهناك زبائن

ينتظرون اكثر بكثير من الكمية التى نستطيع إنتاجها » .
— « إذن فانت اغنى من اى وقت مضى » .
— « نعم ، ولكنها اموال شارلستون المحترمة . أستطيع ان أنفق الكثير من أرباحى ، التى حصلت عليها بطريقة رديئة ومن المضاربة ، كما اشاء الآن بلا مشاكل .. كل شخص يمكن أن يقول لنفسه ان مصدر هذا المال هو الفوسفات ، رغم أن حجم المنجم ضئيل »
— لماذا لا تجعله اكبر ؟
— لست مضطرا لذلك ، إنه يخدم غرضى وهو فى حالته الراهنة بالضبط إن عندى كبير عمال لا يغشنى كثيرا وحوالى ٢٤ عاملا يعملون بنفس القدر الذى يتسكعون به ، وعندى ما يجعل الناس يحترموننى .. واستطيع أن انفق وقتى ومالى وعرقى على ما اهتم به ، والآن فإن هذا الشىء هو ترميم الحدائق .
شعرت سكارليت بالضيق . الا يشبه ذلك أن يسقط ريت فى حوض من الزبد ؟ ثم يضيع الفرصة ؟ وبصرف النظر عن حجم ثروته الآن ، فإنه يمكن أن يصبح اكثر ثراء . فليس هناك أجمل من المال الوفير ، ماذا لو تسلم العمل بنفسه . وحصل من هؤلاء العمال على يوم عمل حقيقى ، إنه يستطيع أن يضاعف الانتاج ثلاث مرات ، فاذا استعان بعد ذلك بـ ٢٤ عاملا آخرين فانه يستطيع ان يضاعف .....
— « اغفرى لى مقاطعتى لعملية تشييد امبراطوريتك يا سكارليت ، ولكن عندى سؤالا جديا أريد أن أساله لك . ماهو المقابل لاقناعك بانك يجب أن تتركينى فى هدوء وتعودى إلى اتلانتا » ؟
وحدقت فى وجهه وهى فاغرة الفم . لقد اصابتها دهشة حقيقية . انه لا يمكن أن يعنى ما يقول . ليس بعد ان امسك بها بين ذراعيه فى رقة فى الليلة الماضية . وقالت بصوت الاتهام « انت تهزل ، هذه دعابة » .
— « كلا ، ليست دعابة ، اننى لم اكن جادا فى اى يوم من حياتى كما انا الآن ، واريدك أن تاخذى كلامى بجدية لم تكن عادتى قط ان أشرح لأى شخص ما افعله او ما أفكر فيه ، كما اننى لا اثق حقا فى انك ستفهمين ما ساقوله لك ، ولكنى ساحاول ، اننى اعمل بنشاط اكبر مما كنت افعل فى اى وقت مضى من حياتى يا سكارليت . وقد أحرقت جسورى فى شارلستون بالكامل وعلنا حتى أن الرائحة النتنة للتدمير مازالت فى أنوف كل سكان المدينة . ان ذلك اقوى بما لايقاس من اسوأ شىء فعله شيرمان ، لأننى كنت واحدا من ابناء جلدتهم وتحديت كل شىء اقاموا حياتهم على اساسه

وفوزى بالعودة إلى حظوة شارلستون يشبه تسلق جبل ثلجى فى الظلام . مرة واحدة تنزلق فيها قدمى .. اصبح ميتا . وحتى الآن انا حذر جدا وبطىء جدا . وقد حققت خطوات بسيطة ولا أستطيع أن اخاطر بتدميرك لكل ما فعلته . اريدك أن تغادرى . وأسالك عن ثمنك » .

وضحكت سكارليت فى ارتياح : « هل هذا كل شىء ! تستطيع ان تهنا بالاً وتنعم بالهدوء إذا كان هذا هو ما يقلقك . فإن كل شخص فى شارلستون يحبنى لقد ارهقتنى الدعوات من هؤلاء واولئك ، ولا يمضى يوم دون أن تاتى احداهن إلى السوق وتسالنى المشورة حول ما نشتريه » .

وضع ريت رماد سيجاره وهو يرقب ما تبقى من رماد : « آه .. نعم ، اسمع بعض الاخبار من المدينة عندما اكون فى المزرعة ، ولكنك مثل برميل البارود المعلق على ظهرى وانا اتسلق ذلك الجبل الثلجى يا سكارليت ، انت عبء ثقيل لا يتغير وزنه ، غير مثقفة ، غير متحضرة ، كاثوليكية ، وبعيدة عن كل شىء راق فى اتلانتا .. انك يمكن أن تنفجرى فى وجهى فى أى دقيقة . اريدك ان ترحلى . ما ثمن ذلك » ؟

وتشبثت سكارليت بالاتهام الوحيد الذى تستطيع ان تدافع عن نفسها ازاءه : « ساكون ممتنة لك إذا قلت لى ماهو الخطا فى ان اكون كاثوليكية يا ريت باتلر ! اننا نخشى الله قبل وقت طويل من سماعكم انتم أيها البروتستانت عن الله » .

الضحك المفاجىء الذى انفجر فيه ريت لم يكن له معنى بالنسبة لها . ولكن ما قاله بعد ذلك كان ينفذ إلى الأعماق « اننا لن نضيع الوقت فى مناقشة علم اللاهوت ، يا سكارليت . الحقيقة التى تعرفينها كما أعرفها . ولأسباب لا يمكن الدفاع عنها ، هى ان الكاثوليك ينظر اليهم من أعلى فى المجتمع الجنوبى ، هذا غير معقول والله يعلم ان هذه النظرة غير مسيحية ، ولكن هذا هو الواقع » .

ولزمت سكارليت الصمت . كانت تعرف انه على حق . واستخدم ريت هزيمتها المؤقتة لكى يكرر سؤاله الأصلى : « ماذا تريدين يا سكارليت ؟ يمكنك ان تقولى لى .. اطمئنى فلم يحدث اطلاقا من قبل اننى شعرت بصدمة تجاه الزوايا الاكثر قتامة من طبيعتك » انه يعنى ما يقول . وهذا ما يجعلها تشعر بالياس الآن .

كل حفلات الشاى التى حضرتها والملابس الكئيبة التى اضطررت لارتدائها والسير على الاقدام كل صباح فى الصقيع والظلام إلى السوق .. كل ذلك ذهب عبثا . لقد جاءت إلى شارلستون لكى تستعيد ريت ، ولم تنتصر .

قالت سكارليت فى صدق صارخ واضح · « أريدك أنت » .

فى هذه المرة كان ريت هو الذى لزم الصمت . كانت تستطيع أن ترى فقط هيكله والدخان المتصاعد من سيجاره . كان قريبا جدا منها ولو حركت قدمها بضع بوصات فإنها تستطيع ان تلمسه ، كانت تريده بشدة حتى انها شعرت بألم جسمانى ، ولكنها جلست تنتظره ليتكلم

صفقـة الذهـب

من فوق السطح .. كان يتناهى إلى الأسماع طنين أصوات تدمدم .. بينها صوت بانسى المرتفع ، الأمر الذى جعل الصمت فى المقصورة اشد وطاة .

قال ريت : « نصف مليون من الذهب » .

— ماذا قلت ؟

لابد اننى لم اسمع جيدا . لقد افضيت اليه بما فى قلبى ولم يجب .

— قلت انى ساعطيك نصف مليون دولار ذهب إذا رحلت . وبصرف النظر عن البهجة التى تجدينها فى شارلستون فإنها لا تستحق التضحية بكل هذا المبلغ ، اننى اقدم لك رشوة سخية يا سكارليت .. وقلبك الجشع الصغير لا يمكن ان يفضل محاولة عقيمة لإنقاذ زواجنا على ثروة اكبر من كل طموحاتك . وكمكافاة ، فى حالة قبولك ، سوف استانف دفع نفقات ذلك الشىء المهول الضخم البشع فى شارع بيتشترى » .

قالت بطريقة تلقائية :

— « انت وعدت الليلة الماضية بانك سترسل المال إلى العم هنرى اليوم » . ارادت ان يكون هادئا لمدة دقيقة . ارادت ان تفكر : هل هى حقا « محاولة عقيمة » ؟ لقد رفضت ان تصدق ذلك .

قال ريت فى هدوء : « الناس يبذلون الوعود لكى يتراجعوا عنها .. ماذا عن العرض الذى قدمته لك يا سكارليت » ؟

— احتاج ان افكر .

— إذن فكرى بينما انهى تدخين سيجارى ، وبعدها اريد اجابتك فكرى فيما سيحدث إذا كان عليك ان تنفقى اموالك على ذلك الرعب المسمى بالمنزل الذى تحبينه كثيرا فى شارع بيتشترى . ليست لديك فكرة عن التكاليف ثم فكرى فى انه ستكون بين يديك كمية من المال اكثر الف مرة من تلك التى كنت تجمعينها طوال السنوات الماضية ، انها فدية ملك يا سكارليت ، كلها مرة واحدة ، وكلها تحت تصرفك . اكثر مما تستطيعين انفاقه ، علاوة على تكاليف المنزل التى ساتولى انا دفعها ، بل ساعطيك حق الامتلاك » .

لاحت نهاية السيجار .

بدات سكارليت تفكر فى تركيز يائس . فهى لابد ان تجد طريقة للبقاء ، لأنها لن ترحل مقابل كل اموال الدنيا .

انها تريد استعادته وسوف يتحقق لها ذلك بصرف النظر عن الوسيلة . وكانت مستعدة عندما استدار نحوها ورفع احد حاجبيه فى تساؤل

— « ماذا سيكون موقفك يا سكارليت » ؟

تكلمت سكارليت بطريقة سيدات الأعمال : « أنت تريد عقد صفقة كما قلت يا ريت ، ولكنك لا تساوم . انت تلقى بالتهديدات على راسى كالصخور . علاوة على اننى أعرف انك تمارس الخداع عندما تتحدث عن الأموال التى ترسلها إلى اتلانتا . انك حريص إلى اقصى حد على سمعتك فى شارلستون ، والناس هنا لا ينظرون بتقدير كبير إلى الرجل الذى لا يعتنى بزوجته . ووالدتك لا تستطيع ان ترفع رأسها إذا ترددت كلمة واحدة حول هذا الموضوع . الأمر الثانى ـ حول حجم المبلغ ـ انت على حق . ساكون مسرورة بامتلاك هذه النقود ، ولكن ليس فى مقابل ان اعود إلى اتلانتنا فى الحال وساكشف أيضا اوراقى لأنك تعرفها بالفعل . لقد ارتكبت اشياء حمقاء إلى حد بعيد ولا سبيل إلى ازالتها وفى الوقت الحالى ليس لى اصدقاء فى كل ولاية جورجيا ، وانا أكسب اصدقاء فى شارلستون رغم ذلك .. قد لا تصدق ذلك ، ولكنه صحيح . كما اننى اتعلم الكثير أيضا . وما إن يكون قد انقضى وقت كاف لكى ينسى الناس فى اتلانتنا اشياء قليلة ، حتى اقرر اننى استطيع ان أدفع ثمن اخطائى . وعلى ذلك فإن عندى صفقة اعرضها عليك : ان تكف عن التصرف على نحو مفعم بالكراهية او البغضاء نحوى ، وان تتصرف بطريقة ودية وتساعدنى على قضاء وقت طيب . ونقضى « الموسم » مثل اى زوج وزوجة سعيدين مخلصين . وفى الربيع ساعود إلى اتلانتنا واستانف حياتى هناك » .

وحبست انفاسها . انه مضطر للموافقة . ليس امامه طريق آخر . فالموسم يدوم ثمانية اسابيع تقريبا ، وسيكونان معا كل يوم ولا يوجد رجل يقف على قدمين يبقى إلى جانبها كل هذا الوقت ثم لا تستطيع ان تجعله يتبعها ويفعل اى شىء تطلبه منه او يمكن ان يفلت من يديها .. صحيح أن ريت مختلف عن سائر الرجال ، ولكنه ليس مختلفا إلى هذا الحد الذى يجعله صعب المنال ، فلم يوجد الرجل الذى لم تستطع الحصول عليه .

— « وتحصلين على النقود .. هل هذا ما تقصدين ؟ » .

— « طبعا مع النقود ، هل تظننى غبية ؟ » .

— « هذه ليست فكرتى بالدقة عن الصفقة يا سكارليت ، فليس فيها ما يحقق غرضى . أنت ستاخذين النقود التى أريد أن ادفعها لك لكى ترحلى ، ولكنك لا ترحلين . ما الذى استفيده ؟ » .

— « اننى لن ابقى إلى الابد . ولن اقول لوالدتك شيئا عن مدى

حقارتك » .

تكاد تكون على يقين من أنها راته يبتسم .

— « هل تعرفين اسم النهر الذى نجرى فوقه الآن يا سكارليت ؟ » .

ياله من سؤال سخيف . وهو لم يوافق بعد على الموسم .ما الذى يجرى ؟

— « انه نهر اشلى » . وتفوه بالاسم بطريقة متميزة مغالى فيها :

— « هذا يستدعى إلى الذهن الجنتلمان الجديد بالاحترام مستر ويلكس الذى كنت تشتهين اجتذاب عواطفه لقد كنت شاهدا على قدرتك على الاخلاص العنيد يا سكارليت وتصميمك الذى يضع امامه هدفا وحيدا يستقطب قواه كلها ، وهو تصميم مخيف عند ملاحظته ، وكنت انت مؤخرا فى منتهى المودة حتى انه جدير بالذكر انك قررت ان تضعينى فى المكان الرفيع الذى كان يشغله اشلى ذات مرة . ان هذا الاحتمال يملؤنى بالذعر » .

وقاطعته سكارليت ، كان لابد من المقاطعة . فقد كان يوشك على الرفض .

— « اوه يا ريت .. اننى اعرف انه لا فائدة من الجرى وراءك . انت لست لطيفا بالدرجة التى تكفى لتعويض ذلك ، إلى جانب ذلك فانت تعرفنى جيدا » وضحك ريت بلا مرح . وقال · « إذا اعترفت بصحة ما تقولينه ، فقد نكون قادرين على الوصول إلى اتفاق عملى » .

حرصت سكارليت على ان تكسب وجهها طابعا جديا ، وقالت : « اننى راغبة فى المقايضة ، ماذا لديك » ؟

فى هذه المرة ، كانت ضحكة ريت المفاجئة .. حقيقية . قال : « اعتقد ان مس اوهارا الحقيقية قد انضمت الينا . هذه هى شروطى : سوف تسرين إلى والدتى ان شخيرى يعلو اثناء نومى ، ولذلك فاننا دائما ننام فى غرفتين منفصلتين . وبعد حفل سانت سيسيليا الذى يختتم به الموسم ، سوف تعربين عن رغبة ملحة فى العودة بسرعة إلى اتلانتا ، وما ان تصلى إلى هناك حتى تعينى على الفور محاميا ـ هنرى هاميلتون او غيره ـ ليقابل المحامين الذين يمثلوننى للتفاوض حول تسوية واتفاقية انفصال موثقة وعلاوة على ذلك فإنك لن تضعى قدمك مرة اخرى فى شارلستون ، ولن تكتبى او تبعثى برسائل لى او لوالدتى » .

سكارليت تفكر باقصى سرعة . انها تكاد تكون قد انتصرت . باستثناء « الحجرتين المنفصلتين » . ربما ستطلب إمهالها المزيد من الوقت . كلا ، لن تطلب ، فالمفترض انها تساوم .

— « قد اوافق على شروطك يا ريت ، ولكن ليس على التوقيت الذى

تقرره . فاذا حزمت حقائبى فى اليوم التالى لانتهاء الحفلات ، فإن كل شخص سوف يلاحظ . انت ستذهب إلى المزرعة عقب الحفل وسيكون من المعقول أن أبدا فى التفكير فى اتلاننا عندئذ . لماذا لا نقول اننى سأرحل فى منتصف ابريل » ؟

— اننى راغب فى جعلك تمكثين لفترة من الوقت فى المدينة بعد مغادرتى لها إلى الريف ، ولكن أول ابريل سيكون اكثر ملاءمة .

ذلك افضل مما كانت تتمناه ! الموسم .. ثم اكثر من شهر وهى نفسها لم تقل اى شىء حول البقاء فى المدينة بعد ذهابه إلى المزرعة . وقد تلحق به هناك .

— « إذا اقسمت على ان تكون لطيف المعشر طول المدة التى اقضيها هنا قبل رحيلى .. فاننا نكون قد اتفقنا ، أما إذا انقلبت إلى وضيع فستكون أنت الذى حطمت الاتفاق ، وليس أنا ، ولن أرحل » .

— « مسز باتلر . ان اخلاص زوجك سيجعلك موضع حسد كل امراة فى شارلستون » .

كان يتحدث بسخرية ، ولكن سكارليت لم تهتم بذلك ، لقد فازت .

وفتح ريت كوة فى سقف الغرفة .. وانطلق إلى الداخل هواء محمّل برائحة الملح ودخل ضوء الشمس .. وللغرابة دخل نسيم منعش ..

● ● ●

— « مس إليانور ، لقد كان اجمل وقت امضيته فى حياتى ! لا ادرى لماذا لا يصبح كل رجل فى العالم .. بحارا » !

— « اننى سعيدة لانك استمتعت بوقتك يا عزيزتى ، ولكن لقد كان عملا شريرا للغاية من جانب ريت ان يعرضك لكل هذه الشمس والرياح . ان لونك احمر مثل الهنود » .

وامرت السيدة باتلر .. سكارليت بالتوجه إلى غرفتها واستعمال كمادات الجلسرين وماء الورد على وجهها ، ثم تولت توبيخ ابنها الضاحك الطويل القامة إلى ان احنى راسه متظاهرا بالشعور بالخزى ، وسال والدته فى خجل مصطنع : « إذا صنعت من اوراق الكريسماس الخضراء شجرة عيد الميلاد ، هل ستسمحين لى بتناول الحلوى عقب الغداء ، أم لابد أن اقف فى ركن الحجرة ووجهى للحائط » ورفعت إليانور باتلر يديها فى استسلام :

— « لا أعرف ما سافعله بك يا ريت » ، ولكنها فشلت تماما فى ان تمنع نفسها من الابتسام ، انها تحب ابنها بصورة غير عادية .

● ● ●

بعد ظهر ذلك اليوم .. حمل ريت إحدى باقات الزهور التى جلبها من المزرعة ، إلى اليسيا سافيج كهدية من والدته .

واعربت اليسيا عن شكرها لاليانور ، ودعت ريت إلى تناول مشروب ، وتحدثا عن الطقس غير المالوف . كان كل منهما يعرف الآخر منذ أيام الطفولة ، فقد كان لعائلتيهما منزلان يفصل بينهما سور مشترك لحديقة وشجرة توت تتدلى فروعها على جانبى السور وتتساقط الفاكهة ذات اللون الأرجوانى من هذه الفروع .

وقال ريت بعد ان فرغ هو و « اليسيا » من استعادة ذكريات التسابق على التهام التوت :

— « لقد فزعت سكارليت من حوادث اقتحام اليانكى لغرف النوم ، هل تمانعين فى التحدث مع صديق قديم شاهد ملابسك الداخلية عندما كنت فى الخامسة من عمرك » .

وضحكت مس سافيج من قلبها .

— « صفى لى شكله يا اليسيا .. قد يساعدنى ذلك على التاكد من ظنونى » .

— « لقد شاهدته لثانية واحدة فقط يا ريت » .

— « هذا يكفى . هل هو طويل أم قصير ؟ » .

— « طويل ، نعم ، انه طويل جدا حقا . كان رأسه على مسافة قدم فقط تقريبا تحت قمة الستائر ، وهذه النوافذ يصل ارتفاعها إلى سبعة اقدام واربع بوصات .

ابتسامة عريضة على شفتى ريت :

— « كنت اعلم اننى أستطيع الاعتماد عليك ، أنت الشخص الوحيد الذى عرفته الذى يستطيع ان يحدد ويميز أكبر كأس من الآيس كريم فى حفل عيد الميلاد من أقصى الناحية الأخرى من الغرفة . كنا نسميك من وراء ظهرك ـ عين النسر ـ » .

واستانف ريت اسئلته . وتذكرت اليسيا تفصيلات عديدة هامة بمجرد ان شرعت فى التفكير : كان الجندى شابا صغيرا ، بل صغيرا جدا فى الحقيقة ، وله حركات خرقاء لصبى لم يالف التدفق المفاجىء للرجولة المبكرة . وكان نحيلا جدا ايضا ، والزى الذى يرتديه فضفاض يتهدل على جسمه . وظهر معصماه بوضوح تحت أزرار اكمامه وربما لا تكون هذه هى بدلته على الاطلاق . اما شعره فاسود .. والأصح أنه كان بنيا ولكنه بدا فى الظلال داكنا .. نعم ، مقصوص جيدا ولكنه غير ممشط تقريبا .. ولابد

انها شمت رائحة زيت (ماكاسار) .
وشيئا فشيئا شحذت اليسيا ذاكرتها . ثم تلعثمت وترنحت كلماتها .
— « انت تعرفين من هو ، أليس كذلك يا اليسيا ؟ » .
— « لابد ان اكون مخطئة » .
— « لابد ان تكونى على صواب .. لديك ابن فى هذه السن ـ حوالى اربعة عشر او خمسة عشر ـ والمؤكد انك تعرفين اصدقاءه . وما إن سمعت بهذه الحكايات .. استنتجت انه من غلمان شارلستون هل تعتقدين حقا ان جندى يانكى يقتحم غرفة نوم سيدة لمجرد ان يلقى نظرة على خطوط جسدها تحت غطاء الفراش ؟ انه ليس عهد الارهاب يا إليسيا ، انه غلام تعس اصابته الحيرة بشأن ما يفعل جسده به .. انه يريد أن يعرف كيف يبدو شكل جسد المراة بدون مشدات الخصر والردفين ، وبدون أرداف نسائية صناعية . انه يريد أن يعرف الكثير حتى انه اضطر لاختلاس النظرات إلى النسوة النائمات . والأرجح انه يشعر بالخجل من افكاره عندما يرى واحدة فى ملابسها الكاملة ومستيقظة . الشيطان الصغير المسكين . افترض ان والده لقى مصرعه فى الحرب . وليس هناك رجل يتحدث اليه » .
— « ان له شقيقا اكبر ... » .
— « اوه ؟ إذن قد اكون مخطئا ، او انك تفكرين فى الغلام الخطا » .
— « اخشى انني لست مخطئة . تومى كوبر هو اسم الغلام . انه اطول الغلمان قامة وانظفهم . والأهم من ذلك انه كاد يموت عندما وجهت اليه التحية فى الشارع بعد يومين من حادث غرفة نومى .. لقد مات والده فى موقعة « بول ران » . ولم يعرفه تومى قط . اما شقيقه فانه يكبره بعشر سنوات أو إحدى عشرة سنة »
— « هل تقصدين ادوارد كوبر المحامى ؟ » .
واومات اليسيا برأسها .
وقالت ريت : ليس هناك ما يدعو للعجب إذن ، كوبر عضو فى لجنة « دار ائتلاف ولايات الجنوب » التى اسستها والدتى . لقد قابلته فى المنزل . انه ليس سوى مخنث وتومى لن يتلقى منه اى مساعدة .
— « انه ليس مخنثا على الاطلاق ، ولكنه غارق فى حب آن هامبتون بحيث لا يرى احتياجات شقيقه » .
— « كما ترين يا اليسيا ، ولكننى ساعقد اجتماعا صغيرا مع تومى » .
— « ريت .. لا تفعل انك ستفزع الولد المسكين حتى الموت » .

— « الولد المسكين » يفزع كل نساء شارلستون حتى الموت !! شكرا لله ان شيئا لم يحدث حتى الآن . فى المرة القادمة قد يفقد السيطرة على نفسه ، أو قد يطلق عليه الرصاص . اين يقيم يا اليسيا ؟ » .

— « ما الذى ستقوله له ؟ انك لا تستطيع ان تذهب اليه وتسحبه من مؤخرة عنقه » .

— « ثقى بى يا اليسيا » .

● ● ●

كان ريت يجلس فى شرفة منزل كوبر يشرب الشاى مع والدة تومى عندما وصل الغلام إلى البيت . وقدمت السيدة كوبر ابنها إلى ريت ، ثم أرسلته إلى الداخل لكى يضع كتبه المدرسية ويغسل يديه ووجهه . قالت : « مستر باتلر سياخذك إلى الترزى الذى يتعامل معه يا تومى ، إن لديه ابن عم فى مدينة (آيكن) ينمو بسرعة مثلك ويحتاجك لكى يقيس على جسمك بعض الملابس حتى يستطيع ان يشترى هدية عيد ميلاد مناسبة لقريبه » .

بعيدا عن انظار والدته وضيفها .. ظهرت تكشيرة مخيفة على وجه تومى ، ثم تذكر شذرات من حكايات سمعها عن شباب ريت الصاخب فقرر انه سيكون سعيدا بالذهاب مع مستر ريت ومساعدته .. فربما يجد الشجاعة لكى يطرح على مستر باتلر بضعة أسئلة حول اشياء تؤرقه .

ولم يجد تومى حاجة للسؤال . فما ان خرج من المنزل حتى وضع ريت ذراعه على كتفى الغلام . وقال : « توم ، اريد ان اعلمك بعض الدروس القيمة ، أولها كيف تكذب على والدتك بطريقة مقنعة . وخلال رحلتنا فى عربة الشارع سوف نتحدث ببعض التفصيل حول الترزى ودكانه وعاداته .. سوف تتدرب بمساعدتى إلى ان تصبح قصتك مقنعة . ليس لى ابن عم فى (آيكن) ، ولسنا فى الطريق إلى الترزى . اننا سنركب حتى نهاية خط شارع بروتلدج . ثم نمضى فى تمشية صحية على الأقدام إلى المنزل الذى أريد ان نلتقى فيه مع بعض اصدقائى .

وافق تومى كوبر بلا مناقشة . لقد اعتاد ان يستمع من الكبار إلى ما ينبغى عليه ان يفعل . وقد احب الطريقة التى يناديه بها مستر باتلر (توم) وقبل ان يمضى المساء ويتم تسليم توم إلى والدته ، كان الغلام ينظر إلى ريت نظرته إلى البطل المعبود .

كان ريت واثقا من ان توم لن ينسى ابدا الأصدقاء الذين التقى بهم . فقد كان من بين (المؤسسات) التاريخية العديدة لشارلستون .. اول بيت رسمى للدعارة « للسادة فقط » . وقد غير مكانه عدة مرات خلال قرنين

من وجوده ، ولكنه لم يغلق ابوابه يوما واحدا رغم الحروب والأوبئة والأعاصير . ومن بين السمات الخاصة لهذا البيت .. التدشين الرقيق والسرى للشبان واطلاعهم على مسرات الرجولة . وكان من تقاليد شارلستون المدللة .

وكان ريت يتساءل احيانا : كيف كانت حياته ستتغير لو أن والده كان يتجاوب مع هذه التقاليد ، كما كان بالنسبة لكل الأشياء الأخرى المتوقعة من جنتلمان شارلستون .. ولكن الماضى انتهى وولت أيامه . وانحنت شفتاه فى ابتسامة حزينة . لقد كان قادرا على الأقل ، أن ينوب عن الوالد المتوفى لتوم الذى كان سيفعل نفس الشىء لابنه ، وللتقاليد فوائدها لسبب واحد ، هو انه لم يعد هناك يانكى يقتحم غرف النوم عند منتصف الليل .



التحـــــدى

جاء يوم وصول روزمارى شقيقة ريت .. وتساءلت سكارليت عما سيكون عليه موقف روزمارى منها . ان ريت يحبها حبا جما . ومن خلال ما سمعته سكارليت عنها .. فإن روزمارى من الضحايا المحليين للحرب . كانت صغيرة جدا لم تصل إلى سن الزواج قبل أن تبدأ الحرب ، واصبحت فقيرة جدا بحيث لا تجذب اهتمام الرجال القلائل الذين اتيح وجودهم بعد أن انتهت الحرب . وكانت عودة ريت إلى شارلستون وثروته الخرافية سببا فى اطلاق الألسنة . لابد ان لروزمارى دوطة هائلة الآن ، ولكنها بعيدة دائما تزور ابنة عم أو صديقة فى مدينة اخرى . هل تبحث عن زوج هناك ؟ هل رجال شارلستون غير مقنعين بالنسبة لها ؟ الجميع ينتظرون إعلان خطوبتها منذ اكثر من عام . وكانت سكارليت تخشى ان تاخذ روزمارى الكثير من اهتمام ريت .

الفتاة التى دخلت من الباب لها ابتسامة مبهجة على وجهها . لقد وصلت روزمارى . انها تشبه ريت . نفس العينين السوداوين والشعر الأسود . وعبرت روزمارى الغرفة فى اربع خطوات وهى تقول :

— « إذن هذه سكارليت ، قال ريت : انك من عائلة القطط بسبب لون عينيك أرى الآن ما يقصده ، آمل ان يكون ما يصدر عنك نحوى مجرد هدير وقرقرة وليس بصاقا ، أود ياسكارليت ان نكون أصدقاء » .

الضجيج الذى تصنعه روزمارى اثناء تناول العشاء سبب صداعا لسكارليت . وقالت روزمارى : « لو اننى كنت رجلا لسمحت لى بالرحيل ، لقد كنت اقرأ مقالات عن روما كتبها مستر هنرى جيمس وشعرت اننى ساموت جاهلة إذا لم ار تلك المدينة بنفسى » .

وقال ريت بهدوء : « ولكنك لست رجلا يا عزيزتى » . وتدخلت سكارليت فى الحديث : « لماذا لا تدع روزمارى تذهب يا ريت ، إن روما ليست بعيدة وانا متاكدة من اننا لابد أن يكون لنا احد الأقارب هناك ، انها لا يمكن ان تكون أبعد من اثينا ، وعائلة تارلتون لديها مليون من أبناء العمومة فى اثينا » .

وحدقت فيها روزمارى : « من هؤلاء التارلتون وما علاقة اثينا بروما » ؟ وسعل ريت لإخفاء ضحكته ثم تنحنح ، وقال : « اثينا وروما أسماء مدن فى جورجيا يا روزمارى ، هل تودين زيارتهما ؟ »

ووضعت روزمارى يديها على راسها فى ايماءة درامية علامة على الياس : « لا اصدق ما اسمع .. من الذى يريد الذهاب إلى جورجيا بالله عليكم ؟

أريد أن أذهب إلى روما ، روما الحقيقية ، المدينة الخالدة في إيطاليا ! » .

وشعرت سكارليت بالدم يصعد إلى وجنتيها .

كان لابد ان اعرف انها تقصد إيطاليا .

ولكن قبل ان تستانف روزمارى الحديث انفتح باب غرفة الطعام بعنف محدثا دويا عنيفا اسكت الجميع وسبب لهم صدمة ، وتعثر روس وهو يلهث ويخطو داخل الغرفة . قال لاهثا : « ساعدونى ، الحرس ورائى ، لقد اطلقت النار على اليانكى الذى يقتحم غرف النوم » .

في ثوان وبسرعة خاطفة كان ريت إلى جانب شقيقه يمسك بذراعه .

قال ريت في لهجة آمرة ومهدئة : « المركب الشراعى في المرسى ، ولا يوجد قمر هذه الليلة ونستطيع نحن الاثنين ان نبحر بها » وبينما كان يغادر الغرفة ، التفت ليتحدث بتؤدة من فوق كتفه : « قولوا لهم اننى غادرت فور توصيل روزمارى حتى ألحق بالمد في النهر ، وأنتم لم تشاهدوا روس . ولا تعرفون أى شيء عن اى شيء . وسأكتب لكم » .

قشعريرة تجتاح جسد سكارليت . اليانكى قادمون ، وسيشنقون روس لأنه أطلق الرصاص على واحد منهم وسوف يشنقون ريت لمحاولته مساعدة روس على الهرب . لماذا لم يترك روس ليدبر اموره ؟ ليس له الحق في أن يترك نساءه وحدهن بلا حماية بينما اليانكى قادمون . تكلمت اليانور بصوت فولاذى ولكنه ناعم وبطيء كما كان دائما قالت : « سارفع اطباق ريت وادواته من فوق المائدة ، ويجب ابلاغ الخدم بما سوف يقولون ويجب الا تكون هناك اشارة إلى انه كان هنا .. هلا تفضلت انت وروزمارى بإعادة ترتيب المائدة لثلاثة اشخاص ؟ » .

— « ماذا سنفعل يا مس اليانور ؟ اليانكى قادمون » ؟

كانت سكارليت تعرف انها يجب ان تظل هادئة . واحتقرت نفسها لأنها مرتاعة ، ولكنها لم تستطع السيطرة على خوفها .. وهى تزداد خوفا عندما تتذكر أن جيش الاحتلال يمكن ان يفعل اى شيء يريده ويسمى ما يفعله قانونا .

قالت السيدة باتلر « سوف ننهى عشاءنا .. ثم ساقرا بصوت عال من رواية ايفانهو » .. كانت عيناها قد بدأتا تضحكان .

● ● ●

— « اليس لديك ما هو افضل لكى تفعله بوقتك من استعراض قوتك على منزل من النساء » ؟

وحملقت روزمارى في الضابط الاتحادى وقبضتاها مضمومتان على

فخذيها .

قالت السيدة باتلر : « أجلسى واهدئى يا روزمارى ، اننى اعتذر عن وقاحة ابنتى يا كابتن » . ولم يسعف ادب السيدة اليانوروروح المصالحة لديها فى استمالة الكابتن فأمر رجاله قائلا : « اذهبوا وفتشوا المنزل » .

كانت سكارليت مستلقية على ظهرها ورأسها فوق الوسادة بعد أن وضعت كمادات البابونج على وجهها الذى أحرقته اشعة الشمس وعينيها المتورمتين فى رحلتها البحرية . كانت مرتاحة لأن حالتها جعلتها غير مضطرة لرؤية اليانكى . يالالأعصاب الهادئة التى تتحلى بها مس اليانور . لقد فكرت فى ترتيب مشهد غرفة مريضة فى المكتبة ومع ذلك فإن الفضول يكاد يقتلها . لم تستطع ان تخمن ما يجرى من خلال الأصوات التى تصل إلى اذنيها وترشدها .. ثم وقع اقدام وأبواب تغلق ثم صمت . هل رحل الكابتن ؟ هل رحلت مس اليانور وروزمارى ايضا ؟

ولم تعد تتحمل اكثر من ذلك . وحركت يدا واحدة ببطء إلى أعلى صوب عينيها ورفعت طرفا من القماش الرطب الذى يغطيها . كانت روزمارى جالسة على المقعد قرب المكتبة فى هدوء تقرا كتابا .

وهمست سكارليت : س .. س .. س .. س..

واغلقت روزمارى الكتاب بسرعة ، وقالت فى همس ايضا : « ماذا ؟ هل سمعت شيئا » ؟

— لا ، لا اسمع شيئا ، ماذا يفعلون ؟ اين مس اليانور ؟ هل قبضوا عليها » ؟

— « بحق السماء يا سكارليت ، لماذا تهمسين » ؟

وعاد صوت روزمارى الطبيعى يدوى عاليا جدا : « الجنود يفتشون المنزل بحثا عن اسلحة ، وهم يصادرون كل الأسلحة النارية فى شارلستون . وماما تتبعهم لكى تتاكد من انهم لا يصادرون اى شىء آخر » .

واسترخت اعصاب سكارليت .. هل هذا هو كل شىء ؟ لا توجد أسلحة فى المنزل ، فهى تعرف ذلك . واغلقت عينيها ونامت . لقد كان يوما طويلا . وللحظة شعرت بانها تحسد ريت لانه يبحر تحت النجوم الآن .. ولم تشعر بقلق من احتمال ان يقبض عليه اليانكى ، فهى لم تقلق قط على ريت فلا يوجد من يستطيع ان يقهره .

وقرر اهالى شارلستون الاحتجاج على تفتيش بيوتهم وفرض حظر للتجول ابتداء من التاسعة مساء . كان موعد زفاف « لوسيندا ريج »

فى الثالث والعشرين من يناير . وتم تقديم موعده إلى التاسع عشر من ديسمبر فى كنيسة سانت مايكل فى الساعة التاسعة مساء اى فى نفس موعد سريان حظر التجول .. وها هوذا جمهور ضخم يخرج من الكنيسة منتهكا الحظر . ولا تعرف سلطات الجيش الشمالى كيف تتصرف لأن سجون المدينة لا تكفى لاستيعاب كل هذا العدد !

وعاد ريت إلى المدينة فى نفس ذلك المساء يحمل أخبار وصول روس سالما إلى مدينته ويلمنجتون . واعترفت له سكارليت بأنها خافت من الذهاب إلى حفل الزفاف :

« لم استطع أن أصدق أن مجموعة من سيدات حفلات الشاى يمكن أن يهزمن جيش اليانكى ، لابد أن اقولها يا ريت .. إن اهالى شارلستون يملكون كل ذكاء الدنيا » وابتسم ريت قائلا : « احب كل الحمقى المغرورين .. كل واحد منهم ، حتى المسكين روس اتمنى الا يعرف قط انه أخطأ التصويب على اليانكى بمسافة ميل ، فسوف يشعر بارتباك شديد لو عرف الحقيقة » .

كان صوت سكارليت ينبض بالاحتقار وهى تقول : « ربما لم يطلق النار على الاطلاق ! أتصور انه كان مخمورا » ثم قفز الخوف إلى عينيها : « إذن فالمعتدى الليلى لايزال مطلق السراح » ! وربت ريت على كتفها وضحك فى سعادة قائلا « كلا ، كونى مطمئنة يا عزيزتى ، لن تسمعى بعد الآن عن هذا المعتدى .. ذلك ان شقيقى والزواج السريع للصغيرة لوسيندا وضعا فى قلوب اليانكى الخوف من الله » . وسألته سكارليت فى شك : « ماذا يضحكك » ؟ كانت تكره أن يضحك الناس لسبب لا تعرفه . وقال ريت : « لن تفهمى ، كنت أهنىء نفسى على حل مشكلة بمفردى ، ثم لأن أخى أعطى المدينة كلها شيئا من السعادة والاحساس بالكبرياء .. انظرى اليهم يا سكارليت » . كانت لوسيندا ريج التى أصبحت لوسيندا جريمبول تلقى بالزهور من باقتها على الجنود .

قالت سكارليت : « أوف .. أود أن القى عليهم بقطع الطوب » !

— « أنا متأكد من انك يمكن أن تفعلى ذلك ، فقد كنت تحبين دائما الشىء الواضح أما طريقة لوسيندا فإنها تحتاج إلى خيال » .

أصبحت طريقته الفكهة الكسولة فى التشدق بالكلام ، حادة ولاذعة ووحشية . ورفعت سكارليت رأسها . « ساعود إلى الداخل ، افضل أن اختنق بدلا من سماع الاهانات » .

كانت روزمارى تقف على مقربة وسمعت بالمصادفة ما دار بين شقيقها وزوجته وانكمشت خوفا من القسوة التى سمعتها فى صوت ريت والاحساس الغاضب بالاهانة فى صوت سكارليت .

وفى ساعة متأخرة من الليل ، دقت روزمارى باب المكتبة حيث كان ريت يقرأ ، ثم دخلت وأغلقت الباب وراءها كان وجهها قد اكتسب لونا قانيا من البكاء . قالت : « كنت أظن انى أعرفك يا ريت .. ولكنى اكتشفت اننى لا أعرفك على الاطلاق . لقد سمعتك تتحدث هذه الليلة مع سكارليت .. كيف تكون وضيعا إلى هذا الحد مع زوجتك ؟ من الذى ستنقلب عليه بعدها ؟ » .



إذا طارت الخنازير

كان ريت قد نهض بسرعة من مقعده وتوجه نحو شقيقته وقد مد ذراعيه ، ولكن روزمارى رفعت يديها أمامها وكفيها الى الامام وتراجعت . واظلم وجهه من الالم ووقف ساكنا وذراعاه الى جانبيه . لقد أراد قبل كل شىء أن يحمى روزمارى من الأذى ، والآن . يصبح هو مصدر المها .

بسبب تحديه المتمرد للعائلة والمجتمع ، تبرأ منه والده . وكان اسم ريت محذوفا من كشف العائلة عندما ولدت روزمارى . كانت أصغر منه بعشرين سنة .. ولم يرها حتى بلغت سن الثالثة عشرة ، فتاة تعوزها الرشاقة فى الحركة والتعبير ، بساقين طويلتين وقدمين كبيرتين وصدر صغير .. وخالفت امها أوامر زوجها فى مرة نادرة فى حياتها عندما بدأ ريت حياة الأخطار . حياة مقتحم الحصار الذى فرضه الأسطول الشمالى الاتحادى على ميناء شارلستون .

جاءت فى الليل الى رصيف الميناء حيث كانت ترسو سفينته ومعها روزمارى لكى تلتقى به . رحب بها بكل الحنان الذى عجز الاب عن تقديمه .. وتحركت مشاعر الحب الرقيق لدى ريت . وفى المقابل أعطته روزمارى الثقة والاخلاص اللذين لم تشعر بهما نحو الاب . ولم تنقطع الصلة بين الشقيق وشقيقته رغم أنهما لم يلتقيا أكثر من ١٢ مرة منذ اللقاء الأول على رصيف الميناء الى ان عاد ريت الى شارلستون بعد ١١ سنة من الغياب .

لم يغفر لنفسه قط انه صدق تاكيدات الأم بان روزمارى سعيدة ومنعمة بالمال الذى أغدقه عليها بعد وفاة والده . واتهم نفسه بعد ذلك بانه كان ينبغى أن يكون أكثر انتباها ويقظة ، فلو كان كذلك لما ترعرعت شقيقته وهى فاقدة الثقة فى الرجال ، وربما كانت قد وقعت فى الحب وتزوجت وانجبت اطفالا ، وعندما عاد ريت الى البيت بعد الغيبة وجد امرأة عجوزا فى الرابعة والعشرين من عمرها فى نفس رعونة فتاة الثلثة عشرة عندما شاهدها لأول مرة .

لم تكن تشعر بارتياح مع كل الرجال باستثناء شقيقها ريت ، واستعانت بشخصيات الروايات كبديل لعدم اليقين فى الحياة الواقعية . ورفضت مواثيق المجتمع حول الكيفية التى يجب ان تنظر بها المراة وتفكر وتتصرف . وأحبها ريت واحترم استقلاليتها ، ولم يستطع تعويض السنوات التى حرم فيها من رعايتها ولكنه استطاع أن يعطيها اندر هدية - ذاته الداخلية . كان امينا تماما مع روزمارى ، يتحدث معها على قدم

المساواة وربما يفضي بمكنوناته إليها كما لم يفعل مع اى شخص ، وعرفت هي قيمة هذه الهدية وعبدته .

الآن تشعر روزماري بالخيانة . لقد رأت جانبا من شخصية ريت لم تكن تعرف بوجوده .. جانب القسوة في الشقيق الذي عرفته رقيقا وعطوفا ومحبا على الدوام ، وشعرت باضطراب وباهتزاز في الثقة .

عيناها الحمراوان المتهمتان تنظران اليه وهي تقول : « انت لم تجب على سؤالي يا ريت »

قال بحذر : أنا آسف يا روزماري ، أسفي عميق لأنه تصادف أن سمعت ما كنت اقوله ، انه شيء كان اضطراريا . انني أريدها ان ترحل وتتركنا جميعا وحدنا .

— ولكنها زوجتك !

— لقد هجرتها يا روزماري . لقد رفضت الطلاق الذي عرضته عليها ، ولكنها تعرف ان زواجنا قد انتهى .

— إذن لماذا حضرت الى هنا ؟

وببطء وبلا مشاعر .. روى ريت لشقيقته قصة الزواجين السابقين لسكارليت قبل زواجه بها ، وعرضه الزواج عليها ، وموافقة سكارليت على الزواج منه بسبب امواله . وتحدث ريت عن تعلق سكارليت بحب آشلي ويلكس الذي كاد أن يكون متسلطا عليها طوال السنوات التي عرفها خلالها .

وسألته روزماري : ولكن إذا كنت تعرف ذلك فلماذا بالله تزوجتها ؟

وابتسم ريت : لماذا ؟ لأنها كانت مليئة بالنار ومتهورة جدا وشجاعة بعناد ، لأنها كانت مجرد طفلة تختفي وراء كل ادعاءاتها ، لأنها كانت تختلف عن كل امراة عرفتها . لقد سحرتني وأثارت غيظي وحنقي ودفعتني الى الجنون ، لقد احببتها بطريقة تستنفد الوقت والمال وتستغرق المرء استغراقا تاما وتتلف . منذ اليوم الذي وقعت عيناي عليها فيه ، كانت نوعا من المرض .

كانت هناك رنة أسى في صوته

وأحنى رأسه بين يديه وضحك وهو يتمايل ، واصبح صوته مكتوما وغير واضح بسبب اصابعه التي يضعها على وجهه : « يا لها من نكتة عملية غريبة الى حد بشع ومضحكة هذه الحياة . الآن آشلي ويلكس .. رجل حر ويمكن أن يتزوج سكارليت في أي وقت ، وانا اريد ان اتخلص منها . وبطبيعة الحال هذا يجعلها مصممة على ان تمتلكني ، انها تريد فقط ما لا تستطيع أن تمتلكه »

ورفع ريت راسه ليقول بهدوء : اننى خائف ، خائف من ان يبدأ كل شىء مرة اخرى ، اننى أعرف انها بلا قلب وانانية جدا ، انها تشبه الطفل الذى يبكى من اجل الحصول على لعبة ثم يحطمها فور ان يمتلكها ، ولكن هناك لحظات عندما تدير راسها لتميل بزاوية معينة ، او تبتسم تلك الابتسامة الجذلانة او عندما تبدو فى عينيها فجاة نظرة الانسانة الضائعة .. اليائسة .. المحطمة .. اشعر اننى اقترب من نسيان ما اعرف .

وضعت روزمارى يدها على ذراعه : « عزيزى ريت المسكين » ووضع يده على يدها ثم ابتسم لها ، وعاد الى نفسه مرة اخرى : « ها انت ترين امامك يا عزيزتى ، الرجل الذى كان ذات مرة اعجوبة زوارق نهر الميسيسبى . لقد قامرت طوال حياتى ، ولم اخسر قط ، وسوف افوز بهذه اليد ايضا ، سكارليت وانا عقدنا صفقة ، لم استطع المخاطرة بالابقاء عليها فى هذا المنزل لوقت طويل ، فإما ان اقع فى غرامها مرة اخرى وإما ان اقتلها ، ولذا لوحت أمامها بالذهب وتفوقت شراهتها للمال على الحب الذى لا يموت الذى تتظاهر به نحوى ، سوف ترحل نهائيا عندما ينتهى الموسم ، ولحين حلول هذا الموعد فإن كل ما يجب ان افعله أن احافظ على مسافة بيننا ، وان اتفوق عليها فى القدرة على الاستمرار والصمود واتفوق عليها فى الحيلة والدهاء .. انها تكره أن تخسر ، وعلى كل حال فإنه ليس شيئا ممتعا إلحاق الهزيمة بشخص يخسر دائما »

وضحكت عيناه لشقيقته ثم زال منهما المرح : « إذا عرفت امى الحقيقة بشأن زواجى التعس فإن ذلك سيحطمها ، ولكنها ستشعر بالعار إذا عرفت اننى تخلصت من هذا الزواج بصرف النظر عن حقيقة انه لم يكن زواجا سعيدا ، مأزق مخيف . بهذه الطريقة .. سترحل سكارليت ، ساكون الطرف المصاب ، ولكن الحكيم المتحرر من الانفعالات هو الذى يخضع لحكم الضرورة بشجاعة ، ولن يكون هناك ما يشين احدا »

— « الن يكون هناك ندم ؟»

— فقط لكونى كنت احمق .. ذات مرة منذ سنوات ، وسيكون عزائى القوى جدا هو اننى لم أكن احمق للمرة الثانية ، ان ازالة هوان المرة الأولى تحتاج الى الكثير .

وحملقت روزمارى فى فضول لا يشوبه ارتباك : « وإذا تغيرت سكارليت ؟ انها قد تنضج »

واتسعت ابتسامة ريت : « نقلا عن اقوال السيدة نفسها .. فإن ذلك قد يمكن ان يحدث - إذا طارت الخنازير - »

لحظـــة حنـــان

لماذا لا تجعله يشعر بالغيرة ؟ لقد بدات حفلات الرقص والمناسبات الاجتماعية ، انها تريد أن تجعله يتغير فلا يظل فاترا وبعيدا عنها .. وسوف تبدو فى الحفلات اجمل امراة وتتزين على احسن ما يكون ولا أحد يلوم زوجة على محاولة انقاذ زواجها .

وتوجهت الى حفل عائلة ونتورت مع السيدة باتلر وريت وروزمارى ، وامضت وقتا سعيدا ، وكان ريت دمثا ولطيفا وهو يراقصها ، بل كان أكثر من رقيق ، انه جذاب ، ولا احد على الأرض يمكن أن يكون اكثر جاذبية من ريت إذا اراد ذلك .

ويقرر ريت التوجه الى المزرعة وزيارة السيدة جوليا آشلى ولن يكون هنا فى شارلستون ليلة راس السنة ولن يقبلها .. قبلة العام الجديد . وتصر روزمارى على ان تصحبه الى المزرعة ، وتعلن سكارليت عزمها على الذهاب ايضا الى المزرعة .. فهناك ايضا تحل ليلة راس السنة ، وكان منزل جوليا آشلى فى مزرعتها تحفة معمارية رائعة ، يبدو ان جيش شيرمان نفسه لم يجرؤ على المساس بها اثناء الحرب ، كانت زيارة عمل قام بها ريت للسيدة آشلى وبصحبته روزمارى وسكارليت . وعند العودة الى مزرعة ريت باتلر واسمها « دانمور لاندينج » حدثت مشكلة بين العمال السود والعمال البيض .

فقد تجمهر العمال السود فى مزرعة ريت .. بعد ان اتفق عمال جوليا مع عمال الفوسفات لدى ريت على ان يقولوا لها ان ريت يدفع لعمال منجم الفوسفات ضعف ما تدفعه هى لعمال مزرعتها ، وان عليها ان ترفع اجورهم وإلا سينتقلون للعمل مع ريت ، ويلعب عمال ريت نفس اللعبة .

واقلع عمال جوليا عن اللعبة ، ولكن فى مزرعة ريت ترددت شائعات بأن السود يدبرون شيئا .

وغضب المزارعون البيض الذين يستغلون الأرض لمصلحة الملاك مقابل جزء من المحصول وفعلوا ما يفعل الفقراء البيض دائما ، امسكوا ببنادقهم واستعدوا لاطلاق النار ، وجاءوا الى البيت وسرقوا الويسكى « لتسخين رؤوسهم » واتهموا ريت بانه « عاشق للزنوج » لأنه قال لهم انه نجح فى تسوية كل الأمور مع العمال وطلب منهم العودة الى بيوتهم ، وأخرج احدهم ويدعى « كلينش دوكينز » سلاحه النارى وصوبه نحو ريت ، وضرب ريت يده فانطلقت رصاصتان فى الهواء ، فاخرج كلينش دوكينز مطواه . ونشبت معركة لعشر دقائق اسفرت عن قطع انف كلينش .

ظلت سكارليت وروزمارى داخل منزل المزرعة فى حالة من القلق الشديد على ريت ، وسكارليت تحاول الخروج من المنزل للاطمئنان وروزمارى تمنعها . وعندما دوى طلق نارى قفزت سكارليت من مكانها وانطلقت للخروج من المنزل ولكن روزمارى منعتها بالقوة حتى كادت تخنق سكارليت ، وفى النهاية اضطرت روزمارى ان تصفعها بالحقيقة : « انه لا يريدك ، لقد اخبرنى بذلك »

فقدت سكارليت شهيتها فلطعام ، ولم تتناول العشاء ، وذهبت الى النوم ، الأمر الذى اثار دهشة ريت لأنه يعرف مدى تعلق سكارليت بالطعام .

وسأل ريت شقيقته · هل سكارليت مريضة ؟

— انها متضايقة .

— لقد رايتها مرات عديدة لا تحصى متضايقة ، وكانت تاكل مثل عامل الشحن والتفريغ فى الميناء كل مرة .

— انه ليس مجرد مزاجها يا ريت ، بينما كنت تقطع الانوف ، كنا انا وسكارليت فى مباراة للمصارعة .

ووصفت روزمارى الرعب الذى سيطر على سكارليت وتصميمها على أن تذهب اليه . وقالت : لم اكن اعرف مدى خطورة الأشياء خارج المنزل ولذلك منعتها ، وأمل أن أكون قد تصرفت على النحو الصحيح .

— تصرفك كان صحيحا تماما ، كان يمكن ان يحدث أى شىء .

واعترفت روزمارى : اخشى أن اكون امسكت بها بشدة ، لقد كادت تموت ، انها لم تستطع ان تتنفس .

واستلقى ريت الى الوراء وضحك : يا الهى كنت اتمنى ان ارى هذا المشهد .. سكارليت اوهارا مسمرة فى السجادة بواسطة فتاة ، لابد أن هناك مائة سيدة فى جورجيا كن سيصفقن لك حتى تدمى اكفهن !

وفكرت روزمارى فى الاعتراف بالبقية . فقد تحقق لديها أن ما قالته لسكارليت سبب لها الأذى اكثر من معركة المصارعة ، ولكنها قررت الا تتكلم ، فقد كان ريت لا يزال يضحك ولا معنى لافساد مزاجه الرائق .

استيقظت سكارليت قبل الفجر بسبب احساسها بجوع شديد ، والتفت بغطاء السرير ، وسارت عارية القدمين تبحث وسط الظلام عن المطبخ لعلها تجد شيئا تاكله .

— قف مكانك وإلا اخترق الرصاص جسدك !

كان هذا صوت ريت الذى حمل سلاحه بعد ان ظن ان هناك من اقتحم المنزل .

كان ريت رقيقا ، يضحك باستمرار وهو يعد لها الطعام .. وارادت سكارليت ان تساله عما إذا كان من الممكن ان تدوم الراحة والضحك ، ولكنها خشيت ان تدمر كل شيء .. واخيرا .. تكلمت : « ريت ، الا يمكن ان نستمتع بوقت طيب كهذا الى الابد ؟ ان هذا وقت طيب ، وانت تعرف انه كذلك ، لماذا تضطر الى مواصلة تمثيل انك تكرهني ؟»

وتنهد ريت وقال في ضجر وملل : سكارليت ، كل حيوان لابد ان يهاجم إذا وضع في الزاوية . الغريزة اقوى من العقل ، واقوى من الارادة ، عندما جئت الى شارلستون .. كنت تضعينني في الزاوية ، تحشرينني وتضغطين عليّ وانت تفعلينها الآن . انني اريد ان اكون مهذبا ، ولكنك لا تدعينني اكون كذلك .

— سافعل ، اريدك ان تكون لطيفا .

— انت لا تريدين الرقة يا سكارليت ، انت تريدين الحب ، الحب الواضح بلا سؤال وبلا مطالب ، وقد اعطيتك هذا الحب مرة ، عندما كنت لا تريدينه ، وقد استهلكته كله يا سكارليت .

واخذت لهجة ريت تزداد جفاء وعصبية وبدا ان صبره ينفد ، وابتعدت سكارليت ولمست بلا وعي المقعد المجاور لها في محاولة للبحث عن الدفء في غطاء الفراش الملقى على الارض .

— دعيني اوضح الأمر بلغتك يا سكارليت ، كان في قلبي ما يعادل الف دولار من الحب ، وكان المبلغ من ذهب وليس اوراقا خضراء ، وقد انفقتها عليك ، كل مليم من هذا المبلغ ، وبالقدر الذى يتصل بالحب ، أصبحت مفلسا ، لقد كان هناك من عصرني واستنزفني ـ وهو انت ـ حتى جف كل شيء

— لقد كنت مخطئة يا ريت ، وانا آسفة ، انني احاول تعويض ذلك .

كان عقل سكارليت يسبق الحوار بطريقة محمومة ويفكر .. استطيع أن أعطيه ما يعادل الألف دولار من الحب .. الفين . خمسة آلاف .. عشرين الفا .. الف الف ، وعندئذ يكون قادرا على ان يحبني لأنه لن يكون مفلسا في هذه الحالة ، سوف يستعيد كل شيء واكثر ، إذا قبل ان ياخذ .. انني يجب ان احمله على ان ياخذ .

كان ريت يقول في تلك اللحظة . سكارليت .. ليس هناك تعويض عن

الماضى ، لا تدمرى القليل الذى بقى ، دعينى أكون طيبا ، أشعر اننى ساكون أفضل بالنسبة لهذه المهمة .

وتشبثت بكلماته : نعم ! نعم يا ريت ، ارجوك ، كن طيبا كما كنت قبل ان يتبدد الوقت السعيد الذى كنا نقضيه معا .. لن اضغط عليك ، دعنا فقط نمرح ، نكون اصدقاء الى أن اعود الى اتلانتا ، ساكون قانعة إذا استطعنا أن نضحك معا ، لقد استمتعت بذلك ونحن نتناول هذا الافطار ..

وزال الغضب من صوت ريت : هل هذا هو كل ما تريدينه ؟ ورشف جرعة كبيرة من القهوة بينما كانت سكارليت تفكر فيما ستقوله ثم اصطنعت ضحكة قبل ان تقول :

« حسنا .. طبعا ايها الأحمق ، اننى أعرف متى اتراجع ، لقد كنت اظن ان الأمر يستحق المحاولة ، هذا هو كل شىء ، لن احشرك مرة اخرى ، ولكن ارجوك ان تجعل الموسم طيبا بالنسبة لى ، انت تعرف كم أحب الحفلات » وضحكت مرة اخرى قبل ان تقول : « وإذا كنت تريد ان تكون طيبا بحق يا ريت باتلر .. فإنك تستطيع ان تصب لى فنجانا آخر من القهوة »

● ● ●

بعد دقائق التقت سكارليت بريت مرة اخرى فى مكتبه فى المنزل وكانت تظن انه مضى الى النوم ، كان مرهقا للغاية ، فقد أمضى الليل بطوله يحرس المنزل ويحرسها ، ومن فوق كتف ريت كانت تستطيع ان ترى نافذة الغرفة ، وتساءلت عن الشىء الذى يتطلع اليه ريت بهذا التركيز .

وعندما انبثقت الشعاعات الأولى لضوء الفجر الأحمر الضعيف .. لمست المشهد خارج النافذة فاضاءت بصورة درامية ركام الطوب المحطم لمنزل دانمور لاندينج .. كان لون الركام احمر والسماء المظلمة وراءه . وصرخت سكارليت ، بدا المنظر وكان الدخان لا يزال يتصاعد من الحطام . كان ريت يراقب مشهد موت منزله .

وتوسلت اليه « لا تنظر يا ريت ، لا تنظر ، ان ذلك لن يجدى نفعا سوى أن يحطم قلبك »

— كان يجب ان اكون هنا ، كنت ساقنعهم .

كان صوت ريت متمهلا وبعيدا كما لو لم يكن يعرف انه هو الذى يتكلم .

— لم يكن بإمكانك أن تفعل شيئا ، لابد أن المئات منهم جاءوا الى هنا ، وكان فى استطاعتهم ان يطلقوا عليك النار ويحرقوا كل شىء فى جميع الأحوال !·

قال ريت : انهم لم يطلقوا الرصاص على جوليا آشلى .
حسرة كبيرة على المكان الذى كان يسمى قبل الحرب « الحديقة المخبأة »
وتمدد ريت على مقعد مستطيل .. وراقبته سكارليت وهو يستغرق فى النوم .

لا يجب أن اقول له مرة اخرى اننى احبه . ان ذلك يجعله يشعر بانه تحت الضغط . وعندما ينقلب الى رجل بغيض اشعر باننى ضئيلة ورخيصة لاننى قلت ذلك ، لا ، لن اقولها مرة اخرى .. ليس قبل أن يقول هو أولا انه يحبنى .

● ● ●

تجولت سكارليت مع روزمارى فى بقايا حديقة الورد الملحقة بمنزل المزرعة ولم تكف روزمارى عن الحديث عن ذكريات طفولتها فى هذه الحديقة ، واقترحت سكارليت جمع بعض اغصان الصنوبر لتزيين المنزل بمناسبة ليلة راس السنة ، وفى تلك الليلة اقام ريت حفلا لعائلات المستاجرين للأرض ، وطلب من سكارليت وروزمارى وبانسى ان يلزمن غرفتهن قبل حضور الضيوف وحتى انتهاء الحفل .

وتابعت سكارليت من نافذة غرفة نومها اضواء ليلة راس السنة حتى الواحدة ، وتمنت من كل قلبها لو كانت قد بقيت فى المدينة ، ففى اليوم التالى ستلزم الغرفة طوال النهار خلال الاحتفال المخصص للسود ومع حلول وقت عودتهم الى المدينة سيكون الوقت قد فات لغسل وتجفيف شعرها استعدادا للحفل الراقص ثم ان ريت لم يقبلها .

فى الأيام التالية . استردت سكارليت كل الحيوية التى تصيب بالدوار .. الاثارة التى تذكرها بأحسن وقت فى حياتها انها الفاتنة ذات الجمال الاخاذ . يحتشد الرجال حولها فى الحفلات . وبطاقة الرقص تمتلىء باسماء من يطلبون الرقص معها بمجرد دخولها قاعة الحفل . وكل الاعيبها القديمة فى الغزل تسفر عن نفس الاعجاب الذى كانت تحظى به من قبل ، كما لو كانت قد عادت الى سن السادسة عشرة . ولم يمض وقت طويل حتى تبددت وانقشعت الاثارة . انها ليست فى السادسة عشرة ، وهى لا تريد طابورا من المعجبين وانما تريد ريت ، ولكنها ليست أقرب اليه الآن مما كانت عليه من قبل . ومن ناحيته حافظ على نصيبه من الصفقة ، كان يبدى اهتماما بها فى الحفلات ويظهر الدماثة نحوها فى اى مكان يتواجدان فيه سواء فى المنزل أو مع أشخاص آخرين ، فقد كانت على يقين من انه يتطلع كل يوم الى النتيجة ليعد الأيام الباقية حتى

يتخلص منها ، وبدأت تشعر بلحظات من الرعب ، ماذا إذا خسرت ؟

بدأت سكارليت تشعر بالغيرة من تومى كوبر الصغير الذى يتعلق بأذيال ريت وينظر اليه نظرة عبادة البطل ، وكان ريت يعلم الغلام فى ذلك الوقت كيف يبحر بمركب شراعى ، ولم يشعر ريت بالغيرة رغم عشرات المعجبين بها ولم يبد عليه أى قدر من الاكتراث ، يجب أن تحمله على أن يلاحظ وأن يهتم !

وقررت أن تختار شخصا واحدا من معجبيها .. شخصا وسيما غنيا واصغر سنا من ريت .. شخصا يجعله يشعر بالغيرة عليها ، ووقع اختيارها على ميدلتون كورتنى وهو رجل طويل القامة .. وسيم ذو عينين شاحبتين واسنان ناصعة البياض تشع عندما ترتسم على شفتيه ابتسامة شريرة ، انه صورة مصغرة ومجسمة من رجل المدينة المتطور فى راى سكارليت ، والأهم من كل ذلك انه يملك منجم فوسفات أكبر عشرين مرة من منجم ريت .

وبعد أيام اصبح الغرام العلنى بينهما هو الموضوع الأول فى احاديث المدينة فى الموسم : عدد المرات التى رقصا خلالها معا فى كل حفل ، المرة التى اخذ فيها كورتنى كاس الشراب من يد سكارليت لكى يلمس بشفتيه المكان الذى وضعت عليه شفتيها على طرف الكاس وتردد الغمز واللمز .. وبدت اديث زوجة ميدلتون شاحبة ومهمومة ، ولم يفهم احد موقف ريت الهادىء ورابط الجاش .

● ● ●

أســـرار المديـنـــة !

اليانور قلقة بشان المتاعب الواضحة بين ابنها وزوجته ، ولا تستطيع ان تسال « ريت » حول هذا الموضوع .. فلو انه اراد أن تعرف لكان قد اخبرها . وعندما قالت لها سكارليت بلا تردد : « احبك يامس اليانور » .. ، امسكت اليانور باتلر بيدها . وقالت : « إنني مسرورة للغاية ياعزيزتي سكارليت انني انا ايضا احبك ، ثم تنهدت بنعومة . واضافت « احبك كثيرا إلى حد انني لن اسالك اية اسئلة او اعلق اى تعليقات غير مرغوب فيها . كل ما اتمناه هو ان تعرفي حقيقة ما تفعلين » .

وكان رد فعل سكارليت لهذا التلميح بشان الوضع غير السار مع كورتني .. يوضح أن سكارليت لاتريد ان تفضي إليها بمشاعرها ايضا . لقد سحبت سكارليت يدها من يد اليانور وقالت : « إنني لا افعل اى شيء » .

واغلقت السيدة باتلر عينيها وحاولت ان تستريح . بعد ان يكون كل شيء قد قيل وكل شيء قد حدث وتم .. فإنه لايوجد شيء تستطيع ان تفعله باستثناء ان تامل في الافضل . ان ريت رجل ناضج وسكارليت امراة ناضجة . ومع ذلك فإنهما يتصرفان ـ في رايها ـ مثل الاطفال المشاغبين .

وسكارليت تحاول أن تستريح أيضا لقد صدمت وهي تتطلع من المنظار المكبر اثناء السباق بعد أن اكتشفت ان آن هامبتون غارقة في حب يائس لزوج امراة أخرى تكيل لها المديح طول الوقت . وهذه المرأة الأخرى هي سكارليت نفسها . ولكن الم تفعل سكارليت نفس الشيء عندما كانت في عمر آن ؟ وقعت في حب اشلي ودمرت حياتها مع ريت عن طريق التشبث بذلك الحب اليائس لفترة طويلة دون أن تستطيع أن ترى ـ دون أن ترغب في أن ترى ـ أن آشلي الذي أحبته كان مجرد حلم . هل ستهدر آن شبابها بنفس الطريقة بأن تحلم بـ « ريت » ؟ ما فائدة الحب إذا كان كل مايفعله هو تحطيم الأشياء ؟

جاءت سالي بروتون لزيارتها في المنزل وشعرت سكارليت بسعادة غامرة لرؤيتها . وطلبت من مانيجو احضار الشاي . وقالت سكارليت : « مس اليانور تحصل على قسط من الراحة وإلا لكنت قد أبلغتها انك هنا ، وعندما تستيقظ .. » وقاطعتها سالي . سأكون قد خرجت ، أنا أعرف أن اليانور تنام فترة القيلولة وأن ريت يبحر في النهر وأن روز ماري تزور جوليا اشلي ، وهذا هو سبب حضوري الآن ، اريد أن أتحدث معك على انفراد »

وضعت سكارليت أوراق الشاي في الأبريق وشعرت بالحيرة ، وبدا عدم الارتياح على سالي بروتون ولم يكن هناك شيء في العالم يقلقها

قالت سالى فجأة « سكارليت أريد أن أفعل الشيء الذى لايغتفر ، سوف اتدخل فى حياتك ، والأسوأ هو اننى سأقدم لك نصيحة بدون إلحاح .. هيا امضى قدما وارتبطى بعلاقة مع ميدلتون كورتنى إذا كنت تريدين ذلك ، ولكن بالله عليك .. احتفظى بذلك فى طى الكتمان ، أما ما تفعلينه فإنه ينم عن ذوق سيىء ومروع ..

واتسعت عينا سكارليت تحت وطأة الشعور بالصدمة .. الارتباط بعلاقة ؟ النساء الفاسدات فقط هن اللاتى يفعلن أشياء من هذا القبيل . كيف تجرؤ سالى بروتون على اهانتها بهذه الطريقة ؟ وانتصبت قامتها وهى تقول بحدة وكبرياء « عليك أن تعرفى يامسز بروتون اننى سيدة مثلك تماما » .

— « إذن تصرفى كسيدة ، قابلى ميدلتون فى مكان ما فى الأمسيات ، وحققى لذتك كما تشائين ، ولكن لاتجعلى زوجك وزوجته وكل شخص فى المدينة يراقبونكما وانتما تلهثان بالرغبة فى قاعة للرقص مثل الكلب الذى يجرى وراء الكلبة وهو فى حالة هياج جنسى » .

وتصورت سكارليت انه لاتوجد كلمات أبشع من تلك التى تفوهت بها سالى ولكنها تبينت مما سمعته من عبارات تالية على لسان سالى أن هناك ماهو اكثر بشاعة بكثير :

— « يجب أن احذرك - رغم ذلك - من انه ليس رجلا كفؤا جدا فى الفراش ، إنه دون جوان فى قاعة الرقص ، ولكنه ابله قروى بمجرد أن ينزع رداء الرقص المنفوخ والبدلة الفراك » .

وحدقت عن قرب فى وجه سكارليت وقالت ببطء : « يا إلهى ، انت جاهلة مثل رضيع حديث الولادة ، الست كذلك ، إنى آسفة ياسكارليت ، فانا لم ادرك هذا ، دعينى أصب لك فنجانا من الشاى بكميات كبيرة من السكر » .

وتراجعت سكارليت إلى الخلف فى مقعدها . ارادت أن تصيح لتغطى على دموعها ، لقد كانت تعجب بسالى وفخورة بان تكون صديقتها ، فإذا بسالى يتضح انها ليست أفضل من مجرد نفاية ! وقالت سالى : « طفلتى المسكينة ، لو كنت اعلم ، لكان كلامى اخف وطأة بكثير عليك ، ولكن هذا ما حصل .. اعتبريه تعليما عالى السرعة . انت فى شارلستون ومتزوجة . من شارلستونى ياسكارليت . لن تقدرى على ان تلفى حولك براءة المناطق النائية المتخلفة ثقافيا لتكون بمثابة الدرع . هذه مدينة قديمة ذات حضارة عريقة . وجزء جوهرى من التحضر هو مراعاة حساسيات الآخرين . تستطيعين ان تفعلى ما تشائين بشرط ان تفعلى ذلك فى تكتم . الخطيئة

التى لاتغتفر هى أن تفرضى زلاتك وهفواتك بحيث يبتلعها أصدقاؤك مرغمين . يجب أن تجعلى فى الامكان بالنسبة للآخرين التظاهر بانهم لايعرفون ما تفعلينه »

لم تستطع سكارليت أن تصدق ما كانت تسمعه . إنه شىء مقزز . ورغم انها تزوجت ثلاث مرات بينما كانت تحب شخصا آخر ، فإنها لم تفكر قط فى ان تخون جسديا اى واحد من ازواجها . ربما تشوقت إلى اشلى وتخيلت احضانه ، ولكنها لم تكن لتتسلل لتقابله لتقضى ساعة فى الفراش .

لا اريد أن اكون متحضرة .

هكذا كانت تفكر يائسة . انها لن تستطيع ان تنظر إلى اى امراة فى شارلستون مرة اخرى دون أن تتساءل عما إذا كانت هى وريت عاشقين او كانا فى وقت من الأوقات عاشقين . لماذا جاءت إلى هذا المكان ؟ انها لاتنتمى إليه . ولاتريد أن تنتمى إلى نوع المكان الذى كانت تتحدث عنه سالى بروتون .

قالت . « اظن ان من الافضل ان تعودى إلى بيتك ، لا اشعر اننى فى حالة طيبة » وهزت سالى راسها فى حزن : « اعتذر لمضايقتك ياسكارليت ، قد تشعرين بتحسن إذا عرفت ان هناك العديد من البريئات فى شارلستون ياعزيزتى ، فانت لست الوحيدة . فتيات غير متزوجات وسيدات عوانس عذراوات من كل الأعمار لم يقل لهن احد إطلاقا عن اشياء لايعرفنها . هناك زوجات كثيرات مخلصات ايضا . وانا محظوظة بما فيه الكفاية لكى اكون واحدة منهن . وانا واثقة من ان مايلز زوجى قد ارتكب الاثم مرة او مرتين اما انا فلم افعل ذلك قط . ربما تكونين من نفس الطراز . هذا ما ارجوه من اجلك ، واعتذر مرة اخرى عن غلطتى ياسكارليت ، سأذهب الآن . استجمعى قواك واشربى الشاى ، وتصرفى على نحو افضل مع ميدلتون » .

قالت سكارليت « انتظرى ، انتظرى من فضلك ياسالى . لابد أن اعرف . ريت .. ومن ؟ » وتغضن وجه سالى الذى يشبه وجه القرد بدافع التعاطف ، وقالت بلطف « لا احد نعرفه ، اقسم لك لقد كان فى التاسعة عشرة فقط عندما غادر شارلستون ، وفى تلك السن يذهب الأولاد إلى بيت للدعارة او إلى فتاة بيضاء فقيرة راغبة . منذ عاد ، ابدى تهذيبا عاليا فى رفض كل العروض دون إيذاء اى مشاعر . ان شارلستون ليست بؤرة للخطيئة ياعزيزتى ، فالناس لايشعرون باى ضغط اجتماعى ليكونوا شهوانيين . اننى متاكدة من أن ريت مخلص لك » ..

ما ان خرجت سالى حتى اندفعت سكارليت إلى غرفة نومها فى الطابق -

الأعلى وأغلقت الباب والقت بنفسها على الفراش لتبكى . خيالات مشوشة تناوشها عن ريت مع امراة ثم اخرى ثم اخرى واخرى من السيدات اللاتى التقت بهن فى الحفلات كل يوم .

كم كانت غبية عندما تصورت انه سيشعر بالغيرة عليها

واستدعت بانسى لكى تخرج معها إلى الشوارع لتسير اميالا على قدميها بسرعة وصمت ، وعندما عبرت المنازل القديمة الطويلة لشارلستون لم تر طلاء جدرانها المتساقط ، وانما رات فى هذه الجدران مجرد وسيلة لاخفاء الحدائق الخاصة المسورة ولاخفاء الأسرار ..



دعـــوة للمبـــارزة !

كان الظلام قد بدأ ينشر اجنحته عندما عادت سكارليت إلى البيت ، فتحت الباب بحرص . الهدوء شامل . قالت لبانسى : « ابلغى مانيجو أن عندى صداعا ولا اريد تناول العشاء .. ساذهب مباشرة إلى الفراش » .

سوف يبلغ مانيجو المطبخ والأسرة . وهي لاتستطيع ان تواجه عبء الحديث مع احد . وتسللت بخفة عبر السلم إلى الطابق الأعلى . وساعدتها بانسى على خلع ملابسها . كانت تحاول ان تختفى من تعاستها اليائسة ، تتمنى ان تتمكن من النوم وأن تنسى سالى بروتون وتنسى كل شيء . وتهرب .. الظلمة تحيط بها من كل جانب تسخر من عينيها الجافتين اللتين يهرب منهما النعاس . ولم تستطع أن تبكى ، فقد بددت كل دموعها فى العاصفة العاطفية بعد سماعها كلمات سالى الجهنمية .

اندفع الضوء إلى الغرفة بعد ان فتح الباب فجاة وبقوة . والتفتت سكارليت نحو الباب وقد أذهلها النور المفاجيء .. كان ريت يقف فى طريق الباب . وثمة مصباح فى يده المرفوعة يلقى بظلاله على وجهه الذى لفحته الرياح ، وشعره الأسود الذى جعلته الأملاح أكثر خشونة . كان لايزال يرتدى ملابس السفينة وبدا يحاول السيطرة على مشاعره ولكن تعبيرات وجهه كانت تنذر بالخطر .

واتجه نحو الفراش بعد أن أغلق الباب بركلة من قدمه .. وقال · « لن تستطيعى ان تختبئى لكى لا اراك يا سكارليت . انهضى » وبحركة واحدة .. اكتسح ذراعه المصباح غير المضاء الموضوع إلى جانب الفراش فسقط على الأرض وتحطم وتناثرت أجزاؤه ووضع بيده الكبيرة المصباح المشتعل بنفس العنف محدثا صوتا مزعجا . والقى بالاغطية بعيدا وقبض على ذراعيها وسحبها من الفراش واجبرها على الوقوف على قدميها . وتهدل شعرها الأسود فوق عنقها وكتفيها ويديها . الشريط الذى يعقد الرقبة المفتوحة لقميص نومها يرتفع وينخفض بسرعة مع دقات قلبها . دم حار تدفق إلى خديها وصبغهما باللون الأحمر مما زاد من اخضرار لون عينيها المثبتتين على عينيه . والقى بها ريت بعنف على العمود السميك للسرير ثم ابتعد قليلا وهو يقول بخشونة « كان يجب أن اقتلك فى اللحظة التى وضعت فيها قدمك فى شارلستون » واستندت سكارليت على عمود السرير حتى لاتقع . وشعرت بأحاسيس الخطر تنبثق فى عروقها ما الذى حدث وجعله فى هذه الحالة ؟

والتوى فمه مضيفا « لاتمثلى دور العذراء الخائفة معى ياسكارليت . اننى اعرفك جيدا ، لن اقتلك ، وحتى لن اضربك ، رغم ان الله يعلم انك تستحقين ذلك ، كم تبدين فاتنة ياعزيزتى وصدرك يعلو وعيناك تمتلئان بالبراءة .. بصرف النظر عن الالم الذى تسببت فيه لامراة مسالمة عن طريق إلقاء شباكك على زوجها الأحمق » شفتا سكارليت انفرجتا عن ابتسامة لم تستطع أن تكتمها .. ابتسامة النصر .. انه ناثر من انتزاعها حب واعجاب ميدلتون كورتنى ، لقد نجحت ، جعلته يعترف بانه غيور ، والآن عليه ان يعترف بانه يحبها ، ستدفعه لأن يقولها .

وبدلا من ذلك ، تحدث ريت بلغة اخرى : « انا لايهمنى على الاطلاق ان تجعلى من نفسك اضحوكة ، وفى الحقيقة انه شىء مسل ان يراقب المرء امراة متوسطة العمر تقنع نفسها بأنها مازالت فتاة صالحة للزواج لايستطيع ان يقاومها احد . انت لا تكبرين بعد سن السادسة عشرة ، اليس كذلك ياسكارليت ؟ قمة طموحك هو ان تظلى إلى الأبد نجمة مقاطعة كليتون » .

وصرخ قائلا : « الآن لم تعد النكتة مسلية » .. وارتدت سكارليت إلى الوراء من الضجيج المفاجىء .. وضم قبضتيه . وبدا عليه ظاهريا انه يتمالك غضبه .. وقال بهدوء : « وانا اغادر الكنيسة صباح اليوم ، اقترب منى صديق قديم وهو فى نفس الوقت ابن عم وانتحى بى ركنا ، وتطوع ليعرض خدماته كمعاون لى عندما اتحدى ميدلتون كورنتى وادعوه إلى المبارزة ولم يشك لحظة واحدة فى أن هذه هى نيتى ، فبصرف النظر عن حقيقة الموضوع ، فإن اسمك يجب الدفاع عنه مراعاة لخاطر العائلة » .

وضغطت سكارليت باسنانها البيضاء على شفتها السفلى وسالته : « ماذا قلت له ؟ »

— « بالضبط ما ساقوله الآن : « إن المبارزة لن تكون ضرورية . فزوجتى ليست معتادة على المجتمع وتصرفت على نحو يمكن إساءة تفسيره لانها لم تعرف الطريقة الأنسب للتصرف . وسوف أوجهها لكى تتصرف بالطريقة المنتظرة منها » .

وتحركت ذراعه بسرعة مثل ثعبان يهجم ليلدغ فريسته واطبقت يده بقسوة حول معصمها وقال : « الدرس الأول » وجذبها نحوه بحركة سريعة مفاجئة وسمرها قرب صدره وذراعها ملتو ومرفوع على ظهرها . كان وجه ريت قريبا فوقها وعيناه تخترقان عينيها : « لا أبالى إذا ظن

العالم كله أننى زوج لامرأة فاسقة ، ياعزيزتى الزوجة الصغيرة المخلصة ، ولكننى لن أكون مرغما على مقاتلة ميدلتون كورتنى » .

ثم قال : « الدرس الثانى · إذا قتلت هذا المغفل فسوف أضطر إلى مغادرة المدينة أو أن يشنقنى العسكريون ، ولن يكون ذلك مريحا بالنسبة لى ، وبالقطع فإننى لا اعتزم أن أجعل نفسى هدفا سهلا له ، وقد يصوب ـ بطريق المصادفة ـ مباشرة ويصيبنى ، الأمر الذى لن يكون مريحا لى أيضا » . وضربته سكارليت بيدها الطليقة ، ولكنه تلقفها بسهولة فى يده وثناها إلى أعلى لتكون إلى جانب اليد الأخرى المقيدة وكانت ذراعاه اشبه بقفص يمسك بها أمامه ، وقال لها ريت « اسمعى الدرس الثالث ، ستكون مهزلة الزمن بالنسبة لى ـ أو حتى بالنسبة لعبيط مثل كورنيى ـ المخاطرة بالموت من اجل انقاذ روحك الصغيرة المخادعة الشريرة من العار . ولذلك ـ وهذا هو الدرس الرابع ـ سوف تتبعين تعليماتى فيما يتعلق بسلوكك فى كل الأماكن العامة إلى أن ينتهى الموسم . ولا مجال لأحزان قطع الرؤوس ياطفلتى ، فهذا ليس أسلوبك ولن يؤدى ذلك سوى إلى اضافة وقود إلى نيران الشائعات . سوف ترفعين رأسك عاليا وتواصلين البحث بدأب ومثابرة عن شبابك المفقود ، ولكنك ستوزعين اهتماماتك بدرجة أكبر من العدل والمساواة بين السكان الذكور . وسوف أكون سعيدا إذا نصحتك أى الرجال السادة تبدين اهتماما اكبر نحوهم وتفضلينهم ، وفى الحقيقة اننى ساصمم على تقديم المشورة إليك »

وتخلت يداه عن معصميها وامسكت بكتفها ودفعتها بعيدا :

« الدرس الخامس : ستفعلين بالدقة ما اقول لك أن تفعليه .. »

بعيدا عن حرارة جسم ريت .. بدا قميص النوم الحريرى المبتل من عرقها اشبه بالجليد فوق صدرها ومعدتها . ولفت ذراعيها حول نفسها لتدفىء نفسها بلا جدوى ، ولكن عقلها صار باردا مثل جسمها ، والأشياء التى قالها دوت بوضوح فى داخلها .. انه لايهتم . انه يهزأ منها .. انه مهتم فقط بـ « راحته » وبما يناسبه ويلائمه

كيف يجرؤ ؟ كيف يجرؤ على أن يهزأ منها علنا ويشتمها مع قريبه ويدفعها ويلقى بها فى غرفتها مثل كيس من الذرة ؟ لقد اتضح لها الآن ان « جنتلمان شارلستون » هو مجرد اكذوبة مثل سيدة شارلستون » الاثنان لهما وجهان ، كاذبان ، يتعاملان بطريقة مزدوجة . رفعت سكارليت قبضتها لتضربه ، ولكنه كان لايزال يمسك بكتفيها . وتهاوت يداها فى ضعف على صدره ، واستطاعت ان تحرر نفسها ، ورفع ريت كفيه ليتقى ضرباتها ،

وخرجت ضحكات خافتة من حلقه .

ورفعت سكارليت يديها لكى تزيح شعرها من على وجهها .

— « تستطيع ان تدخر جهدك ياريت باتلر ، لن احتاج إلى نصيحتك ، لاننى لن أكون هنا ، إننى أكره مدينتك الثمينة شارلستون واحتقر كل شخص فيها ، وخاصة انت ، إننى راحلة غدا » . وقفت امامه متحدية ورفعت راسها بينما كان جسمها يرتعش تحت الغلالة الحريرية .

ووجه ريت ناظريه إلى الناحية الأخرى وقال : « لا ، ياسكارليت ، لن تسافرى ، فإن هربك سيؤكد ذنبك وفى هذه الحالة ساضطر إلى قتل كورتنى . لقد نجحت فى ابتزازى للبقاء حتى ينتهى الموسم . ولك ان تبقى » كانت لهجته كئيبة . وأردف قائلا « وستفعلين ما اقوله لك . وستظهرين ان ماتفعلينه مقبول لديك ، وإلا فإننى اقسم أمام الله ساحطم كل عظمة فى جسدك ، واحدة بعد الأخرى » .

وسار نحو الباب ثم توقف والتفت إليها وابتسم ساخرا « . ولا تحاولى أن تفعلى اى شىء من انواع الشطارة ، ساراقب كل حركاتك . »

وصرخت سكارليت وهو يغلق الباب · « اكرهك » وعندما سمعت المفتاح يدور فى القفل ، القت بساعة رف الموقد وقلابة النار داخل المدفاة على الباب .

جلست على المقعد داخل غرفة النوم ، واخذت تضرب على مسندى المقعد إلى أن كلت يداها ، واعلنت بصوت عال « سارحل ، وليست هناك وسيلة يستطيع أن يمنعنى بها » ..

لاسبيل إلى محاربة ريت . ويجب أن تتفوق عليه بشكل ما . لابد ان هناك طريقة وسوف تجدها ، لا داعى لكى تثقل كاهلها بالحقائب ، فهى تستطيع أن ترحل بالملابس التى ترتديها فقط . وهذا ما ستفعله . إن لديها الكثير من المال الذى يزيد على ثمن تذكرة إلى .. إلى .. اين ؟

كما يحدث دائما عندما يتوجع قلبها ، فقد فكرت فى تارا .. هناك سلام ، وقوة جديدة .. ولكن هناك سوايلين آه .. لو كانت تارا ملكها وحدها . ومرت أمامها مرة أخرى أحلام اليقظة التى اختزنتها عندما زارت مزرعة جوليا أشلى . كيف استطاعت شقيقتها كارين ان تلقى بنصيبها بالطريقة التى فعلتها ؟

وانبثقت الفكرة الجديدة فى راسها مثل تفجر ينبوع مياه فى الصحراء . ما فائدة أن يكون لراهبة فى شارلستون نصيب فى مزرعة تارا ؟ انهم لايستطيعون بيعه هذا إذا كان هناك مشتر ، لأن ريت لن يوافق ابدا ،

وكذلك هى .. وإذا كان ريت يريدها أن تبقى فإن عليه أن يساعدها فى الحصول على نصيب كارين فى تارا ، وهو الثلث عندئذ تستطيع بالثلثين - نصيبها ونصيب شقيقتها كارين - تستطيع أن تعرض شراء نصيب ويل وسوايلين ، فإذا رفض « ويل » البيع ، تستطيع إلقاءهما فى عرض الطريق وخزة ضمير قطعت الطريق على أفكارها ، ولكنها نحتها جانبا . الثمن لايهم . هل يحب ويل تارا ؟ إنها تحبها أكثر .. وتحتاجها .. إنها المكان الوحيد الذى تحرص عليه ، والمكان الوحيد الذى كان يوجد فيه كل من يحرص عليها . ان ويل سيفهم ذلك ، وسوف يرى أن تارا هى أملها الوحيد .

ودقت الجرس لتستدعى بانسى التى أدارت المفتاح فى القفل من خارج الغرفة وفتحت الباب ، وطلبت سكارليت ان ياتى مستر باتلر إلى غرفتها لتتحدث إليه .

لقد ضاعت . انها لن تسترد ريت .

لم يكن هذا هو ما قدرته .

بسرعة شديدة .. انقلب عالمها رأسا على عقب فى بضع ساعات فقط .

كانت مازال تترنح من الصدمة التى نتجت عما قالته لها سالى بروتون . انها لاتستطيع أن تمكث فى شارلستون بعد ما عرفته .. فذلك أشبه بمحاولة تشييد منزل فوق رمال متحركة .

وجاء ريت لتعرض عليه سكارليت صفقة . انه يستطيع ارغامها على البقاء فى شارلستون ولكنه لايستطيع ان يتحكم فى تصرفاتها عندما تذهب إلى الحفلات الاجتماعية والراقصة ، ولكنها تعرض أن يكون سلوكها على النحو الذى يريده إذا ساعدها على شراء نصيب كارين فى « تارا »

قال ريت : « لابد أن ابدى اعجابى باعصابك ، لم اشك أبدا فى صمودك ضد الجنرال شيرمان وجيشه ، أما محاولة خداع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، فقد يكون لقمة يصعب مضغها .. »

كان يبدو ساخرا وهو يضحك ، ولكنها ضحكة ودية بل يشوبها الاعجاب ، كما لو كانت الأيام الخوالى - عندما كانا أصدقاء - قد عادت .

— « إننى لا أحاول أن أخدع أحدا ياريت ، فلتكن صفقة شريفة ياريت هذا كل شىء » وابتسم ريت : « أنت ؟ صفقة شريفة ؟ انك تشعريننى بخيبة الأمل ياسكارليت . هل تفقدين اسلوبك وطابعك المميز ؟ »

— « بامانة ! انا لا اعرف لماذا يجب ان تتحدث بهذه الطريقة القبيحة ، انت تعرف جيدا اننى لا اريد استغلال الكنيسة » ..

وأثار غضبها المزيد من الضحك من جانب ريت . وقال

— « لا أعرف شيئا من هذا النوع ، اخبريني بالحقيقة ، هل هذا هو السبب أنك قد تهرولين إلى القداس فى الكنيسة كل يوم أحد تخشخشين مسبحتك ؟ هل كنت تخططين لهذا المسعى طول هذا الوقت » وعندما سألته عما إذا كان يرغب فى مساعدتها أم لا . قال ريت : « إنننى أرغب فى المساعدة ، ولكننى لا أعرف كيف ؟ ماذا إذا رفضت كبيرة الراهبات ؟ هل ستبقين حتى نهاية الموسم » ؟

وكان رأى سكارليت أنه ليس هناك سبب يدعوها للرفض فهى ستعرض أكثر مما يستطيع ويل أن يرسله إليها وهى ترى أيضا أن ريت يمكن أن يستخدم نفوذه ، فهو يعرف كل شخص فى العالم ، ويستطيع دائما إنجاز ما يريد . وابتسم ريت : « ما هذا الايمان المؤثر بشخصى ياسكارليت . اننى أعرف كل وغد وسياسى محتال ورجال أعمال فاسدين على مسافة الف ميل ، ولكن ليس لى نفوذ على الاطلاق لدى الناس الطيبين فى العالم . وأفضل شىء أفعله تجاه هذه المسالة هو ان أقدم لك نصيحة بسيطة . لاتحاولى اللف والدوران مع السيدة ، أخبريها بالحقيقة إذا استطعت ووافقى على أى شىء تطلبه . ولاتساومى »

وتمنى ريت حظا سعيدا لسكارليت واعتبر بذلك أنه يمنحها بركته وغادر الغرفة وهو يضحك فى بهجة حقيقية

وستفى سكارليت بوعدها ، كما فعلت دائما وبمساعدتها سيزيل اثر الفضيحة ، وبعد أسبوعين ينتهى الموسم وترحل وسوف يتحرر من التوتر الذى جلبته إلى الحياة التى كان يحاول أن يبنيها فى شارلستون ، وسيكون حرا فى العودة إلى « لانديننج » فهناك الكثير الذى يريد أن يعمله فى المزرعة وهجوم سكارليت العنيد على رئيسة الدير سيكون تسلية طيبة تشغله لحين الوقت الذى يسترد فيه حياته مرة أخرى . وقال ريت لنفسه : أراهن على أن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تعيش الزمن بالدهور وليس بالأسابيع ، ولكنى لا اريد أن أراهن كثيرا .. فعندما تصمم سكارليت على شىء فإنها تكون قوة هائلة

وكما توقع ريت فإن تعامل سكارليت مع رئيسة الدير لم يكن بالامر البسيط ، فهى لاتقبل ولاترفض ولاتصغى لما تقوله سكارليت التى تشعر بإحباط متزايد .

وبدأت سكارليت تذهب إلى قداس الكنيسة كل يوم وهى على ثقة من ان الحديث عن إيمانها سيصل إلى إسماع الدير ثم بدات تتردد على كارين

كثيرا حتى أنها حفظت أسماء كل الراهبات . وصاحبت خالتيها فى زيارات للسيدات الكاثوليكيات العجائز فى المدينة .

وقالت ذات مرة لريت باتلر : اعتقد ان حبات مسبحتى قد بليت وذابت ونقصت إلى النصف ، كيف يمكن أن تكون تلك العجوز المرعبة بهذا القدر من الخسة » ؟

واقترح ريت تفسيرا : « ربما تظن أن ذلك سيطهر روحك » .

— « روحى فى احسن حال .. شكرا جزيلا . ان رائحة الشموع تجعلنى اتقيا .. وابدو مثل عجوز عفريتة شمطاء لاننى لا انام نوما كافيا على الاطلاق واتمنى الا تكون هناك حفلة كبيرة كل ليلة » .

— « كلام فارغ . هذه الظلال تحت عينيك تجعل مظهرك أكثر روحانية ، الأمر الذى سيترك انطباعا عميقا فى نفس رئيسة الدير » .

— « اوه ياريت ، ان ماتقوله مروع ، سأذهب لأضع بعض المساحيق فورا »

وفى الحقيقة ان نقص النوم بدأ يظهر تاثيره على وجه سكارليت كما أن الاحباط ترك خطوطا عمودية صغيرة بين حاجبيها . واخذ كل شخص فى شارلستون يتحدث عما افترضوا انه نوع من الحمى الدينية . فقد اصبحت سكارليت شخصا آخر .

فى حفلات الاستقبال والحفلات الراقصة كانت مهذبة وشاردة الذهن . لقد اعتزلت الامبراطورة الحسناء ، ولم تعد تقبل الدعوات للعب الورق ، وكفت عن زيارة السيدات اللاتى كانت زياراتها لهن قد اصبحت دائمة .. وقالت سالى بروتون يوما : « اننى افضل التعبد لله . بل انى امتنع عن شىء احبه حقا من أجل الصوم الكبير ، ولكنى اعتقد أن سكارليت تفرط فى هذا الاتجاه ، ان ذلك تطرف » . وخالفتها الرأى إيما انسون عضو اللجنة التى تتزعمها السيدة اليانور .. وقالت : « إن ذلك يجعلنى افكر فيها بطريقة افضل بكثير مما كنت افعل من قبل . أنت تعرفين اننى كنت اظن انك حمقاء عندما تحتضنينها بالطريقة التى كنت تفعلينها ياسالى . فقد كان من الواضح انها جاهلة ومتسلقة ، والآن فإنى راغبة فى أن اسحب رأيى ، هناك شىء يثير الاعجاب فى اى شخص لديه مشاعر دينية جدية » .

وعلمت سكارليت بعد ان تحملت مشقة الذهاب إلى الدير تحت وابل الأمطار ان رئيسة الدير سافرت إلى جورجيا لحضور اجتماع هناك ولايعرف احد موعد عودتها بالدقة .. ربما بعد أسبوع أو اكثر . وتوجهت إلى غرفة المكتبة فى المنزل .. فقد تجد « ريت » فهو الوحيد الذى تستطيع ان تتحدث

معه حول شعورها بالاحباط ، فهى لم تخبر أحدا آخر بما تفعله . رفع أحد حاجبيه وسألها : « كيف تجرى عملية الاصلاح الدينى للكنيسة الكاثوليكية » ؟ ودعاها للخروج إلى الشرفة ليدخن سيجاره ولاستنشاق بعض الهواء .. فقد أدى هطول المطر إلى اعادة مناخ الصيف .. والجو الدافىء .

قال ريت « اعتقد ان المدرسة التى تملكها الشقيقات فى جورجيا توجد فى مدينة سافانا . وتستطيعين الذهاب بعد حفل سانت سيسيليا لحضور عيد ميلاد جدك . لقد الحت عليك الخالتان بما فيه الكفاية لتلبية رغبتهما فى الذهاب . فإذا كان الاجتماع الذى يتحدثون عنه هاما ، فإن الأسقف سيكون هناك . وقد يكون حظك أفضل معه » .

شعور غريب سيطر على سكارليت . لقد أحست بانها خجولة .. بينما ريت يقف على مسافة قريبة منها . وغادرت الشرفة مسرعة قبل أن تبكى . ماذا بى ؟ سألت نفسها والدموع تتفجر من عينيها اننى أتحول إلى طفلة باكية من نوع المخلوقات التى أحتقرها . ماذا لو استغرق الأمر فترة أطول لتحقيق ما أريد . سوف أمتلك تارا وسأمتلك ريت أيضا حتى لو استغرق ذلك منى مائة سنة !

● ● ●

نـزهـــة فـى الـطـــريـق

حفل ليلة القديس سيسيليا . هذا هو ماينبغى ان تكون عليه الحفلات ! الاضواء فى كل الأركان والمكان يبدو مثل جوهرة تتلألأ .. اكبر جوهرة فى العالم .. جمال سحرى وكانه الخيال . هذا هو الحفل !

سالها ريت فيما بعد ، وهو يرقص معها : هل تستمتعين بوقتك ؟

— نعم . انه افضل حفلات الموسم .

موسيقى رائعة وضحك وسعادة . بطاقة الرقص التى اعطيت لها والتى يسجل فيها الداعون اسماء من سيرقص معها .. شملت اسماء تعرفها ولاتعرفها ، شيوخا وشبانا . اشخاص عاشوا كل حياتهم فى شارلستون وآخرون عاشوا فى اماكن كثيرة اخرى ولكنهم يجيئون دائما إلى هذه المدينة من اجل سانت سيسيليا .

فى الساعة الواحدة صباحا عزفت الأوركسترا لحن فالس الدانوب الأزرق . وكانت خاتمة الحفل . ولم تكن سكارليت تريد لهذا الحفل ان ينتهى ، وانتقل الجميع إلى موائد العشاء .

فى طريق العودة اقترحت سكارليت .. على ريت ان يركبا عربة الشارع العمومية بدلا من العربة الخاصة التى استقلتها والدته وشقيقته ، وحذرها ريت من ان عربة الشارع ستضطرهما إلى ان يسيرا لمسافة على الاقدام بعد ان يهبطا منها .. حتى يصلا إلى البيت ..

— « لايهم ، أود ان امشى قليلا » .

كانت العربة استمرارا صاخبا ومرحا للحفل .. فالجميع الذين استقلوا هذه العربة المزدحمة اشتركوا فى اغنية جماعية . وغنت سكارليت وريت بصوت مرتفع كالآخرين ، وعندما نزلا من العربة استمرت تردد مقاطع من الاغنية كلما حمل الهواء رجع الصدى .. وساعد ريت وثلاثة متطوعين آخرين السائق على فك الاحصنة ووضعها فى الطرف المقابل المضاد للعربة تمهيدا لرحلة العودة .

الظلام فى الشارع اصبح حالكا والجو اكثر دفئا والصمت اشد عمقا . وشعر كل منهما بارتياح داخلى . اما سكارليت فقد طغى شعورها بالسعادة ووضعت يدها فى مرفق ريت . وسارا بلا كلام فى الظلمة نحو المنزل . وعلا صوت وقع اقدامهما على الطريق . وشعرت انهما الكائنان الوحيدان على سطح الأرض . وكانت قامة ريت الطويلة جزءا من الظلمة . وشددت قبضتها على ذراعه . كان ثابتا وقويا ، ذراع قوى ، رجل قوى . واقتربت منه أكثر وكانت تستطيع ان تشعر بدفء جسده ..

واستعادا بعض المشاهد الطريفة من الحفل . وضحكا معا . وضبط ريت خطوته لكى تساير خطوتها . وسألته سكارليت عما إذا كان يفتقد عمليات اختراق حصار الأساطيل . ضحك وقال : « دعينا نقول إننى أود أن اكون اصغر سنا بعشر سنوات » وضحك مرة أخرى قبل أن يضيف « اننى العب بالمراكب الشراعية تحت ستار اننى أريد أن أكون طيبا مع الشبان المضطربين . ان ذلك يمنحنى بهجة أن أكون فى الحياة وان أشعر بالريح تهب بحرية وليس هناك مثيل لها فى جعل الانسان يشعر كأنه آلة .. »

قالت سكارليت : « أريد ان افعل ذلك ، أريد أن ابحر اكثر من اى شىء فى العالم .. أوه ، ياريت هل ستأخذنى معك ؟ ان الجو دافىء كما لو كان صيفا ، وانت لست مضطرا للعودة إلى لاندينج غدا . قل إنك موافق ياريت من فضلك »

قال « لماذا لا ؟ انه لمن العار عدم استغلال هذا الجو . » وعندما وصلا إلى المنزل كانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحا .

كانت سكارليت قد رفضت اقتراح خالتيها بالسفر إلى سافانا لحضور عيد ميلاد جدها . فهو لم يهتم بها طوال حياته ولم يفعل شيئا من اجلها ولا من اجل خالتيها ..

ودهشت اليانور باتلر عندما علمت من سكارليت باقتراح خالتيها بان تصاحبهما إلى سافانا لحضور عيد ميلاد جدها . وقالت وهى تكاد لاتصدق : « ياللسماء ! هل تعنين أنه لم يمت بعد ؟ »

وبدأت سكارليت تضحك مرة أخرى « هذا هو أول ما خطر لى ، ولكن الخالة بولين كانت ستسلخنى حية إذا قلت ذلك . لابد أن عمره الآن مائة سنة » .

قالت اليانور : « المؤكد انه تجاوز التسعين . فقد كان فى أواخر الثلاثين عندما تزوج جدتك سولانج فى عام ١٨٢٠ . كانت لى خالة مجنونة به وحاولت الانتحار عندما قررت جدتك أن تبدى اهتمامها به .. كان جدك رجلا مندفعا جريئا مفعما بالحياة ، أنيقا ، وسيما ذا لكنة فرنسية طبعا . عندما كان يقول « صباح الخير » كان صوته يشبه بطلا فى الأوبرا .. عشرات من النساء كن يقعن فى غرامه .. هكذا كان بيير روبيلار . اما عن جدتك فهى لم تكن مثل اى شخص آخر فى العالم » .

— « هل كانت جميلة جدا ؟ » .

— « نعم .. و .. لا . تلك هى المشكلة فى الحديث عنها . لقد كانت تتغير دائما . كانت فرنسية جدا وهناك قول مأثور لدى الفرنسيين وهو : أن المرأة

لايمكن ان تكون جميلة بحق ما لم تكن أحيانا قبيحة بالفعل » .

— « ان لها صورة فى تارا تبدو فيها جميلة » .

— « نعم .. هى صورة لها فقد كانت تستطيع أن تكون جميلة ، أو غير جميلة وفقا لاختيارها . وكانت تختار اى شىء يروق لها . كانت عندما تتطلع بعينيها إلى شخص ما يجد نفسه منجذبا نحوها بلا مقاومة . كان الرجال يفقدون صوابهم بسببها .. كان جدك رجلا عسكريا من راسه حتى قدميه ، اعتاد ان يصدر الأوامر .. ولكن جدتك كانت تكتفى بالابتسامة . وعندما تبتسم يصبح عبدا لها . كانت هى العالم كله بالنسبة له . وأتذكر قرارها بانها يجب ان تحيط نفسها بالضوء الوردى لأنها تتقدم فى السن . وانتهى الأمر بطلاء جدران الغرف فى داخل المنزل ثم المنزل كله من الخارج باللون الوردى . كان مستعدا لأن يفعل اى شىء يجعلها سعيدة . وعندما ماتت .. مات هو ايضا بطريقة أو باخرى ، واحتفظ بكل شىء فى المنزل كما كان بالضبط عندما تركته .. احيانا انت تذكريننى بها .. بعينيك وحيويتك »

كان كل ما قالته اليانور باتلر صحيحا . ولكنها تحاشت أن تقول كل شىء فهى لم ترد ان تقول لزوجة ابنها إن جدتها كان لها عشاق كثيرون وأن عشرات المبارزات قد حدثت من اجلها ..

● ● ●

بيـن الحـــياة والمـــوت

وضعت سكارليت على راسها قبعة كبيرة من القش ذات حافة عريضة .. كانت مسز باتلر تحتفظ بها قرب باب الحديقة لحمايتها من الشمس عندما تخرج لقطف الزهور . فقد خشيت أن تصاب مرة أخرى بحروق من الشمس . واخذت في يدها أيضا مظلتها الخفيفة المفضلة .

— « انت قلت التاسعة صباحا ياريت . وها هي التاسعة ، ألا نذهب » وانحنى ريت انحناءة كبيرة ، ثم التقط حقيبة من القماش ووضعها على كتفيه ، وقال : « لنذهب » . كان هناك شيء يبعث على الشك في صوته .

لم تكن تتوقع ان يكون الزورق صغيرا إلى هذا الحد . ووجهت نظرة اتهام إلى ريت .. قال « التيار منخفض تقريبا . وهذا هو السبب في أننا كان يجب أن نكون هنا في التاسعة والنصف وبعد ان يصبح التيار مواتيا في العاشرة سيكون أمامنا وقت صعب للوصول إلى الميناء . وبطبيعة الحال .. سيكون هذا مساعدا لنا في العودة من النهر إلى المرسى ، إذا كنت متاكدة من أنك تريدين الذهاب » .

وضعت سكارليت يدها المغطاة بقفاز ابيض على السلم وبدات تلف حول نفسها . قال ريت : « انتظرى » . ونظرت إليه في تصميم . وقال « لا اريدك أن تحطمى عنقك لتوفرى علىّ عناء مصاحبتك لمدة ساعة ان السلم يساعد على التزحلق .. » وسارع بارتداء حذاء من القماش ، وقال إن الرجل الحكيم لابد أن يعترف بالواقع إذا حاقت به الهزيمة .. وساعدها على هبوط السلم ثم ربط الأشرعة بالصارى .. وجلست بهدوء على مقعد في مؤخرة الزورق .. قال : « مستعدة » ؟

— « نعم » .

وفك ريت الحبال التى تقيد الزورق بعمود المرسى وابتعد الزورق بمساعدة التيار متجها إلى وسط النهر . « اجلسى كما انت وضعى راسك فوق ركبتيك » وامتلأ الشراع الصغير بالهواء .. كانت السعادة تبدو على وجه ريت .. ولم تره سعيدا بهذه الدرجة من قبل .

الزورق طوله ١٦ قدما فقط . وشعرت سكارليت بانها جزء من الريح والمياه والملح والشمس . ومد يده لها بسترة لترتديها وقالت إنها لاتحتاجها . قال « إن الهواء دافئ ولكن ليست المياه . فالرذاذ سوف يشعرك بالصقيع .. فهذا شهر فبراير » وسالت عن طعام .. ولم يكن هناك سوى طعام الملاحين . وقالت : إنه لذيذ . ولكنه نصحها بان تصبر لانهم سيتناولون طعام الغداء في البيت . أما هى فإنها تريد قضاء اليوم

بطوله فى النهر .. وهو يوافق على ساعة اخرى ..

وظهرت الدرافيل فى المياه . إنها تحب أن تلعب .. تقفز من المياه وتحنى ظهرها ثم تغطس عائدة إلى النهر صانعة نافورة من المياه . سكارليت تصفق بيديها وهى تقول إن الدرفيل يبتسم لنا وإنها لم تر فى حياتها مثل هذه الروعة .

الدرافيل تسبح جنبا إلى جنب احيانا ، ثلاثة ، ثلاثة ، او اثنين اثنين او واحدا إثر الآخر .. تغطس ثم تظهر على سطح المياه ، تتطلع من عينين تبدوان بشريتين وتبدو كما لو كانت تضحك . وقالت سكارليت : « إنهم يرقصون » . وبسبب الدرافيل لم يلحظ ريت الرقعة الداكنة من السحب التى تنتشر عبر الأفق وراءهما .. وكان التحذير الأول له عندما زمجرت الريح الطازجة المنتظمة .. والأشرعة المشدودة المنتفخة بدات تترنح . واختفت الدرافيل فجاة . وتطلع ريت ـ متأخرا جدا ـ فوق كتفه ورأى الريح الشديدة تتسابق فوق المياه والسماء .

قال ريت بهدوء :

— « انزلى إلى بطن الزورق ياسكارليت وتماسكى . اننا على وشك مواجهة عاصفة . لاتخافى ، فقد سبق أن أبحرت فى ظروف اسوأ » .

فى تلك اللحظة ضربت الريح القوية ضربتها . وتحول النهار إلى ليل . فقد كانت السحب قد جعلت السماء قاتمة واطلقت سيلا من الأمطار . وفتحت سكارليت فمها لتصرخ فامتلأ بالمياه فى الحال .

قالت لنفسها : « يا إلهى اننى اغرق » . وانحنت إلى الأمام وبصقت وسعلت إلى أن استطاعت « تسليك » فمها وحلقها . حاولت رفع راسها لترى ماذا يجرى ، ولكى تسأل ريت عن ذلك الضجيج المخيف ، ولكن قبعتها غطت وجهها فلم تر شيئا . يجب ان اتخلص منها حتى لا اختنق . ومزقتها ، الزورق يتارجح و « يزيق » كما لو كان يتشقق ويتحول إلى اجزاء متناثرة . وشعرت بان الزورق يتجه إلى أسفل .. وأسفل أو يقف على مقدمته .. ويدخل مباشرة فى اعماق المياه نحو قاع البحر .. يا إلهى . لا اريد ان اموت !

وعلى اثر هزة توقف الزورق عن التوغل فى أعماق المياه ، وازاحت من فوق وجهها قطع القش التى تخلفت من قبعتها . الآن تستطيع أن ترى ! نظرت إلى المياه ورفعت عينيها إلى اعلى .. واعلى .. واعلى . ثمة جدار من المياه اعلى من قمة صارى الزورق يستعد للانقضاض وتدمير هذه القوقعة الهشة من الخشب إلى شظايا .. وحاولت سكارليت أن تصرخ ولكن

حلقها كان مشلولا بالخوف . والزورق يهتز ويئن ويتاوه . ضاقت عيناها فى مواجهة المطر الذى يتدفق فوق رأسها ويدق رأسها بضربات مخيفة قبل أن يجرى فوق وجهها .. وعلى جميع الجوانب كانت هناك جبال من الأمواج الغاضبة المندفعة التى يعلوها الزبد وهى تصطخب يا إلهى .. أين ريت ؟ وأدارت رأسها من ناحية إلى أخرى فى محاولة لرؤيته من خلال المطر . وعندئذ ، وبينما كان الزورق يغوص على الناحية الأخرى من الموج .. وجدته . عليه اللعنة ! كان راكعا على قدميه .. ظهره ورأسه مشدودان ورأسه مرفوع .. ويضحك وسط الريح والمطر والأمواج وهو يمسك بذراعه اليسرى بذراع الدفة بقوة ، بينما يده اليمنى تمسك بالحبل الذى يلتف حول مرفقه وساعده ومعصمه .. انه يحب ذلك ! الصراع مع الريح ، خطر الموت .. هذا هو ما يحبه انى أكرهه !

وتطلعت سكارليت إلى التهديد الصاعق من الموجة التالية .. وللحظة يائسة انتظرت لكى تطيح بها وتدمرها . ثم قالت لنفسها إنه ليس لديها ما تخافه .. ذلك أن ريت يستطيع أن يواجه كل شىء حتى المحيط نفسه ورفعت رأسها كما يفعل هو وتركت نفسها للاثارة الوحشية المحفوفة بالخطر وسكارليت لاتعرف القوة الفوضوية للريح .. فما أن ارتفع الزورق إلى أعلى مع اقتراب موجة ارتفاعها ثلاثون قدما حتى توقفت الريح . كان ذلك لبضع ثوان شيئا غريبا .. وتحطم الشراع .. ومال الزورق إلى جانبه وأصبح محمولا ، بواسطة تيار المياه . وأخذ ريت يحرر نفسه بسرعة من الحبل .. وبدا أنه يفعل شيئا مختلفا بالدفة المتارجحة . ولم يخطر على بالها أن هناك خطأ ما إلى أن وصلت قمة الموجة إلى ما تحت الركبة . وصرخ ريت والقى بجسمه بعنف فوقها . كان الشراع قد انكسر .

وسمعت سكارليت أصوات تشققات قريبة من رأسها وشعرت بهدير الأمواج يزداد سرعة وثقلا فوقها حدث كل شىء بسرعة بالغة ورات وجه ريت قريبا جدا من وجهها ، ثم ابتعد وجلس على ركبتيه مرة أخرى . يبدو أنه يفعل شيئا ما .. حبال تتساقط فوقها ، كما تساقط قماش الشراع .. وحمله التيار .. ثم انقلب الزورق رأسا على عقب ..

● ● ●

لم تعرف صقيعا مثل هذا الصقيع فى حياتها ولا مياها أشد برودة حولها .. لابد أن جسدها كله قد تجمد أسنانها تصطك دون أن تستطيع السيطرة عليها محدثة صخبا فى رأسها ، يمنعها من التفكير . ولم تستطع أن تفهم ما جرى . ومع ذلك كانت تتحرك صعودا وهبوطا .. ثم هبوطا

وهبوطا . اننى أموت ، يا إلهى ، لاتدعنى أموت ! أريد أن أعيش .
— « سكارليت » ! صوت اسمها كان أعلى من صوت أسنانها التى تصطك ببعضها البعض واخترق وعيها .
— « سكارليت » ! انها تعرف ذلك الصوت ، انه صوت ريت وهذا هو ذراع ريت حولها يمسك بها . ولكن اين هو ؟ لم تستطع أن ترى شيئا من خلال المياه التى ظلت تضرب وجهها وتضع غشاوة على عينيها وتلسعها . وفتحت فمها لتجيب ، وفى الحال امتلأ بالمياه . وشدت سكارليت رأسها لترفعه إلى أعلى بقدر ما تستطيع وطردت المياه من فمها .
لو سكنت أسنانها .
وحاولت أن تقول : « ريت »
— « شكرا لله » . كان صوته قريبا جدا . خلفها . وبدأت تستشعر بعض الأشياء . وقالت مرة أخرى : « ريت »
— « الآن اسمعينى جيدا ياحبيبتى . اسمعى بانتباه أكثر من أى وقت فى حياتك . ان امامنا فرصة واحدة ولن نضيعها . الزورق هنا . اننى امسك بالدفة .. يجب ان ننزل تحته ونستخدمه للحماية . وهذا يعنى أن ننزل تحت الماء ثم نرفع انفسنا . لنصبح تحت جسم الزورق .. هل تفهميننى » ؟ كل شىء فيها يصرخ . كلا ! إذا غاصت فى الماء ، فإنها ستغرق ، فالمياه تشدها بالفعل إلى أسفل . وإذا نزلت تحت الماء فإنها لن تخرج منها أبدا ! واستولى عليها الرعب . ولم تستطع أن تتنفس . وارادت أن تمسك بريت وأن تصرخ وتصرخ وتصرخ ..
« كفى » . كانت الكلمة واحدة . والصوت صوتها . « يجب أن تجتازى المحنة وتعيشى ولن تنجحى فى ذلك ابدا إذا تصرفت مثل بلهاء تثرثر بكلام غير مفهوم » .
« ما .. ما .. ذا .. يـ .. يجـ .. يجب يجب .. أن .. أن .. اف .. أفـ .. افعـ .. افعل » اللعنة على اصطكاك الأسنان .
— « سوف أعد . وعندما اقول رقم ثلاثة خذى نفسا عميقا وأغلقى عينيك .. وسوف اتولى الأمر .. ساضعك فى المكان المطلوب . ستكونين بخير . هل أنت مستعدة » ؟ ولم ينتظر ردها ، ولكنه بدأ فورا يصرخ « واحد .. اثنين .. » وشعرت سكارليت بان هناك من يجذبها إلى أسفل .. واسفل وبان المياه تملأ أنفها واذنيها وعينيها ووعيها . وفى ثوان انتهت المحنة واصبحت راسها فوق المياه .. واستنشقت الهواء بامتنان .
قال ريت « كنت أمسك ذراعيك ياسكارليت حتى لاتتشبثى بى

وتغرقينا نحن الاثنين » . وحرك ريت قبضته إلى خصرها .
يداها باردتان . وبدات تدلك الواحدة بالأخرى .

قال ريت : « هذه هى الطريقة . اجعلى الدورة الدموية تعمل » . وتركها ريت لدقائق حتى يقطع ما تبقى من حبال ويزيح الصارى بعيدا لكى لايدفع الزورق إلى اعماق المياه . ومضى الوقت وكانه يمضى إلى ما لانهاية . واخذت تتامل ما حولها ، الزورق المقلوب اصبح سقفا فوق راسها ولذلك فإن الامطار لاتضربها . ولسبب ما .. فان المياه اكثر هدوءا ولم تستطع ان تراها .. داخلجسم الزورق الظلام شامل .. والزورق يرتفع وينخفض مع ارتفاع وانخفاض الموج . قبل ان يتركها ريت .. قال إنه سيقطع اربطة حذائها ذى العنق الطويل وينزعه وحذرها من ان تركله عندما تشعر بشىء يمسك بقدمها . وقال لها إنه سينزع عنها الثياب الثقيلة حتى لايثقل وزنها فى المياه .

والآن شعرت بلمسة ريت على قدمها اليسرى . حسنا انى لم اصب بالشلل حتى الآن . كم كان حذاؤها ثقيلا واخذت نفسا عميقا لأول مرة منذ بدء العاصفة .. ملمس الايدى عند خصرها غريب . كانت تستطيع ان تحس بحركة السكين . وفجاة هبط ثقل هائل إلى اسفل ساقيها وارتفعت كتفاها إلى فوق الماء . وصاحت فى دهشة . واحدثت الصيحة صدى فى الفراغ تحت الزورق الخشبى المقلوب . ثم ارتفع راس ريت من داخل المياه . كان قريبا جدا منها . وسالها بهدوء : « كيف تشعرين » ؟

— « متجمدة حتى الموت »

— « المياه باردة ، ولكن ليس إلى هذا الحد ، ولو كان فى شمال الأطلنطى .. »

— « ريت باتلر ، اذا كنت ستخبرنى بإحدى قصص مغامرات اختراق الحصار .. فسوف .. سوف اغرقك » .

وملأت ضحكته الهواء حولهما ويبدو انها جعلته اكثر دفئا . ولكن سكارليت مازالت غاضبة : « كيف تستطيع ان تضحك فى وقت كهذا .. هذا ما اعجز عن فهمه . انه ليس امرا مضحكا ان يتدلى المرء فى مياه تؤدى إلى التجمد وسط عاصفة مخيفة »

— « عندما تكون الامور فى اسوا حال ياسكارليت ، فإن الشىء الوحيد الذى يمكن عمله هو العثور على شىء يثير الضحك . ان هذا يساعد المرء على ان يحتفظ بعقله .. ويوقف اصطكاك الأسنان من الخوف »

كانت خائرة القوى وعاجزة عن الكلام .. اسوا ما فى الموقف انه على

حق . فقد توقف اصطكاك الأسنان عندما توقفت عن التفكير فى انها توشك على الموت .

— « الآن سأقطع أربطة مشد الخصر الذى ترتدينه ياسكارليت فانت لاتستطيعين التنفس بسهولة فى هذا القفص . لاتتحركى حتى لا أقطع جلدك »

كان هناك شىء حميم يثير الارتباك فى حركة يديه تحت السترة وهى تمزق صديريتها الضيقة وبلوزتها ، فقد مضت سنوات منذ ان وضع يديه على جسدها .

قال ريت : « الآن تنفسى بعمق .. النساء فى هذه الأيام لا يعرفن أبدا كيفية التنفس . املئى رئتيك تماما .. استمرى فى التنفس .. هذا سيدفىء دمك » .

● ● ●

حاولت سكارليت أن تنفذ ما قاله ريت ، ولكنها شعرت بثقل مخيف فى ذراعيها عندما رفعتهما ، كان الأسهل أن تترك جسدها يسترخى ويتجاوب مع حركات الموج . شعرت برغبة قوية فى النوم ، لماذا يصر ريت على أن يواصل الكلام بكثرة ؟ ولماذا يصر على ارغامها على تدليك ذراعيها ؟

— « سكارليت » .. سكارليت ! »

كان الصوت عاليا جدا .

— .. « لاتنامى .. يجب أن تواصلى الحركة .. اركلى بقدميك .. اركلينى إذا أردت ، ولكن حركى ساقيك »

وبدأ ريت يدلك كتفيها بقوة ثم اعلى ذراعيها .

— « كفى ، انك تؤلمنى »

كان صوتها ضعيفا مثل مواء الهرة الصغيرة . وأغلقت سكارليت عينيها واصبح الظلام اشد ظلاما .. ولم تعد تشعر ببرودة ، وإنما بإرهاق شديد ونعاس .

وبدون تحذير مسبق .. صفعها ريت بقوة على وجهها حتى أن رأسها اندفع إلى الخلف واصطدم بالهيكل الخشبى للزورق محدثا دويا تردد صداه فى المكان المغلق ، واستيقظت سكارليت تماما فى حالة من الصدمة والغضب .

— « كيف تجسر ! ساعرف كيف أرد على ذلك عندما نخرج من هنا ياريت باتلر »

قال ريت : « هذا احسن » واستمر فى تدليك ذراعيها بقوة رغم أن

سكارليت كانت تحاول أن تدفع بيديه بعيدا !

— « استمرى فى الحديث .. سأقوم بالتدليك . أعطينى يديك حتى أدلكهما »

— « لن أفعل بكل تأكيد ! سأحتفظ بيدى لنفسى .. وسأشكرك لو فعلت المثل .-أنت- تدلك لحمى حتى عظامى »

وقال ريت بخشونة « التدليك أفضل من أن يأكل لحمك سرطان البحر .. استمعى لى . إذا تركت نفسك تستسلمين للبرد ياسكارليت فإنك ستموتين . أعرف أنك تريدين أن تنامى ولكن .. هذا هو نوم الموت ، وحتى لو اضطررت لضربك حتى يصبح لون بشرتك أسود مشوبا بالزرقة ، فإننى لن أسمح لك بأن تموتى . يجب أن تظلى مستيقظة وأن تتنفسى وتستمرى فى الحركة . تكلمى .. واصلى الكلام . لايهمنى ما تقولينه .. »

وأحست سكارليت مرة أخرى بالبرودة التى تصيب بالشلل ، بينما كان ريت يعيد الحياة إلى جسمها .

وسألته بصوت متجمد وهى تحاول تحريك ساقيها :

— « هل سنخرج من هذا الموقف ؟ »

— « طبعا سنخرج »

— « كيف » ؟

— « التيار يحملنا إلى الشاطىء ، انه المد القادم وسيحملنا إلى حيث أتينا »

ولم يش صوت ريت بما يعرفه من أن طاقة الرياح يمكن أن تجعل الأنشطة العادية للمد والجزر بلا معنى . فالعاصفة يمكن أن تحملهما عبر مدخل الميناء إلى الآماد القصوى للمحيط الأطلنطى وقالت إنها جائعة وتذكرت طعام الملاّح الذى رفض أن يسمح لها بتناوله وكان يحتوى على زجاجات روم جعلتهما يشعران بالدفء بعد قطرات منها ، وبعد قليل كانا يرددان الأغانى التى يعرفانها ، ومد ريت ذراعيه حول سكارليت وأمسك بها على مقربة من جسمه لتشاركه فى دفئه .

ولكنها لم تستطع أن تواصل الغناء . لم تسعفها طاقتها .

آه .. لو وضعت رأسها على كتفه ونامت ، إنها تشعر بذراعيه حولها . وسقط رأسها . كان ثقيلا ولاتستطيع حمله أكثر من ذلك . وهزها ريت .

« سكارليت هل تسمعيننى ، أشعر بتغيير فى التيار . أقسم لك اننا على مسافة قريبة من الشاطىء . لاتستسلمى الآن . هيا يا حبيبتى ،

دعينى أرى المزيد من ذكائك وروحك القوية . ارفعى رأسك .. لقد كادت تنتهى هذه المشقة » ..

— « .. باردة جدا .. »

— « اللعنة عليك ياسكارليت أوهارا إذا كنت انهزامية بهذا الشكل . كان يجب أن أترك شيرمان ينالك فى اتلانتا ، فانت لم تكونى تستحقين الانقاذ » فتحت عينيها لملاقاة التحدى الذى تشعر به على نحو غائم ..

امرها ريت بأن تأخذ نفسا عميقا . وقال وهو يضم يده الكبيرة على أنفه وفمه ويغطس تحت المياه بينما يمسك بجسمها الذى يصارع بهزال . وخرجا من تحت الزورق على مقربة من موجات طويلة متكسرة . وقال ريت بصمت لاهث وهو يشير إلى اليابسة . « تقريبا ، هناك ياحبى » . وثنى ذراعيه حول عنق سكارليت وحمل رأسها الثقيل فى يده وسبح بطريقة الخبير من خلال موجة متكسرة واستخدم قوتها فى حملهما إلى منطقة المياه الضحلة . وحملته موجة أخرى إلى الشاطىء ونهض ريت حاملا سكارليت فى صدره واتجه إلى منطقة لاتضربها الرياح ووضع جسد سكارليت برقة على الرمال الناعمة .

وتهدج صوته وهو ينادى باسم سكارليت مرة بعد أخرى وهو يحاول أن يعيد الحياة إلى لونها الأبيض عن طريق تدليك كل جزء منها بيديه . شعرها الأسود المتلألىء المتشابك يتناثر حول راسها وكتفيها وحاجبيها .. واهدابها وصفع ريت خديها بنعومة وبإلحاح بظهر اصابعه .

● ● ●

عندما فتحت عينيها .. بدا لونها أقوى من الزمرد .. وصاح ريت علامة الانتصار .. كانت أصابعها نصف مضمومة على الرمال التى جعلها المطر تتماسك مؤقتا . وقالت « أرض » . وبدأت تبكى فى نشيج لاهث .

ووضع ريت ذراعه تحت كتفيها ورفعها لتكون فى حماية جسمه المنحنى . وبيده الطليقة لمس شعرها وخديها وفمها وذقنها « ياحبيبتى ، ياحياتى ، لقد ظننت أننى فقدتك . ظننت أننى قتلتك ، ظننت . ، أوه ياسكارليت انت على قيد الحياة . لاتبكى يا أعز المخلوقات ، لقد انتهى الأمر . انت سالمة » وقبّل جبينها وعنقها وخديها .. وسرى الدفء واللون فى بشرة سكارليت الشاحبة ، وأدارت رأسها لتتجاوب مع قبلاته وتقبله بدورها .

ولم تعد هناك برودة ولامطر ولاضعف . فقط شفتا ريت المحترقتان فوق شفتيها وجسدها ، وحرارة يديه ، والقوة التى شعرت بها تحت أصابعه عندما امسك بكتفيها ، ودقات قلبها تدوى فى حلقها فى ملاقاة شفتيه

والخفقان القوى لقلبه تحت راحتيها عندما لمست أصابعها صدره .

نعم أتذكر ذلك . لم يكن حلما . نعم لقد تجاوبت مع عواطف ريت ، فإن ماتطلبه هو ما يطلبه . ولم تعد هناك كلمات او افكار وإنما اتحاد يتجاوز العقل والزمن .. والعالم ..



الهـــروب مـن « الادمـــان »

انه يحبنى ! كم كنت حمقاء عندما انتابنى الشك فى الحقيقة التى اعرفها . فتحت عينيها ببطء ، كان « ريت » يجلس إلى جانبها وقد احاط ركبتيه بذراعيه وأخفى وجهه بينهما . واحساس بالراحة عند سكارليت وهى تنعم بملامسة الرمال لبشرتها وتتعرف على المكان حولها . والأمطار تتدفق بلا انقطاع .. « سنموت » علينا ان نعثر على ماوى قبل ان نمارس الحب مرة اخرى . وتمد يدها لكى تتحسس ظهره ، ولكنه يبتعد بحركة سريعة كما لو كانت قد لسعته بالنار ، وينظر إليها ثم يقف على قدميه . ولم تستطع ان تقرأ تعبيرات وجهه . قال : « لم أشأ أن أوقظك ، حاولى أن تستريحى لدقائق اخرى .. إلى أن أجد مكانا نجفف فيه أجسامنا ونشعل بعض النار .

— « سأذهب معك » . وجاهدت لكى تقف . كانت سترة ريت تغطى ساقيها بينما لاتزال ترتدى سترتها .

— « لا .. انتظرى هنا » . وسار مبتعدا . ولم تصدق سكارليت عينيها .

— « ريت ، كيف تتركنى ؟ لن ادعك تتركنى » ، ولكنه واصل السير متسلقا كثبان الرمل المنحدرة ، ولم تر غير ظهره العريض الذى تعلق به قميصه المبتل . وتوقف عند قمة التل ، وتلفت حواليه ، ثم قال : « أرى كوخا . الآن أعرف أين نحن . هيا انهضى » . وعاد ليمد يده ويساعدها على النهوض . ومدت يدها فى لهفة .

فتح باب الكوخ بركلة واحدة من قدمه ، ودلف إلى الداخل ، .. وسكارليت فى اعقابه . لماذا يلزم الصمت ؟ لم يتفوه بكلمة واحدة حتى وهو يحملها بين ذراعيه عبر الكثبان الرملية . وهى تريده أن يتكلم وأن تسمعه يقول كم يحبها . الله يعلم أنه تركها تنتظر طويلا بما فيه الكفاية .

وجد غطاء سرير ممزقا فى دولاب قديم بالكوخ . قال « انزعى ملابسك المشبعة بالمياه ولفى جسمك بهذا الغطاء » وألقى به فى حجرها . وخلعت سكارليت ما تبقى من ملابسها الممزقة ولفت الغطاء حول جسمها وجلست على مقعد مطبخ خشن . وبعد ساعات من الصراع مع الأمواج .. بدأ جسمها يجف . ولكنها اخذت ترتجف . واحضر ريت قطعا من الخشب الجاف ليشعل النار فى مدفأة كبيرة فى الحائط . وتقافزت سكارليت عبر الغرفة لتدفىء نفسها قرب النيران :

— « لماذا لاتنزع ملابسك المبتلة ياريت أنت أيضا ؟ سأعطيك الغطاء لكى تجفف نفسك ، فهذا شيء مريح » . وخفضت عينيها كما لو كانت قد خجلت من جسارتها . وتهدلت خصلات شعرها على خديها .. ولم يجب ريت . وبعدها قال « سأغرق بالمياه مرة أخرى عندما أخرج » اننا على مسافة ميلين من فورت ماولترى . سأذهب طلبا للمساعدة »

وتوجه ريت إلى الغرفة الصغيرة الملحقة بمطبخ الكوخ التى تحفظ فيها المؤن وادوات المائدة . وتمنت سكارليت أن يكف عن التنقيب فى تلك الغرفة . كيف نستطيع أن تتحدث معه وهو فى غرفة أخرى ؟ وخرج ريت حاملا زجاجه من الويسكى فى إحدى يديه . وقال بابتسامة مقتضبة « الرفوف عاريه ، ولكن الضروريات متوافرة » وفتح دولابا واخرج كوبين ، وقال بعد فحصهما « نظيفان بما فيه الكفاية ، سأصب لنا كاسين » ، ووضع الزجاجة والكوبين على المائدة .

— « لا أريد شرابا ، أريد . »

وقاطعها قبل أن تقول له الذى تريده :

— « اننى أحتاج إلى شراب » وملأ نصف كوبه وشربه فى جرعة واحدة . ثم هز رأسه : « لا غرابة فى انهم تركوا هذه الزجاجة هنا .. انها فاسدة ، ومع ذلك .. » . وصب من الزجاجة مرة أخرى .

كانت سكارليت تتابعه بنظرة تسامح وتدليل . مسكين أيها الحبيب . كم هو عصبى . وعندما تحدثت كان صوتها معبرا عن صبر العاشق : « لماذا العصبية ؟ ما حدث ليس فضيحة أو شيئا من هذا القبيل . نحن زوجان يحب أحدنا الآخر .. هذا كل شيء »

وحملق ريت نحوها ثم وضع الكوب . بحرص فوق المائدة :

— « سكارليت . ماحدث هناك لاعلاقة له بالحب .. انه احتفال بالبقاء على قيد الحياة ، هذا كل ما فى الأمر .. وانت ترين ذلك يحدث عقب كل معركة فى زمن الحرب .. الرجال الذين كتبت لهم النجاة يلقون بانفسهم على أول امراة يرونها ، ليثبتوا انهم مازالوا أحياء عن طريق استعمال جسدها . فى هذه الحالة انت استخدمت جسدى أيضا ، لأنك افلت من الموت باعجوبة .. وهذا لاعلاقة له بالحب » خشونة كلماته فاجاتها ، ولكنها تذكرت الصوت الذى كان يهمس فى أذنها بكلمات . « حبيبتى » « حياتى » « أحبك » التى تكررت مائة مرة . بصرف النظر عما يقوله ريت ، فإنه يحبها . وهى على يقين من ذلك فى أعماقها . وهو لايزال يخشى ان يكون حبى له مزيفا . وهذا هو سبب امتناعه عن الاعتراف بانه

يحبنى . وبدات تتحرك نحوه : « تستطيع أن تقول ما تشاءياريت ، ولكن ذلك لن يطمس الحقيقة . أنا أحبك وأنت تحبنى ، وقد مارسنا الحب لكي يثبت كل واحد منا للآخر هذه الحقيقة » . وشرب ريت الويسكى ، وأطلق ضحكة جافة : « لم اتصور أبدا أنك رومانسية صغيرة بلهاء ياسكارليت . سيخيب املى فيك إذا ظل هذا هو حالك . يجب أن تعرفى أنه لايمكن الخلط بين الحب وبين اتصال حسى متعجل وطائش » . وقالت : « تستطيع أن تتكلم كما تشتهى ، ولكن ذلك لن يغير أى شىء » . ووضعت يدها على وجهها لتمسح الدموع وهى تسير بضع خطوات . كانت قريبة منه ، وتستطيع ان تشم رائحة الملح فى جسمه والويسكى فى أنفاسه . وعلا بكاؤها : « أنت تحبنى ، أنت تحبنى » . وسقط الغطاء الذى يلتف حول جسمها .. على الأرض عندما تركته يسقط . وتلتصق بريت « خذنى بين ذراعيك ، وقل لى إنك لاتحبنى ، وعندئذ سأصدقك » .

وبغتة . أمسكت يدا ريت براسها وقبلها بعنف . والتفت ذراعا سكارليت لتتشابكا وراء رقبته ، بينما تحركت يداه من وجهها إلى كتفيها وهى مستسلمة تماما . ولكن اصابع ريت أطبقت فجاة على معصميها لتفصل ذراعيها احدهما عن الآخر وتدفعهما بعيدا عن رقبته .. وعنه . ولم تعد شفتاه تبحثان عن شفتيها . وتراجع جسمه إلى الخلف . وصاحت « لماذا ؟ انت تريدنى » . ترك معصميها . تعثرت خطواته إلى الوراء « نعم اريدك حقا .. ولكن صدرى ضاق منك . انت سم فى دمى ياسكارليت مرض فى روحى . لقد عرفت رجالا يدمنون الأفيون ، انه يشبه ادمانى لك . وانا اعرف مايحدث للمدمن ، انه يصبح عبدا ، ثم يدمر نفسه . وكاد أن يحدث لى ذلك معك ، ولكنى هربت ولن اخاطر مرة اخرى ، ولن أدمر نفسى من اجلك » . واندفع من الباب وخرج إلى العاصفة .

وزمجرت الرياح من خلال الباب المفتوح .. رياح ثلجية تضرب جسد سكارليت العارى والتقطت غطاء الفراش من الأرض ولفته حولها واستجمعت كل قوتها لاغلاق الباب فى وجه المطر والريح . انها تشعر بقوتها تنهار ، كانت شفتاها لاتزالان ساخنتين من تاثير قبلة ريت ولكن ما تبقى من جسمها يرتعد . وزحفت إلى مسافة قريبة من النار وهى ملتفة بالغطاء . كانت مرهقة .. إلى اقصى حد .. وسوف تنام قليلا لحين عودة ريت . واستغرقت فى نوم عميق كان اقرب إلى الغيبوبة

● ● ●

قال طبيب الجيش الذى احضره ريت معه من فورت ملولترى . « إنهاك

وتاثير العوامل الجوية .. إنها معجزة أن زوجتك لم تمت يامستر باتلر . دعنا نامل فى أن تحتفظ بقدرتها على استعمال ساقيها .. كادت الدورة الدموية تتوقف تماما .. لفها فى هذه البطاطين ودعنا ننقلها إلى الحصن » .

وطوى ريت جسم سكارليت اللين بسرعة ورفعها بين ذراعيه . وقال الطبيب : « دع السيرجنت يحملها ، فانت نفسك لست فى حالة طيبة » . وفتحت سكارليت عينيها . واستطاعت وهى فى شبه غيبوبة أن تلاحظ الأزياء العسكرية الزرقاء حولها ، ثم لم تعد ترى شيئا . وأغلق الطبيب جفنيها باصابع مدربة فى ميدان القتال . وقال : « الأفضل أن نسرع .. فإن حالتها تزداد سوءا » .

● ● ●

— « اشربى هذا ياحبيبتى » . كان صوت امرأة .. صوت ناعم ولكنه أمر .. وفتحت سكارليت شفتيها لكى تطيع . كلا ، لم يكن صوت « مامى » .. وان كان قريبا جدا منه ، يكاد يكون نفس الصوت . ولأول وهلة تصورت أنها فى بيتها فى تارا .. و « مامى » ترعاها . كانت الممرضة السوداء التى تميل على سريرها ذات ابتسامة جميلة ، وتفيض بالحنان والحب وتتحلى بالحكمة والصبر اسمها « ربيكا » وقالت · إنها كانت تصلى من أجلها .. وعندما انتهت سكارليت من تناول اللبن . توجهت ربيكا للصلاة مرة أخرى شكرا على نجاة سكارليت . وجاءت الكوابيس لتقتحم أحلام سكارليت عندما عادت إلى النوم . أفاقت لتسمع صوت « ان هامبتون » « واليانور باتلر » . قالت اليانور : « جئنا لنأخذك إلى البيت ياعزيزتى » .

● ● ●

احتجت سكارليت على استخدام المقعد المتحرك لنقلها وسألت « أين ريت ؟ لماذا لم يأت ليأخذنى إلى البيت » ؟ قالت السيدة باتلر بحزم « لم أسمح له بالخروج مرة أخرى ، وقد أرسلت فى استدعاء طبيبنا ، وقلت لمانيجو ان يضع ريت فى الفراش كان البرد قد غير لون جلده إلى الأزرق » وتحدثت آن بهدوء ، وهى تميل على أذن سكارليت · « انزعجت مس اليانور عندما هبت العاصفة فجاة وانطلقنا من المنزل إلى حوض السفن ، وعندما قالوا لنا ان الزورق لم يعد اصبحت شديدة الهياج واشك فى أنها جلست مرة واحدة طوال فترة المساء كانت تذرع الشرفة ذهابا وإيابا وهى تتطلع بعيدا من خلال المطر » وقلت مس اليانور لربيكا ، قال لى إبنى إنك صنعت معجزه برعايتك لزوجته لا أعرف

كيف نشكرك » . وشرحت آن هامبتون لسكارليت أن ريت انتظر فى المستشفى إلى ان ابلغه الطبيب بأن زوجته تجاوزت مرحلة الخطر ثم أخذ المعدية إلى شارلستون لكى يطمئن والدته التى كان متأكدا من انها فى حالة شديدة من القلق . وضحكت آن وقالت « لقد تلقينا صدمة كبرى عندما رأينا جنديا من اليانكى يدخل من البوابة . وقد تبين أن ريت استعار منه ملابس جافة » .

ورفضت سكارليت أن تغادر المعدية بالمقعد ذى العجلات ، وأصرت على انها قادرة تماما على السير إلى المنزل . وبدأت تمشى وكأن شيئا لم يحدث . ولكنها كانت مجهدة عندما وصلت إلى البيت حتى أنها قبلت مساعدة آن لها على صعود السلم واستغرقت فى نوم عميق بعد أن تناولت حساء ساخنا . ولم تلاحقها الكوابيس هذه المرة ، فهى فى فراش ناعم وثير كما ان ريت على مسافة بضع خطوات منها

● ● ●

رأت الزهور فى لحظة استيقاظها .. كما رأت مظروفا إلى جانب آنية الزهور . وتناولت سكارليت المظروف بلهفة .. انه خط ريت :

« ليس هناك ما استطيع قوله حول ماحدث بالأمس ما عدا أننى أشعر بالخجل والأسف فى اعماقى لاننى كنت السبب فى هذا الألم العظيم الذى اصابك والخطر الهائل الذى تعرضت له ... »

واهتزت سكارليت فرحا وواصلت القراءة :

.. « ان شجاعتك وروحك الباسلة .. تشهدان بحق ببطولتك وسوف انظر اليك دائما بإعجاب واحترام . وانى آسف بمرارة لكل ماحدث بعد نجاتنا من المحنة الطويلة . لقد قلت لك أشياء ما كان ينبغى لرجل أن يقولها لامراة ، وكانت تصرفاتى تستحق التوبيخ ومع ذلك فإننى لا أنكر أن كل ما قلته هو الحقيقة . ويجب الا أراك مرة ثانية . وطبقا لاتفاقنا ، فان لك الحق فى البقاء فى شارلستون فى منزل والدتى حتى شهر ابريل واننى آمل بصراحة الا تختارى البقاء حتى ذلك التاريخ ، لأننى لن أزور منزل المدينة ولا « دانمور لاندينج » إلى أن أتلقى معلومات تؤكد أنك عدت إلى اتلانتا . لن تتمكنى من العثور علىّ ياسكارليت ولا تحاولى التسوية النقدية التى وعدت بها سيتم تحويلها اليك فورا باسم العم هنرى هاميلتون . ارجوك ان تقبلى اعتذاراتى المخلصة عن كل شىء يتعلق بحياتنا معا . فلم تكن مقصودة . واتمنى لك مستقبلا أسعد .

« ريت

حدقت سكارليت في الخطاب . في البداية شعرت بصدمة وجرح كبير ثم غضب شديد . وأخيرا مزقته ببطء إلى قطع صغيرة كما لو كانت تقتل الكلمات الشريرة .

« ليست هذه المرة ياريت باتلر . لقد هربت منى تلك المرة السابقة في اتلانتا بعد أن مارست الحب معي . وسقطت مريضة بالحب انتظر عودتك . حسنا ، الآن انا اعرف اكثر مما كنت في المرة السابقة ، اعرف انك لا تستطيع ان تتخلص منى مهما بذلت من جهد . فانت لا تستطيع أن تعيش بدوني . فلا يوجد رجل يمارس الحب مع امرأة بالطريقة التى فعلت .. ثم لايراها بعد ذلك ابدا . سوف تعود . كما عدت من قبل ولكنك لن تجدني في انتظارك . عليك ان تاتي وتجدنى في المكان الذى ساتواجد فيه » .

ودقت الجرس واستدعت بانسى وطلبت منها ان تحزم حقائبها بسرعة للحاق بالقطار المتجه إلى أوجوست .. سأعود إلى بيتي وسوف أتأكد من أن العم هنرى تسلم نقودى ثم أبدأ مباشرة العمل في تارا . ولكننى لم أحصل على تارا حتى الآن ! وسكتت برهة .. ثم قالت لبانسى : « سأذهب إلى سافانا ، انه عيد ميلاد جدى » سوف تلتقي بخالتيها في المحطة . وسيغادر القطار إلى سافانا في العاشرة او الحادية عشرة . وغدا سوف تقابل رئيسة الدير وتدفعها للحديث مع الأسقف . فلا معنى للذهاب إلى اتلانتا قبل أن يكون صك نقل ملكية تارا في يدها . وبحثت عن مس اليانور لتودعها . وقالت لها روز مارى ، التى دهشت واعتراها الفضول عندما رأت سكارليت ترتدى ثوبا مزخرفا ، .. ان الوالدة ذهبت إلى الكنيسة وقالت : « لماذا لاتكتبين لها رسالة » ؟

لم يعد هناك وقت ، فالسائق ينتظر خارج المنزل .. واندفعت إلى المكتبة وأمسكت بورقة وقلم ، ماذا تقول ؟ وكتبت سكارليت لتوضح انها ذاهبة إلى عيد ميلاد جدها وانها آسفة لأنها لم تودع اليانور قبل سفرها وأضافت : « وسوف يفسر ريت كل شيء » و « أحبك » .

— « أرجوك سلمى هذه الرسالة إلى والدتك لأننى يجب أن أسرع » .

قالت شقيقة ريت « وداعا ياسكارليت » ووقفت عند الباب ترقب سكارليت وحقائبها ووصيفتها بانسى . لم يكن ريت منظما بهذا الشكل عندما غادر ليلة أمس وتوسلت اليه أن يبقى لأن حالته لم تكن طيبة ، ولكنه قبلها وودعها وخرج على قدميه في الظلام لايلوى على شيء . ولم يكن

من الصعب على روز مارى ان تستنتج ان سكارليت هى السبب فى رحيله

وبحركات متمهلة اشعلت روز مارى عود ثقاب ، وأحرقت رسالة سكارليت ، وهى تقول بصوت عال · « لقد تحقق الخلاص » ..

● ● ●

القسم الثالث :

حياة جديدة



● « ڤيڤيان لى » (سكارليت) و « كلارك جيبل » (ريت باتلر) . لم يعد المشاهد (للسينما) أو قارىء الرواية يتخيل شخصية سكارليت أو باتلر فى صورة أخرى غير ڤيڤيان لى و « كلارك جيبل » وقد تكلف البحث عن ممثلة تقوم بدور سكارليت ٩٢ ألف دولار ـ قبل العثور عليها ـ وسمع المنتج ١٤٠٠ اقتراح حول اختيار الممثلة التى تقوم بهذا الدور وأجرى تسعين اختبارا لممثلات بينهن أعظم ممثلات هوليوود فى ذلك الوقت .. بلا نتيجة قبل أن يجد « ڤيڤيان لى » .

فــي مـــنزل الـجـــد

منزل الجد المهيب باللون الوردى كما قالت السيدة اليانور ، وكل شيء بنفس اللون ، وهو مكان نموذجي لكى يجدها فيه ريت بعد ان يلحق بها . ولكن هذا الجد العجوز البخيل لم يرسل مليما لمساعدتها بعد الحرب .. ولا يفعل شيئا ، للخالتين أيضا ، واستعدت سكارليت للمعركة . كانت الخالتان تشعران برعب من أبيهما ، اما سكارليت فليس هناك ما يدعوها للخوف . لقد استردت حياتها لتكون بين ايديها ، وتشعر الآن بانها قوية .. لا رجل . ولا وحش يمكن أن يضايقها الآن . ان ريت يحبها .. إذن فهى ملكة العالم ، وفى داخل المنزل امرت خادمتها بان تضع الحقائب فى اجمل غرفة للنوم ، وفزعت الخالتان لأن سكارليت لم تنتظر لحين مقابلة الجد . وقالت سكارليت لخالتيها بولين واولالى .. انهما شبتا فى هذا المنزل فلماذا لا تشعران انهما فى بيتهما ؟

وحانت لحظة مقابلة الجد بناء على اوامره ، الغرفة ذات سقف عال جدا ومزدحمة بالاثاث ، وفى أحد اركان الغرفة يوجد علم فرنسا .. ودمية بلا رأس ترتدى الزى العسكرى الذى تتدلى منه ميدالية ذهبية والذى كان يرتديه بيير روبيلار عندما كان شابا فى جيش نابليون بونابرت .. أما العجوز فقد كان جالسا فى فراشه منتصبا ووراءه كوم من الوسائد الضخمة ويحدق فى زائريه ، لا شيء سوى جلد وعظام .

— هالو يا جدى ، جئت لأراك فى عيد ميلادك . انا سكارليت ابنة إلين .

وقال العجوز : انا لم أفقد الذاكرة ، ولكن يبدو ان الذاكرة تخونك أنت ، فى هذا المنزل لا يتحدث الصغار إلا إذا تم توجيه الحديث اليهم .

كان صوته القوى يناقض كيانه الهش .. وعضت سكارليت لسانها حتى تصمت ، لست طفلة حتى يتحدث معى بهذه الطريقة . ويجب أن تكون ممتنا لأى شخص ياتى ليراك . ولا غرابة فى ان امى كانت سعيدة للغاية عندما أخذها أبى بعيدا عن هذا المنزل !

واخذ يدمدم قائلا بالفرنسية : Et vous mes filles. qu'est -ce- que vous voulez cette fois « وانتم يا بناتى ماذا تريدون هذه المرة ؟» .

واندفعت أولالى وبولين صوب الفراش ، تتحدثان فى وقت واحد . يا للكارثة ، انهم يتحدثون بالفرنسية ! ماذا بالله افعل هنا .. سيفعل ريت خيرا لو جاء ورائى بسرعة ، حتى لا يصيبنى الجنون فى هذا المنزل .

وعندما أضاء « جيروم » كبير الخدم الغرفة بالمصابيح . وجدت أمامها لوحة كبيرة لجدتها ، نفس الأنف المتعالى كما فى اللوحة المعلقة فى تارا .. ومشروع ابتسامة على شفتيها ، وعينان سوداوان تنظران من كل الزوايا نحو سكارليت ، مع روح حميمة وساحرة وضاحكة تتحدى كل شخص عرفها وتاسره ، نهداها المستديران المستفزان تغطيهما غلالة حريرية بيضاء ، وشعرت بحمرة الخجل ، لماذا لا تبدو الجدة روبيلار مثل سيدة مجتمع ، وتذكرت نفسها وهى بين ذراعى ريت والشهوة الجامحة لملمس يديه لابد أن جدتها شعرت بنفس الاشتهاء ونفس النشوة . هذا ما يبدو فى عينيها وابتسامتها ، هل ورثت سكارليت ذلك الجموح وروح الاقتحام من المرأة التى تبتسم لها داخل اللوحة ؟

● ● ●

كانت وجبة العشاء هزيلة تنم عن بخل شديد . وأدركت سكارليت انها ستكون فى نفس هزال جدها خلال أيام وتتحول الى هيكل عظمى إذا كانت هذه هى عينة وجبات الطعام فى المنزل ، وبعد أن نام كل سكان البيت ، شقت سكارليت طريقها الى المطبخ فى البدروم ، وأكلت كل ما تريد ، وتأكدت من صدق ظنونها .

ان بيير روبيلار يمكن أن يحتفظ بولاء ابنتيه عندما لا تمتلىء معدتاهما ، أما خدمه فإنهم لن يبقوا فى المنزل ما لم تكن لديهم وفرة من الطعام ، وفى صباح اليوم التالى ، امرت جيروم كبير الخدم بان ياتيها بالبيض وببسكويت ولحم الخنزير المقدد ، وحذرت : (لقد رايت كميات كبيرة منها فى المطبخ) وحصلت على ما تريد .

انها ليست على استعداد لأن تكون مثل خالتيها اللتين ترتجفان مثل اوراق الشجر ، فليس هناك مبرر للسماح للعجوز بأن يخيفنى ولن يحدث ذلك مرة أخرى . الآن تتعامل مع الخدم وليس مع الجد . وكان من السهل أن تلاحظ ان جيروم مستاء من طلباتها .. فتشعر بسرور مضاعف ، فهى لم تصطدم بشخص ما منذ وقت طويل ، وهى تحب أن تنتصر . وقالت لجيروم : « السيدتان الأخريان ستحصلان أيضا على بيض ولحم خنزير .. ثم ان هذا الزبد غير كاف ..» وما ضايق جيروم وسائر الخدم هو شبابها وطاقتها ، فهى تثير الاضطراب الآن فى هذا المنزل الساكن .

● ● ●

كانت سكارليت تتوقع مجىء ريت ، ولكن ريت لم يأت وفى اليوم التالى ارسلت برقية الى العم هنرى لابلاغه بعنوانها فى سافانا وترددت ثم

أضافت سؤالا هل قام ريت بتحويل أى نقود اليها ؟

ماذا لو حاول ريت أن يمارس أى لعبة مرة أخرى وكف عن ارسال المال للاحتفاظ بإدارة منزل شارع بيتشترىّ ؟ كلا ، المؤكد انه لن يفعل ذلك ، بل على العكس ، فإن رسالته ذكرت انه سيرسل النصف مليون ، كما انه لم يكن صادقا عندما اصطنع كل هذا التهويل وكتب كل تلك الأشياء الجارحة ، مثل الحديث عن الأفيون .. هذا ما قاله .. ولكنه لا يستطيع أن يستغنى عنها وسوف يلحق بها ، صحيح ان ابتلاع الكبرياء صعب بالنسبة لريت من اى رجل آخر ، ولكنه سيأتى ، انه مرغم ، ولا يستطيع أن يستغنى عنها وخاصة بعد ما حدث على الشاطىء ..

وتوجهت الى « دير شقيقات الرحمة ».. إذ يجب أن يكون لديها الوقت الكافى أثناء انتظارها لحضور ريت ، لكى تقتفى أثر رئيسة دير شارلستون وتحملها على الحديث الى الأسقف كما اقترح ريت .

قالت الراهبة العجوز التى فتحت الباب ان رئيسة دير شارلستون موجودة ، ولكنها لا تستطيع أن تطلب منها مقابلة السيدة باتلر فورا .. فهناك اجتماع الآن ، وهى لا تعرف المدة التى يستغرقها انعقاد هذا الاجتماع ، ولا تعرف ما إذا كانت رئيسة الدير ستكون جاهزة لمقابلة السيدة باتلر بعد انتهاء الاجتماع .

واقترحت عليها الراهبة العجوز أن تقوم بجولة فى مبنى الكاتدرائية الجديد . قالت سكارليت لنفسها . انهم يشيدون كاتدرائية جديدة ، وهذا يكلف أموالا كثيرة ، وربما يكون عرض شراء نصيب كارين فى تارا موضع قبول واستحسان الآن اكثر مما كان عليه فى شارلستون كما قال ريت ، إذ انهم هنا فى حاجة الى المال

لســـت من جنـــودك

وصلت رائحة الدجاج المحمر الى أنف سكارليت وهى تفتح باب المنزل الوردى الكبير ، كانت تشعر بجوع شديد . ونظرت « أولالى » الى سكارليت بعينين حزينتين تعبران عن روح المواساة بينما كانت تدخل غرفة الطعام ، وقالت لها : « الأب يريد أن يراك يا سكارليت »

ان الا يمكن ان ينتظر لما بعد الغداء ، اننى اتضور جوعا ..

واكدت الخالة ان اباها قال : « .. فى الدقيقة التى تصل فيها سكارليت الى المنزل » والتقطت سكارليت رغيفا من الخبز وقضمت منه قطعة وهى تمضى خارجة وفرغت من التهامها قبل أن تصل الى غرفة الجد .

وعبس العجوز وقطب جبينه عندما رآها بينما كانت صينية الطعام تستقر على حجره فى الفراش الضخم . ولاحظت سكارليت أن طبقه لا يحتوى إلا على بطاطس مهروسة وكومة ضئيلة من الجزر غير الطازج .

يا للبلية ! لا غرابة فى انه يبدو متوحشا ، لا توجد مسحة من الزبدة فوق البطاطس .. حتى لو لم تكن لديه سنة واحدة فى فمه ، فإن الزبد كان سيغذيه افضل من هذا .

قال العجوز : لا اتسامح مع اهمال جدول مواعيد المنزل .

— اسفة يا جدى .

— النظام هو ما جعل جيوش الامبراطور .. عظيمة ، بدون نظام لا توجد سوى الفوضى .

كان صوته عميقا ، قويا ، مخيفا ، بيد ان سكارلبت رات العظام المتهالكة الناتئة تبرز من تحت قميص نومه الكتانى الثقيل . ولم تشعر بخوف .

— قلت اننى آسفة ، هل أستطيع أن اذهب الآن ؟ اننى جائعة .

— لا تكونى وقحة أيها السيدة الشابة .

— لا توجد وقاحة فى كون المرء جائعا يا جدى ، ومجرد انك لا تريد تناول غدائك لا يعنى أن لا أحد آخر يجب أن يتناول اى طعام

ودفع بيير روبيلار الصينية بغضب ،وعوى قائلا : لا تليق بالخنازير .

واتجهت سكارليت ناحية الباب .

— اننى لم انه المقابلة يا سيدة .

وشعرت بمعدتها تصرخ ، لابد أن الخبز قد برد الآن وان الدجاج قد نفد بعد أن انفتحت شهية الخالة أولالى .

— يا الهى يا جدى . اننى لست واحدة من جنودك ! ولست خائفة منك مثل خالتىّ .. ماذا ستفعل لى ، فى رأيك ؟ هل ستطلق علىّ الرصاص بتهمة الهرب من الخدمة ؟ إذا كنت تريد تجويع نفسك حتى الموت ، فإن هذا شأنك . انى جائعة وسأذهب لأتناول ما تبقى من الغداء ..

كانت فى منتصف الطريق الى الباب عندما سمعت صوتا مختنقا جعلها تستدير الى الخلف ، يا آلهى . هل تسببت فى اصابته بسكتة دماغية ؟ يا آلهى لا تجعله يموت بسببى

غير انها اكتشفت ان بيير روبيلار كان يضحك ، ووضعت سكارليت يديها فى وسطها وحملقت فى وجهه . لقد أخافها حتى كادت تموت . ولوح لها لكى تخرج باصبع طويل من يده التى لم يتبق منها سوى العظم ، وقال « كلى ».. « كلى » ثم بدأ يضحك مرة أخرى .

لم تنتظر الخالتان عودة سكارليت من غرفة جدها والتهمتا كل الطعام وجلستا فى انتظار الحلوى ، وسألتها الخالة بولين عما حدث . وتعجبت الخالة أولالى لأنها لم تسمع صراخا ، والتقطت سكارليت الجرس الفضى الصغير الموضوع على المائدة وهزته بغضب ، وعندما جاءت خادمة سوداء بدينة تحمل طبقين من « البودينج » وضعت سكارليت كلتا ي سكا على كتفى المرأة وأدارت وجهها وجسمها الى الناحية المضادة : « الآن بالخطوة السريعة الى الأمام ستنزلين الى المطبخ وتحضرين لى غدائى واريده ساخنا وبكميات كبيرة ، ولا يهمنى من منكم كان ينوى أن يستولى على طعام غدائى » وانتظرت الخالتان الى أن فرغت سكارليت من طعامها ، وعندها سألت بولين فى أدب : « ماذا قال لك الأب »؟ قالت سكارليت وهى تمسح فمها بمنديل المائدة : « مجرد انه حاول أن يستاسد ، وكان ردى عليه هو تعريفه بشخصى مما دفعه الى الضحك » وتبادلت الخالتان نظرات تعبر عن شعور بالصدمة ، ألا تعرف الخالتان ان المرء يجب أن يتصدى للمتجبرين مثل والدهما وإلا فإنه سوف يسحق امثال هاتين الخالتين ؟ أليست ضحكات جدها تعبيرا عن اعترافه بانها تشبهه ؟

• • •

مسألتان تسيطران فى الوقت الحالى على تفكيرها : السيطرة على « تارا » والفوز فى الصراع مع ريت . ولا يهم إذا كان الهدفان متعارضين ، فسوف تجد وسيلة لكى تحصل عليهما .. الاثنين .

• • •

عبرت الشارع المزدحم فى مدينة سافانا ، ووقع بصرها على لافتة كبيرة معلقة تحمل اسم « أوهارا » انه محل تجارى كبير يمتلىء بكل انواع السلع واكبر بكثير من متجرها فى اتلانتا ، لابد أن عمها اوهارا يغزو العالم ويحمل افكارا قد تسعفها فى عالم التجارة . والتقت فى داخل المحل بشاب يدعى جامى ظهر انه ابن عمها وانه يتولى ادارة المحل الذى يغص بالزبائن الذين لاحظت سكارليت انهم يتلقون افضل معاملة . قال جامى : « انا ابن شقيق لاوهارا ، وسوف يسعد العم جيمس كثيرا لمرؤيتك ، انه عجوز ولكنه مازال نشطا ، وهو يحضر الى هنا كل يوم ويمكث حتى موعد الغداء . اما العم اندرو ، فقد توفى بعد شهر واحد من وفاة زوجته حزنا عليها . ويقيم العم جيمس معى انا وزوجتى فى المنزل » ودعاها الى تناول الشاى بعد ظهر نفس اليوم حيث يلتئم شمل العائلة فى حفل عيد ميلاد ابنته باتريشيا . وعندما عاد ابنه دانيل من جولة لتسليم بعض السلع صحبها الى منزل اسرة اوهارا الذى لم يكن يبعد كثيرا عن المتجر .

العنــــوان المطـــلــوب

رحبت بها عائلة عمها جيمس اوهارا ، وامضت في صحبة افرادها سهرة ممتعة حافلة بالضحك والغناء والرقص . واحست سكارليت بانها التقت اخيرا مع اناس يحبون الحياة ويتميزون بالتلقائية وابعد ما يكونون عن اصطناع العواطف ، والتقت في منزل عمها مع مورين ذات الشعر الأحمر ، وهي زوجة جامي . انها كبيرة الحجم وممتلئة الجسم وذات ايد خشنة . والتقت مرة اخرى مع دانيل (٢١ سنة) ثم مع برايان (١٨ سنة) وباتريشيا التي كانت تحمل جنينا في بطنها .. والطفل الصغير جدا جاكي . وكل هؤلاء ابناء جامي . وكان هناك بيلي زوج باتريشيا .. واشخاص واسماء كثيرة لم تستطع سكارليت ان تحصرها او تلتقط نوع صلة القرابة معها .. او حتى اسماءها .. فقد كان هناك جيرالد (نفس اسم والدها) وزوجته بولي ، وهيلين ، ومارى كيت ، وستيفن وبيلي و .... واعلن جامي أن الحاضرين يحتفلون بعيد ميلاد باتريشيا رغم انه يحل في الأسبوع التالى لأن الصوم الكبير سوف يحل في ذلك الأسبوع التالى .. وقال ان هناك سببا آخر للاحتفال وهو (العثور مرة اخرى على اوهارا جميلة مفقودة منذ وقت طويل ، هي سكارليت ، فمرحبا بها في قلوبنا وبيوتنا) ..

● ● ●

الراهبة العجوز التي فتحت الباب .. كررت ما تقوله مرتين : رئيسة الدير معتكفة اليوم للصلاة والصيام . فهذا ـ اربعاء الرماد ـ اول ايام الصوم الكبير .. وقالت سكارليت : « ارجو ابلاغها بانني اشعر بخيبة امل كبيرة وساعود غدا » وفي منزل الجد ، علمت سكارليت ان الصوم لا يعني مجرد تناول السمك ايام الجمعة بدل اللحوم ، وانما يعني وجبة واحدة يومية خالية من اللحوم خلال الأربعين يوما من الصيام باستثناء ايام الآحاد التي تقدم فيها ثلاث وجبات بدلا من واحدة وبدون لحوم ايضا . ولم تصدق سكارليت ما تسمعه ، فلم تحدث مثل هذه الطقوس في الصيام في منزل ابيها قط . والتفسير الذي قدمته الخالتان هو ان ذلك كان يرجع الى تاثير والدها الايرلندي الأصل الذي لم يكن يلتزم بصرامة بقوانين الكنيسة مثله في ذلك مثل الايرلنديين . واجهشت الخالتان بالبكاء عندما احتدت سكارليت دفاعا عن والدها وقالت ان تاثيره داخل الأسرة هو الذي اثمر المعاملة الطيبة والسخاء .. الشيء الذي لا تعرف الخالتان عنه شيئا ، وتاثرت سكارليت ببكائهما واعتذرت لهما عما بدر منها وتصالحت معهما .

ووجدت سكارليت من الضرورى أن تشترى كميات من الفطائر والخبز لتخفيها تحت سريرها ، ووضعت هذه « المهربات » تحت عباءتها ودخلت الى المنزل لتجد فى انتظارها برقية من هنرى هاميلتون . وظنت فى البداية انها برقية ريت يتوسل فيها ان تعود الى البيت او يبلغها فيها بانه فى الطريق لكى يصحبها معه الى بيته . ولما تبينت انها من المحامى كادت تلقى بها فى غضب ، ولكنها استحسنت ان تقرا ما يقوله العم هنرى ، واشرق وجهها بابتسامة بعد ان قرات سطور البرقية :

« تلقيت برقيتك ، كذلك تحويلا مصرفيا ضخما من زوجك ، ما اعجب هذا ؟ طلب منى ريت ابلاغه بالمكان الذى توجدين فيه . انتظرى منى رسالة قريبا جدا »

« هنرى هاميلتون »

إذن .. فإن ريت يبحث عنها ، تماما كما توقعت ، وهى محقة فى مجيئها الى سافانا . وكانت تامل فى ان يبلغ العم هنرى .. ريت مباشرة وبرقيا بعنوانها بدلا من ان يرسل اليه خطابا عاديا ، ولكن ، الا يجوز أن ريت يقرا فى هذه الدقيقة خطاب العم هنرى الذى يحتوى على عنوانها .. وفى نفس الوقت الذى تقرا فيه - هى - هذه البرقية ؟

واخذت تدندن بنغمات الفالس وترقص حول الغرفة حاملة البرقية فوق قلبها ، ربما يكون فى طريقه اليها الآن . والقطار من شارلستون يصل فى هذا الوقت من النهار تقريبا . واسرعت الى المرآة لتصلح شعرها وتضع لونا فوق خديها ، هل تغير ثوبها ؟ كلا . سيلاحظ ريت ذلك ، مما يجعله يظن انها لم تكن تفعل اى شىء سوى انتظاره . وجلست فوق مقعد فى مواجهة النافذة بحيث تختفى وراء الستار ولا يراها احد بينما هى ترى كل من يقترب من المنزل .

ومضت ساعة . ولم يحضر ريت ، ومزقت باسنانها بعض الفطائر التى جاءت بها من الخباز . وكانت عكرة المزاج عندما نزلت الى الطابق الأرضى وعندما وجدت جيروم يحمل صينية العشاء الى جدها أمرته بالوقوف :

« هذا الطعام يبدو مرعبا .. عد به الى المطبخ وضع قطعا كبيرة من الزبد فوق البطاطس المهروسة ، وضع شريحة سميكة من فخذ الخنزير فى الطبق ايضا ، اعرف ان لديكم لحم خنزير فى المطبخ .. وعليك بإضافة علبة الكريم لكى يوضع منها فوق البودنج وكذلك علبة صغيرة من مربى الفراولة ..

— مستر روبيلار لا يستطيع أن يمضغ لحم الخنزير ، وقال طبيبه انه ليس من المفروض ان ياكل اى حلوى او قشدة أو زبد .

ــ الطبيب لا يريده ان يجوع حتى الموت ايضا ، والآن افعل ما اقوله لك .

ونظرت سكارليت فى غضب الى ظهر جيروم وهو يختفى اسفل الدرج .. وقالت لنفسها « لا احد يحب ان يجوع .. لا احد »

وتغير مزاجها فجاة وهى تتمتم محدثة نفسها « حتى ولا العجوز »



عيـــد الميـــلاد

شعرت بانتعاش وتجدد في طاقتها من قطع الخبز التي تاكلها خفية .. ونزلت من غرفتها الى الطابق الأرضي ، كان الخالتان تجهزان مادبة عيد ميلاد الجد . وقالت سكارليت انها ستخرج لشراء هدية لجدها . وسالتهما إذا كانتا تريدان منها ان تشترى شيئا ، كانت تعتزم التوجه الى الدير لمقابلة رئيسة دير شارلستون ، إذ لا يمكن ان تكون ما زالت معتكفة . ولسوف اقف عند البوابة لكى امسك بها عندما تخرج ، فقد سئمت رفض مقابلتي . كانت تخشى ان تقترح الخالتان الخروج معها ، ولكنهما لحسن الحظ اعتذرتا بانهما مشغولتان الى اقصى حد ، وابدتا دهشتهما لأن سكارليت لم يقع اختيارها ولم تجهز - بعد - هدية لجدها .

الأشجار في الميدان المواجه للمنزل تبدو اكثر كثافة ، والأعشاب اكثر اخضرارا من اليوم السابق ، والشمس اكثر دفئا . وشعرت سكارليت بالتفاؤل المتسارع الذى يلازم دائما اول بواكير الربيع . اليوم سيكون يوما طيبا ، انها على ثقة من ذلك .. رغم حفل عيد ميلاد جدها .

نفس الراهبة العجوز هي التي فتحت الباب عندما قرعت الجرس . وتاهبت سكارليت للقتال . ولكن ..

— رئيسة الدير في انتظارك .. ارجو ان تتبعيني ..

كانت سكارليت لا تزال مصابة بالدوار عندما غادرت الدير بعد عشر دقائق . لقد كان الأمر سهلا للغاية ! فقد وافقت رئيسة الدير على الفور على التحدث الى الاسقف . وقالت انها سترسل بخطاب في القريب العاجل . واوضحت انها لا تستطيع ان تحدد بالدقة متى يحدث ذلك ، ولكن من المؤكد انه سيحدث خلال وقت قصير ، وانها هي نفسها ستعود الى شارلستون في الأسبوع القادم .

شعور بالنشاط والخفة يجتاح سكارليت ، ابتسامتها مشرقة وعيناها تلمعان حتى ان صاحب المحل التجارى في الدكان الصغير بشارع ابيركورن كاد ينسى ان يطلب منها ثمن صندوق حلوى الشيكولاتة المزخرف الذى اختارته هدية لعيد ميلاد جدها . وظلت معنوياتها عالية خلال الاعدادات النهائية لمادبة عيد الميلاد عندما عادت الى المنزل .

ولكن معنوياتها بدات في الهبوط عندما علمت ان جدها سوف يجلس الى المائدة من اجل الوان الطعام الستة التي يفضلها والتي ستقدم بالتتابع ، وانهارت معنوياتها عندما ابلغتها الخالتان انه غير مسموح لها بان تاكل

الجديد من اطايب الطعام التى ستقدم على المائدة . وقالت بولين بصراحة : « اللحوم ممنوعة فى الصيام الكبير .. كونى متاكدة من خلو الأرز او الخضراوات التى تاكلينها من اى اثر لصلصلة مرق اللحم » واضافت بولين « كونى حريصة يا سكارليت . لا تدعى الأب يلاحظ ، فهو لا يوافق على الصوم » كانت عينا بولين تدمعان من الحسرة .

وفكرت سكارليت : ان الخالة مكتئبة لأنها لن تشارك فى الطعام ، لا الومها فإن الروائح المنبعثة من المطبخ تسيل لعابها .

وقالت اولالى بسرور مفاجىء : « سيكون هناك حساء لنا ، وسمك ايضا وكعك ، كعكة جميلة .. جميلة ، انه حفل حقيقى يا سكارليت » وحذرت بولين : « تذكرى يا شقيقتى ، ان الشراهة خطيئة » وتركتهما سكارليت حتى لا تفقد اعصابها ، انها مجرد وجبة طعام ، وطمانت نفسها .. فإنه حتى مع وجود الجد على المائدة ، لن تكون الأمور سيئة الى هذا الحد ، ففى النهاية ماذا يستطيع رجل عجوز ان يفعل ؟ وادركت سكارليت فى الحال انه يمكن ان يرفض السماح باستخدام اى لغة للحديث سوى الفرنسية ، ويمكن ان يتجاهل قولها له « عيد ميلاد سعيد يا جدى » وكانها لم تقل شيئا .. ويمكن ان يرد على تحيات الخالتين بإيماءة فاترة بينما يجلس فى مقعد ضخم اشبه بالعرش على راس المائدة .

لم يعد بيير اوجوست روبيلار رجلا عجوزا هزيلا يرتدى ملابس النوم .. بل انه الآن يرتدى معطفا من طراز قديم فى شكل عباءة ، وبدا جسمه النحيل اكبر من حجمه ، وقامته العسكرية المنتصبة شديدة التاثير حتى وهو جالس ، اما شعره الأبيض فقد كان اشبه بطوق شعر اسد عجوز ، وكانت عيناه اقرب الى عينى الصقر تحت حاجبيه الكثيفين البيضاوين .. وانفه العظمى الكبير اشبه بمنقار طير من الجوارح ، التنبؤ اليقينى بانه سيكون يوما طيبا بدا يتهاوى امام سكارليت .

دخل جيروم حاملا « سلطانية » فضية هائلة الحجم فوق صينية فضية فى حجم مائدة صغيرة . واتسعت عينا سكارليت ، فهى لم تشهد « فضيات » بهذا الشكل فى حياتها .. وغابة كاملة من الأشجار تحيط بقاعدة السلطانية ، اغصانها واوراقها تتدرج الى اعلى وتلتف حول الاطار ، كان الضيق والسخط يبدوان على وجه روبيلار طول الوقت . اما الخالتان فقد كان من الواضح انهما فى حالة من الرعب الشديد . ويبدو ان الجد قال شيئا مهينا باللغة الفرنسية لاحدى الخالتين . وجاء دور اطباق السمك .. ثم الحملم فى القدور ..

كيف يتاتى لشخص ما أن يضمر هذا القدر من الكراهية نحو الآخرين مثل جدها ؟ من المستحيل تصور انه لم يحب الطعام . كما انه لم يكن من الصعب عليه ان ياكل حتى لو لم يكن لديه اسنان . وهى تعرف انه ذواقة للطعام .. إذن لابد ان يكون هناك سبب آخر لامتناعه عن الأكل . وهذا السبب جلى فى عينيه اللتين كانتا تلمعان عندما ينظر الى الخالتين المحبطتين ، انه يحب ان يراهما تتعذبان بدلا من أن تستمتعا بالطعام .. حتى لو كان طعام عيد ميلاده .

انها تحتقره بسبب الطريقة التى يعذب بها خالتيها .. وهى تحتقرهما لانهما تتحملان تعذيبه لهما ، وفكرت للحظة ان تقول له رايها فيما يفعله باللغة الانجليزية التى يعرفها جيدا ، انها ظلت تجلس فى هدوء ، وكان ثمة حضور لوالدتها الراحلة .. غير انها تشعر بان الين روبيلار اوهارا هنا الآن فى المنزل الذى نشات فيه ، وبسبب حبها لامها وحاجتها الى رضاها .. لم تستطع سكارليت ان تتحدى طغيان بيير روبيلار فى تلك اللحظة .

الاطباق تتوالى ، واصناف الطعام تتنوع حتى بدا ان المادبة لن تنتهى ابدا ، وفى كل مرة يتذوق بيير روبيلار الطعام ويرفضه . ثم جاءت كعكة عيد الميلاد .. وفوقها اعلام فرنسا ورمز لجيش الامبراطور نابليون ، وصوب العجوز عينيه الى سكارليت ، وقال بالانجليزية : « اقطعيها » ربما كان يامل فى ان اطيح بالاعلام بحركة رعناء ولكننى لن امنحه هذه اللذة . وتناولت السكين من جيروم بيدها اليمنى .. ونجحت فى مهمتها .

● ● ●

كانت تقديرات سكارليت انها لن تبقى فى سافانا سوى ايام معدودة لأن خالتيها تتوقعان منها العودة معهما الى شارلستون ، وكانت واثقة من أن ريت سياتى قبل ذلك ليصحبها معه .

هـل تـريـديـن الطـلاق ؟

وصل خطاب هنرى هاميلتون الموعود الى منزل روبيلار مع حلول الظلام ، وامسكت به سكارليت كما يتعلق الغريق بالحبل الذى يلقى اليه . لقد ظلت تستمع الى مشاجرة لمدة تزيد على الساعة بين خالتيها حول من المسئولة عن رد فعل والدهما ازاء عيد ميلاده ، اخذت سكارليت الخطاب لتقراه فى غرفتها بعد ان اعتذرت لخالتيها بان الخطاب يتعلق باملاكها فى اتلانتا واغلقت الباب على نفسها .. كانت تريد ان تتذوق كل كلمة فيه على انفراد .

« اى مشكلة صنعتها هذه المرة ؟.. »

هكذا بدا الخطاب بلا تحية .. وكان خط المحامى العجوز مضطربا مما جعل قراءته صعبة . وتجهمت سكارليت وقربت الخطاب من ضوء المصباح :

« اى مشكلة صنعتها هذه المرة ؟ فى يوم الاثنين زارنى احمق عجوز مغرور .. عادة ما اتجنب رؤيته فى الطريق . وقدم لى حوالة مدهشة مسحوبة على مصرفه وقابلة للدفع لك . والمبلغ عبارة عن نصف مليون دولار ، وقد دفعه ريت . وفى يوم الثلاثاء ، ازعجنى احمق عجوز آخر ، وهو محام هذه المرة ، وسألنى عن مكانك ، لأن موكله ـ زوجك ـ يريد ان يعرف . ولم ابلغه بانك فى سافانا »

وهمهمت سكارليت فى سخرية واستنكار : من الذى يصفه العم هنرى بانه احمق عجوز ؟ الأحمق العجوز هو العم هنرى نفسه ؟ لا غرابة فى ان ريت لم يحضر اليها . ودققت النظر مرة اخرى فى خط هنرى الاقرب إلى خيوط العنكبوت ، وواصلت القراءة :

« برقيتك وصلت بعد مغادرته ، وفى وقت زيارته لم اكن اعرف مكانك . ولم ابلغه بعد بعنوانك لأننى لا اعرف ما هى نواياك . وعندى فكرة واضحة هى اننى لن اشترك فى هذا الأمر . ان محامى دار القضاء .. هذا . لديه سؤالان من ريت : الأول هو : عنوانك . والثانى : هل تريدين الطلاق ؟ والآن يا سكارليت ، انا لا اعرف ما الذى تشهرينه فى وجه ريت لكى تحصلى على هذا القدر من النقود ، ولا اريد ان اعرف . وبصرف النظر عما قد يكون قد فعله لكى يتيح لك مبررا للطلاق منه فإن هذا ليس شانى ايضا . ذلك اننى لم الوث يدى ابدا بإجراءات طلاق . ولا انوى ان اشرع فى ذلك الآن . كما انك ، علاوة على ذلك ، سوف تبددين وقتك واموالك فى هذه الحالة ، ذلك انه لا يوجد طلاق فى كارولينا الجنوبية ، وهى مقر

الاقامة القانونية لـ « ريت » فى الوقت الحاضر .

« وإذا استمر تصميمك على هذه الحماقة ، فسوف أعطيك اسم محام فى اتلانتا يعتبر محترما رغم انه كسب قضيتى طلاق سمعت عنهما . ولكننى احذرك من انك عندئذ ستكونين مضطرة لتسليمه ، هو او اى شخص آخر ، كل شئونك القانونية ، لأنني لن اتولى اى أمر من امورك بعد الآن . وإذا كنت تفكرين فى الطلاق من ريت حتى تكونى حرة لتتزوجى آشلى ويلكس ، دعينى أقل انك سوف تحسنين صنعا إذا أعدت التفكير فى هذا الموضوع . ان آشلى ينجز عمله الآن على نحو افضل بكثير مما كان يتوقع منه اى شخص ، وتتولى مس أنديا وشقيقتى الغبية توفير منزل مريح له ولولده ، وإذا اقحمت نفسك فى حياته سوف تدمرين كل شىء ، اتركى الرجل المسكين وحده يا سكارليت »

أترك آشلى وحده ! حقا ! أعرف كم سيكون مرتاحا ومزدهرا إذا تركته وحده . والعم هنرى ـ من بين جميع الناس ـ كان ينبغى ان يكون أكثر حكمة من ان يثور ضدى مثل خادمة مثقلة بالتفاصيل التافهة ، ويقفز الى كل انواع الاستنتاجات الكريهة البغيضة التى تثير الغثيان . انه يعرف كل شىء عن بناء المنازل فى طرف المدينة . لقد جرحت مشاعر سكارليت بعمق ، فقد كان العم هنرى هاميلتون هو الأقرب لديها الى شخصية الأب ـ او الصديق فى اتلانتا ـ واتهاماته احدثت جرحا غائرا ، والقت نظرة على السطور القليلة الباقية بسرعة ثم كتبت ردا وأعطته لبانسى لترسله من مكتب التلغراف :

« عنوانى فى سافانا ليس سرا ، الطلاق غير مطلوب ، هل المال عملات ذهبية ؟»

ولو لم يكن العم هنرى قد تصرف مثل الدجاجة العجوز النائمة .. لكانت قد وثقت به لكى يشترى ذهبا ويضعه فى خزانتها فى البنك . ولكن شخصا لا يملك ما يكفى من الذكاء ما يدفعه الى أن يكتب عنوانها لريت .. قد لا يتوصل الى فهم أشياء اخرى ايضا . وشعرت بقلق على اموالها ، ربما يجب عليها أن تذهب الى اتلانتا لتتحدث الى هنرى ورجال مصرفها وجون كولتون ، وربما يجب ان تشترى المزيد من الأرض هناك عند أطراف المدينة وتبنى المزيد من المنازل . فالأشياء لن تكون ارخص مما هى عليه الآن بسبب آثار « الرعب » الذى مازال يسبب الركود الاقتصادى .

كلا ! يجب ان تضع أولوياتها فى المقدمة ، ريت يحاول أن يجدها ، انه لن يخدعنى بحديث الطلاق ، أو بتحويل النقود كما لو كانت صفقتنا

قد نفذت ، والشيء الوحيد المهم هو انه يريد ان يعرف اين انا ؟ ، ولن يبقى بعيدا لفترة طويلة بمجرد ان يبلغه العم هنرى بالعنوان .

● ● ●

وفوجئت الخالتان برفض سكارليت العودة معهما الى شارلستون . فقد اعتادتا العودة يوم السبت ، وقررت سكارليت البقاء فترة في سافانا بعد ان عرفت ان ريت يبحث عنها .. سوف تستقبله هنا في هذه الغرفة الوردية المذهبة الأنيقة وستجعله يتوسل اليها لكى تعود ، وبعد إذلاله بما فيه الكفاية ، ستوافق ، وعندئذ ياخذها بين ذراعيه ويقبلها ..

● ● ●

— سكارليت ، هل تتكرمين بالاجابة عندما اوجه اليك سؤالا ؟

— ماذا يا خالتى بولين ؟

— ماذا تنوين ان تفعلى بنفسك ؟ اين ستقيمين ؟

— لماذا ؟ هنا طبعا !

لم يطرا على بال سكارليت انها لن تكون موضع ترحيب طوال المدة التى ترغب في ان تبقى خلالها في منزل جدها .. فتقاليد الكرم كانت لا تزال مقدسة في الجنوب ، ولم يسمع احد عن ضيف طلب منه ان يرحل الى ان يقرر هو ، او هى ، انه حان وقت الرحيل . وقالت أولالى بحزن : « الأب لا يحب المفاجات » وردت سكارليت وهى تنهض من مكانها « ساذهب واسال الجد ، هل ترغبان في المجيء معى ؟»

الرعدة تسرى في اوصالهما .. ترعبهما فكرة زيارة الجد بدون دعوة صريحة ، لان مثل هذه الزيارة ستجعله مجنونا بالغضب ، وسوف تنطلق الحمم البركانية ! ما الشيء الحقيرالذى يمكن ان يفعله بهما ولم يكن قد فعله حتى الآن ؟ واتجهت سكارليت مسرعة نحو غرفة الجد تتبعها الخالتان وهما تتهامسان في قلق . دقت سكارليت باب العجوز ..

— Entrez (ادخل) يا جيروم .

— لست جيروم يا جدى ، انني سكارليت ، هل استطيع الدخول ؟

صوت قوى يرد : « ادخلى » ورفعت سكارليت راسها ، وابتسمت ظافرة لخالتيها قبل ان تفتح الباب ثم انكمشت جسارتها قليلا عندما تطلعت الى وجه العجوز الصارم الذى يشبه وجه الصقر . ولكنها لا تستطيع التوقف الآن . وتقدمت الى منتصف المسافة عبر السجاد السميك بثقة في النفس : « اردت ان اخبرك يا جدى انني سابقى لفترة بعد رحيل الخالتين اولالى وبولين »

— لماذا ؟!.

شعرت سكارليت بارتباك . لم تكن مستعدة لشرح اسبابها ، ولم تر سببا يجبرها على ان تفعل ، قالت : « لانني اريد ذلك »

وسأل العجوز مرة اخرى : لماذا ؟

عينا سكارليت الخضراوان المصممتان واجهتا عينيه المستريبتين الزرقاوين الذابلتين . قالت : « عندى اسبابى . هل تمانع »؟

— وماذا لو كان عندى مانع ؟

هذا فوق الاحتمال ، انها لا تستطيع العودة الى شارلستون ، ولن تفعل . فذلك يعنى الاستسلام . لابد ان تبقى فى سافانا .

— إذا لم تكن تريد بقائى هنا ، فسأذهب الى ابناء عمومتى ، لقد دعتنى عائلة اوهارا بالفعل ..

واهتز فم بيير روبيلار بحركة سريعة ، وابتسامة ممسوخة : « انت لا يهمك ان تنامى فى الردهة مع الخنزير ، اظن ذلك » واحمر خدا سكارليت خجلا . كان تعرف دائما ان جدها اعترض على زواج امها . ولم يقبل ابدا جيرالد اوهارا فى منزله . وارادت ان تدافع عن والدها وابناء عمومتها فى مواجهة تحيزه ضد الايرلنديين ، غير ان جدها اردف قائلا : « لا يهم . ابقى إذا اردت ، انه امر لا اكترث له على الاطلاق »

واغلق عينيه وامتنعت سكارليت بصعوبة عن ان تصفق الباب ، وهى تغادر الغرفة . يا له من عجوز بشع ! ومع ذلك فقد حصلت على ما تريد ، وابتسمت لخالتيها ، وقالت : « كل شىء على ما يرام »

ودّعت الخالتين فى محطة القطار . وعند عودتها الى منزل جدها تسلمت برقية جديدة من العم هنرى :

« لن تكون لى علاقة من اى نوع باستثمار او خلافه للمال الذى تم تحويله اليك بواسطة زوجك . انه فى حسابك فى مصرفك . لقد اعربت عن اشمئزازى . من الظروف التى احاطت بهذه الصفقة ، لا تنتظرى اى مساعدة منى »

غاصت سكارليت فى مقعدها عندما قرأت البرقية . الأحمق العجوز ! نصف مليون دولار ، ربما كان المبلغ اكبر من اى اموال تسلمها البنك منذ ما قبل الحرب . ما الذى يمنع مسئولى البنك من وضعه فى جيوبهم واغلاق البنك ؟ فالبنوك ما زالت تغلق ابوابها فى انحاء البلاد . انها يجب ان تذهب الى اتلانتا فى الحال وتحول النقود الى ذهب ، وتضيفها الى خزانتها ، ولكن ذلك يستغرق اياما ، وحتى إذا كان هناك قطار اليوم فإنها لن تصل

الى البنك قبل يومين ، وهذا وقت كاف لكى تختفى نقودها .. نصف مليون دولار .. مبلغ اكبر مما ستحصله لو باعت كل شىء تملكه مرتين . مبلغ اكبر من عائد متجرها وملهاها ومنازلها الجديدة فى ثلاثين سنة . ويجب أن تحمى هذا المبلغ . ولكن كيف ؟

اسرعت الى محل أوهارا لكى تقابل ابن عمها جامى ، وطلبت منه أن يقدم لها النصح بشأن افضل بنك تتعامل معه بعد ان قررت البقاء لفترة أطول فى سافانا وتريد تحويل بضعة دولارات من مصرفها فى مدينتها . واقترح جامى أن يصحبها الى رئيس بنك تعامل معه عمها جيمس على مدى خمسين سنة واكثر ، ولكنه نصحها بان تقول لرئيس البنك انها حفيدة روبيلار لأن ذلك سيفيدها اكثر مما لو قالت انها ابنة عم أوهارا ، ودعاها جامى لقضاء الأمسية فى منزل عمها ، ورحبت سكارليت بالفكرة ، فهى لا تجد احدا تتحدث معه فى منزل جدها ، وإذا حضر ريت قبل المساء فإنها يمكن أن ترسل بانسى حاملة اعتذارها الى منزل العم ..

كان جدها وقحا عندما أبلغته بانها ستخرج فى المساء :

— هذا ليس فندقا حيث تستطيعين الخروج والدخول كما تشائين يا سيدة . سوف تلتزمين بنظام بيتى ، وهذا يعنى ان تكونى فى فراشك فى الساعة التاسعة .

— طبعا يا جدى ..

فقد كانت متأكدة من انها ستعود قبل ذلك بوقت طويل ، وعلاوة على ذلك فإنها تنظر الى جدها باحترام متزايد منذ زيارتها لرئيس البنك ، فلابد أن جدها اغنى بكثير جدا مما تصورت ، وعندما قدمها جامى لرئيس البنك ، باعتبارها حفيدة بيير روبيلار ، كاد الرجل أن يمزق بنطلونه وهو ينحنى بالتحية .. وابتسمت سكارليت وهى تتذكر هذا المشهد ، وعندما تركها جامى .. وقالت لرئيس البنك انها تريد أن تستأجر خزانة ، وتحول نصف مليون دولار .. كاد الرجل يسقط مغشيا عليه عند قدميها .

لا ابالى بما يقوله اى شخص ، فإن امتلاك مال وفير هو أحسن شىء فى الحياة . وقالت لجامى عندما وصلت الى منزل العم بعد ان رافقها الى هناك من عند باب منزل جدها : « لن استطيع ان ابقى لوقت متاخر ، هل يضيرك أن تعيدنى فى الثامنة والنصف ؟»

— « سيكون لى شرف مصاحبتك الى أى مكان وفى اى وقت » ولم تكن سكارليت تتصور انها لن تعود قبل الفجر .

مطلب الجندى القديم

كان افراد عائلة اوهارا يتشاركون فى الحب والسعادة داخل الاسرة بحرية وبلا تدبير أو تخطيط .. تماما كما يتشاركون فى الهواء الذى يتنفسونه ، وشعرت سكارليت فى داخلها بنمو شىء فقدته منذ وقت طويل ، وكان يصعب تذكره . اصبحت مثلهم ـ تلقائية ـ وغير متكلفة ومنفتحة على الابتهاج الخالى من الهموم ، الآن يمكنها ان تتحرر من أساليب المكر والحسابات الحذرة ، وهى الاساليب التى تعلمت استخدامها فى معارك الغزو والسيطرة التى كانت جزءا من حياة نجمة المجتمع الجنوبى ، لم تكن فى حاجة الى الفتنة والجمال أو الاقتحام ، فهى موضع ترحيب كما هى باعتبارها فردا من العائلة ، ولأول مرة فى حياتها تشعر بانها راغبة فى أن تتخلى عن المركز الذى تسلط عليه الاضواء لتدع شخصا آخر يكون هو محور الاهتمام .. الآخرون كانوا ساحرين بالنسبة لها ، لانهم كانوا ـ فى المحل الأول ـ أسرتها التى عثرت عليها اخيرا ، ولانها أيضا لم تعرف امثالهم فى حياتها .

ها هى سكارليت تتطلع الى مورين زوجة جامى .. بينما برايان ودانيل يعزفان الموسيقى وراءها ، وهيلين ومارى كيت تصفقان مع الايقاع انها لحظات من السعادة وسط الموسيقى والغناء والرقص والتصفيق ، وثمة طفلة فى السابعة من عمرها تعطى لسكارليت الدروس الأولى فى رقصة الريل ـ رقصة اسكتلندية ـ .

اوقات المرح قليلة فى حياة سكارليت ، وقد أرادت أن تدوم الى الأبد .. هذا المرح النظيف غير المفتعل . ونظرت الى أبناء عمومتها وشعرت بالزهو . انهم مفعمون بالقوة والنشاط والموهبة فى الموسيقى وفى الحياة .. كلمات والدها الراحل تتردد فى اسماعها الآن :

« نحن نوع ممتاز .. نحن عائلة اوهارا . لا شىء يمكن أن يمسنا » قالت وهى تسير عائدة الى المنزل : « جامى ، كانت ليلة مدهشة »

● ● ●

ايقظتها بانسى من النوم فى السابعة صباحا :

ــ « جدك يريدك الآن فورا » الجندى القديم .. يرتدى ملابسه الرسمية .. فرغ لتوه من حلاقة ذقنه . ونظر بضيق الى شعر سكارليت الذى سوته على عجل وثوبها ، واعلن من موقعه الامبراطورى فى المقعد الضخم ذى المسندين على راس مائدة غرفة الطعام .. قائلا : « ان طعام افطارى غير مرض » وذهلت سكارليت ، ما علاقتها بطعام افطاره ؟ هل

يظن انها هى التى تولت طهيه ؟ ربما فقد عقله كما حدث لأبى . لا ليس مثل ابى . فقد تحمل ابى اكثر مما يطيق .. فانسحب الى زمن وعالم لم تحدث فيه تلك الاشياء المروعة واصبح مثل طفل مشوش . ولكن الامر يختلف مع جدى .. انه يعرف تماما اين هو ومن هو .. وما يفعله .. ماذا يقصد بإيقاظى من نوم لم يدم سوى ساعتين ليشكو لى من افطاره ؟ وحرصت على ان يكون صوتها هادئا عندما تكلمت : « ما هو السيىء فى افطارك يا جدى ؟»

— انه بلا طعم وبارد .

— لماذا لا تعيده الى المطبخ إذن ؟ قل لهم ان يحضروا ما تريده وتاكد من انه ساخن »

— انت تفعلين ذلك ، انه عمل النساء .

ووضعت سكارليت ذراعيها فى وسطها ، ونظرت الى عينى جدها بعينين فولاذيتين مثل عينيه : « هل تعنى انك ايقظتنى من النوم لكى ابعث برسالة لك الى طباخك ؟ ماذا تظنني ؟ خادمة ؟ اطلب افطارك أو تعذب من الجوع . يستوى الأمر بالنسبة لى ، ساعود الى الفراش ! » واستدارت سكارليت وهى تنتفض .

— هذا الفراش من ممتلكاتى ايتها السيدة الشابة وانت تشغلينه بفضل نعمتى ومعروفى .. واتوقع منك اطاعة اوامرى ما دمت توجدين تحت سقف بيتى .

انها فى ذروة الغضب الآن . وضاع كل امل فى النوم . وفكرت فى ان تحزم حقائبها فى نفس اللحظة ، فهى لا تتحمل اكثر من ذلك ، ولكن رائحة القهوة الطازجة جعلتها تتوقف عن الكلام ، سوف تشرب القهوة أولا ثم تبلغ العجوز بانها راحلة .. والافضل ان تفكر لمدة دقيقة . انها ليست مستعدة لمغادرة سافانا بعد . لابد ان ريت عرف الآن انها هنا ، ثم انها يجب ان تتلقى رسالة بشأن « تارا » من رئيسة الدير فى اى لحظة . واتجهت نحو الجرس على مقربة من الباب ثم جلست على مقعد على يمين جدها . وعندما جاء جيروم تلبية لطلبها ، حدقت فى وجهه وقالت :

— أريد فنجانا من القهوة ثم خذ هذا الطبق بعيدا ، ما هذا يا جدى ؟ عصيدة دقيق الذرة ؟ بصرف النظر عن هذا الشىء يا جيروم .. ابلغ الطاهية بان تاكله هى نفسها وبعد ذلك عليها ان تعد بيضا مقليا يمتزج صفاره ببياضه وفخذ خنزير ولحم خنزير مقددا وبرغلا وبسكويتا وكمية كبيرة من الزبد . وانا ساخذ كمية من اللبن الدسم لقهوتى الآن فورا .

وتطلع جيروم الى العجوز المرفوع الهامة بصمت ليحثه على أن يضع سكارليت فى مكانها ، ولكن بيير روبيلار وجه نظره الى الامام مباشرة ، فلم تلتق عيناه بنظرات رئيس الخدم .

وبسرعة وبحدة ، قالت لجيروم « لا تقف هنا مثل التمثال . افعل كما قيل لك » كانت جائعة ، وكذلك جدها . ورغم ان الوجبة كانت صامتة ، كما كانت مادبة عيد ميلاده ، فإنه أكل هذه المرة كل ما أحضروه له ، وراقبته سكارليت من زاوية عينها والشك يعتمل فى صدرها ، ماذا يريد هذا الثعلب العجوز ؟ لم تصدق انها مجرد تمثيلية بريئة ، وقد دلتها التجربة على ان الحصول من الخدم على ما تريد هو أسهل شىء فى العالم . كل ما عليها ان تفعله هو أن تصيح فى وجوههم . والله يعلم ان الجد بارع فى ترويع الناس ، والدليل على ذلك : الخالتان بولين واولالى ..

وأنا مثلا ، لقد نهضت من فراشى فورا عندما أرسل فى طلبى ، ولكننى لن افعل ذلك مرة أخرى . والقى العجوز منديل المائدة إلى جانب طبقه الفارغ ، وقال لسكارليت :

— اتوقع منك ان ترتدى الثياب الملائمة لوجبات الطعام فى المستقبل ، سوف نغادر المنزل بعد ساعة وسبع دقائق للذهاب الى الكنيسة ، وهذا سيوفر لك الوقت الكافى للاستعداد .

لم تكن سكارليت تنوى الذهاب الى الكنيسة على الاطلاق بعد ان رحلت خالتاها ، كما انها حصلت على ما تريد من رئيسة الدير . ثم ان تسلط الجد يجب أن يوضع له حد ، انه مناهض للكاثوليكية بعنف كما قالت لها الخالتان . قالت والعذوبة تقطر من كلماتها : « لم أكن اعرف يا جدى انك تذهب الى القداس »

والتقى حاجبا بيير روبيلار البيضاويان الكثيفان فى تكشيرة بارزة :

— انت لا تشاركين فى هذه البلاهة البابوية مثل خالتيك كما آمل .

— انني كاثوليكية جيدة إذا كان هذا ما تقصده ، وسأذهب الى القداس مع ابناء عمى .. عائلة أوهارا الذين ، بالمناسبة ، دعونى للذهاب والبقاء معهم فى اى وقت أريد .. والمدة التى اختارها .

ونهضت من مقعدها واتجهت مزهوة الى غرفتها . ولم تتوصل الى استنتاج حول ما يريده الرجل الذى رافق نابليون من معركة أوسترلتز حتى معركة واترلو .

من عامة الناس

بينما كان بيير روبيلار ينتظر في فراشه صينية الطعام التي يحملها اليه جيروم .. اتجه تفكيره الى سكارليت . لا يوجد لديه فضول بشأن حياتها أو طبيعتها ولم يفكر فيها لسنوات عديدة ، وعندما ظهرت في غرفته مع ابنتيه ، لم يشعر بسرور كما لم يشعر بضيق لرؤيتها . وبدأت تثير اهتمامه فقط عندما شكا اليه جيروم من الاضطراب الذي تحدثه في المطبخ بمطالبها ، وانها قد تكون سببا في وفاة مسيو روبيلار إذا ظلت على اصرارها على اضافة الزبد وصلصة حساء اللحم والحلوى الى وجباته .

لقد تمت الاستجابة لصلوات العجوز . لا شيء في حياته سوى المزيد من الشهور والسنوات من الروتين الذي لا يتغير . النوم ووجبات الطعام والرحلة الأسبوعية إلى الكنيسة . ولم يزعجه ان حياته راكدة بلا ملامح وبلا قسمات .. شبيهة زوجته المحبوبة امام عينيه وهناك اليقين بأنه في الوقت المناسب سيلتقي معها بعد الموت . لقد أمضى الأيام والليالي يحلم بها وهو نائم ويستعيد ذكرياته معها وهو يقظ . وكان هذا يكفيه . وقد افتقد الطعام الشهي . وفي السنوات الأخيرة اصبح هذا الطعام بلا مذاق وباردا وبلا اي تغيير ، والآن يريد أن تغير سكارليت هذا الوضع . وشكوكها في دوافع العجوز لم يكن لها مبرر . فقد تعرف بيير روبيلار على روح التحفز والمواجهة والتسلط لديها فور رؤيتها .. وأراد توظيف هذه الروح بالنيابة عنه ، الآن حيث لم تعد لديه القوة لكي يحصل على ما يريد لنفسه . فقد كان الخدم يعرفون انه عجوز ومرهق بالدرجة التي تحول دون السيطرة عليهم .. اما سكارليت فإنها شابة وقوية .. انه لا يطلب صداقتها أو حبها ، وانما يريد منها أن تدير منزله بالطريقة التي كان يديره بها ، هو نفسه ، يوما .. طبقا لمعاييره .

كان يبحث عن طريقة لتنفيذ ذلك ، ومن هنا فكر في سكارليت . قال روبيلار لجيروم عندما حضر الى غرفته : « قل لحفيدتي أن تاتي هنا » وقال رئيس الخدم للعجوز وهو يبتسم : « انها لم تعد الى البيت بعد » وجيروم يتوقع الآن أن يثور غضب العجوز .. الأمر الذي أشاع السرور في قلبه ، فهو يكره سكارليت .

كانت سكارليت قد ذهبت الى سوق المدينة مع أقاربها من عائلة أوهارا واشترت برتقالا ، وكانت تتمنى لو كانت بانسي مرافقة لها .. حتى تشتري من أنواع الفاكهة الأخرى اللذيذة .. ولم تكد تصل الى باب منزل جدها حتى سمعت صوتا

— « سأحمل هذه السلة بدلا منك يا مس سكارليت » كان هذا هو جيروم .

— حسنا ، ها هى ، جيروم لقد أفزعتنى ، ولم أسمع الباب يفتح .

— كنت اتطلع الى الخارج فى انتظارك لأن مستر روبيلار يريدك .

جيروم ينتظر الصدام المرتقب بلهفة وشوق لم يستطع اخفاءهما . وتصلب وجه سكارليت ، لابد من ايجاد وسيلة للتصرف مع هذا الرجل الوقح .. جيروم ، واتجهت الى غرفة جدها ، وثمة شكوى غاضبة على شفتيها ، ولكن بيير روبيلار لم يدع لها فرصة للكلام ، فقد بادرها قائلا بجفاء :

— انت غير منظمة ، وانت افسدت جدول مواعيد منزلى ، بينما كنت تتلهين مع أولئك الفلاحين الايرلنديين .. مضت ساعة الغداء .

وبسهولة التقطت سكارليت « الطعم » الذى ألقاه إليها .

— ساشكرك لو تحدثت بلغة متحضرة عندما تشير الى أبناء عمى .

وأخفت جفون العجوز ومضة فى عينيه . وقال بهدوء : « ماذا تسمين رجلا يشتغل بالتجارة ؟»

— إذا كنت تتحدث عن جامى أوهارا ، فإننى أسميه رجل أعمال ناجحا مجدا ، وانا احترمه بسبب ما حققه وانجزه .

ووضع الجد خطّاف صنارة الصيد : « لا شك انك معجبة بزوجته المبهرجة ذات الملابس صارخة الألوان ايضا »

— حقا أنا معجبة بها ، فهى امراة طيبة وكريمة .

— أنا أعتقد ان هذا هو الانطباع الذى تحاول أن تتركه .. هل أنت على علم أم لا بانها كانت تخدم فى حانة ايرلندية ؟

وتسارعت أنفاس سكارليت مثل سمكة ألقى بها على الأرض ، لا يمكن أن يكون ذلك صحيحا ! صور غير مستحبة توالت على عقلها : مورين وهى ترفع كاسها لتطلب المزيد من الويسكى .. والعزف على آلات موسيقية مستحدثة والغناء بشهوة وترديد الأغنيات ذات الكلمات الفاسقة .. تسريحة شعرها الأشعث ، وازاحته بعيدا عن وجهها الأحمر دون محاولة تثبيته بدبوس الى الوراء .. رفع ثوبها الى أعلى حتى ركبتيها وهى ترقص « الريل »..

مبتذلة .. مورين مبتذلة .. جميعهم من السوقة غير المهذبين .. من عامة الناس . شعرت سكارليت بانها توشك على البكاء . لقد كانت سعيدة للغاية مع عائلة أوهارا ، ولم ترد أن تفقدها ، ولكن .. هنا فى المنزل حيث نشأت والدتها .. الفجوة بين روبيلار وأوهارا أوسع بكثير لدرجة لا يمكن

التغاضى عنها ، لا غرابة فى أن يكون الجد قد شعر بالخجل منى ، لو كانت أمى على قيد الحياة لتحطم قلبها وهى ترانى امشى فى الشارع مع مجموعة مثل تلك التى وصلت معها الى باب المنزل للتو . امراة تسير فى الطريق العام دون أن تضع وشاحا فوق بطنها وهى حامل ، ومليون طفل يتقافزون حولهم مثل الهنود المتوحشين ، ولا توجد حتى خادمة تحمل بضاعة السوق ، لابد ان منظرى كان اشبه بمنظر الرعاع والنفايات مثل بقيتهم ، وقد بذلت امى كل جهودها لكى تعلمنى ان أكون سيدة ، وستسعد لأنها ماتت قبل أن تعرف أن لابنتها صديقة كانت تعمل فى حانة .

ونظرت سكارليت فى قلق إلى العجوز ، هل يعرف شيئا عن المبنى الذى تمتلكه فى اتلانتا والذى تم تاجيره الى صاحب ملهى ؟ كانت عينا بيير روبيلار مطبقتين ، وبدا انه انزلق الى النوم المفاجىء الملازم للشيخوخة . وسارت سكارليت على اطراف اصابعها ، وعندما اغلقت الباب وراءها ، ابتسم الجندى العجوز ، ثم غرق فى النوم ..

● ● ●

انتظرت فى المساء فى غرفة الجلوس ظهور ريت .. ولم يظهر ، فصبت كل غضبها على الخدم ، وخاصة جيروم ، وفى صباح اليوم التالى حمل اليها جيروم رسالتين من البريد .

العم هنرى هاميلتون غاضب لانها قامت بتحويل النقود الى بنك سافانا ، اما الخطاب « السميك » فقد كان من الخالة بولين :

« .. اشعر بخزى شديد من سلوكك المشين ، ولو عرفنا انك ذاهبة معنا الى سافانا دون ان تتركى كلمة واحدة عن سفرك لاليانور باتلر لكنا قد صممنا على ان تتركى القطار وتعودى من حيث جئت .. »

ما هذا الذى تقوله الخالة بولين ؟ هل من المعقول أن تكون مس اليانور قد اغفلت ذكر الرسالة التى تركتها لها ؟ او انها لم تتسلمها ؟ كلا ، ليس هذا ممكنا .. الخالة بولين تثير المتاعب فحسب .

الا توجد فى خطاب الخالة اية اشارة الى ريت .. ها هى الاشارة قد جاءت اخيرا :

« .. العزيزة اليانور محقة فى قلقها لأن ريت شعر بضرورة السفر الى بوسطن من اجل لقاء بشان شحناته من الاسمدة . ما كان ينبغى أن يذهب الى مناخ الشمال البارد فور المحنة التى تعرض لها حيث بقى لفترة طويلة فى الماء البارد عقب انقلاب زورقه .. »

إذن ، هذا هو السبب فى أن ريت لم يحضر للبحث عنها حتى الآن ، لماذا

لم يبلغنى العم هنرى بأن برقية ريت وصلت من بوسطن حتى لا يقتلنى الجنون وانا انتظر رؤيته على باب المنزل فى اى دقيقة ؟ ولم يذكر الخطاب شيئا عن موعد عودته من بوسطن .

والآن ماذا افعل ؟ قد يمكث ريت هناك لاسابيع وقد يكون فى طريق العودة الآن .

وخرجت سكارليت الى السوق للبحث عن طعام مناسب لجدها وهناك التقت مع كاثلين اوهارا التى قالت لها : « لابد ان الملائكة قد ارسلتك لى يا سكارليت . لست خبيرة بانواع السمك الأمريكية ، هل تساعديننى على اختيار احسنها » وتمت عمليات الشراء ، وقالت كاثلين : « كنت ساضيع بدونك بكل تاكيد يا سكارليت ، فقد اوصتنى مورين بان اشترى الأحسن ، لاننا ننتظر كولام »

كولام ، هل المفترض اننى اعرفه ؟ اعتقد ان مورين او شخصا ما ذكر هذا الاسم ذات مرة ايضا .

— لماذا كولام بهذه الأهمية ؟

واتسعت عينا كاثلين الزرقاوان فى دهشة من مجرد سماع السؤال .

— لماذا ؟ حسنا ، لأن كولام هو كولام ، هذا كل شىء .. لقد اتى بى الى هنا ، الا تعرفين ؟ انه اخى مثل ستيفن .

لم تكن تعرف ان ستيفن هو شقيق كاثلين .

وسالت سكارليت : « اى واحد من اشقاء العم جيمس هو والدك ؟»

— ابى متوفى

— ماذا كان اسمه يا كاثلين ؟

— باتريك .. باتريك اوهارا .. وقد سميت باتريشيا ، وهى اول من انجب جامى سميث على اسمه ، وباتريك هو اسم والد جامى نفسه .

إذن فإن جامى هو شقيق كاثلين ايضا . واتضح ان لكاثلين اربعة عشر شقيقا وشقيقة .. جميعهم احياء ..

استطيع ان اسمع جدى الآن يتحدث عن الكاثوليك الذين ينجبون كالارانب .

وعندما عادت سكارليت الى المنزل ، وجدت مذكرة من رئيسة دير شارلستون تقول فيها ان الاسقف سيبحث طلب سكارليت الخاص بالسماح لها بشراء نصيب كارين فى مزرعة تارا .

تارا .. ساحصل عليها ! وبدات تخطط فى خيالها الولادة الجديدة لتارا وتحلم بوقت تقضى فيه الفترة من اكتوبر الى يونيو فى شارلستون مع ريت .. والصيف فى تارا .. آه لو اسرع الأسقف باتخاذ القرار !

صــــراع .. واســـتغاثة

تلقت سكارليت دعوة للاحتفال لتخصيص قاعة هودجسون لتكون « المقر الجديد للجمعية التاريخية لجورجيا » وصحبها بيير روبيلار في هذا الحفل . كانت شخصيتة مهيبة في زيه ذى الطراز القديم ، وقد ارتدت ثوبا من اجمل ثيابها .. وسمعت أصوات الاعجاب من الجمهور وهي تدخل الحفل .. ووقف طابور من الضباط المسنين أعضاء الجمعية التاريخية للترحيب بالضيوف المسنين واحدا .. واحدا ، وقالت سكارليت لنفسها : « لا أستطيع ! لا استطيع ان أصافح كل هذه الأيدى الميتة الباردة وابتسم واقول : انا سعيدة لكوني هنا » يجب ان اهرب . ومالت على كتف جدها المتصلب لتقول : لست في حالة طيبة يا جدى ، أشعر بأني مريضة فجاة ».

قال : ليس مسموحا لك بأن تشعرى بأنك مريضة ، قفى منتصبة ، وافعلى ما هو منتظر منك ، وتستطيعين المغادرة بعد الحفل ، وليس قبل ذلك .

وخطت سكارليت الى الأمام . يا له من وحش .. جدها هذا .. لا معنى للاستغراب إذن ، لانها لم تسمع والدتها تتحدث عنه كثيرا ، فلا شيء طيب يمكن أن يقال عنه .

— مساء الخير يا مستر هودجسون ، انني سعيدة لكوني هنا .

كان تقدم بيير روبيلار على طول طابور الاستقبال الطويل اكثر بطئا من سكارليت ، فهو لم يزل ينحني بطريقة متكبرة حتى منتصف الطريق فوق يد سيدة .. عندما انهت سكارليت مهمتها ، واندفعت الى الخارج ، واستقلت عربة روبيلار وتوجهت الى عائلة أوهارا .

وسمعت أصوات الموسيقى والضحك قبل ان تدخل من باب المطبخ . وقدمتها العائلة لشخصية جديدة هذه المرة : « كولام ».. « احسن فرد في عائلة أوهارا .. ما عدا سكارليت »

كانت كلمات وتصرفات كولام توحى بأن لقاءه مع سكارليت من أسعد احداث حياته ، وقال ان عائلة اوهارا هي أحسن العائلات حظا على وجه الأرض لأن مخلوقا مثل سكارليت بين أفرادها ..

وغادرت المكان حتى تعود الى المنزل قبل عودة جدها .

ثمة صراع الآن بين غرائز سكارليت وبين الطريقة التى تربت عليها ، لقد زرعت أمها الين روبيلار فيها قواعد وعقائد الأرستقراطية ، أما عائلة أوهارا فقد اجتذبتها مثل حجر المغناطيس ، حيويتهم الدنيوية وسعادتهم

المفعمة بالحيوية تخاطب اعمق واحسن جزء في طبيعتها ، بيد ان كل شيء تعلمته من والدتها التى تقدسها يحول بينها وبين التمتع بهذه الحرية ، انها ممزقة بهذه المعضلة .. انها تهيم على وجهها في ضجر وهي تجوس الغرف الصامتة بمنزل جدها دون أن تتوقف وتتامل جمالها الكالح ، وتسترجع الموسيقى والرقص في منزل عائلة أوهارا متمنية من كل قلبها أن تكون معهم ، ثم تفكر كما تعلمت وتربت في أن مثل هذا « المهرجان » والقصف المسترسل في مرح صاخب هو شيء مبتذل وأسلوب الطبقة الادنى ..

وسكارليت لا تعلق اهمية حقيقية الآن على موقف جدها المتعالى تجاه ابناء عمومتها ، فهو عجوز انانى متغطرس يتعالى على اى شخص بمن في ذلك ابنتاه ، غير ان ما انغرس في ذهنها من تعاليم والدتها الرقيقة ترك اثره في حياتها ، لماذا ، إذن ، يصعب عليها أن تكف عن ان تحسد اقاربها الايرلنديين ؟ وقررت سكارليت أن تكف عن التفكير في هذه الأمور ، وأن تحصر اهتمامها في موضوع تارا .

وجاءت مذكرة من سكرتير الأسقف جعلت موضوع تارا ينفجر في وجهها ، قالت المذكرة انه لن يستجيب لطلبها ، وشل تفكيرها في الحال . وتوجهت وحدها بلا قبعة ودون أن تلتفت الى شيء صوب منزل جامى أوهارا ، سوف يفهمون شعورها ويقدرونه .

كان والدها يؤكد ذلك مرة بعد أخرى « بالنسبة لأى احد توجد لديه قطرة من الدماء الايرلندية .. فإن الأرض التى يعيشون عليها مثل امهم .. انها الشيء الوحيد الذى يدوم ، انها التى تستحق العمل من أجلها ، والقتال من اجلها »

ووجدت أمامها جيرالد أوهارا وكولام أوهارا .. ولأول مرة تلاحظ الياقة الرومانية حول رقبة كولام ، انه قسيس ! شكرا لله فانت تستطيع أن تبوح للقسيس بكل شيء بما في ذلك أعمق أسرار قلبك . صاحت وكأنها تستغيث : « ساعدنى يا أبى ، أحتاج الى شخص يساعدنى »

خطـــة عائليـــة

فى غرفة طعام منزل جامى اوهارا ، جلس جميع الكبار من منازل اوهارا الثلاثة المتجاورة حول المائدة لمناقشة موضوع تارا ، هل يمكن أن يساعدها هؤلاء الناس ؟ انهم مجرد مهاجرين ايرلنديين .

ولكنها ادركت فى الحال انها مخطئة ، فمع استمرار النقاش ، ازداد الأمل لدى سكارليت .. فهناك الكثير الذى يستطيع هؤلاء المهاجرون الايرلنديون ان يصنعوه .

بيلى كارمودى زوج باتريشيا رئيس كل عمال البناء فى الكاتدرائية وهو يعرف الأسقف معرفة جيدة ، وهذا الاسقف يقطع العمل مع الاسف ثلاث مرات يوميا لكي يقول لبيلى كارمودى .. ان هذا العمل لا يمضى بالسرعة الكافية ويحث على الاستعجال لان الاسقف يتوقع ان يقوم كاردينال من روما ذاتها بجولة فى امريكا فى الخريف ، وقد يزور سافانا لافتتاح هذه الكاتدرائية ، فإذا تم التجاوب مع رغبة الأسقف فى تنفيذ جدول المواعيد ... خاصة وان الأسقف جيروس (وهذا هو اسمه) رجل طموح .

والتقت نظرات بيلى كارمودى وجيرالد وماتيو وبرايان ودانيل وجيمس العجوز والسيدات مورين وباتريشيا وكاتى . ولم تدرك سكارليت مغزى هذه النظرات . وهنا وضع جيرالد يد عروسه الشابة فى يده ، وقال : « لا تكونى خجولة يا بولى ، انك من عائلة اوهارا الآن ، مثلنا جميعا ، اخبرينا من الذى يقع اختيارك عليه من بيننا لكى يتحدث مع والدك » وغمغمت مورين قائلة لسكارليت : « ان توم ماكماهون هو مقاول العملية كلها ، واى تلميح من توم بان العمل يمكن ان يبطىء سوف يدفع الأسقف جروس إلى ان يعد باى شىء . ولا شك فى ان الأسقف يرتعد خوفا من ماكماهون »

واقترحت سكارليت ان يتولى كولام مهمة التحدث الى توم ماكماهون ، كانت واثقة من ان كولام هو خير من يقوم باى شىء يحتاج الى جهد ، فرغم صغر حجمه وابتسامته الآسرة ، فإنه قوى ومؤثر .

ووافق الجميع .. وابتسم كولام للجميع ، ثم اختص سكارليت بابتسامة وقال : « سوف نساعدك إذن . اليس شيئا عظيما ان تكون للمرء عائلة يا سكارليت اوهارا ؟ خاصة اسرة لها اصهار وتربطها علاقات نسب باشخاص يستطيعون تقديم المساعدة ايضا ، سوف تحصلين على تارا .. انتظرى وسوف ترين »

● ● ●

سالها بيير روبيلار : « اين كنت ؟ لقد كان عشائي غير مرض »
— كنت في منزل ابن عمي جامي ، سوف أطلب لك صينية اخرى .
— هل كنت تقابلين هؤلاء الناس ؟
كان العجوز يرتعد من الغضب . ولم تتمالك سكارليت نفسها ايضا :
« نعم ، كنت اقابلهم ، وأنوى ان اراهم ثانية ، انني احبهم كثيرا »
وخرجت من الغرفة ، ولكنها أشرفت على اعداد وجبة العشاء الطازج لجدها قبل ان تذهب للنوم .
طوال حياتها ، كانت تواجه الازمات وحدها . وفي بعض الاحيان كانت ترفض الاعتراف بحاجتها للمساعدة ، والاغلب انه لم يكن هناك من تلجأ اليه طلبا للمساعدة . الامر يختلف الآن . هناك اشخاص يساعدونها ، وقد رفعت اسرتها طواعية العبء من على كتفيها ، لم تعد وحيدة .

● ● ●

نام بيير روبيلار فترة قليلة تلك الليلة ، فقد ازعجه تحدى سكارليت له ، كما تحدته والدتها قبل سنوات عديدة سابقة ، وقد فقدها الى الأبد .. وانكسر قلبه عندئذ ، فقد كانت ايلين هي طفلته المفضلة ، وهو لم يحب سكارليت ، كل ما يملكه من حب يرقد في القبر مع زوجته الراحلة . ولكنه لن يدع سكارليت تذهب بدون قتال . انه يريد ان تكون أيامه الأخيرة مريحة .. ووضع استراتيجية كما لو كان جنرالا يواجه عددا اكبر من الأعداء . وعندما استيقظ كان قد اتخذ قراره .

● ● ●

فتحت سكارليت الباب : « هل أرسلت في طلبي يا جدى »؟
— تعالى يا سكارليت ..
ودهشت عندما وجدت شخصا غريبا في الغرفة ، ذلك ان جدها لم يكن يستقبل ضيوفا على الاطلاق .
— هذا هو محاميّ مستر جونز . دقي الجرس لكي ياتي جيروم يا سكارليت ، سوف يصحبك الى غرفة الجلوس يا جونز لتنتظر هناك الى ان ارسل في طلبك .
ولم تكد سكارليت تلمس الجرس حتى فتح جيروم الباب .
قال روبيلار : « اجذبي هذا المقعد ليكون اقرب الى فراشي . عندي الكثير لاقوله لك ولا اريد ارهاق صوتي »
وعندما جلست ، قال في هدوء : سكارليت ، انني تقريبا في الرابعة والتسعين . وفي صحة جيدة بالنسبة لسني ، ولكن ليس من المرجح — وفقا

لعلم الحساب - ان أعيش طويلا اننى أطلب منك يا حفيدتى أن تبقى معى فى المدة التى تبقت لى من عمرى »

شرعت سكارليت فى الكلام ، ولكن العجوز رفع يده المعروقة لمنعها ، وقال : اننى لم انه حديثى ، اننى لا اخاطب احساسك بالواجب العائلى رغم اننى أعرف انك تصرفت بروح المسئولية تجاه احتياجات خالتيك لسنوات عديدة ، اننى مستعد لتقديم عرض منصف بالنسبة لك ، بل سخى ، إذا بقيت فى هذا المنزل كسيدة له واشرفت على مراعاة راحتى وتلبية رغباتى ، فسوف ترثين كل ممتلكاتى عندما اموت ، وهى ليست قليلة .

وذهلت سكارليت ، انه يعرض عليها ثروة . وتذكرت تذلل وخنوع مدير البنك .

وأساء بيير روبيلار تفسير تردد سكارليت بينما كانت تفكر . ظن ان شعورها بالامتنان قد سيطر عليها . ومعلوماته عنها لم تكن تشمل تقريرا من نفس رئيس البنك حول الذهب الذى تمتلكه حفيدته فى أقبية البنك . ولمع الرضا فى عينيه الذابلتين . وقال : « لا اعرف ولا اريد أن أعرف الظروف التى أدت الى بحث فسخ زواجك »

صوته اقوى الآن حتى انه ظن انه فى موقع المنتصر « ولكنك سوف تتخلين عن أى فكرة تتعلق بطلاقك »

— كنت تقرأ رسائلى البريدية !!

— أى شىء يحدث تحت هذا السقف يصبح من شئونى

واصل جدها الحديث برقة وبرود . وكانت كلماته مثل الابر الثلجية :

— اننى أزدرى الطيش والغباء ، وأنت كنت متهورة بغباء بتركك لزوجك دون تفكير فى وضعك ، ولو كان لديك من الذكاء ما يجعلك تتشاورين مع محام كما فعلت ، لكنت قد عرفت ان قانون كارولينا الجنوبية لا يسمح بالطلاق لأى سبب انه قانون فريد فى الولايات المتحدة فيما يتعلق بهذا الخصوص . لقد هربت الى جورجيا ، هذا صحيح ، ولكن مقر الاقامة القانونية لزوجك فى كارولينا الجنوبية . ولذلك لا يمكن أن يحدث طلاق .

كانت سكارليت لا تزال تفكر فى الاهانة التى تعرضت لها من جراء اطلاع غرباء على رسائلها الخاصة ، لابد انه ذلك الحقير المتسلل جيروم . لقد وضع يديه على أشيائى ، وفتش مكتبى . والرجل الذى ينتمى الى

دمي ولحمي .. جدى .. هو الذى عهد اليه بهذه المهمة . ووقفت ، ومالت الى الأمام وضغطت قبضتاها على السرير قرب يد بيير روبيلار ، وصرخت فى وجهه وهى تضرب على أغطية الفراش السميكة .

— كيف تجسر على أن ترسل ذلك الرجل الى غرفتى ؟

اندفعت يد جدها الى أعلى بسرعة كما لو كان ثعبانا يتهيأ للانقضاض ، وأمسك بمعصميها فى القبضة العظمية لأصابعه الطويلة :

— لن ترفعى صوتك فى هذا البيت أيتها المرأة الشابة ، اننى أكره الضوضاء . وعليك أن تضبطى سلوكك وفقا للذوق واللياقة كما ينبغى أن تكون حفيدتى . لست واحدا من أقاربك الايرلنديين من سكان الأكواخ .

وصدمت سكارليت من قوته ، وأصابها بعض الخوف . ما الذى اصبح عليه هذا العجوز الهزيل الذى كانت تشعر بالأسف من أجله .. كانت اصابعه مثل الكلابات الحديدية . انتزعت يديها من قبضته وهى تقول .

— « ليس غريبا أن تترك أمى هذا المنزل ولا تعود اليه أبدا »

— كفى عن أن تكونى فتاة تغالى فى تصوير الأمور بطريقة مأساوية ، ان ذلك يرهقنى . ان والدتك غادرت هذا المنزل لانها كانت عنيدة واصغر سنا من ان تستمع الى صوت العقل .. لقد خاب املها فى الحب ، وأخذت أول رجل طلبها ، وقد عاشت لتندم على ذلك ولكن ما حدث قد حدث . وأنت لست فتاة كما كانت هى ، انك كبيرة بالدرجة التى تكفى لاستعمال راسك . لقد تمت كتابة العقد ، استدعى جونز الى هنا ، سوف نوقعه ونبدأ كما لو كان ضجيجك غير اللائق لم يحدث أبدا .

ادارت سكارليت ظهرها له . لن أصدقه ، لن أستمع الى هذا النوع من الحديث . رفعت المقعد وأعادته الى مكانه المعتاد . وبحرص شديد وضعته على نفس العلامات التى تركها وجوده على السجاد فى ذلك المكان لسنوات ، لم تعد تشعر بخوف منه أو اسف من اجله أو حتى غضب منه . وعندما استدارت لتواجهه مرة اخرى ، بدت وكانها لم تره من قبل على الاطلاق .. انه غريب ، وطاغية وحقير وعجوز يبعث على السأم .. لم تعرفه ، ولا تحرص على أن تعرفه .

قالت وكانها تحدث نفسها ولا تحدثه : لم يتم حتى الآن سك العملة التى تكفى للاحتفاظ بى هنا ، والمال لا يجعل الحياة محتملة فى قبر .

ونظرت الى بيير روبيلار بعينين خضراوين يتوهج منهما اللهب .. وجهه شاحب يحيط به قناع الموت ..

— انت تنتمى الى هنا ، انت ميت بالفعل ولكنك لا تعترف بذلك ، سأغادر المنزل فى الصباح .

واتجهت بسرعة نحو الباب ، وفتحته · « توقعت ان تكون هنا لكى تتصنت على الحديث يا جيروم ، ادخل » .



ارسلت سكارليت بخادمتها بانسى ، إلى اتلانتنا . وضعتها في القطار المتجه إلى هناك بينما كانت بانسى تبكي .. وتسال « متى ستاتين إلى البيت » ؟

كل شيء يتوقف على ريت . هكذا كانت سكارليت تحدث نفسها . والافضل ان ياتى ريت سريعا . لا اعرف إذا كنت ساوفق في المعيشة مع ابناء عمّى أم لا . والتفتت إلى مورين التى رافقتها إلى محطة القطار وقالت : « لا اعرف كيف اشكرك على استضافتى .. سوف اسبب لك الكثير من المتاعب » .

قالت مورين زوجة جامي : « كل شيء على احسن حال يا سكارليت ، لقد سر دانيل لانه يعطيك غرفته لانه سينتقل مع برايان إلى منزل باتريشيا . وكان ينتظر ان يفعل ذلك ولكن لم يجرؤ على ان يصارح احداً ، وكاثلين تطير فرحا لانها ستكون وصيفتك » .. كان من المستحيل مقاومة حرارة مورين

منازل عائلة اوهارا .. ثلاثة مشيدة بالطوب .. وتقع في صف واحد . لها نوافذ على الواجهة والخلفية وجدران داخلية مشتركة وفي النهار يكون الرجال في العمل والأولاد الاكبر قليلاً في المدرسة ، وتتحول المنازل الثلاثة إلى عالم من النساء ، ولا توجد اسرار بينهن ، ولا تحفظ ، يقلن ما يخطر على بالهن .. اشياء حميمة تجعلها تحمر خجلا ، ويتشاجرن عندما يختلفن ، ثم يتعانقن ويبكين عندما يتصالحن ، ويعاملن جميع البيوت كبيت واحد ، واعتبرت سكارليت نفسها واحدة منهن ، واخذت تذهب معهن إلى السوق للبحث عن افضل طعام باحسن الاسعار .

والامسيات لها طابع مختلف . فالرجال يكدون في عملهم ويعودون مرهقين ويريدون وجبة طعام جيدة وغليونا ومشروبا . ودائما ما يحصلون على ما يريدون ، وبعد ذلك تتطور الامسية من تلقاء ذاتها . وغالبا ما تصب العائلة في منزل ماتيو لان لديه خمسة اطفال نائمين في الطابق العلوى . وتترك مورين وجامى كلا من جاكى وهيلين في رعاية مارى كيت ، ويمكن ان تحضر باتريشيا طفليها (الاول في الثانية والآخر في الثالثة) دون ايقاظهما . وقبل ان يمضى وقت طويل تصدح الموسيقى . وعندما يصل كولام يتولى القيادة وفي إحدى الامسيات ، جاء ذكر قصة المجاعة التى حدثت في ايرلندا قبل ثلاثين سنة . اختفى الطعام ، واكل النـــاس الاعشاب . ولم تعد هنـــاك اعشاب . ومات الكثيرون جوعا .

ولم تكن هناك وسيلة لمساعدتهم . وهؤلاء الذين عاشوا تلك المحنة حصلوا على « فتوى » من القساوسة في بعض الابرشيات بالاعفاء من الصيام في المستقبل ، غير أن تناول اللحوم محظور . ولما كانت عائلة أوهارا قد اقامت في إحدى تلك الابرشيات فقد حصلت على الفتوى ، وهنا سألت سكارليت :
« هل كنت هناك أثناء المجاعة يا مورين » ؟

اومأت مورين . « كنت هناك ، وكان والدى يمتلك حانة ، ولذلك لم تكن حالتنا سيئة مثل الآخرين . فالناس يجدون المال دائما لكى يشربوا . كنا نستطيع أن نشترى الخبز واللبن . أما المزارعون الفقراء فقد كانوا في اسوا حال . وانهمرت دموعها وهى تقول : « لم يكن لديهم سوى البطاطس .. ثم تعفنت البطاطس في التربة ، ولم يعد لديهم شىء .. ولم تتمالك نفسها مرة اخرى واحتضنت سكارليت وبكت فوق صدرها :
« لا تستطيعين تخيل ماذا يكون عليه الحال إذا انعدم وجود الطعام » .

وقالت سكارليت « أعرف كيف يكون الحال » . وروت لها قصة عودتها إلى تارا من اتلانتا المحترقة . ولم تكن هناك دموع في عين سكارليت أو في صوتها وهى تتحدث عن الخراب والدمار والشهور الطويلة من الجوع .. ولكن عندما بدات تتحدث عن أمها وكيف وجدتها ميته لدى عودتها إلى تارا وما اصاب عقل والدها . انهارت سكارليت .

إلى بلد الأجداد

قامت عائلة أوهارا برحلة إلى حديقة فورسيت في سافانا .. وسكارليت تتساءل وهي تحدث نفسها « لماذا لم يأت ريت ؟ أين هو ؟ ان أعماله في بوسطن لا يمكن ان تستغرق كل هذا الوقت » .

اسئلة تتصارع داخل عقلها كالطيور التي سقطت في مصيدة القفص . فاخذت تضرب بأجنحتها على جدرانه . هل أخطأت بعدم العودة مع خالتيها إلى شارلستون ؟ هل اخطأت بمغادرتها شارلستون اصلا ؟ وقررت ان تتحدث إلى كولام . فسيعرف ما يجب عمله ، ذلك أن كولام ـ بطريقته ـ يشبه ريت ـ فهو شخصية متكاملة مثل ريت واى شخص آخر يبدو اقل اهمية بالنسبة له تماما كما يبدو الرجال مجرد غلمان وريت هو الرجل الوحيد في الغرفة .. وكولام ينجز الاشياء كما يفعل ريت ثم يضحك على ما فعله .

وها هي تضحك وهي تستعيد الحديث الذى جرى خلال لقاء كولام مع المقاول والد بولى فقد روى كولام ما حدث على النحو التالى .

« انه رجل ضخم جسور .. هذا الرجل كبير البنائين الجبار ماكماهون له ذراعان كل منهما مثل « المرزبة » أو المطرقة الثقيلة .. كان يحيك بطريقة بارعة الكسوة الغالية الثمن تلك الكسوة التى اختارتها له بلا شك السيدة ماكماهون لكى تنسجم مع طقم اثاث قاعة الاستقبال .. انه رجل ورع ايضا تشع من روحه التقوى لانه يشيد بيت الله هنا في سافانا بأمريكا . وقد باركته من أجل ذلك بطريقتى المتواضعة . وقلت له : « انه الايمان ! ففى اعتقادى انك رجل متدين إلى حد انك لا تأخذ بنسا واحدا اكثر من نسبة الأربعين في المائة ربحا من الابرشية . وعند ذلك ابرقت عيناه وانتفخت عضلاته كالثور .. وقلت له : هذا مؤكد ايها السيد المقاول لو كان الذى يتولى هذا العمل رجلا آخر غيرك لتقاضى خمسين في المائة نظرا لان الأسقف ليس ايرلنديا » .

واستانف كولام روايته قائلا · « وعندئذ كشف الرجل الطيب عن حسناته .. فقد زمجر كالرعد وتفوه باسم « جروس » ، حتى اننى شعرت بان النوافذ سوف تتطاير ، وتسقط في الشارع ، قال لى « هل يصح أن يحمل كاثوليكي هذا الاسم » ؟ وعندئذ روى لى حكاياته عن المظالم والشرور التى يرتكبها الاسقف .. وهى حكايات تحول ياقنى الذى ترمز إلى مهنتى دون ان اصدقها . وشاركته أساه كما شاركته كاسا أو اثنتين ، ثم اخبرته عن معاناة ابنة عمى الصغيرة المسكينة . وابدى الرجل الطيب

غضبا ناشئا عن دوافع أخلاقية . وكل ما استطعت ان افعله هو ان امنعه من تمزيق برج الكنيسة بيديه القويتين . واعتقادى انه لن يدعو جميع الرجال للاضراب عن العمل ، غير انني لست على يقين من انه لن يفعل ذلك وقال لى : انه سيعبر للأسقف عن قلقه ازاء اهمال رغبة سكارليت بعبارات لن يخطىء الاسقف فى فهمها ، وسيقنعه بالاشكال الضرورية بخطورة المشكلة » .

● ● ●

صبى صغير يبدو وكانه فى الثانية عشرة من عمره سمع الاغانى التى ترددها العائلة فى الحديقة وانضم اليهم متاثرا . وقدمت له مورين كل انواع الطعام . وغنى لهم اجمل الاغانى ومنها اغنية مطلعها : « ساعود بك إلى الوطن يا كاثلين » وطلبوا منه إعادتها وبعد ان انتهت الاغنية قفزت كاثلين والدموع فى عينيها وهى تصيح «لا استطيع ان اسمع مرة اخرى » . وفى المساء قال كولام لجامى : انه يفكر فى ان ياخذ كاثلين معه عندما يذهب ، فقد امضت فى سافانا وقتا طويلا يجعلها تشعر بحنين إلى الوطن . وكادت سكارليت تصب الماء المغلى على يدها بدلا من ابريق الشاى ، وقالت :

— « إلى اين تذهب يا كولام » .

— « اعود إلى ايرلندا يا عزيزتى ، اننى هنا فى زيارة فقط » .

— « ولكن الاسقف لم يغير رايه حول تارا ، وهناك موضوع آخر اريد ان اتحدث معك بشانه » .

بعد ان توجه الجميع للنوم .. تحدثت سكارليت . كان كولام يدخن غليونه ، ورائحة التبغ اللاذعة الحلوة تتصاعد فى قاعة الدور الأرضى بمنزل جامى .

— « ماذا فى عقلك وقلبك يا سكارليت ؟ » .

وتنهدت من اعماقها : « لا ادرى ما افعل مع ريت يا كولام . اخشى أن اكون قد دمرت كل شىء » .

المكان دافىء والضوء خافت . المناخ المناسب لكى تفتح قلبها . وكانت تعرف انها عندما تتحدث إلى كولام فإن كل شىء سيبقى فى طى الكتمان ولا تعرفه العائلة ، فالرجل قسيس .. وكانها تدلى أمامه باعترافاتها فى الكنيسة .

وشرحت قصتها من البداية . وذكرت الحقيقة بشان زواجها « لم احبه ، على الاقل لم اكن اعرف ما إذا كنت احبه . فقد كنت مغرمة بشخص آخر .

وبعدها ، عندما عرفت أن ريت هو الرجل الذى أحبه . لم يعد ـ هو ـ يحبنى . هذا ما قاله على اية حال . ولكن لا اعتقد ان هذا صحيح يا كولام . فهذا لا يمكن ان يكون » .

— « هل تركك ؟ » .

— « نعم ، ولكنى تركته بعدها . ولذلك اتساءل هل كان ذلك خطا من جانبى » .

وبصبر لا نهائى ، اخذ كولام يحل خيوط قصة سكارليت . وبعد منتصف الليل .. افرغ التبغ من غليونه ووضعه فى جيبه .

— « لقد فعلت ما كان يجب ان تفعليه يا عزيزتى ، لاننا نرتدى ياقاتنا باتجاه عكسى فإن بعض الناس يظنون ان القساوسة ليسوا رجالا . انهم على خطا . اننى استطيع ان افهم زوجك . بل اننى استطيع ان اشعر بتعاطف شديد مع مشكلته . انها اعمق واكثر ايلاما من مشكلتك يا سكارليت . إنه يصارع نفسه ، وبالنسبة لرجل قوى فإن معركته ضارية . انه سيسعى وراءك ولابد ان تكونى سخية معه عندما يفعل ، لانه سيكون مثخنا من المعركة » .

— « ولكن متى يا كولام ؟ » .

— هذا ما لا استطيع ان اخبرك به . ومع ذلك فاننى ادرك انه هو الذى يجب ان يتخذ الخطوة وانت لا تستطيع القيام بها بالنيابة عنه . إنه يجب ان يصارع ضد نفسه وحده ، إلى ان يتحقق من حاجته اليك ، ويعترف بان ذلك شىء طيب » .

— هل انت متاكد من انه سياتى ؟

— هذا هو ما انا متاكد منه . والآن حان وقت نومى . وانت ايضا .

وفى الفراش شعرت بانها تريد ان تستمتع بفكرة ان ريت سياتى فقد منحتها ثقة كولام فى عودته الارتياح .. ريت سيكون هنا ، ربما ليس فى وقت قريب جدا كما كانت تريد ، ولكنها تستطيع الانتظار .

● ● ●

علمت سكارليت ان كاثلين سوف تسافر مع كولام إلى ايرلندا . وقالت انها لا تعرف ماذا ستفعل بدونها .

ورد عليها كولام : « ولماذا تفعلين شيئا بدونها . تعالى معنا وشاهدى موطن ابائك » ..

. « لا استطيع » .

— « بل ستكون مغامرة عظيمة .. ايرلندا جميلة فى اى وقت ، ولكن

فى الربيع . سوف تجعل رقتها قلبك كسيرا »

— « لست فى حاجة إلى قلب كسير ، شكرا يا كولام اننى فى حاجة إلى وصيفة » .

— « سأرسل اليك بريجيد . انها تتلهف على الحضور وأعتقد انها يمكن ان تبقى . أما كاثلين فقد كان إبعادها لفترة .

وسألته عن السبب فى انه أراد ابعاد هذه الفتاة الحلوة .

وابتسم كولام : « يا للنساء واسئلتهن ، انتن متشابهات على جانبى المحيط ، اننا لم نوافق على الرجل الذى أراد أن يرتبط بها . انه جندى علاوة على انه وثنى » .

— « تقصد بروتستانتى . هل تحبه ؟ » .

— « لقد أدار رأسها زيه العسكرى . وهذا كل ما فى الامر » .

— « مسكينة . أرجو أن يكون فى انتظارها عندما تعود إلى الوطن » .

— « شكرا لله .. فإن كتيبته عادت إلى انجلترا . لن يشغلها بعد الآن » .

● ● ●

اليوم ١٧ مارس يحتفل ايرلنديو سافانا ـ مثل الايرلنديين فى كل مكان ـ بعيد القديس باتريك . انه القديس الذى يحمى ايرلندا . ورغم انه حل اثناء الصوم الكبير ، إلا انه لا صوم فى عيد القديس باتريك . الزينات واللون الأخضر فى كل مكان وعصير الليمون وحلوى جوز الهند توزع على الناس فى الشوارع والمواكب ثم الألعاب النارية والرقص والموسيقى فى الليل .

ورقصت سكارليت وهى ترتدى حذاء السهرة ولم تعترف بالارهاق فقد شعرت انها أمضت وقتا ممتعا .

وفى طريق العودة إلى المنزل ، عاد كولام يحدثها عن ضرورة زيارتها لايرلندا :

— « سوف تحبين البلد العريق .. رحلة السفن تستغرق أسبوعين ويوما إلى جالواى » . وفى صباح اليوم التالى . كانت قدما سكارليت متورمتين ومصابتين . وبدون انذار .. تقلصت معدتها وشعرت برغبة فى القىء وامتلأ حلقها وسارعت سكارليت إلى النافذة فى رعب وافرغت ما فى جوفها . لابد انها تناولت فى مهرجانات الأمس طعاما فاسدا ولم تشعر فى حياتها بانها مريضة كما تشعر الآن وبكت . وتحاملت على نفسها ونزلت

إلى الدور الأرضى . وتدافع الجميع لمساعدتها . وبعد ثوان وجدت سكارليت نفسها وقدماها فوق وسادة وفى يدها قدح من الشاى . وشعرت بتحسن

وطلبت مورين من سكارليت ان تلزم الراحة فهى وكاثلين ستنظفان المطبخ وتذهبان إلى السوق .

وقالت مورين لكولام : « وانت أيضا ابق حيث انت ، أريدك أمامى فإننى لا أراك إلا قليلا . ولولا عيد ميلاد كاتى سكارليت العجوز لتوسلت اليك الا تعود سريعا هكذا إلى ايرلندا » .

وتساءلت سكارليت : « كاتى سكارليت » ؟

والقت مورين بالملابس المتسخة التى كانت تحملها : « ولم يفكر أحد فى ان يقول لك ان جدتك التى تحملين اسمها سيبلغ عمرها قرنا فى الشهر القادم » ؟ .

وضحك كولام .. « ومازال لسانها سليطا كما كانت وهى فتاة صغيرة ، انه شىء يفاخر به كل أفراد عائلة أوهارا » .

قالت كاثلين فى سعادة : « ساكون هناك فى العيد » .

وقالت سكارليت : « أوه ، اتمنى لو أستطيع الذهاب ، لقد اعتاد والدى ان يروى لى العديد من القصص عنها » .

— « ولكنك تستطيعين يا سكارليت يا حبيبتى . فكرى فى مدى فرحة المراة العجوز لو قمت بهذه الزيارة » .

واندفعت كل من كاثلين ومورين الى جانبى سكارليت يحثانها ويشجعانها ويغريانها على قبول الفكرة .. إلى أن اصيبت سكارليت بدوار لماذا لا ؟ كان هذا هو ما سالته سكارليت لنفسها .

إذا جاء إليها ريت ، فانها لابد أن تعود إلى شارلستون . لماذا لا تؤجل هذه العودة فترة اطول ؟ انها تكره شارلستون .. والثياب الكئيبة التى لا تتغير والزيارات واللجان التى لا تنتهى ، وأسوار المنازل المتاكلة والحدائق المحطمة ، انها تكره الطريقة التى يتحدث بها الشارلستونيون .. والعبارات والكلمات بالفرنسية واللاتينية ولغات اخرى لا يعلمها إلا الله ، والأسلوب الذى يظهرون به انهم يعرفون أماكن لم تذهب اليها يوما ، وشخصيات لم تسمع عنها ابدا وكتب لم تقراها ابدا ، وبطاقات الرقص وطوابير الاستقبال والقواعد غير المعلنة التى يفترض انها تعرفها بينما هى لا تعرفها .. واللا اخلاقية التى يتقبلونها والنفاق الذى يدينها بخطايا لم ترتكبها قط .

لا اريد ان ارتدى ملابس بلا لون ، وان اقول : « نعم يا سيدى » للنساء العجائز اللواتى كان جدهن أحد ابطال شارلستون أو شىء من هذا القبيل . لا أريد ان اقضى كل صباح يوم احد استمع إلى الخالة بولين تتشاحن مع الخالة اولالى .

وضحكت سكارليت بصوت عال وقالت : « سوف اذهب » . فجاة شعرت بانها فى احسن حال . حتى معدتها . ووقفت لتحتضن مورين ونسيت الام قدميها . شارلستون يمكن أن تنتظر لحين عودتها ، وريت يمكنه ان ينتظر ايضا . الله يعلم انها انتظرته مدة كافية . لماذا لا تزور بقية عائلة اوهارا ؟ ان اسبوعين ويوما فى سفينة عابرة كبيرة إلى « تارا » الاخرى ليست مدة طويلة . وستكون ايرلندية وسعيدة لفترة من الوقت قبل ان تستقر وتخضع لقواعد ونظم شارلستون .

ولم تمض أيام معدودة حتى وجدت نفسها فى عربة مكشوفة مع كولام وكاثلين فى الطريق إلى الميناء . ولم يكن الاستعداد للرحلة يحتاج إلى جهد . فالأمريكيون لا يحتاجون إل جوازات سفر للدخول إلى الجزر البريطانية ولا حتى يحتاجون إلى خطابات اعتماد ، ولكن كولام اصر على أن تحصل سكارليت من البنك الذى تتعامل معه على خطاب من هذا النوع . وقال : « تحوطا للظروف » . ولم يقل : اية ظروف ؟ ولم تهتم سكارليت فقد كانت منتشية بالمغامرة .

وبينما كانت كاثلين تودع اقاربها فى الميناء . قال كولام بهدوء لسكارليت :

« لن تنسى ما قلته لك حول الاسم يا سكارليت » . قلت وهى تبتسم تعليقا على المؤامرة غير المؤذية « لن انسى » . وقال وهو يغمز بعينه « ستكونين سكارليت أوهارا فقط فى هذه الرحلة وفى ايرلندا ، وهذا لا علاقة له بك او بكما يا سكارليت حبيبتى ، ولكن باتلر اسم مشهور جدا فى ايرلندا ، وكل شهرته شائنة » .

ولم تبال سكارليت على الاطلاق فهى سوف تستمتع بان تكون اوهارا لاطول مدة ممكنة .

وكما وعدها كولام فقد كانت السفينة « بريان بورو » فخمة . وارسلت سكارليت قبلاتها فى الهواء إلى المودعين من افراد الأسرة . كان جامى قد اغلق متجره لمدة ساعة حتى يستطيع هو ودانيل وداعهم ولم يذهب الأطفال إلى المدرسة صباح اليوم . وبالقرب من بقية الأسرة ، وقف ستيفن الهادىء على مسافة بسيطة من اقربائه المودعين . ورفع يده باشارة

إلى كولام . وكانت الاشارة تعنى أن صناديق ثياب سكارليت قد فتحت واعيد اغلاقها فى الطريق إلى السفينة .. وبين طبقات مناديل الورق وقمصان النوم والثياب النسائية والعباءات تم وضع البنادق الملطخة بالزيت والتى تم لفها بعناية .. وصناديق الذخيرة التى اشتراها ستيفن من بوسطن .

مثل آبائهم وأجدادهم وأجيال سبقتهم .. كان ستيفن وجامى وماتيو وكولام وحتى العم جيمس معارضين أشداء للحكم الانجليزى فى ايرلندا . وعلى مدى أكثر من مائتى عام خاطر أبناء عائلة أوهارا بحياتهم من أجل محاربة بل واحيانا قتل اعدائهم فى عمليات صغيرة فاشلة . وفى السنوات العشر الماضية فقط بدات توجد منظمة تضطلع بهذه المهمة . وهكذا اصبح « الفينيون » المنظمون الخطرون الممولون من أمريكا .. معروفين فى كل أنحاء ايرلندا . انهم أبطال فى عيون الفلاحين الايرلنديين . وهم الذين تنصب عليهم كراهية وبغضاء ملاك الأراضى الانجليز وبالنسبة للقوات العسكرية الانجليزية ، فانهم ثوريون لا يستحقون سوى الموت .

كان كولام أوهارا أكثر جامعى التبرعات نجاحاً ، ومن أبرز الزعماء السريين للاخوان الفينيين .

● ● ●

القسم الرابع

البرج



● مشهد من فيلم « ذهب مع الريح » يصور مأساة الحرب بين الشمال الجنوب . فى محطة اتلانتا .. حيث يرقد مئات الجرحى عشية الحصار الذى فرضه الشماليون على المدينة .. وقد استعان المخرج بالمئات من التماثيل الخشبية لكى يحدث أكبر تأثير لدى المشاهد .

الاكتشـــاف

استيقظت سكارليت فجاة مع الخيوط الأولى للفجر وهرولت إلى دورة المياه الملحقة بالكابينة .. وهناك نزلت على ركبتيها وتقيأت .

لايمكن ان تكون قد اصيبت بدوار البحر . ليس هنا . فهى تحب الابحار كثيرا . ولم تصب عندما كانت فى زورق صغير يتسلق الأمواج فى العاصفة . لم تشعر حتى بالغثيان ، ولاعندما انزلقت فى أعماق الموج . ثم ان السفينة بريان بورو تسير بثبات كالصخر بالمقارنة بذلك الزورق .

وشيئا فشيئا ، ارتفع راس سكارليت المنكس من ضعفه البائس .. وهى فاغرة فاها .. ومفتوحة العينين من مفاجاة الاكتشاف . الاثارة تهزها وتدفع الحرارة والقوة فى عروقها . إننى حامل ، إننى حامل ! الآن اتذكر . هذه هى اعراض الحمل . اسندت ظهرها إلى الحائط . اشعر باننى رائعة . ولا ابالى بحالة معدتى السيئة . اننى فى حالة مدهشة . حصلت على ريت . انه ملكى . لا استطيع الانتظار لأخبره .

دموع مفاجئة تعبر عن السعادة تدفقت على خديها ونزلت يداها لتغطى بطنها بحركة تلقائية وقائية ترعى وتحمى الحياة الجديدة التى تنمو فى داخلها . آه ، كم كانت تريد هذا الوليد . طفل ريت . طفلهما . سيكون قويا . انها تعرف ذلك . تستطيع ان تشعر بالفعل بقوته الصغيرة جدا . شىء ضئيل مقتحم لايهاب مثل « بونى » . ذكريات « بونى » تتجدد وتعود حية امامها . كم احبها ريت .. وظهره العريض ينحنى فوق سريرها وصوته العميق يداعبها . لم يوجد فى العالم رجل اصبح مسلوب العقل من فرط حبه لطفل .. كما كان ريت ، سيكون سعيدا إلى اقصى الحدود عندما يعرف . تستطيع الآن ان ترى عينيه السوداوين تشعان بالفرحة .. وابتسامته المرحة تضىء فوق وجهه .

وفزعت وهى تتذكر كيف ماتت « ميلى » وهى تحاول ان تنجب .. وانا احشائى « ملخبطة » كما قال الدكتور ميد بعد الاجهاض الذى حدث لى . وهذا هو السبب فى اننى لم اعرف اننى حامل ولم الاحظ رغم مرور شهر . لنفرض ان حمل هذا الطفل يقتلنى .. وهزت راسها فى غضب . ماذا حدث لى انى مجرد غبية . انها قوية وتتمتع بصحة جيدة . ليست مثل « ميلى » على الاطلاق . وستكون فى حالة طيبة وكذلك طفلها وحياتها .. مع ريت المحب لها ولطفلهما . وستكون اسعد اسرة فى العالم . وسوف تكون السيدة اليانور فى قمة السعادة إذا علمت بالأمر . لن تترك احدا فى السوق دون ان تبلغه بالنبا السعيد . وسيكون الطفل هو حديث شارلستون قبل اول شهيق .

شارلستون كان يجب ان اكون متجهة إليها الآن وليس إلى ايرلندا أريد ان ارى ريت وابلغه ، ثم استقر رايها . لا حاجة للاستعجال ، لا داعى للحديث مع قبطان السفينة لإعادتها إلى الشاطىء . فهى ستقابل جدتها واقاربها الأيرلنديين ، وستكمل مغامرة عبور المحيط . لقد جعلها ريت تقبع في انتظاره في سافانا . وهو يستطيع ان ينتظر فترة قبل ان يعلم موضوع الطفل . لاتزال هناك شهور وشهور قبل ان يولد . ويحق لها ان تستمتع قليلا قبل ان تعود إلى شارلستون . نعم ، سترى ايرلندا اولا ، فلن تتاح لها فرصة اخرى .

عبور الاطلنطي على متن « برايان بورو » كان اشبه بسهرة مستمرة من سهرات يوم السبت لدى عائلة اوهارا في سافانا ، الركاب الايرلنديون من اغنياء امريكا الجدد . وشغل كولام وقته باقناع الكثيرين بعدالة القضية الايرلندية وتضحيات الشهداء والقهر الذى يعانى منه الايرلنديون تحت الحكم الانجليزى ، وهكذا استطاع ان يجمع التبرعات . بينما كانت سكارليت تكسب باستمرار في لعب الورق وفي بعض الأمسيات كانت تكسب ثلاثين دولارا ، سوف يضحك ريت كثيرا إذا عرف بذلك ، فقد كان هو نفسه مقامرا في سفن نهر المسيسبى في وقت من الاوقات . انها لن تضطر إلى ان تلمس بنسا واحدا من نقود ريت .

موقف سكارليت من المال كان مزيجا معقدا من البخل والكرم . كان معيارها للأمان لسنوات عديدة هو الاحتفاظ بكل بنس من الثروة التى جمعتها بصعوبة مع الارتياب الغاضب في اى شخص تكون له طلبات حقيقية او متخيلة بشان دولار واحد منها . ومع ذلك فقد تحملت مسئولية ان تعول خالتيها وأسرة ميلانى بلا تردد .. وحرصت على رعايتهم حتى وهى لاتعرف وسيلة لرعاية نفسها . ولو حلت بها كارثة غير متوقعة ، فإنها كانت ستواصل رعايتهم حتى لو كان ذلك يعنى انها ستتضور جوعا ، كذلك كانت مشاعرها تجاه اموال ريت غير متسقة مع بعضها .. كزوجته انفقت بإسراف على منزل شارع بيتشترى بتكاليفه الهائلة .. وعلى ثيابها وكمالياتها ، ولكن مبلغ النصف مليون الذى ارسله اليها كان شيئا مختلفا . لامساس به .. فهى تعتزم ان تعيده اليه بلا نقصان عندما يلتقيان مرة اخرى ونهائيا كزوج وزوجة حقيقيين ، لقد عرض المبلغ كثمن للانفصال ، وهى لاتستطيع قبوله لانها لن تقبل الانفصال . وقد ضايقها انها اضطرت لاخذ جزء من هذا المبلغ من خزانة البنك من اجل الرحلة

لأن قرار القيام بالرحلة كان فجائيا وسريعا ، ولم يكن هنك وقت للحصول على شيء من اموالها في اتلانتا . كانت مصممة على أن تنفق اقل القليل بقدر الامكان من العملات الذهبية التي تجعل الآن ظهرها مستقيما وخصرها صغيرا والتي تملؤ قنوات المشد الذي تلفه حول خصرها فالافضل هو الفوز في لعب الورق مع الاحتفاظ بنقودها لانفاقها . وفي الأسبوع التالي اضافت ١٥٠ دولارا اخرى إلى حقيبتها .

وصلت السفينة إلى الشاطيء الايرلندي . وكان كولام قد راى ارض ايرلندا قبل ان تصل السفينة وخفق قلبه بالحب من اجلها والألم لعذاباتها . وكما فعل مرات عديدة كل يوم ، فانه جدد قسمه على تدمير الظالمين لبلاده واعادتها إلى ابنائها . ولم يشعر بقلق على الأسلحة المخبأة في صناديق ملابس سكارليت ، فهو يعرف أن موظفي الجمارك في جالواي يركزون في الأساس على شحنات السفينة لكي يتاكدوا من ان الرسوم المستحقة للحكومة البريطانية قد تم تسديدها . وبالنسبة لكولام فانه كان يعتبر أن اقناع سكارليت بالمجيء اتاح فرصة الحظ السعيد لأن ملابسها تصلح لاخفاء البنادق اكثر من الأحذية والقماش القطني الأمريكي الذي اشتراه وقد تفكر سكارليت في التبرع عندما ترى الفقر الذي يعانيه مواطنوه . ولم تكن لديه آمال كبارا ، فهو واقعي ، ولانه قسيس فهو متسامح إزاء الضغط البشري ما دام البشر من غير الانجليز .

● ● ●

في البداية لم تفهم لهجة الايرلنديين وظنت انهم يتحدثون بلغة اخرى غير الانجليزية . وفوجئت بانها لابد أن تغير العملة حتى تحصل على نقود انجليزية ، واعطت لكولام كل ماكسبته من لعب الورق في السفينة ، وكان المبلغ ٢٤٧ دولارا . واعتبر كولام المبلغ ثروة ضخمة . كان هذا هو يوم السوق في جالواي . وأول تجربة جديدة تجتازها سكارليت هي عبور الشارع وسط قطيع هائل من الماشية والأبقار . كان القطار قد غادر المدينة في الساعة الثامنة . ولابد من قضاء الليلة في فندق . والحقائب سوف تصل الى الفندق في وقت لاحق .. واعجبت سكارليت بملابس الايرلنديات . وشعرت بسعادة عندما علمت انها تستطيع وهي في ايرلندا ان ترتدي ملابس الايرلنديات . واشترت بالعملات الانجليزية التي لاتعرف قيمة معظمها بالدقة حتى الآن كل انواع الملابس النسائية . قالت سكارليت : « اشعر إنني ساحب ايرلندا حقا » !

مشـــاهـد ايرلنـــديـة

اصرت سكارليت على ان تترك طعام الغداء على مائدة مطعم الفندق وتشارك في الرقص في الميدان الواقع أمام الفندق واضطر كولام وكاثلين إلى ترك الطعام والجلوس على احد مقاعد الميدان قرب حلبة الرقص للتدخل إذا واجهت سكارليت المتاعب . قالت كاثلين : « انا لا افهمك على الاطلاق يا كولام . لماذا ننزل في هذا الفندق الانجليزى الفخم مثل الملوك والملكات وإذا فعلنا ذلك .. لماذا لا ناكل غداءنا الفاخر . انه آخر طعام من نوعه ناكله . الم تستطع ان تقول لسكارليت .. لا .. لن نغادر المائدة ، كما فعلت انا »

اخذ كولام يدى شقيقته بين يديه . « سكارليت ليست مستعدة بعد لمواجهة الواقع الايرلندى او الواقع الذى تعيش فيه عائلة اوهارا .. آمل ان أجعل الأمور اسهل بالنسبة لها . الافضل أن ترتدى الثوب الايرلندى كنوع من المغامرة المرحة بدلا من البكاء عندما تعلم ان نيل ثوب فستانها الحريرى الفاخر سيغطى بروث البقر .. انها تقابل الايرلنديين هنا في هذا الميدان وترقص معهم رقصة الريل وتجدهم ظرفاء رغم ملابسهم الخشنة وايديهم القذرة . هذا حدث كبير .. رغم اننى كنت افضل النوم »

— « ولكننا سنذهب إلى بلدتنا غدا ، اليس كذلك »

— « سنذهب غدا . هذا ما اعدك به . سنكون في عربة الدرجة الأولى بالقطار ويجب الا تشيرى إلى ذلك . أيضا سوف اجعل سكارليت تقيم مع مولى وروبرت . ولن تتفوهى بكلمة »

وبصقت كاثلين على الأرض ، وقالت : « هذه البصقة موجهة إلى مولى وروبرت ، ولكن ما دامت سكارليت هى التى ستقيم معهما ولست انا ، فاننى مستعدة لأن اصمت »

اخذت سكارليت تتامل الريف الايرلندى من القطار .. والقلاع التى تتناثر فوق التلال ، انها قلاع متداعية ويقول كولام : إن معظمها عمره ٤٠٠ سنة او اكثر وان الناس وجدوا بعد ذلك وسائل مريحة اكثر للحياة .. معه حق إذ لابد ان يرهق الانسان من الصعود والهبوط عبر سلالم الأبراج .. وهى تتامل الآن دواوين الركاب في العربة التى تستقلها . انها معجبة بكل شىء تراه وسوف تمكث اسبوعين في ايرلندا قبل ان يحل موعد عيد الميلاد المائة لكاتى سكارليت الاصلية . انها لن تغيب عن هذا الحفل مقابل اى شىء في العالم . وسالت سكارليت عن اسم المكان الذى تعيش فيه عائلة اوهارا . وعرفت ان الاسم هو « آدامز تاون » . وعندما

لاحظ كولام دهشتها قال : إن الاسم ليس ايرلنديا تماما ، وكان يود لو يغيره من اجلها ، ولكن المالك انجليزى ولن يوافق على ذلك وسألت سكارليت . « هل يملك شخص واحد المدينة بكاملها » واجاب كولام :

— « انها ليست مدينة ، إنها تكاد تكون قرية ، وقد سميت باسم الانجليزى الذى كان اول من شيدها واهداها لابنه آدم ثم توارثها الأبناء والأحفاد .. ومالكها الحالى لايراها ابدا ، فهو يقيم معظم الوقت فى لندن ، ووكيله هو الذى يديرها » .

كانت هناك مرارة فى كلمات كولام .. وعندما وصل القطار المحطة التالية رأت سكارليت قلعة هائلة .. لم تتداع بعد . المؤكد أن شخصا ما يعيش فيها . فارس .. أو امير .

قال كولام : « إنه ابعد مايكون عن ذلك ، انها ثكنات حربية لكتيبة فى الجيش البريطانى » .

نزل الثلاثة فى محطة مولينجر . سيتناولون طعام الغداء فى ضيافة جيم دالى صديق كولام قبل ان يستقلوا عربة لمسافة عشرين ميلا إلى « آدامز تاون » . واصر جيم دالى على ان تصاحبه سكارليت لالقاء نظرة على مولينجر . وتبعهما كولام وكاثلين . لم يكن هناك مايستحق المشاهدة .. فالبلدة عبارة عن شارع واحد يمتلىء بالحانات والدكاكين . وروعت سكارليت عندما جاءت امراة شابة تضع وشاحا اسود على راسها وصدرها ، ومدت يدها لكى تتسول . لم يكن هناك مبرر للتسول من وجهة نظر سكارليت فالمراة تبدو فى صحة معقولة . وسمعت سكارليت صوت ضحكات ، وادارت راسها لتعرف السبب . وجدت مجموعة من الجنود تدخل الميدان من شارع جانبى . كان احدهم يشاكس المراة المتسولة . ويمسك بقطعة نقود فى يده ويمد ذراعه إلى أعلى بحيث لاتستطيع الامساك بالنقود . وحشية « ولكن ماذا تتوقع إذا كانت المراة تهين نفسها وتشحذ على قارعة الطريق . ومن الجنود خاصة . والقى الجندى بقطعة النقود فى بركة موحلة قذرة مغطاة بالنفايات وضحك مرة اخرى مع زملائه .. ورأت سكارليت يدى كاثلين تمسك بذراع كولام ، ولكنه انتزع نفسه منها وسار نحو الجنود والشحاذة . يا إلهى ، ماذا لو بدأ يعظهم لكى يكونوا مسيحيين طيبين ؟ . وشمر كولام عن ساعده وتنفست الصعداء . انه يشبه اباها كثيرا . هل سيخوض معركة ؟

ركع كولام فوق البركة القذرة الكريهة الرائحة ومد اصبعه واخرج منها

قطعة النقود ثم وقف ، وظهره للجنود . كان من الواضح انهم لايشعرون بارتياح إزاء ما انتهت إليه دعابتهم . وامسك كولام بذراع المرأة واقتادها بعيدا . واستدار الجنود وساروا فى الاتجاه المضاد بسرعة ، وفى فجر اليوم التالى .. استؤنفت الرحلة ..



مــزارع « قـــوى »

فى الطريق وقع حادث اثار رعب سكارليت . لقد تم طرد عائلة من مستاجرى الأرض لأنهم لم يدفعوا الايجار ، فهم لايملكون شيئا . حاول رب الأسرة وقف الطرد عندما جاء الجنود اول مرة لتنفيذ حكم الطرد ، وضرب المزارع احد الجنود فاخذوه إلى السجن وتركوا زوجته وطفليها ودمروا بيتهما حتى لايعودوا للاقامة فيه .

وقالت سكارليت اول ما خطر على بالها : « يا له من غبى هذا المالك ، كان يستطيع ان يؤجر الأرض لشخص آخر » .

وبدا الارهاق على وجه كولام : « انه لايريد تاجيرها على الاطلاق ، فهناك قطعة أرض صغيرة مجاورة ، وهو يريد ما يسمى بـ « تنظيم » ممتلكاته .. ولهذا رفع القيمة الايجارية حتى يجعلهم علجزين عن الدفع فهو لم يعد مهتما بزراعة الأرض »

قالت كاثلين : « هل اخبرت سكارليت عن مولى ياكولام ؟ ان لها الحق فى تلقى تحذير . » وسالت سكارليت : « من هى مولى ؟ » وقال كولام : « انها اول من ستقابلينه من عائلة اوهارا فى آدامز تاون وشقيقة لكاثلين ولى .

وصححت كاثلين : نصف شقيقة . وهذا النصف اكثر مما يجب فى رايى ! قالت سكارليت . « احكى » . لم تشعر سكارليت بالوقت او المسافة ، فقد كانت تسمع عن عائلتها . كولام وكاثلين اخان غير شقيقين . والدهما باتريك الذى كان من بين اكبر اشقاء جيرالد اوهارا تزوج ثلاث مرات ومن بين ابناء زوجته الأولى : جامى الذى ذهب إلى سافانا ، ومولى التى يقول عنها كولام انها كانت رائعة الجمال .. او .. وهى صغيرة ربما كما تقول كاثلين . وبعد وفاة زوجته الأولى ، تزوج باتريك للمرة الثانية والدة كولام ، وبعد وفاتها تزوج والدة كاثلين التى هى ايضا والدة ستيفن . وقالت لنفسها : « انه ستيفن الشاب الصامت » .

وهناك عشرة ابناء وبنات عمومة ستقابلهم فى آدامز تاون ، البعض لديه اطفال وربما احفاد . اما باتريك فقد وافاه الأجل منذ خمسة عشر عاما . وعلاوة على ذلك فإن هناك عمها دانيل - الذى لايزال على قيد الحياة - وابناءه واحفاده . ومن سلالة ماتيو وجيرالد وهما فى سافانا . غير ان ستة من ابنائه واحفاده بقوا فى ايرلندا .

قالت كاثلين : « فى منزل مولى .. لايوجد احد من عائلة اوهارا ما عداها وسوف تنكر اسمها »

حاول كولام ان يشرح ما قالته كاثلين فقال : إن مولى تزوجت من

رجل يدعى روبرت دوناهو ، رجل « دافىء » بالمعنى المادى أى أن لديه مزرعة كبيرة مزدهرة مساحتها أكثر من مائة فدان انه ذلك النوع الذى يسميه الايرلنديون « مزارع قوى » . كانت « مولى » تعمل فى البداية طاهية فى مطبخ دوناهو . وعندما ماتت زوجة الأخير ، اصبحت مولى .. بعد فترة حداد مناسبة .. زوجته الثانية وزوجة الأب لاطفاله الأربعة . وانجب دوناهو من زواجه الثانى خمسة أطفال ، أكبرهم ضخم وبصحة جيدة حتى أنه ولد قبل موعده بثلاثة أشهر . غير أن الجميع كبروا الآن وانتقلوا إلى بيوتهم الخاصة .

وقال كولام بلهجة حيادية : « ان مولى ليست مخلصة لأسرتها .. اسرة اوهارا ربما لأن السبب هو أن زوجها كان الاقطاعى الذى تعمل عنده الأسرة . وقد استاجر روبرت دوناهو بضعة فدادين ـ علاوة على مزرعته الخاصة ـ وقام بتاجير مزرعة أصغر من الباطن إلى عائلة اوهارا ..

اما عن الجدة العجوز كاتى سكارليت فانها تقيم فى الكوخ الذى شيده زوجها لها عندما تزوجا عام ١٧٨٩ . ولاشىء يمكن أن يقنعها بأن تغادر ذلك المكان . وقد تزوج والد كولام (الذى هو والد كاثلين أيضا) لأول مرة فى عام ١٨١٥ وأخذ زوجته للاقامة فى الكوخ المزدحم . وعندما بدا الأطفال يكبرون ، شيد مكانا كبيرا اوسع على مقربة منه يحتوى على غرفة لهؤلاء الأطفال وفراش دافىء بجانب نار الموقد خصيصا لوالدته فى سنها المتقدمة .. ولكن العجوز رفضت ولذا يقيم « شين » فى الكوخ مع جدتنا .. والبنات مثل كاثلين ـ يخدمنها .. » ..

واضافت كاثلين : « شين هو شقيق مولى ، وهو اخ غير شقيق لنا ، ونموذج تعس للرجل ، فهو لاشىء تقريبا مثل تيموتى رغم أنه يتجاوزه بعشرين عاما فى العمر » .

ولم تجرؤ سكارليت على أن تسال « ومن هو تيموتى » .. خشية أن تسمع عشرات الأسماء الأخرى التى تنتمى إلى شجرة العائلة ..

الجـــــــذور

كانت مولى خالية من العيوب سواء فى ملبسها أو اسلوبها . وقدمت الف تحية للأوهارا الأخرى التى قدمها كولام رغم أنها لم تكن تعرف انها سوف تستقبل سكارليت ولم يكن لديها علم بوصولها . شعر اسود فاحم ، وعينان زرقاوان لامعتان . ولا يبدو على الاطلاق ان مولى فى الخمسينات من عمرها ، قالت سكارليت : « اننى سعيدة جدا للقائك يامولى واشعر بامتنان للكلمات التى اغدقتها علىّ فى منزلك اللطيف » . ونظرت اليها سكارليت مرة اخرى .. ان بشرتها ناعمة ومخملية لم تر سكارليت لها مثيلا ولابد ان كولام اخطا فى تقدير عمرها . وشكت سكارليت لكولام فى اليوم التالى : « كيف استطعت ان تذهب وتتركنى هنا وحدى .. ان روبرت دوناهو المروع هو اكثر الناس اثارة للسام فى العالم .. لقد ظل يتحدث طول الوقت عن ابقاره وكمية اللبن التى يحلبها من كل بقرة . وشعرت باننى على وشك الخوار قبل ان ننتهى من تناول الطعام »

على مسافة ربع ميل يقع كوخ جدتها . قطعتها سيرا على الأقدام مع كولام وشعرت سكارليت بانها عصبية . كانت خائفة . كيف يبدو الشخص الذى يبلغ المائة من عمره ؟ هل ستتحمل الموقف . وكان كولام قرا افكارها ، فقال « لن نبقى طويلا .. ان كاثلين فى انتظارنا لنشرب فنجانا من الشاى » . وتبعته سكارليت . وعند الباب لم تر شيئا فى الداخل سوى الظلال . وكانت هناك رائحة غريبة اقرب إلى رائحة التراب وبها شىء حمضى جعل انفها يتغضن . هل هذه هى رائحة الشيخوخة المتقدمة ؟

قال كولام : هل تشمين نيران المواد النباتية المتفحمة .. انها جزء من الحياة الايرلندية .. انها رائحة تشبه الدخان ، ولكنها ليست كذلك .

داخل الكوخ حاولت سكارليت ان تالف عيناها الظلمة .

— « هل هذا هو انت اخيرا ياكولام اوهارا » ؟ اريد ان اعرف لماذا ارسلت مولى عندى بينما بريدى وعدتنى بهدية من ابنة ابنى جيرالد ؟

جاء الصوت رفيعا ومشاكسا .. ولكنه ليس مبحوحا ولا ضعيفا .

ارتياح ونوع من الاستغراب لدى سكارليت . هذه هى والدة ابيها التى روى عنها الكثير مرات عديدة ..

دفعت كولام جانبا وذهبت لتركع قرب العجوز التى كانت تجلس على مقعد خشبى ذى ذراعين قرب المدفاة .

— « اننى ابنة جيرالد ياجدتى وقد اطلق اسمك على شخصى كيتى سكارليت » كانت كيتى سكارليت الأصلية ضئيلة وسمراء . اصبحت

بشرتها داكنة بفعل قرابة قرن من الهواء الطلق والشمس والمطر . وكان وجهها مستديرا مثل التفاحة ، وذابلا مثل التفاحة التى تم الاحتفاظ بها لوقت طويل » ولكن العينين الزرقاوين الذاويتين كانتا صافيتين ونفاذتين . وثمة وشاح صوفى سميك لونه سماوى على كتفيها وصدرها .. وتمتد اطرافه فى حجرها . شعرها الأبيض الخفيف مغطى بطاقية حمراء مشغولة . قالت : « دعينى أنظر إليك يا فتاة » ، ورفعت اصابعها المكسوة بالجلد ذقن سكارليت إلى اعلى ورسمت علامة الصليب بسرعة ، وهى تقول : « بحق كل القديسين . لقد ذكر الحقيقة . لك عينان خضراوان مثل عينى القطة . من اين اتت . اريد ان اعرف لقد ظننت أن جيرالد كان ثملا عندما كتب لى هذه الحكاية . قولى لى يا كيتى سكارليت الصغيرة ، هل كانت أمك العزيزة ساحرة » ؟ وضحكت سكارليت وقالت : « كانت اقرب إلى القديسة ياجدتى » .

— « هل كانت كذلك ؟ وتزوجت من ابنى جيرالد ؟ هذا هو اعجب الأشياء . او ربما كان زواجها منه هو الذى جعل منها قديسة بكل ما فى ذلك من بلايا . قولى لى : هل ظل ميالا للشجار حتى اواخر ايامه ؟ فليرع الله روحه ؟ »

— « اخشى ان اقول إن هذا صحيح ياجدتى » ودفعتها الأصابع بعيدا .

— « تخشين ؟ اننى ممتنة . لقد كنت أصلى لكى لاتدمره امريكا . كولام اشعل شمعة فى عيد الشكر من اجلى فى الكنيسة . » ـ « سافعل » . وفحصت العينان الهرمتان سكارليت مرة اخرى وابتسمت فجاة وهى تقول : « لم تقصدى شيئا سيئا يا كاتى سكارليت . اننى أسامحك » . وانفرجت الشفتان المضمومتان عن ابتسامة تنم عن رقة تكسر القلوب . لم تكن هناك اسنان فى فكيها .

« سوف آمر بشمعة اخرى للبركة التى حلت بى من رؤيتك بعينى راسى قبل ان اذهب إلى قبرى » وامتلأت عينا سكارليت بالدموع . « شكرا ياجدتى » وقالت كاتى سكارليت العجوز : « عفوا ، عفوا . خذها بعيدا ياكولام . انى استعد لراحتى الآن » واغلقت عينيها وتدلى ذقنها فى صدرها الدافىء المغطى بالوشاح ولمس كولام كتف سكارليت . « هيا بنا » .

● ● ●

استقبلتها كاتلين فى الكوخ المجاور وهى تقفز من السعادة والمرح . كانت تبدو قوية للغاية . والكوخ اكبر قليلا من كوخ الجدة ولكنه صغير جدا بحيث لايتسع لأسرة . اين ينامون جميعا ؟ حدثت سكارليت نفسها .

« إن أسرتى فقيرة جدا بحق ، لماذا ارهقت كاثلين عينيها من البكاء لكى تعود إلى هذا المكان ؟ » لقد خلقت عائلة أوهارا فى سافانا نوعا من جزيرة السعادة يسكنونها هم انفسهم ويعيدون سيرة الحياة التى عرفوها فى ايرلندا وهنا يوجد الأصل .

مسلسل متتابع من الرؤوس والأصوات ظهر فى النصف الأعلى من الباب ثم ظهرت سيدات وفتيات واطفال واولاد ورجال ورضع جاءوا وذهبوا فرادى وجماعات ووجهت اصوات الموسيقى الايرلندية التحية إلى سكارليت ورحبت بها وكذلك التحية والترحيب بعودة كاثلين مرة أخرى إلى مسقط راسها . كل ذلك بدفء يصل إلى القلب . انه شىء يختلف عن العالم الرسمى للزيارات والاستقبالات اختلاف الليل عن النهار . روى الرجال والنساء قصصا حول والدها .. وقص الكبار ذكرياتهم ، والشبان نقلوا ما سمعوه من آبائهم وأجدادهم .

كان فى استطاعتها أن ترى وجه جيرالد اوهارا فى العديد من الوجوه حولها وان تسمع صوته فى أصواتهم . كل شخص يعرف كل شخص ويعرف عمله . هذه هى أحسن اجازة يمكن للشخص ان يقضيها . ان عندى الكثير لأقوله لربت وربما ناتى إلى هنا معا فى وقت ما . وبدات كاثلين تعد مأدبة الطعام . والتقت سكارليت بدانيل شقيق والدها .. رجل نشط طويل القامة . فى الثمانين . والتقت باولاده . كان هناك اربعة منهم تتراوح اعمارهم بين العشرين والرابعة والعشرين ، علاوة على ـ فهى تتذكر الآن ـ ماثيو وجيرالد فى سافانا .

ثورة على الفتاة بريدى لأنها استحمت فى النهر ، وكولام يقول لها : « الا تعلمين إن نهر بوين ياخذ روحا عن كل ميل من طوله كل سنة » ؟

وفسرت بريدى موقفها : « كاثلين اخبرتنى بان ابنة عمى سكارليت ستحضر ، وإلين ، قالت لى ان وصيفة السيدة يجب ان تغتسل كل يوم قبل ان تلمس ملابس السيدة او شعرها ، لذلك ذهبت لأغتسل » . ونظرت مباشرة إلى سكارليت لأول مرة « كانت نيتى هى أن اكون موضع الرضا حتى تأخذينى إلى أمريكا » . وارتاحت سكارليت لنظراتها . لن تذرف الفتاة دموع الحنين إلى مسقط راسها . وسكارليت متأكدة من ذلك ، ولكنها تستطيع استخدامها فقط إلى ان تنتهى الرحلة .. فلا توجد جنوبية استخدمت وصيفة بيضاء حتى الآن . واخذت تفتش عن الكلمات المناسبة التى تقولها للفتاة . وقال كولام لبريدى :

« لقد تقرر بالفعل أن تذهبى إلى سافانا معنا يابريدى . ولذلك كان يمكنك تجنب المخاطرة بحياتك .. » واطلقت الفتاة صيحات الفرح ، وقالت :

« ارتفاع المياه لم يتجاوز ركبتى . فلست غبية إلى هذا الحد » ..

تحدث الجميع ماعدا دانيل الذى لم يتفوه بكلمة ، وعندما وصل الحفل إلى نهايته .. دفع مقعده إلى الخلف ووقف على قدميه وقال : « أحسن ينبوع مياه فى هذه الفترة الجافة .. هو أنت أيتها الشابة كاتى سكارليت أوهارا ، انت تشرفين بيتى وأنا ارحب بك ، كان ابوك محبوبا إلى درجة عظيمة ، وغيابه هو حجر فى صدرى طوال تلك الخمسين سنة وأكثر » .

عقدت الدهشة لسان سكارليت ، وفى اللحظة التى فكرت فيها أن ترد المجاملة .. كان دانيل قد خرج عائدا إلى حقوله ..

قال كولام : « لقد وضعت خاتمك على هذا البيت . هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها دانيل اوهارا يستخدم كلمات عن أى شىء ليست له علاقة بالمزرعة ، ومن الأفضل أن تأخذى حذرك وإلا فان الأرامل والعوانس فى المنطقة سوف يشترين تعويذة لكى يضعنها عليك . ودانيل أرمل كما تعلمين ، ويستطيع أن يستعين بزوجة جديدة »

— « كولام ! انه رجل عجوز ! »

— « الا تزال والدته منتعشة وقوية وهى فى المائة من عمرها ؟ ان امامه سنوات طويلة يعيشها . والأحسن أن تذكريه بأن لديك زوجا فى الوطن » .

وقالت كاثلين : « إن كولام محق فيما يتعلق بشىء واحد ، وهو أن دانيل منحها بركته كرب للمنزل عندما قال : « إذا عجزت عن تحمل البقاء لدقيقة اخرى فى منزل مولى .. ستجدين مكانا لك هنا إذا شئت » .

ولم تتصور سكارليت انها ستقدم على مثل هذه الخطوة .. سبعة أشخاص فى بيت واحد صغير لايتسع لأكثر من أربعة أشخاص على أقصى تقدير ..

أيام غير عـــادية

أقامت مولى حفل شاى على شرف سكارليت .

— « ماذا يفعل روبرت يامولى .. هل يرتدى القفاز الأنيق المصنوع من جلد الجدى طول الوقت » ؟ وكانت سكارليت تشعر بسرور عندما تتجهم مولى لدى سماعها لسؤالها .

واقترحت مولى أن تذهب هي وسكارليت بالمركبة (ذات عجلتين وجواد واحد) للنزهة . وطلبت سكارليت أن تشاهد نهر بوين .

قالت مولى : « سنذهب إلى « البيت الكبير » لنرى النهر من حديقته .. لاتوجد مشكلة فـ « الايرل »[1] ليس هناك ، وروبرت حصل على اذن من مستر الدرسون »

— من هذا ؟

— ناظر زراعة الايرل . انه يدير كل المزرعة وروبرت يعرفه .

مولى تتحدث عن الرجل كما لو كان شيئا مهما !

أما البيت الكبير .. فقد كان هائلا . ليس مبنى واحدا ، ولكنه مجموعة من الأسقف المزودة بفتحات لكى تطلق منها النار علاوة على الأبراج والجدران . انه أقرب إلى مدينة صغيرة منه إلى أى منزل وقع بصر سكارليت عليه أو حتى سمعت عنه . وأدركت السبب في أن مولى تبدى احتراما شديدا لناظر الزراعة ، فان إدارة مكان كهذا تحتاج إلى عدد ضخم من الناس وإلى جهد خارق في العمل اكثر من أى مزرعة ظهرت حتى الآن .

وأصيبت مولى بالفزع عندما طلبت سكارليت أن ترى « البيت الكبير » من الداخل ، وقالت : « لدينا تصريح بالمشى في الحديقة .. فقط » .

كانت سكارليت تتشوق لرؤية النهر . وفجاة ظهر امامها من خلال ثغرة من صنع الطبيعة وتبدو كان فنانا قد صنعها . اسمر وذهبى .. ولم تر سكارليت مياها كهذه من قبل . وصاحت : « انه جميل » . كان والدها يحدثها عن هذا النهر . وسمعت عنه طوال حياتها والآن اصبحت قادرة على أن تلمسه . وشعرت سكارليت بعاطفة غريبة لديها .. بشعور لاتستطيع وصفه . ومدت سكارليت بصرها .. ورأت برجا على الضفة الأخرى من النهر . انه يشبه الأبراج التى شاهدتها خلال رحلة القطار .. مصنوع من الأحجار وقد تداعى جزء منه . الطحلب يكسو قاعدته وأغصان الكرم تتسلق على جانبيه .. انه اكبر بكثير مما ظننت لأول وهلة .

● ● ●

---

(١) الايرل لقب انجليزى أدنى من ماركيز وأرفع من فيكونت

— « كولام ، اظن اننى ساقتل ابنة العم العزيزة مولى . لو كنت قد سمعت هذا المروع روبرت الليلة الماضية يتحدث على العشاء ويقول لنا كيف نالنا الشرف الكبير بمجرد السير فى ممرات حديقة الايرل الصامتة . لابد انه كرر هذا القول حوالى سبعمائة مرة . وفى كل مرة ترتفع شقشقات مولى لمدة عشر دقائق حول حجم الاثارة التى ينطوى عليها هذا الحدث . ثم فى هذا الصباح اصيبت باغماء عندما راتنى أرتدى هذه الملابس التى اشتريتها من جالواى ، والقت المواعظ حول اثر ذلك فى تحطيم مركزها واحراج روبرت .. تصور احراج روبرت ! لابد ان يصيبه الحرج فى كل مرة ينظر فيها إلى وجهه الغبى فى المرآة . كيف تجرؤ مولى على ان تنصحنى بالا اسبب لها العار » .

ونصحها كولام بالا تفسد متعتها بالحديث عن مولى . وتوجها لزيارة بلدة « تريم » ذات التاريخ العريق . وهناك شاهدت قلعتها الشهيرة ، والمتجر الذى كان يعمل به جامى وهو فى السادسة عشرة قبل ان يذهب إلى سافانا وهو فى الثانية والأربعين . وتحدثا إلى صاحب المتجر الذى كان لابد أن يغلق متجره ويرافق صاحبيه لمقابلة زوجته التى ستموت حزنا لو لم تسمع اخبار سافانا من شفتى كولام مباشرة ولو لم تقابل الزائرة اوهارا التى اصبحت حديث الريف لجمالها وسحرها الأمريكى . ثم كان لابد من ابلاغ الجيران بانه يوم غير عادى وبشخصية الزائرين .. واسرع الجميع إلى الغرف الواقعة فوق المتجر حتى أن سكارليت شعرت بان الجدران تهتز .

ثم إن اسرة هامونى سوف تتاذى مشاعرها إذا جاء الزائران الى بلدة تريم دون رؤيتها .. فهى عائلة مورين .. وازداد عدد المحتشدين .. ووصل الطعام وعزفت الموسيقى .

وقالت سكارليت فى طريق العودة : « هل تعتقد اننى استطيع الاقامة فى بيت دانيل ؟ إننى اكره حقا البقاء فى منزل مولى ، لماذا تضحك ياكولام » ؟ !

— « كنت اتساءل كيف اغرى مولى لكى تعطينا المركبة يوما آخر . الآن اعتقد انها مستعدة لأن تضع المركبة تحت تصرفك لحين انتهاء اقامتك هنا .. لا تتضايقى يا سكارليت ولكنها سوف تعدنى باى شىء إذا وعدتها بان انقلك إلى مكان آخر ، فهى لن تغفر لك ، ما تحدثت به حول وضع روبرت للقفاز المصنوع من جلد الجدى فى يديه وهو يعتنى بابقاره .. انها الآن القصة الرائجة فى كل مطبخ ابتداء من هذه القرية حتى مولينجر » .

واستقرت سكارليت فى الغرفة التى تقع « فوق » المطبخ فى كوخ العم دانيل الذى يتكون من غرفتين وهى تشعر براحة كبيرة .

« تارا » القديمة

كان الجو ممطرا عندما أخذها كولام إلى « تارا الحقيقية » . وصعدت سكارليت درجات حجرية غير مستوية على جانب التل الذى حكم منه ملوك ايرلندا العظام وعزفوا الموسيقى وأحبوا وكرهوا وأقاموا المآدب . وخاضوا المعارك . وفى النهاية لحقت بهم الهزيمة ولم يبق أثر لشىء .. حتى قلعة واحدة . وتلفتت سكارليت حولها ولم تر شيئا سوى بعض رؤوس الماشية ترعى فى المكان . بدا صوفها رماديا تحت سماء رمادية وضوء رمادى . وسارا ببطء عبر حشائش كثيفة فوق أرض غير مستوية . وتوقف كولام ليقول : « القديس باتريك نفسه وقف حيث نقف الآن . كان رجلا عاديا عندئذ مجرد مبشر .. والأرجح أنه لم يكن أكبر منى حجما . وحلت به القداسة فيما بعد ، وكبر فى عقول الناس ليصبح عملاقا محصنا ومسلحا بكلمة الله المقدسة .. وأعتقد أنه من الأفضل أن نتذكر أنه كان رجلا عاديا فى البداية وانه أصيب بالفزع وهو وحيد .. لا يملك سوى خفه وعباءته الصوفية الخشنة ويواجه سلطة الملك النبيل وسحرته ، ولم يكن باتريك يملك سوى إيمانه ورسالته الحقيقية والحاجة إلى إبلاغها . لابد أن الرياح كانت باردة ، وان حاجته إلى إبلاغ رسالته كانت أشبه بالشعلة التى تبدد الظلمة . لقد حطم بالفعل قانون الملك النبيل مضيئا مشعله فى ليلة حالكة فى ظل قانون ينص على ضرورة اخماد كل النيران . كان يعلم أنه يمكن أن يلقى حتفه من جراء هذا التعدى والانتهاك للقانون . وقد تحمل المخاطرة الكبرى لكى يلفت نظر الملك ولكى يثبت له عظمة الرسالة التى يحملها . لم يخش الموت . كان يخشى فقط أن يخذل الله . وقد أعطى الملك لوجير من عرشه العريق المرصع بالجواهر .. للمبشر الجسور الحق فى أن يعظ بلاعائق .. وأصبحت ايرلندا مسيحية » .

وسار كولام بضع خطوات واشار إلى سلسلة من الروابى المنخفضة ، وقال : « هذا هو كل ما تبقى من قاعة المآدب ذات الألف شمعة .. عائلة أوهارا كانت هنا .. كل الأبطال كانوا هنا .. والطعام والشراب بوفرة هائلة . والف ضيف .. والف شمعة لاضاءة القاعة » ..

هذه هى تارا القديمة .

« السفن النعوش »

في اليوم التالى ، جاء كولام ليصحبها إلى نهر بوين ، قال : « هناك شيء اريدك ان تشاهديه »

.. النهر . أسرع نبضها . شيء هناك يجذبها ويثير نفورها في نفس الوقت . بدأت السماء تمطر . وسوف تمتطى جوادا هذه المرة وبلا سرج لأول مرة . وخرجت الطيور من أوكارها وهى في الطريق إلى النهر . فقد توقف المطر . وعلى ضفة النهر . جلسا لتناول الافطار . الأشجار نمت على مقربة من النهر وزهور صفراء اللون أوراقها تتخذ شكل القلوب .. واغمضت عينيها واصغت إلى خرير المياه الهادىء وإلى حفيف أوراق الأشجار فوق راسها وإلى تغريد الطيور . قال كولام : « عندى قصة ساورويها لك ونحن ناكل .. هذه الارض التى نجلس عليها تسمى بوليهارا . منذ حوالى مائتى سنة . كانت موطن أهلك .. اهلنا . هذه هى أرض أوهارا » . وتنبهت حواس سكارليت فجاة . وواصل كولام حديثه :

« منذ الفى سنة استقر أول افراد أوهارا هنا ووضعوا أيديهم على الأرض . ومنذ الف سنة اكتشف الفايكينج الذين نسميهم الآن الاسكنديانفيين القراصنة القدامى ، ثروات أيرلندا الخضراء وحاولوا الاستيلاء عليها . وراقب الايرلنديون ـ مثل افراد أوهارا ـ الأنهار لمواجهة احتمال غزو الزوارق الطويلة التى تحمل رؤوس التنائن واقاموا تحصينات قوية ضد العدو . وتم طرد الفايكينج ، وحرث الأوهارا أرضهم وقاموا بتسمين قطعان ماشيتهم لمائتى سنة أو أكثر . وشيدوا قلعة حصينة تضم غرفاً لأنفسهم ولخدمهم .. فالأيرلنديون يتمتعون بذاكرة قوية ، ولذلك شعروا انه كما جاء الفايكينج من قبل ، فإن الغزو قد يتكرر ، وهذا ما حدث . ولم يكن الفايكينج هذه المرة وانما الانجليز الذين كانوا في وقت من الأوقات .. فرنسيين ، واستولوا على نصف أيرلندا . غير ان جماعة أوهارا كانوا هم السادة وراء اسوارهم القوية وزرعوا أرضهم لخمسمائة سنة اخرى .. إلى أن وقعت معركة بوين . وهكذا .. بعد الفى سنة من عمل أوهارا في الأرض ، اصبحت الأرض انجليزية . وتم طرد جماعة أوهارا عبر هذا الجزء الضحل من النهر .. وهم الذين تبقوا من الأرامل والأطفال . أحد هؤلاء الأطفال كبر واصبح مزارعا أجيرا لدى الانجليز عبر النهر . وكان حفيده مزارعا من نفس الحقول وتزوج جدتنا كاتى سكارليت .. وإلى جانب والده ، كان ينظر عبر المياه السمراء لبوين ويرى قلعة اوهارا تتحطم

ومنزلا انجليزيا يشيد مكانها . غير أن الاسم بقى كما هو بوليهارا »

وبكت سكارليت وهي تتذكر والدها وثورته الغاضبة وهو يتحدث عن معركة بوين . وذهب كولام إلى النهر وشرب من يديه وغسلهما ثم ملأهما بالمياه لسكارليت حتى تشرب . ومسح دموعها من أعلى خديها بأصابعه المبتلة ..

قالت سكارليت : « انتظر أن أسمع منك البقية . اعرف أن هناك المزيد . وجهك ينبىء بذلك » .

كان كولام شاحب الوجه .. يبدو وكأنه يعانى من ألم لا يطاق .

— « نعم . هناك المزيد . فقد شيدت بوليهارا الانجليزية من أجل لورد شاب . كان عادلا ووسيما مثل الاله الاغريقى أبوللو كما يقال . وظن نفسه إلها أيضا . وصمم على جعل بوليهارا اعظم مزرعة فى أيرلندا . كان يمتلك كل حجر وورقة شجر فى بوليهارا . وقرر أن تكون قريته أعظم من أى قرية اخرى أعظم من دبلن نفسها .. حتى حظائر الخيول والماشية كانت أشبه بالكاتدرائية . نوافذ قصره كانت ناصعة مثل الماس ، وحدائقه سجاد ناعم يقود إلى نهر بوين . والطواويس تنشر مراوحها المرصعة بالمجوهرات فى ممرات القصر والحديقة .. وتتهادى السيدات الجميلات بجواهرهن فى حفلاته .

كان سيد بوليهارا . وأصبح حفيده هو السيد بعد وفاته . اننى أتذكر ذلك اللورد الشاب ، كنت طفلا ، وكان يمثل بالنسبة لى كل ما هو مذهل وانيق ، كان يمتطى جوادا طويلا أغبر ، وعندما كانت حاشيته تطأ بحوافر جيادها أعواد القمح فى حقولنا بينما يصطادون الثعالب ، كان هو يلقى دائما بقطع النقود الينا نحن الأطفال . كان يجلس على حصانه طويل القامة .. نحيلا بمعطفه الوردى وبنطلونه الأبيض القصير المخصص لركوب الخيل وحذائه اللامع ذى الرقبة العالية . ولم اكن افهم السبب الذى يجعل والدى ينتزع منا قطع النقود ويكسرها ويلعن اللورد لأنه ألقى بها الينا » .

وقف كولام وبدأ يمشى على ضفة النهر وعندما واصل حكايته ، كان صوته ينبض بالتوتر الناشىء عن محاولة التحكم فى نبرته :

— « جاءت المجاعة ومعها الفناء والموت . وقال لورد بوليهارا : « لا أستطيع أن أتحمل رؤية عمالى الزراعيين فى هذا العذاب ، سوف أشترى سفينتين كبيرتين وأهيىء لهم رحلة مجانية آمنة إلى أمريكا حيث الطعام الوفير ، ولا أبالى بأن أبقارى لن تجد من يحلبها وبأن تمتلىء

حقولى بالأشواك لأنه لن يوجد من يزرعها ، إن حرصى على أهالى بوليهارا اكبر من حرصى على قطعان الماشية أو القمح » .. وقبل المزارعون والقرويون يده لطيبته .. واستعد الكثيرون منهم للرحلة . ولكن لم يكن الجميع بقادرين على تحمل آلام مفارقة ايرلندا . فقال البعض « سنبقى رغم اننا نتضور جوعا » . وأبلغوا اللورد الشاب بذلك ، فأرسل تعليماته الى انحاء الريف بأن اى رجل وامرأة يطلب أو تطلب .. مكانا شاغرا على سطح سفينته .. يعطى له أو لها مجانا وبكل سرور . ولعنه ابى مرة أخرى وثار على شقيقيه ماتيو وبرايان لقبولهما هدية الانجليزى . ولكنهما اصرا على الرحيل . وقد غرقا مع جميع المسافرين عندما غرقت السفن المتعفنة لدى وصولها إلى أعلى البحار . واستحقت اسم « السفن النعوش » . وكمن رجل من بوليهارا فى الاسطبلات ينتظر ، لم يهتم بانها جميلة مثل الكاتدرائيات . وعندما وصل اللورد الشاب لكى يمتطى جواده الأغبر الطويل ، امسك به الرجل وشنق اللورد ذا الشعر الذهبى .. شنق سيد بوليهارا .. فى البرج المطل على نهر بوين الذى كانت جماعة أوهارا تحرسه ذات يوم من السفن التنائن » .

وطارت يد سكارليت بسرعة لتضعها على فمها . كان كولام شاحبا بصورة غير عادية ويتكلم بصوت ليس صوته .

البرج ! لابد انه هو نفسه . وانطبقت يدها بشدة على شفتيها . يجب الا تتكلم . وقال كولام : « لا احد يعرف اسم الرجل الذى كان فى الحظيرة او الاسطبل .. البعض يقول اسما . والبعض يقول اسما آخر . وعندما جاء الجنود الانجليز ، لم يفصح الرجال الباقون . فى بوليهارا عن اسمه ، فقام الانجليز بشنقهم جميعا عقابا لهم على موت اللورد الشاب » .

بوليهارا مهجورة منذ قرابة ثلاثين سنة ولا أحد يقترب منها .. وعندما تجولت سكارليت فى شوارعها . رأت الجدران الحجرية الضخمة للبرج . لم يكن يوجد اسمنت بين قطع الأحجار ، ومع ذلك فإنها لم تتحرك بوصة واحدة من مكانها .. كم عمرها ؟ الف سنة ؟ الفا سنة ؟ لا يهم ، فهى لا تخشاها ، فالبرج هو مجرد مبنى ، افخم عمل راته حتى الآن ، وليس مخيفا على الاطلاق . واقتربت من الأحجار لكى تلمسها باصابعها ، قال كولام : « أنت شجاعة ياعزيزتى سكارليت . لقد حذرتك ، فهناك من يقول ان البرج مسكون بروح رجل مشنوق » .

— « هراء ! ليست هناك أشباح او اشياء من هذا القبيل . علاوة على ذلك فإن الحصان ما كان ليقترب لو كانت هناك هذه الأشياء .. كل امرىء يعرف ان الحيوانات تستطيع ان تحس بهذه الأشياء » وضعت سكارليت

يدها على الحجارة ، كانت ناعمة من تاثير العوامل الجوية فى تركيب وشكل هذه الأحجار على مر الدهور . كانت تستطيع أن تشعر بدفء الشمس فى داخلها وببرودة المطر والرياح ، حالة من الصفاء النفسى لم تشعر بها من قبل .

قال كولام : « لقد عاشت هذه الاحجار مثل شجرة قوية لها جذور قوية تضرب فى الأعماق .. إلى مركز الأرض » ..

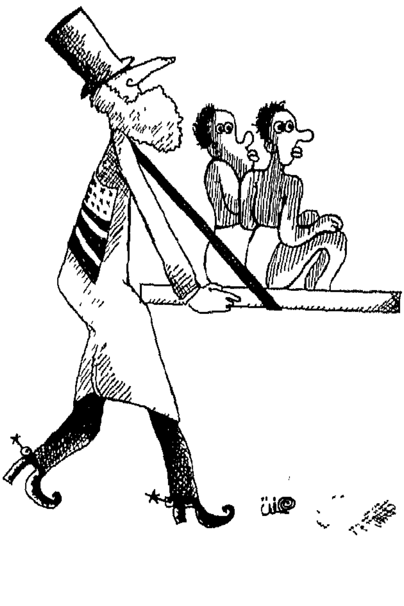
« جذور تضرب فى الأعماق » .. اين سمعت هذه العبارة من قبل ؟ طبعا قالها ريت عن شارلستون . وابتسمت سكارليت . تستطيع ان تقول له اشياء عن الجذور التى تضرب فى الاعماق . فقط سانتظر إلى ان يبدأ فى التفاخر حول عراقة شارلستون .

— « هل كان للورد بوليهارا اطفال ؟ » وقال كولام بارتياح .

— « كلا ، كانت له زوجة .. اعتقد انها عادت إلى أهلها أو ذهبت إلى ملجا ، فالبعض يقول انها اصيبت بالجنون » ..

القرية اكبر من ان تكون مجرد قرية . لا توجد بها نوافذ .. ولا يوجد باب غير محطم .. الكراهية صنعت ذلك كله .

وسالت كولام : « ما هو افضل طريق للعودة إلى البيت » ؟



عيد الميلاد المائة

اليوم عيد الميلاد المائة للجدة كاتى سكارليت .. قامت سكارليت الصغيرة بنصيبها من العمل اليدوى الشاق للاعداد للحفل . وبعد الغداء جاءت جميع نساء القرية إلى المنزل مع اطفالهن للمساهمة فى العمل . انه حفل ليس له مثيل . جميع افراد عائلة أوهارا من كل انحاء مقاطعة « ميث » وما وراءها جاءوا بعربات تجرها الحمير ومركبات تجرها الجياد أو على ظهور الجياد .. أو على الأقدام . نصف سكان بلدة تريم وصلوا .. وكل كائن حى فى « آدمزتاون » لم يتخلف عن الحضور . احضروا معهم الهدايا والأطعمة التى جرى اعدادها خصيصا للحفل رغم ان سكارليت كانت تعتقد أن هناك بالفعل طعاما يكفى جيشا باكمله . ووصلت عربة آل ماهونى من تريم محملة ببراميل من مشروب يشبه الجعة ، وكذلك فعل جيم ديلى القادم من مولينجر . وركب سيماس (ابن دانيل الأكبر) حصان المحراث الى تريم وعاد حاملا على ظهره صندوقا من الغلايين المصنوعة من الصلصال وجوالين من التبغ معلقين فى رقبته مثل السرج لأن كل رجل - وعديدا من النساء ايضا - يجب اعطاؤهم غليونا جديدا فى هذه المناسبة البالغة الأهمية ..

واستقبلت جدة سكارليت سيلا من الضيوف والهدايا .. وهى جالسة كالملكة فى مقعدها عالى الظهر مرتدية فوق ثوبها الحريرى الأسود قلادتها الجديدة التى اهدتها اليها سكارليت الصغيرة .. يغلبها نعاس خفيف عندما تشعر برغبة فى ذلك ، وتشرب الويسكى مخلوطا بالشاى . ومع مضى الوقت تجمع أكثر من ثلثمائة شخص داخل وخارج الكوخ الصغير ، جاءوا لتكريم كاتى سكارليت فى عيد ميلادها المائة .. وبدأ عزف الموسيقى الى ما لا نهاية ، كما استمر الرقص حتى الصباح فى باحة المزرعة ولم ينم أحد باستثناء كاتى سكارليت العجوز عندما كانت ترغب فى ذلك .

قالت سكارليت « لم أكن اتصور أن هناك حفلا مثل هذا الحفل » . كانت تلهث قليلا قبل أن تعود للانضمام الى الرقص مع شروق الشمس .

وتعجب ابناء العم المصدومون مما سمعوا والذين جاءوا من حيث لا تدرى : « هل تعنين انك لم تحتفلى أبدا بعيد مايو » ؟ .. وقال تيموتى اوهارا « يجب ان تطيلى بقاءك حتى عيد مايو ياكاتى سكارليت الصغيرة » وانضم اليه « كورس » من المشجعين .

— « لا استطيع ، يجب أن نلحق بالسفينة » .

— « هناك سفن اخرى بالتاكيد » .

وقفزت سكارليت من مقعدها ، فقد استراحت بما فيه الكفاية والآن تبدا جولة جديدة من رقصة الريل ، وبدأ السؤال يتردد فى ذهنها : « هناك سفن أخرى بالتاكيد » فلماذا لا تبقى وتستمتع برقص لذيذ لفترة اطول ؟ ستظل شارلستون باقية هناك ، وعندما تعود ستجدها كما هى .. نفس حفلات الشاى فى نفس البيوت المتداعية وراء نفس الجدران العالية الكئيبة ، وسيكون ريت لا يزال هناك ايضا سادعه ينتظر لقد انتظرته طويلا فى اتلانتا ، غير أن الأمور مختلفة الآن ، فالجنين فى احشائها جعل ريت ملكا لها فى اى وقت تريد ، ان تطالب به ، نعم لقد قررت البقاء حتى عيد مايو فهى تستمتع بوقتها .

وفى اليوم التالى سالت كولام عما إذا كان يعرف شيئا عن مواعيد ابحار سفن بعد عيد مايو . وكانت هناك بالفعل سفينة اخرى فاخرة سوف تتوقف أولا فى بوسطن حيث ينزل منها كولام وتستكمل هى وبريدى الرحلة فيها إلى سافانا . وقال كولام :

— « سوف تبحر فى مساء التاسع من مايو ، وسيكون لديك نصف يوم فقط للتسوق فى جالواى » لم تكن فى حاجة حتى إلى هذا الوقت للتسوق ، فليس هناك فى شارلستون من سيرتدى جوارب او ثيابا من جالواى ، فهى فاتحة جدا وسوقية ، وسوف تحتفظ ببعض ما اشترته منها على سبيل التذكار وستعطى الباقى لكاثلين والأصدقاء الجدد فى القرية الايرلندية ..

— « التاسع من مايو . انه موعد متاخرا جدا عما كنا نريده ياكولام » .

— « انه مجرد اسبوع ويوم واحد بعد عيد مايو . الزمن سوف يسقط ياسكارليت فور ان يموت الانسان » .

هذا صحيح ! لن تتاح لها هذه الفرصة مرة اخرى . علاوة على انها ستفعل شيئا طيبا لكولام . فاضطراره إلى القيام برحلة اخرى عائدا من سافانا إلى بوسطن سيكون مشقة حقيقية بالنسبة له وبعد ان كان رفيقا معها إلى هذا الحد ، فإن هذا هو اقل ما تفعله من اجله ..

تسلم كولام خطابا من جامي فى سافانا .. كان الخطاب يحتوى على رسالة من توم ماكماهون ، مقاول الكاتدرائية ، يعلن فيها أن الأسقف ـ بعد قليل من الاقناع ـ وافق على السماح لسكارليت بان تسترد دوطة شقيقتها . تارا . يا « تارتى » سوف اصنع اشياء رائعة .. ولكن سكارليت توقفت عن مواصلة قراءة الرسالة .

— « ما هذا ! كولام ، هل رايت هذا ؟ هذا الأسقف الخسيس يطلب خمسة آلاف دولار نظير نصيب شقيقتى كارين .. ثلث تارا ! يا إلهى ! إنك تستطيع ان تشترى كل مقاطعة كليتون مقابل خمسة آلاف دولار .. يجب عليه ان يخفض الثمن » .. وقال لها كولام ان اساقفة الكنيسة لا يساومون ، فإذا كانت تريد الدوطة ، ولديها المال ، فإنها يجب ان تدفعه ، وستكون بذلك قد ساهمت فى عمل الكنيسة ، وربما تعطيها هذه المساهمة الاحساس بأن الصفقة مقبولة .

— « انت تعرف انها غير مقبولة ياكولام . اننى اكره ان يعاملنى احد على اننى مغفلة بلهاء حتى لو صدرت هذه المعاملة من الكنسية .. انى اسفة إذا كان ما اقوله يضايقك ، مازلت أريد تارا ، آه كم كنت حمقاء إذ وافقتك على البقاء لمدة اطول . كان يمكن ان نكون فى طريقنا إلى سافانا الآن » ! ولم يعلق كولام ، وغادرها ، وهى تبحث عن ورقة وقلم :

— « يجب ان اكتب إلى العم هنرى هاميلتون فورا ، إنه يستطيع ان يدبر كل شىء . وسوف يسوى الأمر عندما اصل إلى هناك » ..

توجهت سكارليت إلى بلدة تريم وحدها . فقد كانت كل من كاثلين وبريدى مستغرقتين فى العمل بالمزرعة . اما كولام فقد اختفى دون ان يخبر احدا إلى اين سيذهب او متى يعود . واشترت سكارليت من تريم بعض الأوانى الفخارية التى تعجبها .. والتى كانت كاثلين تستخدمها فى المطبخ كما اشترت مجموعة من السلال من كل الاشكال وكميات كبيرة من الملابس المصنوعة من الكتان والبياضات . إنها تريد ان تجعل المطبخ فى تارا دافئا وحميما مثل المطبخ الايرلندى . اليس اسم تارا ايرلنديا ؟ اما عن ويل وسوايلين فانها ستكون سخية معهما لان ويل يستحق ذلك ، وهناك مساحات كبيرة من الأرض الطيبة تنتظر من يشتريها فى المقاطعة ، ويمكن ان يحضر « ويد » و « ايلا » للاقامة معها ، هى وريت ، فى شارلستون . فقد كان ريت يعتز بهما حقا . وسوف تجد لهما المدرسة المناسبة . وقد يظهر العبوس على وجه ريت كما كان يفعل عادة بسبب طريقة معاملتى

لهما ، ولكن عندما يولد الطفل ويرى كم أحبه سيكف عن توجيه الانتقادات لى طول الوقت . وفى الصيف سوف يذهبون الى تارا .. التى ستكون قد ولدت من جديد .

كانت سكارليت تعرف انها تبنى قصورا فى الهواء ، فقد لا يغادر ريت شارلستون بتاتا ، وفى هذه الحالة سوف تكتفى بزيارات عرضية بين وقت وآخر لتارا .. ولكن لماذا لا تكون احلام اليقظة هى كل ما تريده فى يوم جميل كهذا من أيام الربيع ؟

● ● ●

كل الوعود التى قيلت حول احتفال عيد مايو .. تحققت بالفعل . فقد كان هناك طعام ورقص فى كل شارع فى بلدة « تريم » .. وعلى الحشائش الواقعة داخل جدران القلعة المحطمة . وعادت سكارليت إلى البيت مع طلوع الفجر . سارت على قدميها مسافة الأميال الاربعة مع بقية الاسرة لأنها لم تكن تريد لهذه الليلة أن تنتهى رغم طلوع النهار بالفعل ! ولأنها بدأت تشعر بأنها سوف تفتقد أبناء وبنات عمومتها وكل الناس الذين التقت بهم فى هذا المكان . ومع أنها كانت تتطلع الى العودة الى أمريكا لتسوية الأمور التفصيلية المعلقة بشأن تارا ، إلا أنها كانت مسرورة لبقائها لحضور عيد مايو . لم يبق سوى اسبوع . واحست انه مدة صغيرة جدا .

● ● ●

وضع كولام ظرفا على المائدة الى جانب سكارليت ، وقال : « هناك بريد وصل باسمك .. وهذا فنجان من الشاى لك عندما تشائين » .. كانت سكارليت تجلس امام كوخ كاثلين .

التقطت الظرف ورفعته لكى يكون قريبا من الباب حتى يسقط عليه ضوء المصباح الغازى . كان مرسلا فى الأصل الى عنوان جدها ولكنه ـ وفقا للطوابع والأختام التى تتزاحم فوق المظروف ـ لم يرسله إلى مورين اوهارا فى سافانا إلا بعد اسابيع .. وفتحت المظروف فى عجلة . كان يحتوى على ورقة مرسلة من احد المكاتب الحكومية فى اتلانتا .. وموجها الى عنوانها فى شارع بيتشترى ..

انها تأمل الا تكون قد نسيت تسديد ضريبة ما أو شىء من هذا القبيل ، فهى تحتاج إلى اموال للأسقف من اجل تارا إلى جانب التكاليف التى تتحملها فى تشييد المنازل فى اطراف اتلانتا .. وكل ذلك على حساب مدخراتها التى تتناقص ، كما انها ستحتاج إلى الكثير من اجل العمل فى تارا ، إلى جانب ما ستحتاجه لشراء مكان لـ « ويل » . ولذا فإنها فى غنى الآن عن

دفع غرامات مالية متأخرة لأى جهة ، ولمست بأصابعها الكيس الموضوع تحت قميصها .. لا . ! أموال ريت .. هى أموال ريت ..

● ● ●

تاريخ الوثيقة هو ٢٦ مارس ١٨٧٥ ، نفس اليوم الذى أبحرت فيه من سافانا على السفينة « برايان بورو » ومرت عينا سكارليت بسرعة على السطور القليلة الأولى ثم توقفت ولم تفهم شيئا .. وعادت إلى بداية الوثيقة وشرعت فى القراءة ببطء . وامتقع وجهها بشدة :

« كاثلين ، أين كولام ، هل تعرفين مكانه » ؟

— « انه مع العجوز فيما أعتقد ... »

— « لا أستطيع الانتظار .. » لابد أن ترى كولام . شىء مخيف قد حدث لابد أن تسافر اليوم .. هذه الدقيقة . يجب أن تعود إلى أمريكا .

الهدوء غير الطبيعى الذى كان يسيطر على سكارليت .. زال تماما عندما وصل كولام . وأخذت تصرخ عندما اقتربت منه :

— « خذنى إلى بيتى ياكولام . اللعنة عليك وعلى كل عائلة أوهارا وعلى ايرلندا . ما كان يجب أن أغادر الوطن على الاطلاق » كانت يدها مضمومة بطريقة مؤلمة .. أظافرها انغرست فى لحمها .. وفى داخلها وثيقة تكورت فى يدها من ولاية جورجيا ذات السيادة بانها وضعت فى سجلاتها مرسوم الطلاق الممنوح للمدعو ريت كينيكات باتلر بسبب هجر زوجته المدعوة سكارليت أوهارا باتلر له وقد أصدر المرسوم المنطقة العسكرية لكارولينا الجنوبية التى تديرها الحكومة الفيدرالية للولايات المتحدة الأمريكية .

قالت سكارليت : « ليس هناك طلاق فى كارولينا الجنوبية .. اثنان من المحامين ذكرا لى ذلك » .. وكررت نفس العبارة مرة بعد أخرى إلى أن بح صوتها وعجزت عن اخراج صوت من حلقها .. فأخذت شفتاها تتحركان بنفس الكلمات فى صمت .. وعقلها يردد العبارة ذاتها .. مرات ومرات

اقتادها كولام إلى ركن هادىء من حديقة الخضراوات أمام البيت . وجلس بجانبها ، وبدأ يتحدث ولكنه لم يستطع أن يحملها على الاصغاء ، فأخذ يديها المضمومتين فى يديه بروح المواساة . وجلس فى هدوء بجانبها . وجاءت بريدى تبحث عنهما للاعلان عن طعام العشاء . وقال لها كولام « سكارليت ليست على مايرام يابريدى ، أبلغيهم فى البيت ألا يقلقوا ، انها تحتاج فقط إلى بعض الوقت لكى تتغلب على الصدمة ، فقد وصلت أخبار من أمريكا ، بأن زوجها مريض جدا ، وهى تخشى أن يموت دون أن تكون إلى جانبه » .

واسرعت بريدى لنقل الاخبار . وقالت إن سكارليت تصلى . وأدت الأسرة الصلاة أيضا . وعندما شرع أفرادها في نهاية المطاف في تناول الطعام ، كان قد اصبح باردا .. وقال دانيل « خذ فانوسا وضعه في الخارج للاضاءة ياتيموتي » . وانعكست اضواء من عيني سكارليت الزجاجيتين .

— « ارسلت كاثلين شالا ايضا » . همس تيموتي . وأوما كولام ، ووضع الشال على كتفي سكارليت ، وأشار إلى تيموتي لكي يبتعد

ومضت ساعة أخرى . ولمعت نجوم في سماء غاب عنها القمر ، وأخذت ترسل أضواء اقوى من ضوء الفانوس .

— « ماذا يجب أن افعل ؟ » كان صوت سكارليت الخشن مرتفعا في الظلام . وتنهد كولام بهدوء وشكر الله . فقد تجاوزت سكارليت أسوا فترات الصدمة .

— « سنعود إلى امريكا كما وضعنا خطتنا ياسكارليت حبيبتي . لم يقع شيء يستحيل علاجه » كان صوته هادئا وواثقا ومسكنا .

— « مطلقة » !

صعود مقلق في درجة الهستيريا في الصوت المعطوب المشروخ . وفرك كولام يديها بخفة وسرعة ..

— « ماحدث يمكن التراجع عنه ياسكارليت » .

— « كان يجب أن ابقى . لن اغفر لنفسي أبدا .. »

— « اصمتي الآن . كلمات مثل « لو لم افعل كذا » لن تحل شيئا . ان مايستحق التفكير هو ماسيحدث بعد الآن » .

— « انه لن يعيدني ابدا . لو لم يكن قلبه قاسيا لما طلقني . لقد ظللت انتظر أن يلحق بي ياكولام . كنت واثقة تماما من انه سيفعل . كيف تأتى ان اكون غبية إلى هذا الحد ؟ انت لاتعرف كل شيء . انني حامل ياكولام كيف انجب وليدا وانا بلا زوج » ؟ قال كولام بهدوء ، تعبيرا عن الرضا والتشجيع : « هو ذا .. هو ذا ، الا يعني ذلك ان المسالة ليست صعبة . كل ما عليك ان تفعليه هو ابلاغه بذلك » . وامتدت يدا سكارليت بسرعة إلى بطنها . طبعا ! كيف اصبحت حمقاء إلى هذه الدرجة ؟

ضحكة جريحة انحشرت في حلقها .

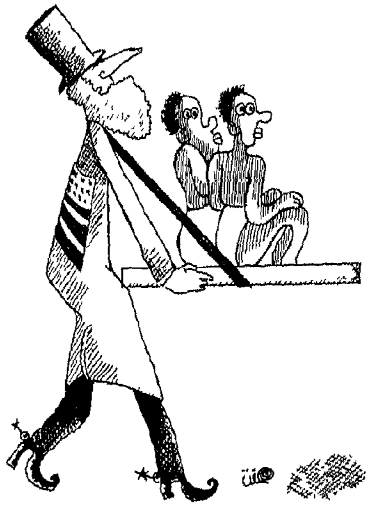
لاتوجد قطعة من الورق في الدنيا يمكن ان تجعل ريت باتلر يتخلى عن وليده . انه يستطيع ان يلغي الطلاق وأن يستاصل اجراءاته ووثائقه من كل السجلات . ريت يستطيع أن يفعل أى شيء . لقد برهن على ذلك مرة

اخرى . فلا يوجد طلاق فى كارولينا الجنوبية ما لم يحزم ريت باتلر أمره لكى يحصل عليه .

— « أريد أن أسافر الآن فورا ياكولام . لابد أن هناك سفينة ستبحر قبل التاسع من مايو . سوف يصيبنى الجنون إذا انتظرت أكثر من ذلك » .

— « سنغادر فى ساعة مبكرة من صباح الجمعة ياسكارليت حبيبتى ، وسوف تبحر السفينة يوم السبت . وإذا تحركنا من هنا غدا سيكون أمامنا يوم قبل الابحار . الا تفضلين تمضية هذا اليوم هنا ؟ »

— « لا . اريد ان اشعر باننى مسافرة ، حتى ولو لجزء من الطريق ، فإن هذه المسافة تعنى اننى اتجه عائدة إلى ريت . كل شىء يمكن علاجه ، سوف أجعل الأمور تمضى فى الطريق الصحيح . وسيكون كل شىء على مايرام .. اليس كذلك ياكولام ؟ » ..



الصـــــــــدمـــــة

مثل الكثيرين ممن سبقوه .. وقع كولام في خطأ التقليل من تقدير قوة سكارليت أوهارا . فقد اعدت عدتها للسفر بنشاط ، بينما كان يروج لقصتها الحزينة حول مرض زوجها حتى لا يتعجب الأهل والأصدقاء ويتساءلون عن السبب الذى جعل الأمريكية أوهارا ترحل مثل اللصة في الليل دون كلمة وداع . ولكنها قامت بتوديع العائلة . فقط أثناء توديع كاتى سكارليت العجوز لم تتمالك نفسها وانهارت . قال الجدة : « الله معك والقديسون يرشدون خطواتك . انني سعيدة لأنك حضرت هنا من أجل عيد ميلادى يا ابنة جيرالد . الشيء المؤسف الوحيد هو انك لن تحضرى السهر على جثتي قبل دفنها . لماذا تبكين يافتاة ؟ ألا تعرفين أنه لايوجد حفل أعظم من حفل الميت ؟ »

جلست سكارليت صامتة في العربة التي اقلتها إلى مولينجر وفي القطار الذى اقلها إلى جالواى وفي صحبتها كولام وبريدى .

وبعد ان استقر بهم الحال في الفندق في جالواى ، أصرت سكارليت على أن تصحب كولام إلى الميناء للاطمئنان على موعد سفر السفينة التي ستقلهم إلى أمريكا واسمها « نجمة المساء » . وهناك التقى كولام بطريق المصادفة مع احد أقربائه ويدعى فرانك ماهونى . كان يحمل معه جوالين من البريد من السفينة التي وصلت للتو من امريكا . وقال لكولام . ـ « هل تحب أن تلقى نظرة على الجوالين ام تفضل الانتظار لحين عودتك إلى وطنك ايرلندا لكى تقرأ رسائل الحب التي تصل إليك » ؟

ـ « هذا فضل منك يافرانك . سالقى نظرة لو سمحت لى » . وفتح كولام الجوال القريب من قدميه واخذ يفتش بين الرسائل إلى أن قال « إن الحظ يحالفنى اليوم » .. فقد وجد بسهولة رسالة موجهة إليه من سافانا . ووجد مظروفا صغيرا داخل مظروفه الكبير . وقال : « هذا لك ياسكارليت » . ووضع المظروف الأزرق في يدها . وشرع كولام في قراءة رسالته القادمة من ستيفن عندما سمع صيحة ممتدة وشعر بثقل ينزلق بجانبه . وقبل أن يمد ذراعيه . كانت ترقد عند قدميه . لقد فقدت الوعى .

حملها كولام إلى عربة بمساعدة بريدى ، وعاد إلى الفندق وطلب احد الأطباء لفحصها .. وبدأ كولام يشعر لأول مرة بقلق على صحة سكارليت .

● ● ●

قال الطبيب وهو يغادر غرفة نوم سكارليت في الفندق : « لقد أغمى عليها ، هذا هو كل شيء يا أبى ، ولكنها اغماءة شديدة . لقد تركت بعض

الحلويات مع الفتاة لكى تتناولها .. ثم أن هؤلاء السيدات سيوقفن الدورة الدموية فى أجسامهن بسبب الملابس التى يستخدمنها وفقا للموضة . ومع ذلك لاداعى للقلق . سوف تستعيد صحتها » شكره كولام ودفع له وودعه عند الباب . كان مهموما يسأل نفسه عما إذا كانت سكارليت ستعود كما كانت .

الأوراق المنبعجة التى بللها الما. والموضوعة على المائدة بجانبه هى الرسالة التى تسلمتها سكارليت ووسط هذه الأوراق قصاصة من صحيفة جاء فيها :

« فى حفل خاص أقيم أمس فى الدار المتحدة للأرامل والأيتام ، عقد قران الآنسة آن هامبتون على السيد ريت بتلر » .



مواجهة الفشل

أفاقت سكارليت لكى تجد نفسها على سرير غرفة الفندق .. واستعادت ما حدث . لقد فقدت ريت . طلقها ، وتزوج أن هامبتون . انها لاتستطيع ان تصدق . ولكنها يجب أن تفعل . فهو صحيح . لماذا ؟ لماذا فعل مثل هذا الشيء ؟ لقد كانت على يقين من انه يحبها . ليس فى استطاعته أن يفعل ذلك . ليس فى استطاعته . ولكنه فعلها .

انني لم أعرفه قط . سمعت سكارليت هذه الكلمات كما لو كانت قد قالتها بصوت عال . انني لم أعرفه على الاطلاق . من هو هذا الشخص الذى أحببته ؟ طفل من الذى أحمله فى أحشائى ؟ ما هو مصيرى ؟

فى تلك الليلة ، وفى الظلمة المخيفة داخل غرفة صغيرة فى فندق فى بلد على مسافة آلاف الأميال من وطنها . أقدمت سكارليت على أشجع خطوة كانت مدعوة إلى اتخاذها طوال حياتها .. وهى مواجهة الفشل .

انها غلطتى . كان يجب أن أعود إلى شارلستون فور أن علمت أننى حامل ، ولكنى اخترت الاستمتاع ، وهذه الأسابيع من المتعة كلفتنى السعادة الوحيدة التى أحرص عليها بحق . انني لم أفكر فيما سيعتقده ريت عندما أهرب بعيدا . لم أفكر فيما سيحدث فى اليوم التالى ، بل لم أفكر على الاطلاق . ولم أفكر فى يوم من الأيام .

كل الأخطاء التى نجمت عن الطيش وعدم التروى فى كل حياتها تجمعت أمامها فى الصمت الحالك هذه الليلة ، وارغمت نفسها على أن تنظر إليها وتواجهها .

تشارلس هاميلتون ، لقد تزوجته نكاية فى آشلى . ولم تكن تهتم على الاطلاق بذلك الرجل الذى تزوجته .

فرانك كنيدى ، كانت بشعة فى موقفها منه ، كذبت عليه بشأن سوايلين لكى يقدم على الزواج منها بدلا من سوايلين ولكى يعطيها نقودا تنقذ بها تارا .

ريت . أوه ، لقد ارتكبت العديد من الأخطاء التى لايمكن أن تحصى . لقد تزوجته وهى لم تكن تحبه ، ولم تبذل أدنى جهد لتجعله سعيدا ، ولم تهتم فى يوم من الأيام بأن حالته هى حالة رجل غير سعيد .. إلى أن فات الوقت .

يا إلهى .. اغفر لى . انني لم أفكر يوما فيما افعله لهم ، ولم أفكر فى أحاسيسهم . لقد آذيتهم وأسأت إليهم وجرحت مشاعرهم .. جميعا ، لأنني لم أتوقف لحظة لكى أفكر .

وميلانى أيضا ، خاصة ميلانى . لا استطيع ان أتحمل ان أتذكر كيف كنت شريرة معها . ولم أشعر أبدا بالامتنان تجاه الطريقة التى احبتنى بها ووقفت بواسطتها إلى جانبى . بل اننى لم أقل لها قط اننى أحبها لأننى لم أفكر فى ذلك حتى حلت النهاية ، عندما لم تكن هناك فرصة لأن يقال أى شىء .

هل حدث اننى انتبهت مرة واحدة لما افعله ؟ هل فكرت ، ولو مرة واحدة ، فى عواقب ما افعله ؟ اليأس والخجل استحوذا على قلب سكارليت . كيف أمكن أن تكون بهذا القدر من الحماقة . انها تحتقر الحمقى .

واطبقت يديها وتصلب فكرها .. انها لن تسمح باستعادة ذكريات الماضى والشعور بالأسى نحو نفسها . انها لن تبكى حالها لاى شخص آخر ولا لنفسها . وحملقت فى الظلام فوقها بعينيها الجافتين انها لن تبكى . ليس الآن . أمامها بقية العمر كله لكى تبكى . الآن عليها أن تفكر ، وأن تفكر بعناية ، قبل أن تقرر ماستفعله . يجب أن تفكر فى الجنين ..

وللحظة واحدة .. كرهته . كرهت أن يزداد سمك خصرها والانتفاخ الذى سيصيب جسمها . كان من المفترض ان يعيد هذا الجنين إليها ريت ولكن لم يحدث . هناك اشياء تستطيع النساء أن تفعلها . لقد سمعت عن نساء يتخلصن من الأطفال غير المرغوب فيهم .. ريت لن يسامحها أبدا إذا فعلت ذلك . وما الفرق ؟ لقد تركها ريت إلى الأبد .

نشيج مكبوت أفلت من بين شفتيها رغم كل قوة إرادتها . ضائعة . لقد فقدته . اننى مهزومة . وريت هو المنتصر . واجتاحها غضب مفاجىء .. أعاد الحياة إلى جسمها وروحها .

لقد هزمت ، ولكنى ساواجهك ياريت باتلر . ساضربك على نحو أقسى مما ضربتنى .

ووضعت يديها برفق على بطنها . كلا ، انها لن تتخلص من الطفل ، بل ستحرص عليه أكثر من أى طفل فى تاريخ العالم بأسره ، واحتشدت فى مخيلتها صور ريت وبونى . لقد أحب بونى دائما أكثر مما أحبنى . انه سيقدم أى شىء ، سيقدم حياته لكى يعيدها . ستكون عندى بونى جديدة ، كلها ملكى . وعندما تكبر بما فيه الكفاية ، وعندما تحبنى أنا فقط أكثر من أى شىء أو أى شخص على الأرض ، عندئذ سأدع ريت يراها .. ويرى ما فقده ..

ما هذا الذى أفكر فيه ؟ لابد أننى جننت . منذ دقيقة واحدة فقط ، ادركت إلى أى مدى الحقت به الأذى وأسات اليه ، وكرهت نفسى . والآن ،

أنا أكرهه وأخطط لايذائه على نحو أسوأ   لن أكون كذلك . ولن أتخيل مثل هذه الأمور .

لقد ذهب ريت . واعترفت بذلك   ولا أستطيع أن أدع نفسى للاستسلام للأحزان أو رغبات الانتقام . هذا اهدار للوقت بينما يجب أن أصنع حياة جديدة من لاشىء . ويجب أن أجد شيئا جديدا ، شيئا هاما ، شيئا أعيش من أجله ..

وعندما بدأ ضجيج الأصوات فى الشارع يعلن عن صباح جديد .. عاد كل شىء إلى مكانه فى عقلها . وعرفت سكارليت ما يجب عليها أن تفعله

أنا أيرلندية حرة

جلست سكارليت إلى منضدة الكتابة فى غرفتها بالفندق وأخذت تكتب صفحات تلو الصفحات . وفرغت من كتابة رسالتين . وشرعت فى كتابة الرسالة الثالثة التى تمنح تفويضا لهنرى هاميلتون بإدارة شئونها فى اتلانتا وحق التصرف فى كميات الذهب التى وضعتها فى بنك اتلانتا . لاخوف من أن يغشها المحامى العجوز . ولكن الذى يعتصر قلبها الآن انها لن تعرف شيئا عما يجرى . انها تعطيه الاشراف على اموالها وسلامتها ونجاحها . وارتفع انينها : « لا أستطيع أن افعل ذلك » ! ولكنها واصلت الكتابة ، فهذا ما يجب أن تفعله . انها ستمنح نفسها اجازة طويلة ـ هكذا تكتب ـ وستقوم ببعض الأسفار ، ولن يستطيع أحد أن يتصل بها ، وهى بلا عنوان يمكن أن يصل اليه البريد . فمن الضرورى قطع كل الخيوط حتى لايستطيع ريت ان يقتفى اثرها . وينبغى الا يعرف شيئا عن الطفل إلى ان يقع اختيارها على التوقيت المناسب لذلك .

ولكن كيف ستتحمل أن تجهل تماما ما يفعله العم هنرى بأموالها ؟ او ما وصلت اليه حالة الرعب التى تسيطر على دوائر المال والاعمال هناك مما يهدد مدخراتها ؟ أو ما إذا كان منزلها قد احترق ؟ او ماهو أسوأ .. متجرها ؟ لابد من تحمل ذلك . وتحرك القلم بسرعة عبر الصفحات .. يفضى بتفاصيل التعليمات . وعندما جاءت بريدى ، كانت كل الرسائل جاهزة .

وبعد ثلاثين دقيقة كانت تدق باب غرفة كولام فى الفندق : ـ « هل ستحمى ملابسك الدينية .. سمعتك إذا دخلت غرفتك ؟ عندى أشياء خاصة اقولها لك » .

وضعت الرسائل الثلاث التى أعدتها على المنضدة ، وقالت : ـ « ساحدثك عن هذه الرسائل بعد دقيقة . ولكن أولا يجب أن أخبرك إننى لن اذهب معك انت وبريدى إلى امريكا . اننى سابقى فى أيرلندا » ورفعت يدها « لا .. لاتقل شيئا . لقد فكرت جيدا فى هذا الأمر . لم يعد لى شىء فى امريكا بعد الآن » .

— « كلا ياسكارليت ياعزيزتى . انت متعجلة جدا . ألم أقل لك إنه لاشىء حدث يستحيل التراجع عنه ؟ لقد حصل زوجك على الطلاق مرة ، وسيحصل عليه مرة اخرى عندما تعودين وتخبرينه عن الطفل » .

— « انت مخطىء ياكولام » . ريت لن يطلق أن ابدا . انها من نوعه ومن اهله فى شارلستون . وبالاضافة إلى ذلك ، فانها مثل ميلانى هذا لايعنى شيئا بالنسبة لك ، فانت لم تعرف ميلى قط . ولكن ريت عرفها ، وعرف

أنها من النوع النادر . عرف ذلك قبل أن أعرفه أنا بوقت طويل . وقد كان يكن الاحترام لميلى . وهى المراة الوحيدة التى احترمها بحق باستثناء ـ ربما ـ والدته . وقد اعجب بها على النحو الذى تستحقه . وهذه الفتاة التى تزوجها تساوى عشرا من امثالى . مثلما كانت ميلى . وريت يعرف ذلك . وهى تساوى عشرة من امثال ريت ايضا ، ولكنها تحبه .. »

كانت كلماتها تطفح بمرارة وحشية . وحدث كولام نفسه : لابد ان هناك طريقة لمساعدتها . وقال لها : ـ « انت تحصلين على تارا العزيزة عليك الآن ياكاتى سكارليت ، وعندك أحلامك بشانها . الا يجعلك ذلك تشعرين بالراحة إلى أن يلتئم قلبك ؟ تستطيعين ان تشيدى العالم الذى تريدينه للطفل الذى تحملينه .. مزرعة كبرى من صنع جده ووالدته . وإذا كان ولدا فسوف تسمينه جيرالد » .

— « انت لاتفكر فى شىء لم افكر فيه بالفعل . شكرا ، ولكنك لن تستطيع ان تجد اجابة إذا لم استطع انا ان أجد هذه الاجابة ياكولام صدقنى . هناك شىء واحد . أن عندى طفلا . ولا استطيع ان اعود إلى تارا بعد ولادته ، فالناس لن يصدقوا أبدا ان هذا الطفل نتاج فترة الزوجية . ففى المقاطعة وفى اتلانتا كان ظن الناس اننى لست افضل مما يجب ان أكون . وقد تركت شارلستون فى اليوم الذى أعقب .. الذى اعقب بدء الحمل .. ولن يصدق احد ابدا ان هذا طفل ريت . فقد كنا ننام فى غرفتين منفصلتين لسنوات . سوف يعتبروننى عاهرة وان طفلى ولد سفاحا .. »

ظهر اثر الكلمات القبيحة على شفتيها الملتويتين .

— « لا .. لا .. ياسكارليت . لن يكون الأمر كذلك . هذا ما لن يحدث .. فزوجك يعرف الحقيقة ، وسيعترف بالطفل » .

وتوهجت عينا سكارليت : « حسنا ، سيعترف وياخذ الطفل منى . كولام . انت لا تتصور شعور ريت من ناحية الأطفال .. اطفاله .. انه مثل مجنون بالحب . فهو لابد أن يمتلك الطفل .. سياخذه مع اول شهيق فى جسمه الضئيل . لاتتصور انه لايستطيع ان يفعل ذلك . فقد حصل على الطلاق فى ظروف يستحيل فيها الحصول على الطلاق . فهو سيغير اى قانون أو يستصدر قانونا جديدا . فلا يوجد شىء لايستطيع ان يعمله .. »

صوتها أصبح اكثر خفوتا واقرب إلى النعومة . ولم يبق سوى البريق الذى يتالق فى عينيها الخضراوين ، وظهرت ابتسامة على شفتيها .. الامر الذى جعل كولام أوهارا يتجمد ساكنا . قالت :

« هذا هو طفلى .. طفلى وحدى . ولن يعرف عنه ابدا حتى يجىء الوقت

حتذى أريده ان يعرف فيه . عندما يكون الوقت متأخر جدا بالنسبة له . انى اتمنى أن أنجب فتاة ، فتاة جميلة ذات عينين زرقاوين .. »

خرجت منها ضحكة مزعجة :

« مسكين كولام ، لابد انك سمعت عن المرأة المحتقرة . لا تؤرقك الصدمة . ولاتضطرب ، لن اخيفك بعد الآن »

وابتسمت وهى تقول : « أعرف أنك تحاول أن تساعدنى ، وأشعر بامتنان نحوك . لقد كنت صديقا طيبا معى ، ربما افضل صديق عرفته حتى الآن ماعدا ميلى . انت مثل الشقيق . وكنت أتمنى دائما أن يكون لى شقيق . وآمل ان تكون صديقى على الدوام » .

وأكد لها كولام أنه سيكون كذلك . وقالت سكارليت :

— « اريدك أن تأخذ هذه الرسائل إلى أمريكا من أجلى ، أرجوك ياكولام . هذه الرسالة لخالتى بولين . اريدها ان تعرف اننى تلقيت رسالتها ، وسوف تستمد من رسالتى اللذة التى تشعر بها وهى تقول للناس : « ألم اقل لكم » . وهذه الرسالة لمحامىَّ فى اتلانتا ، فهناك اعمال يجب تسويتها . والرسالتان يجب ان تبعث بهما من بوسطن ، فانا لا اريد ان يعرف أحد المكان الذى اقيم فيه اما هذه الرسالة الثالثة فاننى اريدك أن تتولى تسليمها بنفسك . وذلك يعنى ان تقوم برحلة أخرى ، ولكنها مهمة للغاية . انها لبنك سافانا .. حيث احتفظ بكوم من الذهب ومجوهراتى فى خزانته ، واننى اعتمد عليك فى أن تحمل هذه الأشياء وتأتى بها سالمة وتسلمها لى .. والآن احتاج لمحامى اثق به ، إذا كان لمثل هذا المحامى وجود ، وارجو أن تدلنى عليه . سوف استخدم نقود ريت باتلر . سوف اشترى بوليهارا حيث بدأت عائلة أوهارا . وهذا الطفل سيكون له ميراث لن يستطيع والد توريثه لابنه . سوف أريه شيئا عن الجذور التى تضرب فى الأعماق » .

— « سكارليت ياعزيزتى . اتوسل اليك . تمهلى قليلا . نستطيع البقاء فى جالواى لفترة نعتنى خلالها ـ أنا وبريدى ـ بك ، أنت لم تتغلبى على الصدمة . لقد جاءت الواحدة تلو الأخرى . كان هذا كثيرا وفوق الاحتمال بالنسبة لك ، ولذا ليس هذا وقت اتخاذ مثل هذه القرارات الكبرى »

— « انت تعتقد اننى فقدت صوابى . ربما . ولكن هذه طريقتى ياكولام . وسوف اتمسك بها سواء بمساعدتك أو بدونها . لامبرر لبقائك انت وبريدى . سوف اذهب غدا إلى بيت دانيل واطلب منهم أن يسمحوا لى بالاقامة معهم مرة اخرى إلى ان احصل على بوليهارا . وإذا كنت ترى اننى فى حاجة إلى من يرعانى ، فانك تستطيع أن تثق فى كاثلين وفى الآخرين » .

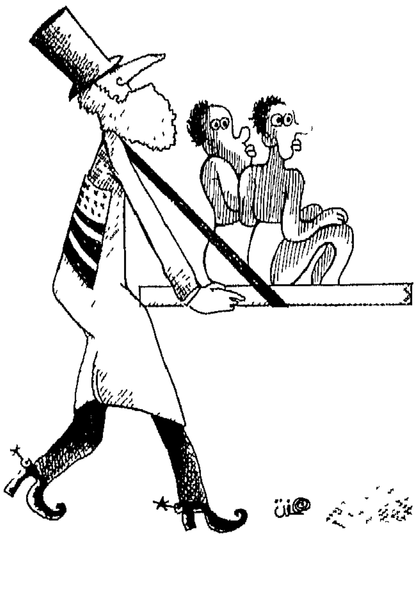
وفيما بعد .. رافقها كولام إلى مكتب محام انجليزى يتمتع بسمعة طيبة فى نجاحه فى انجاز اى عمل يضع يده عليه .. وهكذا بدا البحث عن مالك بوليهارا ..

وفى اليوم التالى ، حمل كولام معه الثياب السوداء والقمصان والجوارب والعباءات وغيرها من الملابس التى طلبت سكارليت أن يشتريها لها من السوق ، وقال وهو يعطى سكارليت كل هذه الأشياء ·

— إليك أيتها الأرملة الجديدة المسكينة . لقد اخبرت بريدى بأن الأخبار التى تسببت فى انهيارك ، هى أن زوجك فارق الحياة متأثرا بمرضه قبل أن يسعفك الوقت لكى تكونى بجانبه ..

وأهداها كولام ملابس ايرلندية اشتراها أيضا من السوق .. وكان يعرف انها اهدت كل ما معها من هذه الملابس الى بنات العم فى آدمزتاون . وقدمت له بدورها كل صناديق الملابس التى جلبتها معها من أمريكا ، فهى لم تعد فى حاجة اليها ولن تضع على جسمها مشدّات الخصر بعد الآن ..

— أنا سكارليت أوهارا .. فتاة ايرلندية .. حرة يا كولام ، وسوف أصنع لنفسى عالمى الخاص وفقا لقوانينى الخاصة وليس وفقا لقوانين أحد آخر . لا تقلق بشأنى ، فسوف أتعلم ان أكون سعيدة ..



أرض أوهـــــارا

تلقت العائلة صدمة بعودتها وتعاطفت معها فى حزنها بأحسن وسيلة ممكنة ، وبعد أن عبروا عن شعورهم ، لم يتحدثوا فى الموضوع مرة أخرى . وبدلا من ذلك سألوها عما إذا كان هناك أى شىء يستطيعون أن يفعلوه من أجلها . وطلبت سكارليت منهم تعليمها .. فهى تريد أن تتعلم كل شىء عن المزرعة الايرلندية وتبعت دانيل وأبناءه فى نظام عملهم اليومى .. وأرغمت نفسها على أن تتعلم حتى كيف ترعى الماشيه .. وكيف تحلب البقرة ، وبعد شهر تلقت خطاب المحامى من جالواى : لقد تزوجت أرملة مالك بوليهارا بعد وفاته بسنه ، وماتت هذه الزوجة بعد ذلك بخمس سنوات ووريثها هو ابنها الأكبر الذى يبلغ السابعة والعشرين من عمره الآن ويقيم فى انجلترا ، وهو الوريث لأملاك والده الذى لا يزال على قيد الحياة . ويقول هذا الوريث انه مستعد لدراسة أى عرض يتجاوز خمسة عشر ألف جنيه .

وعكفت سكارليت على فحص خريطة بوليهارا الملحقة بالخطاب . انها أكبر بكثير مما كانت تعتقد ، انها على جانبى الطريق الى تريم . وهناك نهر آخر . فالحدود هى نهر بوين من ناحية ونهر نايتسبروك من ناحية أخرى نهران ! يجب أن أحصل على بوليهارا ، ولكن ، خمسة عشر ألف جنيه !

وبعد تقصى الأسعار واجراء الحسابات ، توصلت سكارليت الى ان الثمن الملائم لـ ١٢٤٠ فدانا يتراوح ما بين ٤٩٦٠ و٥٥٨٠ جنيها ، وهناك ايضا المنزل الكبير والمبانى الأخرى ، وكنيستان . وخمسة من المنازل تعتبر كبيرة ، و٢٤ منزلا هى مجرد أكواخ ، ولكنها جميعا مهجورة ولا أحد يعنى بالمكان ، وبالجملة ، فإن عشرة آلاف جنيه تعد مبلغا معقولا بل أكثر من المعقول . وسيكون الوريث محظوظا إذا حصل عليه .

عشرة آلاف جنيه .. هذا يساوى خمسين ألف دولار ! وارتاعت سكارليت ، انها ثروة .

بعد كل أنواع الاقتصاد والتقتير والادخار والمعاملات المتشددة فى مصنع الخشب وفى المتجر وبيع مصنع الخشب وايجار الملهى وعدم انفاق اى سنت ـ واحد على مائة من الدولار الأمريكى ـ دون ضرورة قصوى على مدى عشر سنوات ، وكل ما استطعت أن اجمعه يتجاوز قليلا الثلاثين الف دولار . ولولا أن ريت كان يدفع كل شىء خلال معظم السنوات السبع الماضية لما كان معى نصف هذا المبلغ . ويقول العم هنرى اننى امرأة غنية بسبب هذه الثلاثين ألفا . أى نوع من الناس يدفع خمسين ألف

دولار نظير شراء بلدة أشباح متداعية للسقوط وأرض لا تمتد اليها يد عاملة ؟

ناس من نوع ريت باتلر . وأنا عندى خمسمائة ألف دولار من أمواله لكى أشترى الأرض المسروقة من أهلى ، وبوليهارا ليست مجرد أرض وانما هى أرض أوهارا .

كيف يتأتى لها إذن أن تفكر بصدد ما يجب وما لا يجب أن تدفعه ؟ وقدمت سكارليت عرضا نهائيا للوريث .. يقبله كما هو أو يرفضه كما هو ١٥ الف جنيه .

الآن أصبح البرج القائم فى بوليهارا هاما جدا بالنسبة لها ، انها دائما ما تتجه الى هناك عندما تشعر بالهم والكدر . أحجاره الضخمة تحتوى على الحرارة والبرودة معا ، فهى تستطيع أن تضع يديها فوقها أو تلصق خديها بها .. فتجد السلوى والراحة اللذين تحتاج اليهما . وفى بعض الأحيان كانت تتحدث الى الأحجار كما لو كانت تحدث والدها . وحدث انها مدت ذراعيها فوق الأحجار وبكت فوقها . ولم تسمع اى صوت سوى صوتها وأغانى الطيور وهمسات النهر . ولم تشعر قط بوجود العينين اللتين كانتا تراقبانها .

عاد كولام الى ايرلندا فى الثامن عشر من يونيو ، وارسل برقية من جالواى تقول : أصل فى ٢٥ يونيو مع سلع سافانا ، وساد القرية جو من الصخب والضجيج . فلم يحدث أن وصلت برقية من قبل الى آدمز تاون ، ولم تمض ساعتان حتى جاءت برقية ثانية الى سكارليت من جالواى مما تسبب فى مناخ من الاثارة لا يعرف الحدود فى القرية ، وكان نص البرقية الثانية : « العرض مقبول . الخطاب والعقد فى الطريق »

ولم يستغرق الأمر مناقشة طويلة قبل أن يتفق القرويون على أن يتصرفوا كما يجب . البقال والحداد يغلقان ابوابهما ، وكذلك الطبيب ، وتعيين الأب داناهر متحدثا باسمهم والتوجه سيرا على الأقدام الى منزل دانيل أوهارا لمعرفة حقيقة ما يجرى .. كما ان كل شخص من حقه أن يمسك بالبرقيتين ويقرأ سطورهما .

ولسوء حظهم فإن كاثلين لم تكن تعرف أكثر مما يعرفون كما ان سكارليت كانت قد غادرت البيت لكى تتجول فى أرض تارا القديمة وهى تشعر بسعادة غامرة . انها تنتظر مولودها فى الرابع عشر من نوفمبر ، وامامها ـ إذن ـ عشرون اسبوعا من العمل قبل الولادة ، كم هو شىء طيب ان يكون المرء سعيدا !

قريـــة للثـوار !

دهش كولام عندما وجد سكارليت فى انتظاره لدى وصوله بالقطار الى محطة مولينجر . قدم لها رفيقه فى الرحلة قائلا : « هذا ليام رايان شقيق چيم رايان » كان ليام رجلا ضخما يرتدى الزى الأخضر للشرطة الايرلندية الملكية ، كيف يمكن أن يكون كولام صديقا لواحد منهم ؟ فقد كانت الشرطة موضع كراهية أكبر من الميليشيا الانجليزية لأن أفرادها هم الذين يتولون القبض على أبناء بلدتهم بناء على أوامر الانجليز . وعرفت سكارليت ان كولام اتى بالذهب ، كما عرفت انه اصطحب ليام رايان ببندقيته لكى يقوم بمهمة الحراسة . وقال كولام :

— لقد جئت بالعديد من الحقائب والصناديق فى حياتى ولكن لم اكن عصبيا مثل هذه المرة ..

وقالت سكارليت : اننى استخدم مولينجر للأمان ، إذ توجد بها أكبر حامية عسكرية . وقد أحضرت معى رجالا من البنك لياخذوا الذهب ..

أما بنك بلدة تريم فإنه يمكن استخدامه فى ايداع المبالغ الصغيرة ، وعندما اطمأنت سكارليت الى ان الذهب انتقل فى أمان الى الخزينة ووقعت على اوراق شراء بوليهارا ، حتى أخذت ذراع كولام وأسرعت به الى الطريق العام .

قالت : « لقد اشتريت مركبة يجرها حصان صغير . نستطيع الذهاب فورا الآن ، هناك الكثير الذى ينبغى عمله يا كولام ، احتاج الى حداد فورا وستساعدنى فى العثور على أحد الحدادين . سأدفع له أجرا طيبا حتى ينتقل الى بوليهارا وأجرا طيبا عندما يصل الى هناك . وقد أعددت مناجل وفئوسا وجواريف ومجارف .. اننى أحتاج الى عمال ايضا لتطهير الحقول ونجارين لاصلاح البيوت والى عمال تركيب زجاج وأسقف وعمال طلاء .. وكل ما تتخيله ! »

الاثارة اكسبت خديها لونا ورديا .. وتألقت عيناها . وكانت جميلة على نحو لا يصدق فى ثوبها الأسود الفلاحى .

وتناولا الغداء فى منزل چيم رايان الذى احتفى معهما بوصول شقيقه ليام من جالواى . ولم تستطع سكارليت ان تكتم ثورتها عندما أبلغها كولام بأنه لن يستطيع ان يذهب معها الى بوليهارا فى الحال لأن لديه ما يعمله فى مولينجر ـ ولن يعود الى موطنه قبل ثلاثة أيام .. فإن عندها الكثير الذى تريده أن يراه والكثير الذى تتحدث عنه وتخطط له .

ولكى يهدىء غضبها حدد لها موعدا هو الساعة الثانية من بعد ظهر

يوم عودته ـ بعد ثلاثة أيام ـ فى بيت دانيل .

قالت سكارليت :

— حسنا سنلتقى فى بوليهارا ، فقد نقلت سكنى بالفعل انه منزل أصفر فى منتصف الشارع .

● ● ●

وفى وقت متاخر من ذلك المساء ، وعقب اغلاق حانة چيم رايان ، ترك بابها مفتوحا لكى يتسلل منه الرجال بهدوء واحدا بعد الآخر لكى يجتمعوا فى غرفة بالطابق العلوى ، وطرح كولام بالتفصيل الأشياء التى يجب أن يقوموا بها ، قال فى حماس متوهج :

— انها فرصة أتاحها لنا الله . بلدة بكاملها ملك لنا . كل الرجال الفينيين[1] وكل مهاراتهم تحتشد وتتركز فى مكان واحد لا يخطر على بال الانجليز أن يفتشوا فيه ، فالعالم كله يظن بالفعل ان ابنة عمى معتوهة لانها دفعت مثل هذا الثمن فى أملاك كان يمكن أن تشتريها بلا مقابل لمجرد أن توفر على المالك عبء تحمل الضريبة بدلا منه ، ولكنها امريكية أيضا وهو جنس معروف بغرابة أطواره . والانجليز مستغرقون فى الضحك عليها الى الحد الذى يجعلهم لا يشكون فيما يجرى فى أملاكها . لقد كنا نحتاج دائما الى مقر قيادة يتوافر له الأمان . وسكارليت تتوسل الينا لكى ناخذه دون ان تعلم شيئا .

● ● ●

وعندما وصل كولام الى بيت سكارليت فى بوليهارا .. كان يتبعه الحداد بكل معداته . ووجد البيت من الداخل بسيطا للغاية لا يحتوى إلا على أقل الأدوات وقطع الأثاث الضرورية للحياة اليومية ، ولكنه ثار غاضبا عندما وجد مسدسا موضوعا الى جانب فرش الشعر ومساحيق الوجه :

— يمكن ان يضعوك فى السجن لحيازتك هذا السلاح .

— هراء .. ان قائد الميليشيا هو الذى أعطاه لى ، لأن امرأة تعيش وحدها ومعروف ان لديها الكثير من الذهب يجب ان تحمى نفسها كما قال وكان يمكن أن يضع أحد جنوده للحراسة لو اننى تركته يفعل ذلك .

وأثار ضحك كولام .. دهشتها ، فهى لا تعتقد أنها ذكرت شيئا يبعث على الضحك .

● ● ●

---

(١) جمعية سرية ثورية ايرلندية تشكلت فى نيويورك فى حوالى عام ١٨٥٨ لتحرير ايرلندا من الحكم الانجليزى ، وكان الاسم يطلق على الميليشيا القديمة الايرلندية

— انك صنعت العجائب يا كولام . انى متأثرة بالفعل

كانت سكارليت تقف فى وسط شارع بوليهارا العريض الشهير ، وهى تتطلع الى النشاط الذى دب فى كل مكان على طول الشارع . كان يمكن سماع دقات المطارق من كل اتجاه . وكانت هناك رائحة الطلاء الطازج . وتألقت النوافذ الجديدة فى أكثر من عشرة مبان . وفى مواجهتها ، كان رجل قد تسلق سلما ليضع لوحة كتبت بحروف مذهبة على باب المبنى الذى كان كولام قد اختاره ليبدأ فيه العمل .

وسألت سكارليت : « هل نحتاج بالفعل الى تشطيب العمل فى الحانة »؟ وقد ظلت تطرح نفس السؤال منذ أعلن كولام عن بدء العمل فى ذلك المبنى ، وأجاب للمرة الألف « سوف تجدين المزيد من العمال الراغبين فى العمل إذا كان هناك مكان لهم يتناولون فيه كأسا بعد أن يفرغوا من العمل » وحاول كولام اقناعها بلا جدوى ان من سمات الشخصية القومية الايرلنديه الحصول على المسرات التى تتيحها الحياة اولا ثم الانشغال بالواجبات فى وقت لاحق ، وان هذا هو ما يكسب الايرلنديين جاذبيتهم ويمنحهم السعادة .

وأعربت سكارليت عن امتعاضها لأن شهر أغسطس قد حل ولم يتم تطهير حقل واحد . وقال كولام :

— مازال أمامك شهور يا عزيزتى سكارليت ، يكفى أن تنظرى الى ما تم انجازه على يديك فى أسابيع فقط .

ونظرت سكارليت ، وتلاشى التقطيب من على جبينها وابتسمت : « هذا صحيح »

ولم يقل كولام شيئا عن الاغراءات والضغوط التى كان لابد أن يمارسها لمنع الرجال من القاء معداتهم والرحيل ، فهم لا يرتاحون الى قيادة امرأة لهم وخاصة إذا كانت مطالبها كثيرة مثل سكارليت . ولولا ان الروابط السرية للاخوان الفينيين هى التى الزمتهم بإحياء بوليهارا .. لما بقى سوى القليل من العمال ان كان قد بقى أحد رغم أن سكارليت تدفع أكثر من المتوسط العادى للأجور .

وتطلع كولام أيضا الى الشارع المزدحم ، ستكون حياة طيبة لهؤلاء الرجال عندما يتم ترميم بوليهارا ، لقد تلقى بالفعل طلبات بفتح متاجر ومحال فى البلدة ، والمنازل هنا ، حتى أصغرها ، أحسن من الأكواخ التى يشغلها الآن معظم العمال الزراعيين الذين اختارهم ، انهم أكثر حماسا من سكارليت لاصلاح السقوف والنوافذ حتى يتركوا العمل مع كبار الملاك ويبدأوا من جديد فى حقول بوليهارا .

لم يحدث من قبل أن طفلا فى أحشائها سبب لها هذا القدر من المتاعب حتى أصبحت تظن ان فى بطنها توأما . ولا شىء يسرها أكثر من أن تنجب توأما فى حالة إذا أنجبت « آن » طفلا وأثار احتمال أن تنجب « آن » طفلا الألم فى نفس سكارليت ، واتجهت بتفكيرها بعيدا . الى حقول بوليهارا .

وفى كل مرة تغادر بيتها .. كانت تقف أمام البرج وتتامله ، كم كانوا بنائين عظاما منذ وقت طويل .. هؤلاء الذين ينتمون الى جماعة أوهارا وعندما أبدت أسفها لعدم وجود سلم .. شرح لها دانيل العجوز كيف انه لم يكن هناك سلم أبدا فى الأصل خارج البرج ، فالسلم يكون عادة فى الداخل وعندما يأتى الخطر . يصعد الناس الى البرج بسرعة ويسحبون السلم خلفهم ، ويطلقون السهام ويقذفون بالأحجار أو يصبون الزيت الساخن من أعلى على المهاجمين من الشقوق الطولية الضيقة ، التى كانت تستخدم كنوافذ ، ويصبحون فى مأمن من هجوم الأعداء تحتهم .

فى أحد الأيام سوف أضع سلما وألقى نظرة على داخل البرج . وأمل ألا تكون هناك خفافيش . فإننى أكرهها ، لماذا لم يتخلص القديس باتريك منها عندما كان ينظف المكان من الثعابين ؟

● ● ●

حددت سكارليت فى ذهنها المنازل التى ستعطيها للأسرة ، جميعهم سيأخذون بيوتا كبيرة رحبة وفسيحة . وسيكون الأصغر من نصيب كولام ، فهو الذى اختاره لنفسه ثم انه قسيس ولن تكون له اسرة أما أكبر البيوت فهو لدانيل لأن كاثلين ستكون معه وربما سيريدان ان تكون الجدة معهما ، كما انه يجب أن تكون هناك غرفة لكاثلين عندما تتزوج .. وبيت لكل ابن من أبناء دانيل وباتريك أما عن الأرض الزراعية فإن لهم أن يأخذوا منها ما يشاءون حتى يكونوا قادرين على الزواج ، فالشبان من الرجال والنساء لا يستطيعون الزواج لانهم بلا أرض وبلا مال . وكبار الملاك الانجليز قساة وبلا قلوب ويتضح ذلك من خلال الطريقة التى يحتفظون بها بالأرض الايرلندية تحت نعالهم . فالايرلندى يتحمل كل أعباء زراعة الذرة أو الشوفان وتسمين الدواب والمواشى ثم عليه أن يبيعها للانجليزى بالأسعار التى يحددها هو . ويتولى الانجليزى تصدير الحبوب والماشية الى انجلترا حيث تجلب الحبوب والماشية المزيد من المال للانجليز ، ولا يبقى للمزارع أى شىء بعد سداد الايجار وتتحدد القيمة الايجارية وفقا لنزوات الانجليزى ، كما فعل

اليانكى بعد الحرب فى أمريكا عندما أخذوا كل شىء يريدونه ثم رفعوا الضرائب على تارا الى رقم خيالى . ولا غرابة ان يكره الايرلندى .. الانجليزى أما هى فإنها تكره اليانكى حتى يوم مماتها ..

بيد أن عائلة أوهارا ستتحرر قريبا جدا من ذلك كله ، عندما تكون البيوت جاهزة والحقول مستعدة . وهى تريد كل شىء على الوجه الأكمل فقد كانوا طيبين معها .. ثم انهم أسرتها .



عمليـــة انـقـــاذ

ظهر كولام على باب منزل سكارليت فى أواخر أيام أغسطس ، كانت ساعة الفجر ، والأفق لا يزال ورديا . عشرة رجال أقوياء البنية وقفوا صامتين خلفه فى الضوء الضبابى الخفيف ، قال « هؤلاء هم الرجال الذين سيطهرون حقولك ، هل أنت سعيدة الآن »؟

أطلقت صيحة الفرح . وأسرعت الى الداخل وهى تقول « رافقهم الى أول حقل وراء البوابة »

ولم تكن قد استكملت ترتيب هندامها عندما خرجت حافية لترى الرجال وقد تجمعوا بوجوه كالحة حول كولام وهم يرددون بعض الكلمات

« لم نر مطلقا هذا المنظر . انها أقرب الى الأشجار منها الى الأعشاب الضارة .. تبدو لى كأنها كلها نباتات شوكية . الانسان يمكن أن يقضى عمره كله فى فدان واحد ..»

قالت سكارليت بصراحة هل تخشون تلويث أيديكم ؟

ونظروا اليها فى ازدراء . لقد سمعوا جميعا عن المرأة الضئيلة وأساليبها المتسلطة ، وهم يعرفون انها لا تحتوى على أى شىء أنثوى .

وقال كولام مهدئا : « نحن نناقش أفضل الطرق لكى نبدأ »

ولم تكن سكارليت فى حالة مزاجية تؤهلها لتقبل الاسترضاء . وقالت .

« لن تبدأ على الاطلاق إذا تناقشت لمدة طويلة ، سوف أريك كيف نبدأ » ووضعت يدها اليسرى على الانحناءة التى تتحمل ثقل الجنين فى بطنها المتضخم لكى تسندها ثم مالت الى الأمام ، ومدت يدها اليمنى وامسكت بحفنة كبيرة من النباتات الشوكية التى اقتلعتها من جذورها ، وقالت باحتقار وهى تلقى بالنباتات تحت أقدام الرجال : « هيا ..لقد بدأتم الآن »

كان الدم يسيل من يدها ، وهى تسير بتثاقل بعيدا .

وحدق الجميع فى ظهرها ، ثم خلع الأول والثانى وبعدهما الجميع . قبعاتهم

الم يكن هؤلاء هم الوحيدون الذى تعلموا أن يحترموا سكارليت أوهارا ، فقد اكتشف عمال الطلاء انها يمكن أن تتسلق أطول السلالم وتتحرك بخفة لكى تشير الى بعض البقع التى لم تصل اليها الفرشاة أو ان ضربات الفرشاة لم تكن مستوية عندها والنجارون الذين حاولوا استخدام عدد غير كاف من المسامير وجدوها تدق ما نقص من هذه المسامير عندما عادوا الى العمل . بل كانت تصفق الأبواب المصنوعة حديثا بصوت كالرعد « يوقظ الموتى » لكى تختبر كل مفصل فى هذه الأبواب وتقف فى داخل

المداخن لكى تتأكد من سلامتها . وقال عمال اصلاح وتركيب السقوف فى فزع ان ذراع الأب أوهارا القويه هى وحدها التى حالت دون صعودها الى اسطح المنازل لكى تحصى عدد الألواح التى استخدمت لكسوة السقوف .

ونجحت سكارليت فى دفع الجميع الى عمل جاد وحقيقى كما حملت نفسها على القيام بعمل أكثر مشقة .

وتحدثت سكارليت مع كولام أثناء تناول طعام الافطار عن مشروعها الخاص بالأسرة كلها . توفير سكن فاخر وحديث لكل أفراد اوهارا فى بوليهارا .

وانتظر كولام حتى فرغت من الطعام ، ثم قال انهم لن يفعلوا ذلك ، فهم يزرعون الأرض التى يوجدون عليها هناك طوال مائتى سنة تقريبا »

— بل سيوافقون على المجىء الى هنا ، فكل انسان يريد دائما افضل مما لديه يا كولام

وهز رأسه علامة على عدم الموافقة ، فقالت

— سوف أثبت لك انك على خطأ .

وانتقل كولام الى موضوع آخر

— سكارليت ، لقد أحضرت معى المزارعين هذا الصباح .

— هؤلاء الكسالى !

— لقد استاجرت هؤلاء الرجال ، وزوجاتهم وأطفالهم فى الطريق الى هناك الآن للسكنى فى الأكواخ الواقعة فى نهاية الشارع ، لقد تركوا العمل لدى كبار الملاك

كانت سكارليت تنتظر ان يعمل هؤلاء الرجال فى خدمة أبناء عمومتها

● ● ●

صاح كولام مناديا سكارليت لكى تهبط من أعلى السلم حيث كانت تتفقد الاصلاحات الجارية .

— أريدك أن تشاهدى ما فعله الكسالى

وطغى الفرح على سكارليت حتى تفجرت الدموع من عينيها

لقد تم تمهيد الطريق أمام بيتها وأصبح أكثر اتساعا .. بحيث تستطيع أن تستقل مركبتها ، من على مقربه من باب البيت .

● ● ●

انفجر غضبها فى وجه كولام ، فقد رفضت الأسرة ـ بلباقه شديدة وأكثر من مرة ـ دعوتها الملحة لأفرادها للانتقال الى بوليهارا ، وفى هذه الليلة

الدافئة من أغسطس وفى الوقت الذى يرخى فيه الليل أستاره .. بكت سكارليت لساعات الى ان غلبها النوم .

وظن كولام انها ستفضل أن تتجنب لقاءه لبضعة أيام ، فالأشخاص الاقوياء لا يحبون شهود لحظات ضعفهم ولكنه أخطأ مرة أخرى فى فهم سكارليت ، هل عرف هذه المرأة حقا ؟

فى الصباح .. قالت له « يمكنك أن تبدأ فى التفكير فى المستأجرين الجدد لهذه المنازل ، واتوقع ايجارات جيدة »

● ● ●

شعرت سكارليت بجرح عميق رغم انها لم تعبر عن ذلك ، ولم تشر الى هذه المسألة مرة أخرى ، واستمرت زياراتها لعائلة دانيل أوهارا وعملت بجهد كالسابق فى بوليهارا رغم ان حملها اصبح عبئا مرهقا ، ومع نهاية سبتمبر كانت الاصلاحات فى البلدة قد انتهت . كل مبنى أصبح نظيفا ومطليا من الداخل والخارج ومجهزا بأبواب محكمة ومداخن صحية وسقوف متينة ، أما عدد السكان فقد كان يتزايد بسرعة .

وجاء يوم تولى فيه كولام تذكيرها بأن المنزل الدائم الكبير الذى اختارته لاقامتها فى بوليهارا هو الذى لم يتم اصلاحه واعداده للاقامة بعد .

ابتسمت بصعوبة وهى تقول : يا ليتنى أفرغ من اعداد المنزل بسرعة وانتقل اليه ، الحقيقة يا كولام اننى أكاد أكون قد استنفدت طاقتى .

وما لم تقله سكارليت هو ان العمل فى البلدة قد أصبح مجرد .. عمل ، بعد أن قال ابناء وبنات العم انهم لن ينتقلوا الى بوليهارا . لقد انتزع رفضهم بهجة إعادة بناء أراضى أوهارا لأن أبناء أوهارا لن يستمتعوا بالعودة الى أرضهم .

وحاولت أن تفهم سبب رفضهم ، ولم تجد تفسيرا سوى انهم لا يريدون ان يكونوا على مقربة منها وانهم لا يحبونها حقا رغم كل المعاملة الطيبة والرقيقة التى يعاملونها بها . وهى تشعر بأنها وحيدة الآن ، حتى وهى معهم ، وحتى وهى مع كولام .

وتوجهت سكارليت الى زيارة الجدة حاملة معها التبغ الذى طلبته منها . وكان شين هو أول من لقيته هناك عند خروجه من كوخ الجدة ورفضت أن تستجيب لعرضه بأن تستند على ذراعه وهى تدخل الكوخ . انها لا تهتم بالأشخاص الذين يتحدثون ويضحكون ويبدو عليهم أن لديهم افكارهم الخاصة السرية .. فهى تشعر بعصبية ازاء الفشل والفاشلين ، وشين هو الـ « أوهارا » الفاشل . انه ابن باتريك الثالث . فقد مات الابن الأكبر ،

أما چامى فقد عمل فى تريم بدلا من الزراعة ، وعندما توفى باتريك فى عام ١٨٦١ ، ورث شين المزرعة وكان فى الثانية والثلاثين فقط فى ذلك الوقت ، وفشل فى ادارة كل شيء ، ورفض العمل فى مزرعة دانيل .

قالت الجدة : ابنة جيرالد ، انني مسرورة برؤيتك يا كاتى سكارليت الصغيرة .

— جئت معى بالتبغ لك .

— يا له من شيء عظيم .

ومدت سكارليت قدميها المتورمتين بسبب الحمل .. انها تفضل الآن أن تمضى حافية لأنها لا تتحمل ارتداء الأحذية وها هى ذى تنعم بالهدوء فى كوخ الجدة ، وسمعت فجأة صرخات فى الخارج ، فخرجت فى الحال لتعرف ما يجرى وهى ساخطة على هؤلاء الذين افسدوا نعمة السلام والهدوء وتسمرت فى مكانها . رأت جنودا ورجال شرطة فى ساحة مزرعة دانيل ، ووقع بصرها على ضابط يمتطى جواده وقد شهر سيفه ، ووقفت كاثلين تبكى على باب البيت . كان الجنود يقيمون عمودا مثلث القوائم من جذوع الأشجار . وصاح احد الجنود : « هذه واحدة منهم . انظر اليها .. هؤلاء الايرلنديون البؤساء يلدون مثل الأرانب ، لماذا لا يتعلمون كيف يلبسون الأحذية بدلا من الانجاب »؟

وقال جندى آخر . « لاحاجة للأحذية فى الفراش .. أو تحت الشجرة » . وضحك الانجليزى . واطرق رجال الشرطة برؤوسهم إلى الأرض وصاحت سكارليت بصوت عال : انت ! .. « انت يامن تركب الحصان . ما الذى تفعله انت وهذه المخلوقات فى هذه المزرعة » ؟ وتطلع الضابط من أعلى فى عجرفة .

— « هل تخاطبيننى يافتاة » ورفعت رأسها وركزت عليه عينيها الخضراوين النافرتين : - « لست فتاة ياسيد ، وانت لست مهذبا حتى لو تظاهرت بانك ضابط » وفغر فاه وانكمشت انفه الطويلة حتى كادت أن تنمحى من وجهه . ربما لأن الأسماك بلا أنوف . وهو يبدو الآن مثل سمكة خرجت من المياه إلى اليابسة .. ولذة القتال جعلتها تتفجر بالحيوية ..

قال الضابط : « ولكنك لست ايرلندية . هل أنت الأمريكية » ؟

— « من اكون .. هذا ليس من شانك . أما ما تفعله هنا فهو من شانى . قدم تفسيرا لتصرفك » .

وتذكر الضابط هويته فى تلك اللحظة وشد قامته ولوح بورقة فى يده :
« اننى أنفذ أمر حكومة صاحبة الجلالة بإجلاء هؤلاء الناس المقيمين فى هذه المزرعة لأنهم لم يدفعوا ايجارها » .

تسارعت دقات قلب سكارليت . ورفعت رأسها إلى أعلى وراء الجنود . كانت تستطيع أن ترى دانيل وأبناءه يقفزون مسرعين فى الحقول وكل منهم يحمل مذراته وهراوته استعدادا للقتال .

وقالت سكارليت : « الواضح أن هناك خطأ ، ماهو المبلغ المفترض أنه لم يتم تسديده » ؟

قالت لنفسها . اسرع . بالله عليك أيها الغبى المتعجرف .. فاذا ضرب اى رجل من رجال أوهارا جنديا فسيكون مصيره السجن أو ماهو أسوأ .

وبدا كل شىء بطيئا . استغرق الضابط دهرا ليفتح لفافة الورق . وتحرك دانيل وسيماس وتوماس وباتريك وتيموتى كما لو كانوا يسبحون تحت سطح الماء . وفكت سكارليت أزرار قميصها ..

قال الضابط أخيرا . « واحد وثلاثون جنيها وثمانية شلنات وتسعة بنسات » .

كل كلمة تخرج من فمه كانت تستغرق ساعة . ثم سمعت الصرخات من الحقول ورأت رجال أوهارا الكبار ، يسرعون وهم يلوحون بقبضاتهم وأسلحتهم .

لحسن الحظ أن سكارليت كانت تحمل معها أجور كل عمال بوليهارا .. اكثر من خمسين جنيها .. وأخرجت النقود من الحزام الموجود فى صدرها .

وقذفت بالكيس الذى يحتوى على المبلغ ، فاصطدم بالضابط فى فمه . وقالت :

— « .. وهذا أكثر مما تريد .. نظير تعبك أيها الوغد سىء التربية » وتناثرت الشلنات والبنسات على ملابسه وعلى الأرض .

وقالت سكارليت مرة أخرى « نظفوا المكان من الفوضى التى صنعتموها وخذ معك هذه القمامة التى جلبتها » !

وادارت ظهرها للجنود وهمست

— « بالله عليك ياكاثلين ، اذهبى إلى الحقل واطلبى منهم أن يكفوا قبل أن تقع متاعب حقيقية »

● ● ●

بعد دقائق . كانت المواجهة بين سكارليت ودانيل العجوز . شحوب شديد فى وجهها . لو لم تكن قد جاءت حاملة التبغ ؟

لو لم تكن قد جاءت اليوم ؟ وحملقت مغضبة فى وجه عمها ثم انفجرت

— « لماذا لم تقل لى أنك فى حاجة إلى النقود ؟ كان يسرنى أن أقدمها لك . »

قال دانيل . « عائلة أوهارا لاتقبل الاحسان »

— « احسان ؟ هذا ليس احسانا عندما يتعلق الأمر بعائلتك ياعم دانيل » .

ونظر اليها دانيل بعينين هرمتين « مالا تكسبينه من عمل يديك هو احسان ، لقد سمعنا قصتك ياسكارليت أوهارا الصغيرة عندما فقد أخى جيرالد عقله ، لماذا لم تستدعى أشقاءه فى سافانا ؟ انهم جميعا أسرتك » .

وارتعشت شفتا سكارليت . انه على حق . فهى لم تطلب أو تقبل المساعدة من أى شخص . كان عليها أن تحمل العبء وحدها ولم يكن كبرياؤها يسمح بأى استسلام أو ضعف . وكان لابد أن تعرف كل شىء وسألت :

— « وفى المجاعة ؟ كان والدى سيرسل اليكم كل ما عنده ليساعدكم وكذلك كان سيرسل إلى العم جيمس والعم أندرو أيضا" .

— « كنا على خطأ . لقد تصورنا أنها سوف تنتهى »

ودققت النظر فى كتفى عمها النحيلتين المنتصبتين انحناءة رأسه المتكبر إلى أعلى . وفهمت . كانت ستفعل نفس الشىء . وفهمت أيضا كيف اخطأت عندما عرضت عليهم بوليهارا كبديل للأراضى التى ظلوا يفلحونها ويزرعونها طوال حياتهم . فالقبول كان يعنى ان كل عمله كان بلا معنى وكذلك عمل ابنائه وأشقائه ووالده وجده

قالت : « الم يرفع روبرت الايجار لأننى تحدثت عن ففازه ، انه يريد أن ينتقم منى .. عن طريقكم »

— « روبرت رجل جشع ، وما حدث لاعلاقة له بك » .

— « هل تسمح لى بالمساعدة ؟ ان هذا سيكون شرفا لى » ورأت سكارليت الموافقة فى عينى دانيل العجوز .

الاوهـــــــارا

روزالين مارى فيتز باتريك هى مدبرة المنزل الجديدة التى جاء بها كولام لكى تساعد سكارليت إنها شقيقة أحد أعضاء جماعة الفينيين الذين أعدمهم الانجليز ، كما انها ابنة وحفيدة رجال غرقوا فى « السفن النعوش » بعد مغادرتهم بوليهارا خلال محاولة الذهاب إلى أمريكا . وهى من اخلص اعضاء الحلقة الضيقة الأساسية للثوار .

وفى البداية شعرت سكارليت بان مسز فيتز باتريك تتحداها وخاصة عندما طلبت من سكارليت أن تناديها باسم مسز فيتز باتريك وليس باسمها الاول .. ولكنها سرعان ما تبينت أن السيدة تملك ثقة بالنفس تثير الاعجاب وتبدو مخلصة تماما لعملها وتتمع بروح المسئولية .

— « اود أن أعبر عن سرورى للقائك والعمل من اجلك . فسوف اتشرف بان اكون مدبرة منزل « الاوهارا » ..

ماذا يعنى هذا الكلام ؟

وأستانفت مسز فيتزباتريك حديثها :

— « ألا تعرفين ؟ كل شخص يتحدث عن موضوع واحد . فلم يحدث فى حياتنا أن امراة فعلت ذلك . ربما لم تظهر مثل هذه المراة خلال مئات السنين . إنهم يسمونك « الاوهارا » رئيسة عائلة اوهارا بكل فروعها وروافدها وتشعباتها . ففى زمن الملوك النبلاء الكبار ، كان لكل عائلة زعيم او بطل أو ممثل لها . وكان أحد اسلافك من اجداد اجدادك هو « الاوهارا » الذى كان يرمز لكل بسالة وكبرياء جميع افراد اوهارا الآخرين . واليوم ولد هذا اللقب المميز من جديد ليكون من نصيبك » .

— « انني لا افهم ؟ ماذا يجب أن افعل ؟ »

— « لقد فعلت وانتهى الأمر بالفعل انت الآن موضع الاحترام والاعجاب والثقة والتكريم . وقد تم منح اللقب عن استحقاق ولم يحدث ذلك عن طريق الوراثة . كل مايجب أن تفعليه هو ان تكونى كما انت انت « الاوهارا » .

قالت سكارليت وهى تشعر بالوهن :

— « اظن اننى سأتناول فنجانا من الشاى » .

انها لم تعرف عن اى شىء تتحدث مسز فيتزباتريك . هل تروى نكتة او دعابة أو تهزأ وتسخر منها ؟ كلا . هذه ليست المرأة التى تتحدث بالنكات وتلقى بالدعابات . ماذا كانت تعنى ؟

وجربت أن تقول الكلمة فى صمت وتحاول النطق بها .. بلسانها :

« الاوهارا » . انها أشبه بقرع الطبول . شيء ما . عميق .. كامن فطرى فى داخلها .. يضىء ويتوهج ويتقد ويضطرم ويضرم النار « الاوهارا » .. الآن يشع ضوء فى عينيها المتعبتين الشاحبتين ، فتلمعان باللون الأخضر الزمردى النارى . الاوهارا !

سأفكر فى ذلك فى الغد .. وكل يوم بقية حياتى . آه ، انني أشعر بأنني مختلفة تماما وقوية للغاية ..

« .. أن تكونى فقط كما انت » هذا ما قالته . ماذا يعنى ذلك ؟ « الاوهارا » .

● ● ●

لم تكن سكارليت قد زارت « البيت الكبير » الذى خصصته لنفسها فى بوليهارا . والآن تراه لأول مرة مع مسز فيتزباتريك . إنه آية فى العظمة والروعة . ولكنه يحتاج إلى اصلاحات كثيرة بينما لم يتبق على موعد الولادة سوى ستة أسابيع ، وهى تريد أن يولد الطفل فى « البيت الكبير » .

ولم توافق على ما قاله كولام عن حاجة هذا البيت إلى العديد من الخدم والوصيفات والطهاة فهى لاتريد أن تقيم « مملكة » .. كما انها لا توافق على ما تقوله مسز فيتزباتريك الآن عن خدم كثيرين .

وترغم سكارليت نفسها على أن تسير يوميا على قدميها بلا أحذية لمتابعة عمليات ترميم البيت الكبير . ووضعت دلوا مملوءا بالمياه داخل الباب الامامى لمنزلها المؤقت لكى تنظف قدميها من الطين عندما تعود . وضحك كولام عندما رأى هذا المشهد :

« الجانب الايرلندى فى داخلك يقوى يوما بعد يوم ياسكارليت حبيبتى . هل تعلمت ذلك من كاثلين ؟ »

— « من ابناء العم العائدين من الحقول ، فهم يغسلون أقدامهم من التراب دائما . وفهمت أن السبب هو أن كاثلين كانت ستفقد صوابها إذا جاءوا معهم بالطين من الحقول وغطوا به أرضية البيت النظيفة »

— « ليس لهذا أى علاقة بالموضوع . انهم يفعلون ذلك لأن الايرلندى بما فى ذلك النساء كانوا يفعلون نفس الشيء ابا عن جد منذ الماضى السحيق الذى يمكن ان تعيه الذاكرة » « هل تلقين المياه خارج البيت دون تعاويذ ؟ »

— « لاتكن سخيفا . طبعا لا اقرا تعاويذ . ولا اضع اناء اللبن على عتبة الباب كل ليلة ، كما يفعل البعض ، حتى يتناول الجن عشاءه .. كلها

حرافات صبيانية » .

ونظر بعصبية تحت فراشها ووسادتها وهو يقول :

— « هكذا تقولين .. إذن ، سيأتى « البوكا » يوما ويعاقبك على وقاحتك » .

وغرقت سكارليت فى الضحك وقالت « من هو « البوكا » ؟ هل هو ابن العم الثانى للجنى الخبيث فى الأساطير الايرلندية » ؟

— « الجن الخبثاء كانوا سيرتعدون خوفا من تصور هذه القرابة . البوكا مخلوق مخيف وحقود وماكر . انه يفسد قشدة اللبن عندك فى ثانية أو يستخدم نفس فرشاتك فى تشويش شعرك » .

— « وربما هو السبب فى تورم كاحلى قدمى الآن .. ان هذا أشد الأوجاع خبثا التى تعرضت لها حتى الآن ؟ »

— « ياحملى الوديع . كم تبقى من الوقت ؟ »

— « حوالى ثلاثة أسابيع »

واعربت سكارليت عن رضاها عن عمل مسز فيتزباتريك ، ولكنها اشتكت من أنها تنفق النقود كما لو لم تكن هناك نهاية لها .. فقد تم تشغيل ثلاث وصيفات بالفعل ، وهى فى انتظار احد الطهاة . ولكن إعداد الأفران تكلف مائة جنيه .

انها تشعر بان كولام بعيد عنها ولم تعد تستريح معه كما كانت من قبل ، ولكنها سالته . « هل سمعت عن هذا الذى يسمى موضوع الاوهارا » ؟

نعم .. لقد سمع ، وهو فخور بها ، ويعتقد انها تستحق ذلك .

— « انت امراة غير عادية ياسكارليت أوهارا . لا أحد يعرفك يقول بغير ذلك . لقد تحملت ضربات كانت تكفى للاجهاز على أى امراة أخرى أو .. رجل . ولم تتوجعى قط او تنتظرى من احد .. الاشفاق » .

وابتسم فى خبث وهو يقول :

— « لقد فعلت أيضا ما يقترب من المعجزة ، جعلت كل هؤلاء الايرلنديين يعملون بالطريقة التى يعملون بها الآن ، ووجهت الاهانة إلى الضابط الانجليزى .. ثم إن دانيل العجوز نفسه كان أول من أطلق عليك اسم الاوهارا . كما أن الريف أصبح أكثر ثراء بوجودك هنا » .

وتغيرت لهجة كولام وهو يقول

« هناك شىء واحد ، ارجو أن احذرك منه ياسكارليت . لاتحتقرى معتقدات الناس ، فهم يعتبرون ذلك اهانة لهم » .

— « اننى لا أفعل ذلك مطلقا ! وأذهب إلى القداس كل يوم أحد رغم أن الأب فلاين يبدو وكأنه سوف يستغرق فى النوم فى أية لحظة » .

— « لا أتحدث عن الكنيسة . وإنما أتحدث عن الجن والجنيات . ولاتنسى أن من أعظم مفاخرك التى يمتدحها الكافة عودتك إلى أرض أوهارا بينما يعرف الجميع أنها مسكونة بشبح اللورد الشاب » .

ولم يطرأ على بال سكارليت أنه يتحدث بجدية . قال :

— « لايهم أن تصدقى أو لاتصدقى . المهم أن الايرلنديين يصدقون هذه الحكايات ويؤمنون بها ، فإذا هزأت مما يؤمنون به ، فانك توجهين اليهم اهانة جارحة » .

ووعدته سكارليت بأن تضع لسانها فى فمها وبأن تمتنع عن الضحك إذا جاء ذكر هذه الموضوعات « الحساسة » . ومع ذلك فقد ضحكت إلى أن تلقت رفسات الجنين داخل رحمها والذى أصبحت تطلق عليه اسم « الفيل » لضخامة حجمه .

وطلب منها كولام أن تلتزم بوعد آخر وهو أن تبقى فى المنزل فى مساء السبت وتحكم إغلاق بابه وتسدل الستائر فهذه الأمسية هى عشية « كل المقدسين » .. والايرلنديون يعتقدون ان كل الجن منذ بداية العالم يخرجون ، كما تخرج العفاريت والأشباح والأرواح حاملة رؤوسها تحت أذرعها ، وتحدث كل الأشياء الخارقة . وقال كولام « التزمى بالعادات واغلقى بابك لتبقى فى أمان من رؤيتهم . »

● ● ●

توجهت سكارليت فى مركبتها الصغيرة لزيارة جدتها . كانت الجدة تغفو ولم تجلس سكارليت وهى ترى جدتها بين اليقظة والوسن .

— « أحببت أن أراك لحظة ياجدتى ، لن أفسد غفوتك »

— « إذن .. اعطينى قبلة الوداع ياكاتى سكارليت الصغيرة .. انت فتاة لطيفة » .

واحتضنت سكارليت الجسم الضئيل الجامد برفق ، وقبلت الوجنة العتيقة بقوة . وفى الحال سقط فك جدتها على صدرها .

ومرت على بيت كاثلين التى دعتها إلى تناول الشاى .

وقالت كاثلين « هل عندك وقت لرؤية الجدة ياسكارليت » ؟

— « لقد ذهبت إليها بالفعل قبل أن أمر عليك ، انها تغفو الآن »

— « هذا عظيم حقا .. فسيكون شيئا مؤسيا .. لو انها تخلفت عن توديعك . لقد اخرجت كفنها من الصندوق الذى تحتفظ فيه بكنوزها .

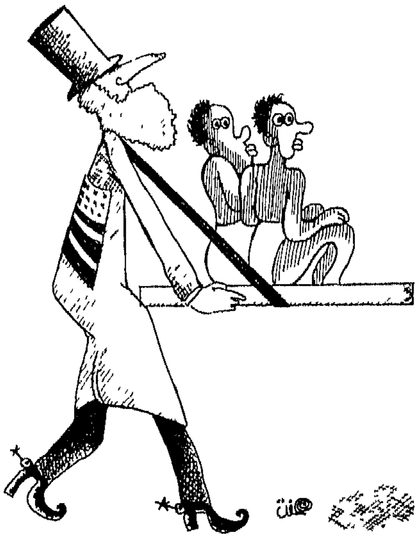
سوف تموت قبل أن يمضى وقت طويل » .

وتطلعت سكارليت بذهول إلى وجه كاتلين الساكن وجحظت عيناها . كيف تستطيع أن تقول أشياء كهذه بنفس لهجة الصوت التى تتحدث بها عن الطقس ؟ ثم انها تشرب الشاى وتاكل الكعك فى هدوء تام ؟

ومضت كاتلين تقول : « اننا نامل فى أن تحل بضعة أيام جافة أولا ، فلو أن الطرق كانت غارقة فى الوحل ، فإن الناس سيلقون المتاعب فى الوصول لحضور السهر على الجثمان . ولكن علينا أن نتقبل ما سيحدث » ..

وهنا لاحظت كاتلين ما ارتسم على وجه سكارليت من رعب .. ولكنها لم تفسره على نحو صحيح :

— « كلنا سوف نفتقدها ياسكارليت ، ولكنها مستعدة للرحيل ، وكل من يعيشون طويلا مثل كاتى سكارليت العجوز يعرفون بطريقة ما موعد رحيلهم .. اسمحى لى أن أصب لك المزيد من الشاى »



عملية قيصرية

الوقت غير كاف لأوراق جديدة للجدران . أسبوعان مدة قصيرة ، وأسرعت سكارليت إلى تذكير مسز فيتزباتريك بأنها ستنجب طفلها فى هذا البيت الكبير . وقدمت لها مدبرة المنزل المفاجأة التى تعوضها عن عدم وجود أوراق جديدة على الحوائط . إلى جانب نيران كافية فى المدفأة وستائر سميكة ذات ألوان زاهية وسجاد وأثاث .. فقد فتحت مسز فيتزباتريك بابا يفضى إلى غرفة ملحقة بغرفة النوم . وعقدت الدهشة لسان سكارليت وأخذت تحملق فى ذلك الشىء الغريب فى وسط الغرفة . انه سرير ضخم طوله عشرة اقدام على الأقل وعرضه ثمانية وثمة تاج من الذهب وأربعة أعمدة من خشب البلوط محفورة فى شكل آلهات إغريقيات . وقالت مسز فيتزباتريك : إنه يحتمل أن يكون هذا السرير قد صنع خصيصا لنائب الملك ، وهو رئيس حكومة ايرلندا .

وقالت سكارليت : « انه ضخم بحيث يكفى هذا الطفل العملاق فى احشائى . هذا إذا استطاع الطبيب أن يمسك به » .

واتفقا على إعداد حاشية للفراش خلال يومين .

وقالت سكارليت إنها لو نامت أسبوعا فى هذا السرير فإنها لن تلمس مطلقا نفس البقعة مرتين مهما تقلبت فى الفراش واقتنعت سكارليت بأن هذا السرير الذى يعتبر منزلا قائما بذاته يغنى مؤقتا عن أوراق الحائط .

وبدأت الأمطار تهطل بشدة والرياح تعوى فى الخارج .. وفى تلك اللحظة شعرت سكارليت بآلام الوضع . وطلبت من مسز فيتزباتريك أن تساعدها على الصعود إلى المائدة لكى تتمدد فوقها ، وطلبت منها أن تذهب لتستدعى الطبيب .

● ● ●

سكارليت تنزف بغزارة ، وهى وحيدة .. وقد تأخرت عودة فيتزباتريك جف حلقها ولا أحد يقدم لها جرعة ماء .. وزادت سرعة الرياح . وهبت عاصفة عاتية وتحول المطر إلى سيول . ورفسات الجنين تتزايد . ومضى وقت من العذاب قبل أن تعود مسز فيتزباتريك قالت إنها اشترت ملاءات وبطاطين ووسائد ناعمة وان رجالا سيحضرون حاشية الفراش . وطلبت منها سكارليت بعض الماء . وقالت مسز فيتزباتريك إن كولام ذهب لاحضار الطبيب ولكنه لم يستطع عبور النهر - بسبب ارتفاع المياه - والذهاب إلى الطبيب فى آدمز تاون ، فاضطر للذهاب إلى بلدة تريم . وطلبت سكارليت المزيد من الماء لتشرب .

حاولت مسز فيتزباتريك أن تخفى فزعها وهى ترى كمية الدماء التى تنزف من جسم سكارليت .

— « كم الوقت فى ساعتك يامسز فيتزباتريك » ؟

— « الخامسة وست عشرة دقيقة »

— « أعتقد أن العاصفة تعوق السفر .. أريد تغيير المنشفة فقد أغرقتها الدماء ، وأريد بعض الشاى المحلى بكمية كبيرة من السكر » .

المطر يضرب النوافذ والرياح تهزها . وكاد كولام أوهلرا يسقط صريعا عندما انكسر فوقه فرع شجرة على مقربة من المنزل .. وجاهد لكى يسلك الطريق المؤدى إلى الباب .

وسألت سكارليت : « كم الساعة الآن ؟ »

— « السابعة تقريبا » .

وصل كولام وسأل : « هل الحالة سيئة جدا ياسكارليت حبيبتى » ؟

رفعت نفسها لكى تجلس نصف جلسة :

— « هل الطبيب معك ؟ الجنين لم يعد يرفس كثيرا كما كان يفعل ؟ »

— « وجدت قابلة فى بلدة دانشوجلين لأن الطريق إلى تريم مغلق بعد أن اجتاح النهر هذا الطريق . والآن ارقدى على ظهرك الآن مثل أم طيبة ولاترهقى نفسك »

— « أين هى ؟ »

— « على الطريق .. كان جوادى أسرع ولكنها على مسافة قصيرة خلفى . وقد قامت بتوليد مئات السيدات . ستكونين فى أيد أمينة »

— « لقد انجبت من قبل ياكولام . هذه المرة مختلفة . هناك خلل ما »

— « ستعرف القابلة كيف تتصرف . اهدئى » .

● ● ●

وصلت القابلة بعد الساعة الثامنة والمياه تغطى كل ملابسها . ونزعت معطفها وناولته لكولام لكى يضعه على مقربة من النيران حتى يجف . ثم طلبت صابونا ومياها دافئة لكى تغسل يديها . وعندما اقتربت من المائدة التى ترقد فوقها سكارليت ورأت الدماء جفلت وهبطت عزيمتها . وتبادلت الهمسات مع مسز فيتزباتريك .

ذبل الضوء فى عينى سكارليت وأرخت جفونها فوق دموعها المفاجئة . وقالت القابلة فى مرح زائف : « دعونا نرى ما هناك .. » ومدت يدها تحت الملاءة وتحسست أحشاء سكارليت ، ثم قالت « طفل قوى بديع ، لقد وجه لى التحية على الفور برفسة . سوف ننظر فى دعوته للخروج الآن ونوفر لأمه بعض الراحة » .

واستدارت نحو كولام وقالت : « الأفضل أن تتركنا لعملنا النسائى ياسيدى ، وسوف ندعوك عندما يولد ابنك » .

وكشف كولام عن ياقته التى ترمز إلى عمله كرجل دين .

— « سامحنى يا أبى » .

وجذبت القابلة .. القس إلى ركن بعيد ، وقالت له « قد يكون من الأحسن أن تبقى يا أبى حتى الشعائر الأخيرة »

كان صوتها مرتفعا جدا . وسمعتها سكارليت . وبكت وهى تقول « يا إلهى الحبيب » :

وصرخت سكارليت عندما مدت القابلة يدها فى رحمها .

— « كفى ! يا إلهى .. الألم . اجعلوها تتوقف » .

وعندما انتهى الفحص كانت تئن من الأذى . وغطى الدم كل ما حولها وتناثر على ملابس مسز فيتزباتريك وعلى زى القابلة وعلى الأرضية لمسافة ثلاثة أقدام على جانبى المائدة . وشمرت القابلة عن ساعدها الأيسر . وكانت ذراعها اليمنى مصبوغة باللون الأحمر إلى منتصف المسافة من مرفقها . وقالت · « يجب أن أحاول بكلتا يدى » . وارتفع أنين سكارليت .

هنا تقدمت مسز فتيزباتريك من القابلة وهى تقول :

« انا عندى ستة أطفال .. اخرجى من هنا ، كولام .. اطرد هذه السفاحة من هذا المنزل قبل أن تقتل مسز أوهارا وقبل أن أقتلها .. وساعدنى يا ربى » .

واشرقت الغرفة فجاة بومضة من الضوء عبر كوة فى السقف ومن خلال النوافذ ، واشتد هطول الأمطار التى كان صوت ارتطامها بالزجاج يزداد علوا .

وزمجرت القابلة : « لن أخرج الآن ، .. الظلام دامس » وقالت مسز فيتزباتريك : « ضعها فى غرفة أخرى إذن ولكن المهم أن تخرجها من هنا . وعندما تبتعد ياكولام ، عليك أن تذهب لاحضار الحداد انه يداوى الحيوانات والمرأة لاتختلف كثيرا عن مرضاه » ..

وامسك كولام بالقابلة من ذراعها وهى تصرخ ، واخذ يهزها مثل الخرقة وهى تتضرع فى خنوع . قال : « هدئى نفسك يا امرأة » . ونظر إلى مسز فيتز باتريك بنظرات يائسة وقال :

— « لن ياتى ياروزالين . لا احد سياتى الآن . الدنيا ظلام . هل نسيت اى ليلة هذه ؟ » ومسحت مسز فيتز باتريك وجنتى سكارليت بقطعة

من القماش المبللة بمياه باردة ، وقالت :

« إذا لم تحضره معك ياكولام . سوف أتولى أنا هذه المهمة . عندى سكين ومسدس فى الدرج فى منزلك . ويكفى أن ألوح بهما أمام عينى الحداد . ومن المؤكد أن هناك أشياء يخافها أكثر من الأشباح » .

وقال كولام : « سأذهب » .

● ● ●

رسم جوزيف أونيل علامة الصليب على وجهه وصدره .. وتصبب وجهه عرقا ، وقال : « لقد فعلت ذلك فى حصان ذات مرة فى حالة كهذه .. أما امرأة فانني لا أستطيع أن أمارس معها هذا العنف » .

ونظر إلى سكارليت وهز رأسه ، وهو يضيف :

« ان هذا ضد الطبيعة . لا أستطيع » . العاصفة تزمجر فى الخارج وتهاجم الجدران الحجرية السميكة للمنزل .

— « يجب أن تفعلها يارجل ، وإلا فإنها ستموت » .

— « ستموت وكذلك الجنين ، ان لم يكن قد مات منذ بعض الوقت ، فليس هناك حركة » .

قال كولام بصوت حاول أن يجعله ثابتا وآمرا :

— « لاتنتظر إذن يا جوزيف . حبا فى الله يارجل ، إن هذا هو أملها الوحيد » .

ارتعشت جفون سكارليت .. وظهرت الحمى فى عينيها وبللت روزالين فيتزباتريك شفتيها بالمياه .

قال كولام : « جوزيف .. إنى آمرك » .

وارتعد الحداد . ورفع ذراعه البدينة المفتولة العضلات فوق بطن سكارليت المنتفخ . ولمع نصل السكين فى يده عندما انعكس فوقة ضوء البرق الساطع .

وقالت سكارليت بصوت واضح : « من هذا ؟ »

وصاح الحداد : « حمايتك يا قديس باتريك » !

وقالت سكارليت مرة أخرى : « من هذه السيدة الجميلة ياكولام فى الثوب الأبيض الرائع » ؟

وألقى الحداد بالسكين على الأرض وابتعد بينما كانت يداه ممددتين أمامه وكفاه مرفوعتين ليحمى نفسه من الرعب .. وهبت الرياح وكسرت أحد فروع الأشجار واطلقته ليحطم النافذة ، وأصابت ذراعى جوزيف أونيل وسقط على الأرض وهو يصرخ .

ومن خلال النافذة المفتوحة عوت الرياح فوقه . وغطى ضجيج الرياح على صراخ الحداد . وقفزت السنة اللهب داخل المصابيح واهتزت وانطفأ بعض هذه المصابيح .
وبهدوء وسط زئير العاصفة المقتحمة ، فتح باب المطبخ وأغلق مرة أخرى وسار جسم كبير يتغطى بشال عبر المطبخ وسط الأشخاص المذعورين متجها إلى النافذة . كانت امرأة ذات وجه مستدير تخطه التجاعيد . وبلغت المغسلة . وعصرت واحدة من المناشف .. فسال منها الدم .
وقالت روزالين فيتزباتريك التى أفاقت من رعبها وهى تخطو نحو المرأة :
— ماذا تفعلين ؟
ومد كولام ذراعه وأوقف روزالين .
لقد تعرف على الـ « كايليش »* المرأة الحكيمة التى تعيش بالقرب من البرج .
وكوّمت المرأة الحكيمة منشفة ملطخة بالدم واحدة بعد الاخرى فوق بعضها إلى أن سدت الثغرة فى النافذة . ثم استدارت لتقول : « اضيئوا المصابيح مرة اخرى » .
كان صوتها خشنا ، كما لو كان الصدأ قد بلغ حنجرتها .
وخلعت شالها الأسود المبلل بمياه المطر وطوته بعناية ووضعته على مقعد . وكانت ترتدى تحته شالا بنيا . وخلعته أيضا وطوته ووضعته على المقعد ، ثم شال أزرق داكن به ثقب على إحدى الكتفين .. وشال آخر احمر به ثقوب اكثر .
وقالت بلهجة توبيخ لكولام : « انت لم تفعل كما أخبرتك » . ثم اتجهت نحو الحداد وركلته بحدة فى جنبه وقالت : « عد إلى دكانك أيها الحداد » .
ونظرت إلى كولام مرة أخرى ، فاضاء مصباحا وبحث عن مصباح آخر واضاءه إلى أن استقرت الشعلة فى كل منهما وأرسلت نورها .
وقالت فى أدب : « شكرا أيها الأب .. ارسل اونيل إلى البيت ، فالعاصفة تنتهى . ثم تعال وارفع المصباحين عاليا إلى جانب المائدة » ثم استدارت نحو مسز فيتزباتريك ، وقالت : « انت ، افعلى نفس الشىء ، سوف اجهز الاوهارا » .

* « كايليش » باللغة السلتية القديمة فى ايرلندا .. معناها الساحرة .

حبل حول خصرها يحمل دستة أو أكثر من الأكياس التى يشبه كل منها « الجراب » وهى مصنوعة من خرق مختلفة الألوان ومدت يدها إلى أحد هذه الأكياس وسحبت قارورة تحتوى على سائل أسود . ورفعت رأس سكارليت بيدها اليسرى ، وصبت السائل فى فمها بيدها اليمنى وخرج لسان سكارليت من فمها لكى يلعق شفتيها وضحكت الـ « كايليش » بصوت خافت وأعادت رأس سكارليت لتستقر فوق الوسادة .

وبدأ الصوت الصدىء يدندن بنغمة ليست بنغمة . ولمست الأصابع المعروقة حلق سكارليت وجبينها وجذبت جفونها ثم تركتها . وأخذت المرأة العجوز ورقة نبات مطوية من أحد أكياسها المعلقة فى خصرها ووضعتها فوق بطن سكارليت . ثم أخرجت علبة سعوط من القصدير من كيس آخر ووضعتها إلى جانب الورقة . ووقف كولام ومسز فيتزباتريك كتمثالين يحملان المصابيح ، ولكن عيونهما كانت تتابع كل حركة .

الورقة النباتية تحتوى على مسحوق ، وقد نثرته المرأة فوق بطن سكارليت ثم أخرجت من علبة السعوط عجينة وأخذت تفركها فوق المسحوق وتدلك بها بشرة سكارليت .

وقالت المرأة : « سوف أقيدها حتى لاتجرح نفسها » وأخرجت حبالا من حول خصرها استخدمتها فى هذا الغرض . ونظرت إلى مسز فيتزباتريك ثم إلى كولام ، وقالت : « إنها ستصرخ ، ولكنها لن تشعر بالألم . حذار من الحركة ، لأن الضوء مسألة حيوية » .

وقبل أن يتمكنا من الرد ، أخرجت سكينا رفيعا ومسحته بشىء ما من أحد أكياسها ثم غرسته فى بطن سكارليت التى كان صرختها أقرب إلى صيحة روح يائسة .

وقبل أن يتبدد الصوت ، كانت الـ « كايليش » تحمل فى يديها طفلا مغطى بالدم وبصقت شيئا من فمها على الأرض ، ثم نفخت فى فم الوليد مرة واثنتين وثلاثا . وتحركت ذراعا الطفل ثم ساقاه .

وهمس كولام : « المجد للعذراء » .

ضربة خاطفة بالسكين قطعت الحبل السرى . ووضع الطفل على الملاءات المطوية . وعادت المرأة لتقترب من سكارليت . وقالت « اقتربا بالمصابيح » وتحركت يداها وأصابعها بسرعة ، أحيانا كان الضوء ينعكس بسرعة على السكين .. وتساقطت قطع صغيرة دموية من العظم الغشائى على الأرض إلى جانب قدميها . وصبت المزيد من السائل الأسود بين شفتى سكارليت ثم سائلا بلا لون فى الجرح المخيف فى بطنها ..

وصاحبت الدندنة المشروخة الحركات الصغيرة الدقيقة بينما كانت تمارس خياطة الجرح . وقالت . « عليكما بلفها فى كتان ثم فى صوف بينما اغسل الطفل » . وفى تلك الأثناء كانت قد قطعت الحبال التى تقيد سكارليت .

وعندما فرغ كولام ومسز فيتزباتريك من مهمتهما ، عادت المرأة حاملة طفل سكارليت داخل بطانية ناعمة بيضاء . وقالت وهى تضحك مشيرة إلى الطفل :

« ان القابلة نسيت هذا » . وعلى صوت ضحكها خرج صوت من حلق الطفل .. انها طفلة .. وهاهى ذى تفتح عينيها .. حدقة العين الزرقاء بدت مثل الحلقات الباهتة حول بؤبؤ العين الاسود .. انفها الدقيق واذناها وفمها وجمجمتها الناعمة .. كلها كانت نموذجية . وبشرتها الزيتونية كانت داكنة فوق البطانية البيضاء ..

● ● ●



وهى تستعيد وعيها بصعوبة وببطء . عرفت سكارليت أنها لم تفقد جنينها ، وانها أنجبت طفلة جميلة سمراء البشرة مثل والدها . وقد تم تعميدها فى نفس غرفة النوم بحضور الأب فلاين والاشبين كولام والأشبينتين كاثلين ومسز فيتزباتريك . وسميت الطفلة كاتى كولام أوهارا . واضطرت كاثلين إلى ارتداء أجمل ثيابها ولونه أزرق رغم انها فى فترة حداد . فقد ماتت كاتى سكارليت العجوز . واتفق الجميع على تاجيل ابلاغ سكارليت بالخبر حتى يقوى عودها .

وصحب كولام .. الأب فلاين إلى حانة كنيدى فى بوليهارا حيث دعا الحاضرين إلى تناول الشراب على حسابه بهذه المناسبة . وكان يامل فى أن يساعد هذا التصرف على وقف الشائعات التى تتردد فى مقاطعة ميث .

كان جو اونيل الحداد قد انكمش رعبا فى زاوية فى مطبخ بوليهارا حتى طلع النهار ، ثم اخذ يعدو إلى دكانه ليتناول شرابا يستعيد به شجاعته . وبدا يتحدث لأى شخص مستعد للاصغاء إليه .. وكانوا كثيرين :

« كنت مستعداً لانقاذ حياة الاوهارا عندما اخترقت الساحرة الجدار الحجرى وطرحتنى ارضا بقوة مخيفة ، وبعدها أخذت تركلنى . وكان لحمى يشعر بأن القدم ليست قدما بشرية وإنما ظلف مشقوق شيطانى . وعندئذ القت تعويذة على الاوهارا وبعدها شقت الطفل من الرحم . كان الطفل عبارة عن دم .. كما غطت الدماء الأرضيات والجدران والهواء . ولو كان جوزيف أونيل اقل شجاعة لغطى عينيه ليحميها من المنظر المروع ، ولكن جوزيف اونيل راى البنيان القوى البديع للطفل يتشكل تحت الدم . وانا اقول لكم إنه طفل رجل ، وعلامة الرجولة واضحة بين اطرافه . وقالت الشيطانة : « ساغسل الدم وازيله » وادارت ظهرها وقدمت للأب أوهارا مخلوقا هشا نحيلا يكاد يكون خاليا من الحياة .. مخلوقا انثى واسمر مثل تراب القبور . الآن ، من الذى سيخبرنى ؟ ما لم يكن استبدال طفل بآخر .. هذا الذى رأيته ، فماذا يكون ؟ لن ياتى شىء طيب من وراء هذا .. لا للاوهارا ولا لأى رجل لمسه ظل الطفل الجنى الذى وضع فى مكان .. وليد الاوهارا الصبى المسروق » .

ووصلت القصة القادمة من دانشوجلين إلى بوليهارا بعد اسبوع .

قالت القابلة إن الاوهارا كانت تحتضر ، ولم تكن هناك وسيلة لانقاذها سوى تخليصها من الجنين الميت فى رحمها . من الذى يفهم فى هذه المسائل أفضل من قابلة أمضت حياتها فى توليد الأمهات ؟ وفجاة جلست الأم

المعذبة فى فراش الألم ، وقالت « إننى أراها .. البانشى .. طويلة عارية الرأس وكل ثيابها بيضاء وجمال الجنيات على وجهها » . ثم دفع الشيطان برمح من الجحيم اخترق النافذة ، وطارت البانشى إلى الخارج لكى تندب نداء الموت . لقد كانت تزور روح الطفل الميت وتدعوها ، ولكن الطفل الميت أعيد إلى الحياة عن طريق امتصاص روح العجوز الطيبة التى كانت جدة الاوهارا . انه عمل الشيطان بلا جدال . والطفل الذى تعتبره الاوهارا وليدها ليس سوى غول .

قال كولام لروزالين فيتزباتريك : « أشعر باننى يجب أن احذر سكارليت ، ولكن ما الذى يمكننى أن أقوله لها ؟ ان الناس يؤمنون بالخرافات ؟ ان جميع ليالى « كل المقدسين » هى موعد خطر للولادة بالنسبة للطفل ؟ لا أستطيع أن أجد عندى أى نصيحة أقدمها لها ، وليست هناك وسيلة لحماية الطفلة من الأقاويل » .

قالت مسز فيتزباتريك . « سأرعى سلامة كاتى . لا أحد ولا شىء سيدخل هذا البيت ما لم أسمح بذلك ، ولا أذى أو ضرر سيقترب من هذه الطفلة الصغيرة . والأقاويل سوف يطويها النسيان فى حينها .. ياكولام وأنت تعرف ذلك . شىء آخر سوف يكتسح الأقاصيص والحكايات وهو أن يرى الجميع أن كاتى هى فتاة صغيرة مثل أى فتاة صغيرة أخرى » .

.. أما سكارليت فقد نفد صبرها وهى تشكو كل يوم لمسز فيتزباتريك : لماذا لا تتركها تستمتع مع الطفلة بضوء الشمس ؟ لماذا لاتذهبان فى نزهة بالمركبة ؟ وتشعر سكارليت بسرور لأن الطفلة ورثت منها لون عينيها الخضراوين وتقول « سوف اسميها كيتى كات .. فاى طفلة يمكن أن يكون اسمها كيتى .. »

ولم يسبق أن شعرت روزالين فيتزباتريك بخوف فى حياتها كما تشعر الآن .

تـأمـــــلات

سكارليت أوهارا التى جعلت من وقوع الرجال فى غرامها .. رياضة وتسلية لم تعد شيئا الآن سوى مصدر الطعام للشخص الذى تحبه أكثر مما أحبت فى حياتها · كات .

ولأنها لم تحب اشلى فى الحقيقة .. فانها كانت تريد ما لاتستطيع أن تحصل عليه واعتبرت ذلك حبا

لقد اضعت اكثر من عشر سنوات على الحب المزيف وفقدت ريت ، الرجل الذى أحببته حقا .

هل أحببته حقا ؟

واخذت تفتش فى ذاكرتها رغم الألم . انه شىء مؤلم دائما التفكير فى ريت وفى فقده وفى فشلها وتخف حدة الألم عندما تتذكر الطريقة التى عاملها بها .. فالكراهية تمحو الألم .

فى هذه الأيام التى لاتعمل فيها شيئا تسترجع ماضى حياتها . ولاتستطيع أن تتجنب تذكر ريت . هل احبته ؟ لابد أن هذا صحيح . ولابد اننى مازلت احبه ، وإلا ماكنت أشعر بقلبى يتوجع عندما اتخيل ابتسامته وأسمع صوته . ولكن طوال عشر سنوات كانت تستحضر اشلى فى ذهنها بنفس الطريقة ، وهى تتخيل ابتسامته وصوته . وقد اردت ريت اكثر من اى وقت بعد أن تركنى . انه شىء محير . وقد اصيب راسها بالصداع .

● ● ●

كنت سعيدة حتى قبل وصول كات . كنت سعيدة منذ اليوم الذى ذهبت فيه إلى منزل جامى . والسبب فى هذه السعادة هو أن آل أوهارا أخذونى كما أنا .. لم يتوقعوا ابدا أن اكون مثلهم . لم يجعلونى أشعر على الاطلاق باننى يجب أن أتغير . لم يجعلونى أشعر ابدا باننى على خطأ . وقد رغبت فى أن يقيم دانيل والجميع فى منازل كبيرة فى بوليهارا وان يصبحوا مزارعين كبارا يملكون مساحات شاسعة من الأرض واستاجرت عمالا ليضطلعوا بمعظم العمل . اردت أن أغيرهم . ولم اسال نفسى أبدا عما يريدونه هم . لم آخذهم كما هم .

لن افعل ذلك مطلقا مع كات . لن اسعى لكى أجعلها مختلفة عما هى عليه . وسوف احبها دائما كما افعل الآن بكل قلبى بصرف النظر عن اى شىء . لقد ارادت والدتى ان اكون مختلفة عن نفسى وكانت على خطا . كانت تؤمن دائما بأن والدتها هى السيدة النموذجية الكاملة . ولهذا لم يكن مطروحا للتساؤل مجرد الظن بأن الين أوهارا يمكن أن تخطىء فى أى شىء

ان أكون سيدة مثلها ليس الطريق الوحيد لكى أكون . وليست دائما أحسن وسيلة لكى أكون وخاصة إذا لم تكن تجعلك سعيدا . أن تكون سعيدا هى أفضل وسيلة لأن تكون لأنك عندئذ يمكنك أن تجعل غيرك سعيدا بطريقته الخاصة

جميعهم كانوا على خطأ . جميعهم . كل من حاربونى فى اتلانتا والخالة اولالى والخالة بولين ، وكل شخص تقريبا فى شارلستون . لقد أرادوا منى أن اكون مثلهم ، ولأنى لست مثلهم فانهم اعترضوا على شخصى ، وجعلونى اشعر وكأن هناك خطأ ما مريعا فى شخصى ، وجعلونى أظن اننى شخص سيىء ، وبالتالى استحق ان يتعالوا على امثالى . ولم يكن هناك شىء فعلته يمكن اعتباره مريعا . وما عاقبونى من اجله هو اننى لم أحترم قواعدهم . اصبحت موضع لومهم بسبب اهتمامى بالعمل وكسب المال ، واصبحت هدفا لتوبيخهم لأننى ناجحة ، ولأننى منعت اشلى من ان يدق عنقه فى قبر ميلى . ولو كان ما حدث هو العكس ، أى لو اننى انقذت ميلى خلال دفن اشلى لكان كل شىء على مايرام . يا للمنافقين ! ما الذى يعطى اشخاصا .. حياتهم كلها عبارة عن كذبة .. الحق فى إصدار الحكم على شخص ؟ ماهو الخطأ فى العمل باقصى مايستطيع المرء من همة ؟ وماهو الخطأ فى الحيلولة دون وقوع كارثة وخاصة لصديق ؟ انهم هم المخطئون .

هنا فى بوليهارا عملت باقصى ما استطيع من همة وكنت محل اعجاب . وكنت سببا فى حماية مزرعة العم دانيل من الضياع ، وبدأوا يسموننى الاوهارا .

ماذا قالت مسز فيتزباتريك ؟ « ليس مطلوبا منك ان تفعلى اى شىء . كل ما يجب أن تفعليه هو أن تكونى كما انت » وانا أكون سكارليت أوهارا التى ترتكب اخطاء احيانا وتفعل ماهو صواب احيانا ، ولكنها لاتتظاهر ولاتدعى ابدا أن تكون غير ماهى عليه . اننى الاوهارا . وما كان يمكن ان يسمونى هذا الاسم لو كنت رديئة كما يصوروننى فى اتلانتا . لست سيئة على الاطلاق . ولست قديسة أيضا . اننى الاوهارا . وانا فخورة بذلك .

واثارت طفلتها ضجيجا لكى تلفت النظر إلى انها مستيقظة ومستعدة لكى تلتهم غذاءها .

« أعدك ياطفلتى كات اوهارا انك تستطيعين ان تكبرى لتكونى ما تريدين أن تكونى حتى لو كنت مختلفة عنى اختلاف النهار عن الليل . »

المـــرأة الحكيمـــــة

مسز فيتزباتريك تعترض طريق سكارليت كلما حاولت الخروج وتسد الباب بجسدها . وتحاول سكارليت اقناعها بأن الهواء النقى سوف يفتح شهيتها ويفيد صحتها .. بلا جدوى .

كانت مسز فيتزباتريك هى رفيقتها الدائمة أثناء مرضها وفترة نقاهتها الطويلة .. تقوم على خدمتها طول الوقت وتسهر على راحتها وترعى الطفلة ، وفى نفس الوقت تستقبل الضيوف والزوار الذين توافدوا للاطمئنان على صحتها . كبار شخصيات أوهارا من ابناء عمها كانوا يزورونها عقب قداس كل يوم احد .. وكولام يكاد يزورها كل يوم ، وكاثلين كل يومين على الاكثر .. ومولى زارتها اكثر مما كانت سكارلبت تحب . ومسز فيتزباتريك تقوم بواجبات الضيافة ، وترفض ان تفصح لسكارليت عن اسمها الأول وان تنادى سكارليت باسمها مجردا بناء على طلبها . وكل ما سمحت به هو مناداتها باسم « مسز فيتز » على سبيل الاختصار وان تنادى سكارليت باسم « مسز O » ولكن عندما تكونان وحدهما فقط . اما أمام الآخرين فإنه يجب مراعاة الشكليات على الوجه الأكمل .

وانتظرت سكارليت إلى ان تنشغل مسز « فيتز » بعملها ولا تراها واستعدت للخروج . لقد ظلت مطيعة لمدة طويلة . وهذا يكفى . فالحقيقة المعروفة أن المرأة تلازم البيت بعد الولادة شهرا تقضى معظمه فى الفراش وهذا ما فعلته . وليس هناك سبب لإضافة ثلاثة أسابيع أخرى لمجرد أن ولادة كات لم تكن طبيعية وقد اعترف طبيب بوليهارا الدكتور ديفلين بأن لاخبرة لديه فى الأطفال الذين جاءوا عن طريق السكين ، فلماذا تستمع إلى مشورته .. خاصة أن هناك شيئا يجب أن تفعله ؟

كانت مسز فيتز قد حدثتها عن السيدة العجوز التى ظهرت ـ كما لو كان بفعل السحر ـ لكى تولد كات وسط زوبعة ليلة « كل المقدسين » . وحدثها كولام عن حقيقة تلك المرأة ، انها « كايليش » من البرج

وسكارليت مدينة بحياتها لهذه المرأة الحكيمة . وكذلك كات . ولابد أن توجه إليها الشكر .

برودة الطقس كانت مفاجأة لسكارليت . فقد كان أكتوبر دافئا إلى حد كبير . كيف يتغير الطقس إلى هذه الدرجة خلال شهر واحد ؟ ولفت أطراف عباءتها حول الطفلة المغطاة بالبطانية . وكانت كات متيقظة . وتطلعت عيناها الواسعتان إلى وجه سكارليت . وقالت الأم بنعومة . « أيها الشىء الحبيب . أنت طيبة جدا . لاتبكى أبدا .. » وسارت عبر فناء الاسطبل

المكسو بالطوب إلى طريق كانت تستخدمه فى أحيان كثيرة وهى تستقل المركبة .

• • •

ونادت سكارليت بصوت عال وهى تتجه إلى الأجمة التى تشبه غابة من الشجيرات الصغيرة تحت الأشجار العالية التى تتاخم البرج : « أعرف أنك هنا فى مكان ما ، أرجو أن تخرجى وتتحدثى معى لأننى سأقف هنا واتجمد حتى الموت إلى أن تخرجى ، وكذلك الطفلة .. إذا كان هذا يهمك » .

وانتظرت فى ثقة . فالمرأة التى جاءت بـ « كات » إلى الدنيا لن تتركها طويلا معرضة للرطوبة الباردة تحت ظلال البرج . وتركت عينا كات وجه سكارليت لكى تتحرك من ناحية إلى اخرى كما لو كانت تبحث عن شىء ما . وبعد دقائق سمعت سكارليت على يمينها . صوت حفيف وخشخشة فى الدغل الكثيف الذى يتكون من نبات الأيلكس ذى الأوراق الشائكة الأطراف والزهور الصغيرة الضاربة إلى البياض . وخرجت المراة الحكيمة من بين شجيرتين من ذلك النبات . وقالت وهى تتراجع إلى الخلف : « تعالى فى هذا الطريق » .

وعندما اقتربت سكارليت شاهدت ممرا . وكان من المستحيل أن تتمكن من العثور على هذا الممر لو لم تكن المراة الحكيمة قد ازاحت بشالها أغصان الأيلكس ذات الأشواك لكى تفسح الطريق . وتبعت سكارليت الممر إلى أن اختفى داخل بستان صغير من الاشجار ذات الأغصان المنخفضة .

قالت سكارليت : « اعترف بعجزى عن الاستمرار .. إلى أين الآن ؟ » وترددت ضحكة صدئة خلفها . وقالت المراة الحكيمة : « من هذا الطريق » وسارت حول سكارليت وانحنت تحت الغصون . وفعلت سكارليت المثل . وبعد بضع خطوات ، اصبح من الممكن أن تشد قامتها .

ثمة كوخ من الطين مسقوف بحزم من القصب فى الساحة التى تقع فى وسط بستان الأشجار الصغيرة .. وخيط رفيع من الدخان يتصاعد من مدخنته . قالت المراة . « تعالى » . وفتحت الباب .

• • •

قالت المراة الحكيمة : « انها طفلة ممتازة » . كانت قد فحصت كل أجزاء جسم كات حتى اظافر اصغر اصابع قدميها .

— « اى اسم اخترته لها » ؟

— « كاتى كولام اوهارا » ؟

كانت هذه هى ثانى مرة فقط تتكلم فيها سكارليت . المرة الأولى خارج

الباب ، وقد شرعت تشكر المرأة الحكيمة لما فعلته ، ولكن المرأة أسكتتها . قائلة وهي تمد يديها : « دعيني أرى الطفلة » . وناولتها سكارليت الطفلة في الحال ثم لزمت الصمت أثناء الفحص الدقيق . وكررت المرأة . « كاتي كولام » اسم ناعم ضعيف بالنسبة لهذه الطفلة القوية . اسم جريني .. اسم قوي » . صوتها الخشن جعل لهذا الاسم الايرلندي القديم رنين التحدي . وتململت سكارليت على المقعد الذي تجلس فوقه والذي كان بلا ظهر وبلا ذراعين ، ولم تعرف كيف ترد .

وحزمت المرأة جسم كات في اللفة ودثرتها بالبطاطين ثم رفعتها وهمست في اذنها الصغيرة شيئا بخفوت شديد حتى أن سكارليت لم تسمع شيئا مع انها أرهفت السمع ، وامسكت اصابع كات بشعر جريني . وحملت المرأة الحكيمة كات على كتفها . وقالت : « حتى لو سمعت فإنه من الصعب عليك الفهم يا أوهارا ، فقد كنت اتحدث باللغة الايرلندية القديمة . انها تعويذة . انت سمعت انني أعرف السحر مثلما اعرف ما يتعلق بالاعشاب . »

واعترفت سكارليت بانها سمعت عن ذلك . وقالت المرأة . « ربما أعرف . عندي إلمام بالكلمات القديمة والأساليب والطرائق القديمة ، ولكنى لا أسميها سحرا . انني انظر واصغي وأتعلم . وبالنسبة للبعض ، فإن ذلك قد يبدو مثل السحر في نظر الآخرين . عندما يتمتع إنسان بالنظر بينما الآخرون عميان ، وعندما يتمتع انسان بالقدرة على السمع بينما الآخرون يعانون من الصمم .. فإن ذلك في نظر الآخرين .. سحر . هذا يعتمد إلى حد كبير على التصديق والاعتقاد . لاتتصوري انني أستطيع ان اصنع سحرا لك » .

— لم أقل قط انني جئت لهذا الغرض »

— « فقط لتعبري عن الشكر ؟ هل هذا كل شيء » ؟

— « نعم ، هو كذلك ، والآن بعد ان شكرتك ، فإنني يجب أن أذهب حتى لايشعروا بغيابي في المنزل » .

قالت المرأة الحكيمة : « وأنا أدعوك أن تسامحيني . القلائل هم الذين يشعرون بالامتنان عندما ادخل حياتهم . واستغرب أنك لست غاضبة مني بسبب ما فعلته بجسدك » .

— « انت أنقذت حياتي وحياة طفلتي ايضا » .

— « ولكني حرمت من الحياة كل الأطفال الآخرين ، لابد ان الطبيب كان يعرف كيف يتصرف بطريقة أحسن » .

— « حسنا ، أنا لم أستطع استدعاء طبيب . ولو كنت أستطيع .. لفعلت » !

واطبقت سكارليت على شفتيها بقوة تعبيرا عن الضيق من لسانها المنفلت . لقد جاءت لتوجة الشكر وليس لإهانة المرأة الحكيمة . ولكن لماذا تتحدث المرأة بالألغاز بصوتها المروع المثير للأعصاب . انه يجعل القشعريرة تسرى فى العروق .

قالت سكارليت : « انا آسفة . هذه وقاحة منى . انا واثقة ان الطبيب لم يكن ليفعل احسن مما فعلت ، والارجح ولا نصف مافعلت . وانا لا افهم ما تقصدين بحديثك عن الاطفال الآخرين . هل تريدين القول أن توأما كان فى بطنى وان الطفل الآخر مات » ؟ وفكرت سكارليت .. من المؤكد ان هذا احتمال ، فقد كان بطنها كبيرا جدا اثناء الحمل . ولكن لو كان هذا صحيحا .. لكانت مسز فيتز أو كولام قد أخبراها بكل تاكيد . ربما لا .. فهما لم ينقلان إليها خبر وفاة كاتى سكارليت العجوز إلا بعد أسبوعين من موتها .

شعور غير محتمل بالخسارة اعتصر قلب سكارليت .

— هل كان هناك طفل آخر ؟ يجب أن تصارحينى ! »

— « صه ، انت تزعجين كاتى كولام . لم يكن هناك طفل آخر فى الرحم . لم أعرف أنك ستخطئين فهم كلماتى . كانت المرأة ذات الشعر الأبيض تبدو ذكية . واعتقدت انها فهمت وانها ستخبرك . لقد رفعت الرحم مع الطفل . ولم تكن عندى المهارات اللازمة لإعادته إلى مكانه . لن تستطيعى الانجاب مرة أخرى » .

كان هناك شىء حاسم وقاطع ونهائى على نحو مخيف فى كلمات المرأة والطريقة التى نطقت بها هذه الكلمات . وادركت سكارليت تماما أن ما تقوله صحيح ، ولكنها لم تستطع ان تصدق . لن يكون لها أطفال آخرون ؟ الآن . عندما اكتشفت فى النهاية الفرحة الطاغية للأمومة ، وعندما عرفت ، بعد فوات الأوان ، معنى الحب ؟ يا للقسوة .

لم تكن سكارليت قد فهمت فى أى وقت معنى أن تخاطر ميلانى بحياتها .. وهى تعلم ذلك .. لكى تنجب طفلا آخر . الآن تستطيع ان تفهم . فهى مستعدة لأن تفعل كما فعلت ميلانى .. وتتحمل الألم والخوف ونزيف الدم مرة بعد اخرى لكى تستمتع باللحظة التى ترى فيها وجه طفلتها لأول مرة .

واطلقت كات صوتا كالمواء إعلانا عن بدء إحساسها بالجوع . وشعرت

سكارليت بان اللبن بدأ يجرى فى صدرها .. استجابة للنداء . لماذا أنا حزينة ؟ ألا توجد بين ذراعى الآن أجمل طفلة فى العالم كله ؟

قالت : « لابد أن أذهب ، انه موعد رضاعة الطفلة » .

وقالت جريني : « كلمة اخرى . تحذير » . وشعرت سكارليت بالخوف . اضافت السيدة : « احتفظى بطفلتك على مقربة منك .. فهناك من يقولون إن ساحرة هى التى جاءت بها ولذلك فإنها مسحورة » . وارتجفت سكارليت ، بينما كانت المرأة تقبل رأس الطفلة وهى تقول بصوت خفيض : « كونى بصحة جيدة يا دارا .. سوف اسميها دارا فى ذاكرتى . ومعناها شجرة البلوط . واننى ممتنة لنعمة رؤيتها ولتشكراتك ، ولكن لا تحضريها إلى هنا مرة اخرى . ليس من الحكمة ان تكون لها علاقة بى . إمضى الآن . شخص ما قادم ، وينبغى الا يراك احد . »

واسرعت سكارليت فى طريق العودة ، فقد كانت السماء قد بدات تمطر .

● ● ●

امضت سكارليت وكات عيد الميلاد فى بيت دانيل . وحصلت كات على الاعجاب الكافى لارضاء سكارليت .

قالت سكارليت : « كولام .. اريد الذهاب إلى الوطن »

— « الست فى وطنك الآن ، على أرض شعبك التى جعلت منها أرض اوهارا مرة اخرى » ؟

— « كولام ، لا تمارس روحك الايرلندية معى ! انت تعرف ما اعنيه .. اشعر بحنين إلى الأصوات الجنوبية وأشعة الشمس الجنوبية والطعام الجنوبى . أريد شيئا من الخبز المصنوع من القمح والدجاج المحمر وطبق القمح والشوفان المجروش . لايوجد فى ايرلندا من يعرف ما هو القمح ، فالكلمة هنا تستخدم فى التعبير عن اى نوع من انواع الحبوب »

— « لا اعرف ياسكارليت . وانا آسف على ماتشعرين به من حزن . لماذا لاتذهبين فى زيارة عندما يحل الطقس الملائم للرحلات البحرية ؟ يمكنك ان تتركى كات هنا فى رعاية مسز فيتزباتريك وانا . »

— « أبدا . لن اترك كات ابدا » .

لاشىء يقال . غير ان الفكرة تراود ذهن سكارليت من وقت إلى آخر : أسبوعان ويوم واحد فقط لعبور المحيط ، وأحيانا تلعب الدرافيل لساعات على جانب السفينة .

● ● ●

وجاء أول أيام السنة الجديدة . ولابد من أداء طقوس معينة لضمان

الحظ السعيد طوال السنة . والبداية هى أن تتذوق سكارليت قطرات من الشاى . ثم يجب أن يكون أول طعام يؤكل فى البيت كعكة على صينية . على أن يقضم منها ثلاث مرات فقط باسم الثالوث القدس . والخطوة التالية هى القاء الكعكة بكل قوتك صوب الحائط حتى تتحطم إلى أجزاء صغيرة .

ما هذا الجنون ؟ ولماذا أفسد كعكة جميلة ؟ ولماذا أتناول كعكا فى طعام الافطار ؟ والمطلوب هو أن تحمل الكعكة الضخمة بين يديها وتكرر الصلوات التى تحمى من الجوع خلال السنة والتى علمتها إياها مسز فيتز . هذه هى التقاليد الايرلندية . ولا يستطيع أحد فى المنزل ان يأكل قبل تدمير الكعكة . وكان لابد أن تطيع سكارليت كل التعليمات الصادرة إليها من مسز فيتز فى صباح ذلك اليوم .. وعلى كل رجل وامرأة وطفل فى بوليهارا أن يأخذ قطعة صغيرة من بقايا الكعكة من أجل الحظ السعيد .

● ● ●

أول فبراير هو بدء السنة الزراعية فى ايرلندا . ووقفت سكارليت ـ وفى رفقتها كل شخص يعمل ويقيم فى بوليهارا ـ فى وسط حقل كبير . وبعد أن رددت إحدى الصلوات من أجل محصول وفير ناجح ، نغرس جاروفا فى الأرض ثم تسحبه منها وتقلب أول حفنة من التراب . الآن يمكن أن تبدأ السنة بشرط أن يقام حفل لتناول كعكة التفاح واللبن ، لأن أول فبراير هو أيضا يوم الاحتفال بعيد القديس بريجيد ، وهو راعى مزارع انتاج الألبان .

كلمة سكارليت هى القانون فى تسوية الخلافات والمنازعات فى بوليهارا . والمكتب المختص بهذه الشئون يوجد داخل منزلها : « البيت الكبير » . والمزارعون يعرفون فى الزراعة أكثر مما تعرف ، ويمكنها أن تتعلم منهم خلال مناقشة تلك المنازعات الصغيرة . وقد وضعت ثلثمائة فدان جانبا لتكون مزرعتها الخاصة . والمزارعون الذين يعملون بها يدفعون فقط نصف الايجار المعتاد . ولكن المزارعين يتعلمون منها أيضا ، فهم لم يسمعوا من قبل عن التسميد بالفوسفات إلى أن تسلموا منها أكياس المخصبات . وقد يسترد ريت بضع بنسات من أمواله إذا كان المحصول جيدا .

وتبقى أجمل الساعات التى تعيشها سكارليت وهى التى تقضيها مع « كات » التى كانت قادرة على أن تسلى نفسها وأن توجه نظراتها بانتباه إلى أمها وهى تتحدث .

وعندما كانت سكارليت فى العشرين من عمرها اضطرت لأن تنسى شبابها وتدفنه .. وفى ربيع عام ١٨٧٦ وهى فى الحادية والثلاثين من عمرها .. عاد الأمل والشباب والحنان .

حاولت مسز فيتز اقناع سكارليت بتأجير البيت الذى كانت تقيم فيه قبل انتقالها إلى البيت الكبير لصانعة أزياء نسائية ، خاصة أن سكارليت تحتاج إلى بعض الملابس بعد أن أمضت الشهور السابقة فى ملابس سوداء رثة . ولم تمانع سكارليت . فقد كان الحصول على الايجار هو ما يهمها فى المقام الأول . واقترحت مسز فيتز ايضا على سكارليت الموافقة على تأجير البيت الملاصق لحانة برندان كنيدى فى بوليهارا لكنيدى نفسه لكى يستخدمه كفندق صغير . ولم توافق سكارليت .

كان الفينيون يزدادون عددا وقوة باطراد فى كل انحاء ايرلندا ، وفى بوليهارا اصبح لديهم الآن اهم ما يحتاجونه : موقع آمن يستطيع زعماؤهم فى كل مقاطعة أن يصلوا إليه ويجتمعوا فيه لوضع خططهم .. وحيث يستطيع اى شخص مطلوب القبض عليه أن يجد فيه الملجأ الذى يحتمى بداخله . والمشكلة الوحيدة هى أن وجود الغرباء فى بلدة أكبر قليلا من قرية يمكن أن يكون ملحوظا .

وكانت مسز فيتز تشعر بارتياح لأنها استطاعت أن تضع فى داخل بوليهارا .. مارجريت سكانلون « خياطة السيدات » ، ولكنها كانت تريد أن تحصل على موافقة سكارليت على فكرة الفندق الصغير ، وناقشت كولام لكى يتدخل ويساعد فى اقناع سكارليت ، ولكنه طلب منها التمهل حتى يأتى الوقت المناسب .

• • •

حزمت سكارليت امرها فى اليوم الذى رات فيه الغلالة الرقيقة من اللون الأخضر فوق السهول المزروعة حيث قلبت بجاروفها أول حفنة من التراب . يجب أن تقوم برحلتها إلى أمريكا بعد عيد الفصح مباشرة ، وسيكون لديها مايكفى من الوقت بحيث تحضر موسم الحصاد فى بوليهارا . اللون الأخضر جعلها تشعر بنشوة كبيرة .. وكبرياء . انها تريد أن تصيح وتعلن بأعلى صوت : « هذه ملكى ، ارضى ، بذورى اصبحت تتفجر بالحياة » .

ستأخذ معها حفنة من التراب من ارض اوهارا لكى تنثرها على ضريح جيرالد أوهارا فى تارا . كما انها ستحضر معها ابنها ويد وابنتها ايلا ليعيشا معها هى وكات الحياة الجديدة فى أيرلندا . الآن هى تريدهما بعد أن اكتشفت معنى الشعور بالحب للطفل .. ومعنى أن تكون اما حقيقية .

• • •

رحـــلـة العــــودة

أكد كولام صعوبة السفر قبل عيد الفصح لأن الاوهارا يجب أن تحضر حفل الجمعة العظيمة . ولم تجادل سكارليت ، لأنها حريصة على أن تكون الاوهارا ، ولكنها شعرت بضيق لأن زرع أول شجرة بطاطس بهذه الدرجة من الأهمية . وكان يثير سخطها أيضا أن كولام لن يذهب معها في الرحلة إلى أمريكا وانه كان متباعدا كثيرا في الفترة الأخيرة .

كل شيء كان يثير اعصابها .. لأنها بعد أن قررت السفر ، تريد أن تسافر .. وقد تحدثت مع الخياطة مارجريت سكانلون بفظاظة لأنها أخذت وقتا طويلا في إعداد ثيابها ولأنها أبدت اهتماما غير عادى عندما طلبت سكارليت فساتين حريرية ملونة إلى جانب ملابس الحداد .

وحجزت سكارليت اكبر وافخم مقصورة في السفينة برايان بورو التى تغادر ميناء جالواى يوم الجمعة التالى لعيد الفصح .

وفي يوم أحد السعف ، انقلب الجو وأصبح باردا واشتد المطر الذى بدأ يهطل منذ يوم الجمعة العظيمة . وعادت سكارليت إلى منزلها وهى مبللة بالمياه وترتعد من البرد عقب الاحتفال الذى جرى في الحقل لزرع الشجرة . وكانت تحلم بحمام ساخن ، غير انها لم تجد الوقت لكى ترتدى حتى ملابس جافة . فقد كانت كاثلين في انتظارها وهى تحمل رسالة عاجلة :

« دانيل العجوز يريد أن يراك ياسكارليت . لقد اصيب بمرض في صدره وهو يحتضر » .

• • •

ركعت سكارليت إلى جوار الفراش وأمسكت بيد عمها دانيل أوهارا . كان وجهه اشبه بجمجمة مغطاة بالجلد .

— « العم دانيل . أنا كاتى سكارليت » . فتح دانيل عينيه .. كان يبذل جهدا خارقا لكى يتكلم مما جعل سكارليت توشك على البكاء .. قال : « اطلب منك معروفا » .

— اى شيء .

— ادفنيني في أرض اوهارا .

— سافعل .

واغلقت عينا دانيل . وبدأت سكارليت تبكى . واقتادتها كاثلين إلى مقعد إلى جانب المدفاة . لم تكن سكارليت تدرك حتى هذه اللحظة كيف أصبح عمها جزءا هاما من حياتها . كان يتكلم قليلا جدا .ونادرا ما كانت هى نفسها تتحدث اليه . غير انه ببساطة .. كان هناك موجودا .. قويا ..

صلبا .. هادئا .. ثابتا .. لايتغير . رب الأسرة . وفى ذهنها . كان العم دانيل هو الاوهارا .

مات دانيل يوم الاثنين بعد صحوة قليلة بعد ظهر يوم الأحد . وأصبح من المستحيل على سكارليت أن تسافر يوم الجمعة لأن « البقاء إلى جانب الميت قبل دفنه » سوف يستغرق ثلاثة أيام على الأقل ، وربما أربعة .. وبعدها الدفن . ولا مفر أمام سكارليت من أن تكون على راس الأسرة .

— « لا مناص ياسكارليت » .. هكذا قال كولام ..

● ● ●

كثيرون جاءوا للتعزية فى وفاة دانيل . لم يتسع لهم المكان . شموع سميكة طويلة تحترق على الموائد عند رأس وقدمى الفراش الكبير . ورقد دانيل فوق الأغطية فى حلة بيضاء ذات حواف سوداء .. ويداه المرهقتان من العمل معقودتان فوق صدره . وثمة امرأة تميل بجسمها ناحية اليمين وناحية اليسار وهى تنتحب وتندب : « لماذا تركتنا ؟ لماذا تركتنا ؟ »

ودفن دانيل أوهارا يوم الخميس . وكانت الجنازة هائلة مثل جنازة كاتى سكارليت العجوز . وتولت سكارليت قيادة الموكب الجنائزى إلى القبر الذى حفره أبناؤه فى الضريح القديم المحاط بالأسوار فى بوليهارا والذى عثرته عليه هى وكولام وقاما بتنظيفه .

وعندما انتهت الجنازة ، توجهت الأسرة إلى البيت الكبير لتناول المرطبات . وسرت الطاهية التى تعمل عند سكارليت لأن المناسبة جاءت لاستعراض مواهبها . ومدت الموائد على طول غرفة الجلوس والمكتبة اللتين لا يستخدمهما أحد . وغطيت بأطباق اللحوم والدجاج والخنازير .. وتلال من الخبز والكعك وبراميل الويسكى وأنهار الشاى . كان المئات من جماعة أوهارا قد قاموا بالرحلة إلى هنا لحضور الجنازة رغم الطرق الموحلة . وحملت سكارليت طفلتها « كات » لتقابل أسرتها وأهلها . وقوبلت الطفلة بإعجاب جماعى يفوق ما كانت تتمناه سكارليت . ولم تمض دقائق حتى بدأ عزف الموسيقى .

وقبل أن ينتهى « الحفل » ، اقترب اثنان من أبناء عمومتها وانحنيا فوق مقعدها ، وقال « جو » ابن باتريك بصوت منخفض :

— « نرجو أن تتفضلى بالحضور إلى المنزل غدا بعد الافطار »

— « ما الحكاية » ؟

— « سنخبرك غدا فى جو هادىء يساعدك على التفكير » .

● ● ●

كانت الحكاية هى : من الذى يرث مزرعة دانيل ؟ فالمعروف أنه بسبب الأزمة القديمة التى نشأت عن وفاة العجوز باتريك ، تنازع اثنان من عائلة اوهارا على حق ملكية المزرعة . ولم يكتب دانيل وصية قط فى حياته .

تماما مثل والدها جيرالد هاهى ذى قصة تارا تعود مرة أخرى .

والقرار سهل . لقد عمل سيماس ، إبن دانيل ، بجد فى المزرعة طوال ثلاثين سنة بينما كان شين ، إبن باتريك ، يقيم مع كاتى سكارليت العجوز ولا يعمل فى اى شىء .

واعطت سكارليت المزرعة لسيماس . كما كان يجب أن يفعل والدها . كان يجب أن يعطينى تارا .

انها الاوهارا ، ولذلك فإن حكمها لايخضع للنقاش . واحست سكارليت بالزهو والابتهاج ، فهى واثقة من انها كانت عادلة واعطت سيماس حقه ، بينما لم يفعل احد معها ذلك ابدا .

وفى اليوم التالى ، وضعت سيدة غير شابة سلة من البيض على عتبة باب البيت الكبير . وعلمت مسز فيتز ان التى وضعتها هى حبيبة سيماس التى انتظرت قرابة عشرين عاما لكى يطلب الزواج منها .. وهى الخطوة التى لم يقدم على اتخاذها إلا بعد ساعة واحدة من صدور قرار سكارليت حول المزرعة .

موعد الرحلة هو السادس والعشرون من أبريل . وثمة كابينة محجوزة فى سفينة شحن . وكان هذا هو الحل الوحيد لأنها اصبحت فريسة لخرافاتها الخاصة التى تحذرها من انها إذا قامت بتأخير سفرها مرة اخرى حتى عيد مايو . فإنها لن تسافر على الاطلاق . وكان كولام يعرف السفينة وقبطانها ، ورغم انها سفينة شحن إلا انها لاتحمل سوى بالات من أجود انواع الكتان الايرلندى . كما أن زوجة القبطان ترافقه مما يتيح لسكارليت صحبة نسائية .

٢٦ ابريل يعنى مرور سنة كاملة على الموعد الذى كان محددا فى الاصل لانهاء « عطلتها » فى ايرلندا .

● ● ●

الإنســـــان والوطــن

في اليوم السابق على سفرها .. تسلمت سكارليت ما تبقى من الثياب الجديدة من مارجريت سكانلون ، وكادت ترقص فرحاً .

وبينما كانت السيدة تلف الثياب في فرخ من الورق .. تطلعت سكارليت إلى شوارع البلدة المهجورة وقت الغداء ، ورات كولام يدخل مبنى الكنيسة البروتستانتية الخالية على الناحية الأخرى من الشارع العريض . إذن ، فقد استمع إلى نصيحتي وإلى صوت العقل . فليس من المعقول ان يتكدس كل السكان في كنيسة صغيرة كل يوم احد بينما هذه الكنيسة الضخمة خاوية على عروشها لايستخدمها احد لمجرد ان البروتستانت هم الذين شيدوها . لماذا لايستولى عليها الكاثوليك . لا اعرف لماذا كان كولام عنيدا طول الوقت . غير انني ساعرب له عن سعادتي لأنه غير موقفه .

وقالت لمسز سكانلون : « ساعود حالا » ، واسرعت إلى الشارع واجتازت ممرا بين الاعشاب يقود الى مدخل جانبي صغير ، وطرقت على الباب ودفعته لتدخل .

وانطلق دوى عالٍ ، وتبعه آخر وشعرت بشيء حاد يضرب ساعدها .. رجل غريب يحدق فيها بعيني حيوان مفترس وهو يحمل مسدساً . لقد اطلق النار عليها . وتقدمت إلى الأمام في تصميم . وسمعت الطلقة الثانية التي كانت انفجارا ترددت اصداؤه بعنف في احجار السقف . والقت سكارليت بنفسها على الارض ، وعندما رفعت عينيها رات ذراع كولام اليمنى تلتف حول رقبة الرجل بينما يده اليسرى تلتف حول معصمه ، وفوهة المسدس مصوبة ناحية السقف . قال كولام : « إلق بالمسدس ايها الغلام ديفى » . وسقط المسدس . وبسرعة .. سحب ذراعه من حول عنق الرجل ، وجمع قبضتيه وهوى بهما على راسه . ووقع الرجل فاقد الوعي . وقال كولام « سوف يفيق » . واتجه بسرعة نحو الباب واغلقه بهدوء بالمزلاج .

قالت سكارليت وهي تضغط على كل حرف : « ماذا . يجرى .. هنا ؟ » حاول كولام ان يتودد إليها بطريقته المعهودة ، ولكنها رفضت ان تستمع إلى شيء .

— « هذا الرجل حاول قتلي يا كولام . من هو ؟ ولماذا تتسلل لكي تقابله ، وما الذى يجرى هنا » ؟

وحدثها كولام عن الإخوان الفينيين . وعندما فرغ من حديثه ،

استطاعت أن تستعيد صوتها :

— « يهوذا ! قذر ، كاذب ، خائن . لقد وثقت بك ، وظننت أنك صديقى » .

كل شىء كان عبارة عن خيانة . لقد كان يستخدمها ، ويخدعها منذ اللحظة التى التقيا فيها لأول مرة . وكلهم فعلوا نفس الشىء : چامى ومورين ، وكل أبناء عمومتها فى سافانا وإيرلندا ، وكل مزارعى بوليهارا ، وكل سكان بلدة بوليهارا . وحتى مسز فيتز . كانت سعادتها وهما . كل شىء وهم . .

— « هل تسمعيننى الآن ؟ »

كرهت صوت كولام . لن أسمع . وحاولت ان تغلق اذنيها . ولكن كلماته تسللت من بين اصابعها :

— « تذكرى جنوبك .. ونعال الغازى تطأ أراضيه ، وفكرى فى أيرلندا وجمالها ، والأيدى الآثمة للعدو الذى يغتالها . لقد سرقوا لغتنا منا .. وتعليم طفل كيف يتحدث الأيرلندية .. جريمة فى هذه الارض . وتصورى ان اليانكى لديك يتحدثون بكلمات لاتعرفينها .. كلمات تم تلقينها لك تحت تهديد السيف .. لأن كلمة مثل كلمة « قف » يجب أن تعرفيها وإلا سيكون القتل مصيرك لأنك لم تتوقفى .. لقد اخذوا أرضنا ، التى هى أمنا ، ولم يتركوا لنا شيئا . لقد عرفنا طعم الهزيمة داخل ارواحنا .. هل تذكرين ياسكارليت .. عندما جاءوا يأخذون منك تارا ، لقد قاتلت من اجلها بكل إرادتك ، بكل قوتك . وبكل حرارة قلبك وذكائك . وعندما كان الأمر يتطلب الكذب ، كان يمكنك ان تكذبى .. الخداع .. كان يمكنك ان تخدعى ، والقتل .. كان يمكن ان تقتلى . وهذا هو نفس الحال معنا نحن الذين يقاتلون من أجل ايرلندا . ومع ذلك فإننا محظوظون أكثر منك ، لأن لدينا الوقت للاستمتاع بحلاوة الحياة .. بالموسيقى والرقص والحب . انت تعرفين ما هو الحب ياسكارليت . لقد كنت اتابع نمو طفلتك .. الحب كاس مترعة .. طافية دائما .. الشرب منها يجعلها تمتلىء مرة أخرى وتطفو .. وهذا نفس الحال مع حبنا لايرلندا ولشعبها . لقد احببتك ياسكارليت ، جميعنا أحبوك لم يكن من الممكن الا نحبك ، لأن ايرلندا هى حبنا لأحبابنا .

«هل من الضرورى ان تهملى اصدقاءك لأنك تحبين طفلتك وتعتنين بها؟ إن الإنسان لا يتنكر للإنسان . لقد ظننت اننى صديقك ، كما تقولين .. شقيقك . وانا كذلك يا سكارليت وساظل حتى آخر الزمن . ان سعادتك

تبهجنى .. وأحزانك هى همى . ومع ذلك فإن ايرلندا هى روحى . ولا يمكن اعتبارى خائنا ما دامت أفعالى مكرسة لتحريرها من نيرها ، ولكنها لاتسلب الحب الذى أكنه لك ، بل تضاعفه » .

ارتفع انين الرجل الممدد على الارض بعد أن اخذ يسترد وعيه . « هل هو من الفينيين ؟ » .

— « نعم . انه هارب . رجل كان يظن أنه صديقه .. وشى به لدى الانجليز » .

— « أنت الذى أعطيته المسدس .. »

— « نعم يا سكارليت . ها أنت ترين . لا أكتم عنك سراً . لقد أخفيت أسلحة فى هذه الكنيسة الانجليزية . وانا مسئول توريد واختبار السلاح للإخوان .. وعندما يأتى اليوم الموعود .. وارجو ان يكون قريبا جدا ، فإن آلافا عديدة من الإيرلنديين سيكونون مسلحين للقيام بانتفاضة . وهذه الأسلحة سيكون مصدرها .. هذا المكان الانجليزى » .

— « متى ؟ » .

— « لم يتحدد موعد . نحن فى حاجة إلى خمس شحنات اخرى أو ست إذا أمكن ذلك » .

— « هل هذا هو ما تفعله فى أميركا » ؟

— « نعم . اجمع التبرعات بمساعدة الكثيرين ، ثم يجد آخرون وسيلة لاستخدام هذه الأموال فى شراء أسلحة ، وأنا انقلها إلى ايرلندا » .

— « على متن السفينة برايان بورو » .

— « وسفن اخرى » .

— « هل ستطلقون النار على الانجليز ؟ »

— « نعم ، ومع ذلك فسنكون رحماء أكثر . فقد قتلوا نساءنا وأطفالنا علاوة على رجالنا . ونحن سنقتل الجنود . فالجندى يحصل على مرتبه ليموت » .

— « ولكنك قسيس ، لا تستطيع ان تقتل » .

أطرق برأسه ولزم الصمت . ومضت دقائق قبل ان يرفع عينيه اللتين يظللهما الأسى :

— « عندما كنت فى الثامنة من عمرى . كنت اتابع عربات الدقيق وقطعان الماشية على طريق أدمزتاون المتجه إلى دبلن وموائد المآدب الانجليزية بما تحفل به من طعام وشراب . وكنت أرقب أيضا شقيقتى وهى تموت جوعا لأنها كانت فى الثانية فقط من عمرها ولم اكن أملك القوة لكى

أحملها وأنا لا أجد الطعام وكان هناك شقيق فى الثالثة وكان ضعيفا هو الآخر . فالأصغر سنا هم دائما أول من يموتون .. كانوا يبكون لأنهم جوعى وأصغر من ان يفهموا عندما يقال لهم انه لايوجد طعام . أما أنا فقد فهمت لأننى كنت فى الثامنة وأكثر تعقلا . ولم أبك لأننى كنت أعرف أن البكاء يستهلك القوة المطلوبة للبقاء على قيد الحياة بدون طعام . شقيق آخر مات كان فى السابعة ثم مات الشقيق الذى كان فى السادسة ، ومات الشقيق الذى كان فى الخامسة . وسوف يخجلنى إلى الأبد اننى نسيت ايهم كان الفتاة ، وأيهم كان الصبى . وماتت أمى عندئذ ، ولكننى كنت واثقا على الدوام من أن آلام قلبها الكسير كانت سبب موتها أكثر من آلام بطنها الخاوى .

« إن الموت جوعاً يستغرق شهوراً عديدة ياسكارليت . انه ليس موتا رحيما . وطوال كل هذه الشهور ، كانت العربات المحملة بالطعام تمر أمامنا » ..

كان صوته يبدو خاليا من الحياة ثم ينتفض ويعود لينكسر

« ثمة رؤية عندى .. اتخيل الأطفال الجوعى يتجمعون .. وأعدادهم تخفف من ضعفهم ، وينهضون بالآلاف .. وتمتد أذرعهم الصغيرة الخالية من اللحم وتقلب العربات المحملة بالطعام .. وبعدها لايموت هؤلاء الأطفال ... »

سكارليت تعرف كيف يكون المرء عاجزا فى مواجهة جيش ، وتعرف الإحساس بالجوع .. وهى ذكريات لاتمحوها أية كميات من الذهب ..

ووجهت سؤالها إلى كولام : « كيف يمكن أن أساعدك » ؟ انه يقاتل من أجل ايرلندا ، وإيرلندا هى وطن أهلها وطفلتها .

عـــرض زواج !

الرحلة فى السفينة تتيح الفرصة للتفكير . وتوصلت سكارليت إلى ان امامها الكثير لتعمله . سوف تجد مشتريا لمتجرها ولمنزل شارع بيتشترى الذى يدفع ريت تكاليف نفقاته . فقد اصبح من السخف الاحتفاظ به خاويا بينما لاتنوى استخدامه مرة اخرى . وسوف تبيع الملهى ايضا ، فهو يدر دخلا طيبا ولن تجد صعوبة فى بيعه . لقد قررت ان تقطع كل صلة باتلانتا .

وماذا عن المنازل التى تشيدها ؟ انها لاتعرف اى شىء عن هذا المشروع . وعليها ان تتحرى ما يجرى وأن تتأكد من ان المقاول لايزال يستخدم الخشب الذى ينتجه مصنع آشلى ، فهى لابد ان تطمئن إلى أن آشلى على ما يرام وكذلك « بو » ابنه .. فقد وعدت ميلانى . وبعد أن تنهى كل شىء فى اتلانتا ، سوف تتوجه إلى تارا لكى تعد « ويد » و ايلا » للسفر معها إلى ايرلندا بعد توديع .. تارا .

● ● ●

وصلت السفينة الى سافانا .. ولأول مرة تسمع « كات » أصواتا أمريكية ووجدت سكارليت مطبخ مورين كما هو بلا تغيير . وكذلك العائلة والحب والمودة .. وضجيج اطفال أوهارا . ووجدت الطفل الذى انجبته باتريشيا .. وهو صبى عمره سنة ، وكاتى .. حامل . وشعرت سكارليت بالغيرة وهى ترى « كات » وقد اندمجت فى الحياة الجديدة .. الجميع يداعبونها ، وهى تشد شعر فتيات وسيدات العائلة . انها لن تفتقدنى على الإطلاق ، وانا لا اتحمل أن اتركها ، ولكنى مضطرة لذلك . كثيرون فى اتلانتا يعرفون ريت ويمكن ان ينقلوا إليه خبر الطفلة . وسوف اقتله قبل أن ادعه ينتزعها منى . لا استطيع أن آخذها معى . ليس أمامى اختيار . وكلما اسرعت بالسفر .. ستكون عودتى اسرع . وسوف احضر معى شقيقها وشقيقتها كهدية لها .

وأرسلت برقية إلى العم هنرى هاميلتون فى مكتبه وبرقية إلى بانسى فى منزل شارع بيتشترى ثم استقلت القطار الى اتلانتا فى الثانى عشر من مايو . كانت عصبية .. ومتوترة .. لقد غابت لفترة طويلة . ويمكن ان يكون أى شىء قد حدث . ولكنها لن تشغل نفسها الآن . ولن تمضى ساعات قبل أن تعرف كل شىء .

● ● ●

هذا ليس وقت البيع ..

هكذا قال العم هنرى هاميلتون . فالكساد مستمر ، والنشاط الاقتصادى فى ازمة فى كل مكان والضرر الأكبر أصاب العقارات . والمنازل الكبيرة مثل منزلها هى التى اضيرت أكثر من غيرها . فالناس تتحرك هبوطاً وليس صعوداً . أما المنازل الصغيرة مثل تلك التى شيدتها على أطراف المدينة ، فإنها تباع بأسرع ما يمكن حتى قبل أن ينتهى بناؤها . وهكذا تكون قد كسبت ثروة من هذه المنازل . ثم لماذا تريد اساساً أن تبيع ؟ فالمنزل لايكفلها شيئا .. وقد دفع ريت كل الفواتير . وتبقت نقود أخرى ايضا .

● ● ●

— « هل السيدة باتلر موجودة ؟ »

عرفت سكارليت فى الحال صوت اشلى .

— « اشلى » أيها العزيز ، اننى سعيدة برؤيتك »

ومدت كلتها يديها نحوه ، فامسك بهما بقوة فى يديه :

— « سكارليت ، لم تكونى قط أجمل مما انت الآن ، الطقس فى الدول الاجنبية يوافقك . قولى لى اين كنت وماذا كنت تفعلين ؟ قال العم هنرى : انك ذهبت إلى ساقانا ثم فقد الاتصال بك . ودهشنا جميعا » .

شكراً لله . لقد تلاشت من عينيه نظرة الرجل المذنب اليائس المثير للشفقة . ولابد ان هنرى هاميلتون على حق عندما قال انه ناجح فى عمله . انه مازال رجلا وسيما .. وملامحه الأرستقراطية الدقيقة أصبحت اكثر وضوحاً مع السن ، ولكنه كان يبدو اكبر من سنه ، فهو لايمكن ان يكون قد تجاوز الأربعين ولكن اللون الفضى يغلب على شعره . انه يتحدث عن ابنه بفخر واعتزاز فهو سيكمل الثانية عشرة قريبا ولكنه يبدو كما لو كان فى الخامسة عشرة واصبح رئيساً لمايشبه النادى الذى شكله الغلمان فى الجوار ، وهو يعرف عن صناعة الأخشاب اكثر من والده وحصل على جائزة مدرسية فى مادة الإنشاء باللغة اللاتينية ، ويقرأ كتبا فوق مستوى سنه .

اشلى يبدو مبتسماً وفى حالة لائقة . والتزامها نحو ميلانى لم يعد يشكل الآن عبئا ثقيلا .

وأخذ اشلى يدها فى يده وهو يبدو مثل اشلى القديم .. أشلى ويلكس فى منزل أشجار البلوط الاثنتى عشرة .. وقال :

« إننى افهم شعورك . أنه لم يكن جديرا بك . أحسنت صنعاً بالتخلص من ريت بصرف النظر عن الطريقة ، تستطيعين النسيان كما لو لم يكن قد حدث شيء على الاطلاق ... »

يا إلهي .. إن آشلي يوشك أن يعرض الزواج !

وقال آشلي « أنت تحررت من ريت ، قولي انك ستتزوجينني ياسكارليت ، وسوف أرهن حياتي لكي تكوني سعيدة بالطريقة التي تستحقينها » .

كان هناك وقت .. كنت مستعدة لأن أبيع فيه روحي من أجل هذه الكلمات ، وليس شيئا لطيفاً أن أسمعها الآن ولا أشعر بأي شيء على الإطلاق . لماذا يضطر آشلي لأن يفعل ذلك . إنها تعرف الإجابة . فالسبب هو الشائعات القديمة والتي أصبحت أكثر قدماً الآن . آشلي مصمم على ان يحررها من الخطيئة في عيون مجتمع اتلانتا .. انه يتصرف بطريقة الجنتلمان حتى لو كان ذلك يعني تمزيق حياته كلها . وهو لم يهتم بأن يستطلع موقفي . وكتمت سكارليت غضبها . مسكين آشلي . إنها ليست غلطته ، فهذه هي شخصيته . وقد سبق ان قال ريت : ان آشلي ينتمي إلى زمن ما قبل الحرب ، وليس له مكان في عالم اليوم .

لن أغضب ، فأنا لا أريد ان أفقد أي شخص كان جزءاً من الأيام المجيدة . فكل ما يتبقى من ذلك العالم هو الذكريات والناس الذين شاركوا فيها .

قالت سكارليت : « آشلي أيها الأعز . انني لا أريد ان اتزوجك . هذا هو كل ما في الأمر ، لن أخدعك وأضللك بالأكاذيب وأجعلك تلهث ورائي . انني اكبر سناً بالنسبة لهذه التصرفات ، كما انني أحرص عليك كثيرا . فقد كنت جزءا كبيراً من حياتي بطولها . وستظل كذلك . قل إنك ستدعني احافظ على ذلك » .

— « طبعا يا عزيزتي ، انني اتشرف بشعورك هذا ، ولا أريد أن أضايقك بالإشارة مرة أخرى إلى الزواج » .

وابتسم ، وبدا في تلك اللحظة شابا مثل آشلي الذي جعل قلب سكارليت يخفق بعنف في الماضي . آشلي العزيز .. انه يجب الا يحدس انها سمعت بوضوح رنة الارتياح في صوته . كل شيء على مايرام وأحسن . الآن يمكن أن يصبحا بحق صديقين . لقد طويت صفحة الماضي .

وقبل ان يغادر المنزل ، نجحت سكارليت بعد جهد في الحصول على موافقته على ان تتولى تعليم ابنه « بو » في الجامعة وتمويل رحلة له مع ابنها « ويد » تشمل عدة عواصم .

● ● ●

استغرق انجاز أعمالها فى اتلانتا فترة أطول مما توقعت ، فلم تغادرها إلى تارا إلا فى اليوم العاشر من يونيو . وما أن استقرت على مقعد القطار المتجه إلى جونزبورو حتى هدأت نفسها ، فرغم التأخير إلا أنها حققت كل ما جاءت من أجله وبصورة أفضل مما كان يتوقعها هنرى هاميلتون ومحاميها الجديد الشاب الذى نصحها هاميلتون بالتعامل معه نظراً لتقدمه فى السن .

كان أسهل شىء هو بيع الملهى ، ولكنها حزينة لبيع المتجر ، فقد كان يساوى أكثر من ثمن البيع بسبب الأرض التى كان يشغلها . وسوف يهدمه الملاك الجدد لكى يشيدوا مكانه مبنى من ثمانية طوابق . وحصلت سكارليت من هاتين الصفقتين على مايكفى لشراء خمسين فدانا أخرى وتشييد مائة منزل جديد فى أطراف المدينة . وسيكفل ذلك حالة رخاء لاشلى لمدة عامين . كما أن المقاول أبلغها بأن مقاولين آخرين بدأوا يشترون من اشلى فقط أيضا . وبدا حقا أن أشلى ينجح رغم أنفه . كما أنها بسبيلها الى ان تجنى ثروة من صفقة المنازل الصغيرة .. ثروة تكفى لتغطية كل النفقات التى كانت تقلقها فى بوليهارا .

وتلقى المقاول تعليمات بأن يرسل كل الأرباح فى المستقبل باسم ستيفن أوهارا فى سافانا لكى ينفذ بها ما يطلبه منه كولام . اما منزل شارع بيتشترى فقد اشترته مدرسة بنات .. وشعرت سكارليت بأن اغلالاً كانت تقيدها .. قد انكسرت الآن وتحررت منها رغم انه المنزل الذى عاشت فيه مع ريت والذى شهد مولد بونى وحياتها القصيرة . أما الشعور بالتحرر فإنه يرجع إلى سبب هام وهو انه لم تعد لديها التزامات فى اتلانتا الآن . ولاشىء يربطها بهذه المدينة .

والآن ستاخذ تراب بوليهارا لكى تنثره فوق ضريح والدها وستكون فخوراً يا أبى بابنتك كاتى سكارليت .. فأنا ، يا أبى . الأوهارا .

نظرة على الماضى

كان ويل بنتين فى انتظارها بمحطة جونزبورو .

« انك اكثر شخص اسعدتنى رؤيته فى هذه الرحلة يا ويل » .

وكان هذا صحيحا . فقد كان أحب لديها من آل اوهارا فى ساقانا ، ربما لانه كان بجانبها في الأوقات الصعبة ، وربما لأنه احب تارا كثيرا مثلها ، وربما لانه ببساطة رجل طيب نزيه . .

— « أين خادمتك ياسكارليت » ؟

إنه لايعرف انها لم تعد تستخدم خادمات وانها استغنت عن اشياء أخرى اعتادت أن تستخدمها . وارادت أن تشرح له سبب سعادتها ، وأن تتحدث معه عن كات وبوليهارا .. فهى تثق به ، لولا انه زوج سوايلين ، وهى لا تثق فى شقيقتها .

— « ما هى الأخبار ياويل. لم أسمع شيئا منذ فترة غير قصيرة ؟ » .

— « اتصور أنك تريدين أن تعرفى أخبار الأطفال أولا ، إيلا وسوزى اصبحتا بدينتين-، ولما كانت سوزى هى الاصغر فإنها تسلم قيادها لـ « إيلا » وربما لن تعرفي ويد إلا بصعوبة عندما ترينه ، فقد بدا يزداد طولا ، تقريبا فى اليوم الذى بلغ فيه الرابعة عشرة في يناير الماضى ، ويبدو انه لن يتوقف عن الامتداد إلى اعلى ، ورغم نحوله فإنه قوى كالبغل وبفضله فإن لدينا عشرين فدانا جديدة من الحبوب هذا العام » .

وابتسمت سكارليت . كم سيقدم يد المساعدة فى بوليهارا وكم سيحبها . لقد ولد ليكون مزارعا .. الأمر الذى لم تفكر فيه من قبل .

واستانف ويل حديثه : « ابنتنا مارتا عندها سبع سنوات الآن والطفلة حين بلغت الثانية من عمرها فى سبتمبر . وفقدت سوايلين طفلا فى العام الماضى . كانت بنتا صغيرة »

— « أوه ، يا ويل انا آسفة جدا » .

— « قررنا أن نكف عن المحاولة ، فقد كان ذلك صعبا على سوايلين وهذا ما نصح به الطبيب . لدينا ثلاث بنات اصحاء ، وهذا اكثر مما يحتاجه معظم الناس ليحققوا السعادة لانفسهم . طبعا كنت أود ان يكون عندى ولد . وهذه رغبة كل الرجال . ولكننى لا اشكو ، كما ان ويد كان الابن الذى يتمناه اى رجل . انه ولد رائع ياسكارليت » .

كانت سعيدة بسماع ما يقوله عن ويد .. الذى كان غلاما مذعوراً شاحباً جباناً ان ويل على حق ، فهى لن تعرفه .

قال ويل :

— « أنني فخور بـ « ويد » لقد وافقت على أن اتحدث معك بالنيابة عنه رغم انني لست مولعاً بوجه عام بأن آدس انفي في شئون الآخرين . ولكنه كان دائما يخاف منك يا سكارليت وانت تعرفين ذلك . انه يريدني ابلاغك بانه لايريد الاستمرار في الدراسة . لقد فرغ من المدرسة هنا هذا الشهر .. ودراسة القانون لن تفيده في شيء . »

وهزت سكارليت رأسها :

— « لا ياويل . لقد ذهب والده إلى الجامعة . وهذا ما سيفعله ويد ايضا . بدون إساءة ياويل ، فإن الرجل لايستطيع ان يقطع شوطاً بعيدا بدون تعليم » .

— « لم اشعر بإساءة وانت لم توجهي إساءة لأحد ، ولكني اظنك مخطئة . ان ويد يستطيع أن يقرأ ويكتب ويجرى كل الحسابات التي يمكن ان تحتاجها مزرعة في اى وقت . وهذا هو ما يريده . الزراعة . زراعة تارا لكي نتحدث بطريقة مباشرة . انه يقول ان جده شيد تارا بدون ان يحصل تعليما اكثر منه . وهو لايرى سببا يحتم عليه ان يكون شخصا مختلفا . ان الولد ليس مثلي ياسكارليت . الجحيم . انا لا أكاد اعرف ان اكتب سوى اسمي . أما هو فقد امضى اربع سنوات في المدرسة التي قمت انت بإلحاقه بها في اتلانتا ثم ثلاث سنوات اخرى هنا . إنه يعرف كل ما يحتاجه ابناء الريف ، وهو ياسكارليت ولد ريفي ، وهو سعيد بذلك .. » .

وانتفضت سكارليت . هل نسي ويل بنتين انه يتحدث إلى والدة ويد التي تعرف ما هو الأحسن لابنها ؟

وواصل ويل حديثه وهو يقود المركبة الى تارا وينظر مباشرة الى الطريق : « وما دام قد ثار غضبك فإنني سانهي ما اريد ان اقوله .. لقد اطلعوني على الأوراق الجديدة بشأن تارا في دار القضاء بالمقاطعة . وفهمت انك اصبحت المالكة لنصيب كارين . ولا أعرف ما تفكرين فيه يا سكارليت وانا لا اسال . ولكنني اقول لك شيئا واحداً إذا جاء اى شخص عبر هذا الطريق وهو يلوح بشيء قانوني في وجهي لإبلاغي انه سياخذ تارا ، فإنني ساقابله في نهاية الطريق والبندقية في يدي » .

— « ويل اقسم لك انني لا انوى شيئاً بالنسبة لتارا » وشعرت بارتياح لانها تقول الصدق .. فكلمات ويل الهادئة التي تخرج من انفه اكثر افزاعاً من اعلى الصرخات .

قال ويل :

— « اننى مسرور لسماع ذلك . استنتاجى هو ان ذلك يجب ان يكون ميراث ويد فهو الحفيد الوحيد لوالدك . والأرض يجب ان تبقى بين يدى الأسرة . آمل أن تتركيه هنا ـ حيث هو ـ يا سكارليت ليكون يدى اليمنى .. ومثل ابن لى .. كما هو الحال الآن . ستفعلين ما يحلو لك . كما كنت دائما . لقد وعدت ويد بأن اتحدث معك وقد فعلت . وقلت كل ما يجب أن أقوله » .

● ● ●

احسنت سكارليت صنعا عندما لم تخبر أحداً فى ساقانا حول خطتها بشان سفر « ويد » و« ايلا » معها إلى ايرلندا . ولذا فإنها ليست مضطرة الآن لأن تفسر سبب تركهما فى تارا . كانت ستشعر بالهوان وهى تروى الحقيقة ، وهى ان طفليها لايريدانها . انهما غريبان بالنسبة لها ، وهى غريبة عنهما . ولم تستطع ان تعترف لأى شخص ولا حتى لنفسها بحجم الألم الناشىء عن هذا الموقف .. ومدى اللوم الذى توجهه لنفسها . شعرت بأنها صغيرة وحقيرة ، فهى تكاد تفتقد الشعور بالسرور من أجل « ايلا » و « ويد » اللذين كانا سعيدين على نحو واضح .

كل شىء كان جارحا فى تارا شعرت بأنها غريبة . وباستثناء صورة الجدة روبيلار .. فإن كل شىء تغير داخل المنزل ، فقد استخدمت سوايلين الأموال التى ترسلها إليها كل شهر فى شراء أثاث جديد .

وزارت عائلة فونتين . وربما كان افضل الأوقات .. زيارة عائلة تارلتون . غير أن سكارليت كانت مسرورة بمغادرة تارا . وهذا اكثر إيلاماً . ولو لم تكن تعرف أن ويد يرغب فى بقائها لتحطم قلبها ، فقد استطاعت بصعوبة ان تنتظر أياماً قبل أن تهرب .

عزاؤها ان ابنها سيأخذ مكانها .

وها هى ذى بعد ان انهت زيارتها لتارا ، تتوجه إلى محاميها الجديد فى اتلانتا لكى تكتب وصية تمنح بموجبها نصيب الثلثين الذى تملكه فى تارا .. إلى ابنها . فهى لن تفعل كما فعل والدها ، وكما فعل عمها دانيل .. ولن تترك وراءها الغموض والارتباك والفوضى . وإذا حدث وتوفى ويل قبل زوجته فإن سكارليت لاتثق البتة فى شقيقتها .

الآن أصبحت حرة ، وتستطيع الذهاب إلى « كات » التى ضمدت كل جراح سكارليت فى لحظة . واضاء وجه الطفلة عندما رأتها ومدت ذراعيها الصغيرتين نحوها .

قالت مورين · « هذه الغجرية الصغيرة تحب أشعة الشمس » .

● ● ●

نقل ستيفن إلى سكارليت التعليمات الخاصة برحلة العودة إلى جالواى . إنها لا تحب ستيفن ، ولكن كولام أخبرها بأنه المسئول عن كل الترتيبات .

السفينة اسمها « ندف الثلج الذهبية » ، وهى آخر صيحة فى الفخامة . ولم تجد سكارليت ما تشكو منه بصدد حجم جناحها أو مدى توافر الراحة فى داخله . غير أن المشكلة هى أن السفينة لن تعبر المحيط مباشرة ولذلك سوف تستغرق الرحلة مدة أطول .. وبالتحديد أسبوعا أكثر من المدة المقررة .. بينما سكارليت تريد العودة إلى بوليهارا بسرعة للاطمئنان على المحصول .

ولم تعرف سكارليت مسار السفينة إلا بعد ان اجتازت المعبر الذى يمتد من رصيف الميناء إلى السفينة فقد رات خط رحلة السفينة إلى جانب « اعلان السفر » .

ولو كانت قد عرفت خط الرحلة قبل ثوان .. لرفضت السفر بصرف النظر عما يقوله ستيفن . يوضح خط الرحلة أن « ندف الثلج الذهبية » سوف تحمل ركاباً من سافانا وشارلستون وبوسطن الى كل من ليفربول فى انجلترا وجالواى فى ايرلندا .

وسيطر الرعب على سكارليت . انها لا تستطيع المرور على شارلستون . سوف يعرف ريت انها على ظهر السفينة فهو يعرف دائما كل شىء بطريقة او باخرى ، وسوف يدخل مباشرة إلى كابينتها الخاصة ويأخذ كات ويمضى . ولكننى سأقتله قبل ان يفعل ذلك . الغضب يسيطر الآن على فزعها . واستدارت سكارليت لكى تسير على سطح السفينة . لن يرغمها ريت باتلر على ان تولى الإدبار وتجرى . فكل حقائبها وامتعتها اصبحت داخل السفينة بالفعل وهى متاكدة من أن ستيفن قام بوضع اسلحة فى صناديقها لتهريبها إلى كولام . انهم يعتمدون عليها . ثم انها تريد العودة إلى بوليهارا . ولن تسمح لأى شىء أو أى شخص بأن يعترض طريقها .

وفى اللحظة التى وصلت فيها إلى جناحها فى السفينة ، كان قد تراكم غضب هائل فى صدرها .. على ريت . أكثر من عام قد مضى منذ طلقها وتزوج على الفور من « آن هامبتون » . وخلال ذلك العام كانت سكارليت مستغرقة تماما وأحدثت تغييرات فى حياتها ، وكانت قادرة على ان تطرد الألم الذى سببه لها . الآن يمتزج الألم بالخوف من قدرة ريت التى لايمكن التنبؤ بمداها .

كانت بريدى تسافر مع سكارليت حتى مدينة بوسطن فقط حيث عثر أفراد من عائلة أوهارا هناك على وظيفة لها .

● ● ●

وصلت السفينة إلى ميناء شارلستون مع أول شعاع من صباح اليوم التالي ولم تنم سكارليت طوال الليل . وخرجت إلى سطح السفينة مع شروق الشمس . السفينة تدخل الآن المياه التى وصلت إليها مع ريت وحيث شاهدت معه الدرافيل قبل أن تهاجمهما العاصفة وشاهدت سكارليت من السفينة معالم شارلستون ومنازلها التى تعرفها جيدا .. وها هو ذا منزل باتلر بشرفاته وبابه الأمامى ونوافذ غرفة الاستقبال .. وغرفة نومها .. النوافذ ! واسرعت إلى جناحها .

وأمرت بأن يكون طعام الإفطار فى الغرفة واصرت على بقاء بريدى معها ومع كات . الأمان الوحيد هنا وراء باب مغلق بعيداً عن الأنظار .

قال خادم السفينة وهو يضع أطباق الطعام على المائدة : أن السفينة سوف تستأنف رحلتها فى الساعة الخامسة بعد شحن البضائع وركوب المسافرين الجدد ، وأن الفرصة متاحة لمن يريد التجول فى المدينة أو مشاهدة معالمها من البحر .. حيث توجد عربة خفيفة كما يوجد زورق يستطيع كل من يجلس فيه ان يرى كل شىء .. على ان تنتهى هذه النزهة خلال أربعين دقيقة .

حاولت سكارليت ان تأكل قطعة من الخبز المحمص ، ولكنها التصقت بحلقها . وارتفع صوت دقات الساعة .. وبعد نصف ساعة قفزت من مكانها وطلبت من بريدى ألا تتحرك وأن تبقى لرعاية كات إلى أن تعود قبل ان تبحر السفينة .

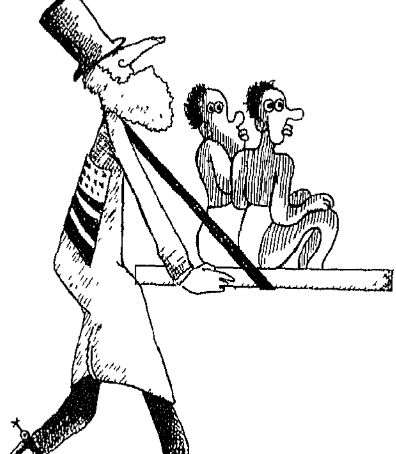
وضعت سكارليت نفسها فى الزورق مع حوالى عشرة من الركاب الذين يريدون إلقاء نظرة على أماكن « جرت فيها حرب أهلية كبيرة منذ عشر سنوات تقريباً » .. وعلى بقايا قصور أحرقتها الجيوش المتحاربة . وثمة حديث عن ملاك العبيد القساة .

وحدثت سكارليت نفسها : حقا ! لقد احببنا السود عندنا وجعلناهم جزءا من أسرتنا .. وبعضهم كانوا يمتلكوننا اكثر مما نمتلكهم . اما عن « كوخ العم توم »[1] فهذا هراء !

---

١ ـ رواية من تاليف توم بين .. تعد من اعظم ما ظهر فى الادب الامريكى وهى تندد بالتفرقة العنصرية وتدعو إلى المساواة والديمقراطية .

أمامها الآن منجم الفوسفات . انه أكبر بكثير . ويجرى شحن خمسة صنادل والى جانبه « دانمور لاندينج » ، ومصاريع النوافذ مغلقة فى الجناح الذى تبقى منه . المكان الذى استخدمه ريت لكى يحدق من النافدة الى مداخنه المحترقة . الآن تشعر انها تتفوق عليه .. فهى لديها مئات الأفدنة من المحاصيل الجيدة وأعادت بناء بلدة بكاملها .. وأدارت بصرها بعيدا ، فهى لا تريد أن ترى الحدائق التى امتدت إليها يد التشذيب والتقليم .. فهى تعرف أن « آن هامبتون » تحب هذه الزهور مثلها مثل ريت . والمصاريع المغلقة التى تم تجديدها تعنى ان الاثنين يعيشان هنا معا ولم يبق سوى ان تقارن بين ما اختزنته الذاكرة وبين المشاهد التى تتوالى امامها الآن وانتهت الأربعون دقيقة فى الزورق الذى يحمل اسم « ابراهام لنكولن » .



لقاء في الميناء

الساعة الخامسة تدق .. بينما « ندف الثلج الذهبية » مازالت ساكنة لاتتحرك ، والمعبر مازال يجعلها موصولة بالرصيف .. وضابط السفينة يقول : ان ركاباً آخرين .. قادمون . لماذا لاتبحر السفينة في موعدها وتلتزم بالمواعيد ؟ إنها تريد الابتعاد عن شارلستون باسرع وقت . لابد ان هذا هو أكثر الأماكن حرارة على وجه الأرض .

وظللت سكارليت بيدها على عينيها لتنظر إلى السماء . لا غمامة .. لا مطر .. لا رياح ، وإنما حرارة فقط . وهمت بأن تعود إلى جناحها ، فالمؤكد ان الحرارة سلخت جلد كات الآن .. غير ان أصوات ضحكات نسائية تناهت إلى اسماعها . يبدو ان هؤلاء هم الركاب الجدد الذين تنتظرهم السفينة .

وتطلعت إلى أسفل ناحية الرصيف . كانت هناك مركبة مكشوفة وثلاث قبعات نسائية رائعة غالية الثمن لم تشاهد سكارليت مثلها من قبل . ومالت سكارليت قليلا فوق حاجز السفينة لكي تدقق النظر إلى السيدات الانيقات ، فهي لم تر مثل هذه الثياب في سافانا او اتلانتا . من هؤلاء الناس ؟ يبدو من الضحكات انهن امضين وقتا طيبا ولا يتعجلن الصعود إلى السفينة . ونزل الرجل ، الذي يرتدي قبعة خفيفة من القش الملون ، إلى الشارع .. وخلع بيده اليسرى قبعته ، وامتدت يده اليمنى إلى اعلى ليساعد المراة الأولى على النزول من المركبة . وقبضت يدا سكارليت على حاجز السفينة . يا إلهي . انه ريت . لو صعد إلى هذه السفينة ، فإنني لابد ان امسك بـ « كات » واجد مكانا لكي اختفي ، وابحث عن سفينة أخرى . ولكني لا أستطيع ان افعل ذلك .. فهناك في عنبر السفينة ، يوجد صندوقان من الثياب .. حملتهما معي ، وهما يحتويان على بنادق كولام . فماذا افعل بحق السماء ؟

واخذ عقلها يقفز من فكرة مستحيلة إلى أخرى .. وهي تحدق بلا تركيز في المجموعة الواقفة تحت انفها .

وببطء استطاع ذهنها ان يلتقط ما تشاهده : ريت ينحني ويقبّل يداً ـ ممدودة برشاقة ـ بعد الأخرى . وسمعت اذناها عبارة تتكرر على السنة النساء : « وداعا وشكرا » .

كات في امان .

أما سكارليت ، فإنها لم تكن كذلك . فقد اختفى غضبها الوقائي واصبح قلبها عاريا .

« انه لايراني . أستطيع أن انظر إليه كما أريد . أرجوك ، أرجوك لاترتدى قبعتك ياريت . كم يبدو رائعا . بشرته سمراء ، وابتسامته بيضاء مثل حلته الكتانية انه الرجل الوحيد في العالم الذى يرتدى ملابس كتانية لاتوجد بها ثنية واحدة . آه ، هذه الخصلة من الشعر التى تضايقه .. تتدلى مرة أخرى فوق جبينه . وهو ينفضها الآن بأصبعين من أصابعه بحركة تعرفها سكارليت جيدا . وتسلطت عليها الذكريات . ماذا كان يقول ؟ شيء شديد الجاذبية بكل تأكيد ، ولكنه كان يستخدم ذلك الصوت الخافت الحميم الذى يدخره للنساء اللعنة عليه ، وعلى هؤلاء النساء . لقد ارادت ان يتحدث هذا الصوت .. إليها هى وحدها .

وتحرك القبطان . وارادت سكارليت ان تصيح لاتتعجلهن . انتظر لفترة اطول . انها فرصتى الأخيرة . لن أراه بعد اليوم . دعنى اتملى من رؤيته . لابد انه قص شعره منذ ساعات ، فهناك الخط الخفيف فوق اذنيه يبدو واضحا . هل ازداد اللون الرمادى فى فوديه ؟ اللون الفضى الذى يتخلل شعره الأسود .. يبدو ساحراً .

دوت صفارة السفينة . وقفزت سكارليت . سمعت وقع أقدام سريعة . وازيز المعبر الذى يفصل السفينة عن البر ولكنها ظلت تركز عينيها على ريت . كان يبتسم وهو ينظر إلى يمينها رافعاً رأسه . واستطاعت ان ترى عينيه السوداويين وحاجبيه الغزيرين وشاربه المصقول ، ورجولته القوية ، ووجهه الذى لاينسى ، والذى يشبه وجه القرصان .

وهمست : « ياحبى » .

وانحنى ريت مرة أخرى بينما بدات السفينة تبتعد عن المرسى ، ووضع القبعة على رأسه واستدار ومضى ورفع بأصبعه القبعة فمالت قليلا إلى الوراء .

وهتف قلب سكارليت : لا تذهب ، وتطلع ريت من فوق كتفه كما لو كان قد سمع صوتا . والتقت عيناه بعينيها وجمدت المفاجاة جسمه الرشيق . وعلى مدى لحظة طويلة لايحدها الزمن تطلع الاثنان إلى احدهما الآخر بينما كانت المسافة بينهما تتسع .

الرقة غلبت على ملامحه .. وانفرجت أسارير وجهه ولمس حافة قبعته باثنين من اصابعه للتحية . ورفعت سكارليت يدها .

وكان لايزال واقفا هناك على رصيف الميناء عندما استدارت السفينة لكى تخرج من القنال إلى البحر . عندئذ لم تعد سكارليت ترى ريت وارتمت فى مقعد على سطح السفينة فاقدة الحس

إنها تريد ان تعرف شخصيات هؤلاء السيدات والسبب فى وجودهن مع ريت . وعرفت فور دخولها قاعة الطعام فى السفينة انهن انجليزيات . كانت هذه هى اللكنة المميزة التى تسيطر على مائدة القبطان حيث يجلسن . وطلبت سكارليت تغيير المائدة لانها تريد ان تجلس إلى جانب الحائط على مائدة صغيرة . وكانت الاخيرة بجوار مائدة القبطان . كان الجميع يتحدثون عن شارلستون التى لم تكن موضع إعجابهم . وقال احدهم : إن رجال المدينة مهذبون للغاية . وعلق صوت نسائى شاب . « هذا الرجل الجذاب على نحو هائل .. باتلر .. قال ان فصل الشتاء جميل ، ودعانا للعودة » .

وقالت سيدة اكبر سنا :

— «انا متاكدة انه دعاك للعودة يافيليسيتى ، فقد كان سلوكك شائنا » .

واحتجت فيليسيتى : « لم يصدر منى شىء وإنما كنت استمتع لأول مرة فى هذه الرحلة الكئيبة . لا استطيع ان افهم السبب فى ان والدى ارسلنى إلى امريكا . انه مكان بائس » .

ومضى الحديث دون إشارة إلى ريت . وانتظرت سكارليت ان يعودوا الى الكلام عنه . ولم تنتظر طويلا ، فقد كان رجل يدعى روجر هو الذى استحضر اسم ريت :

« عرض علينا باتلر رحلة صيد مشوقة إذا عاد فى الخريف ، إذ يبدو انه كانت لديه حقول ارز تحولت إلى حشائش . ويهبط فيها البط عمليا مع ماسورة بندقيتك » . اللعنة على هذا الحديث عن البط .. ومن الذى يهتم بشئون البط ؟ وقد اتضح ان الانجليز الآخرين يعتبرون موضوع البط شديد الأهمية حتى انه شغلهم طوال معظم فترة الغداء ، وأحست سكارليت انه كان من الافضل ان تمكث مع بريدى ، وتهيات للعودة الى جناحها ، غير ان اذنها التقطت محادثة خاصة بصوت منخفض بين فيليسيتى وشقيقتها التى اتضح ان اسمها مارچورى .

تعتقد السيدتان ان ريت هو احد اكثر الرجال إثارة للاهتمام والفضول من بين كل الرجال الذين التقيا بهم حتى الآن .

واستمعت سكارليت ، بمزيج من حب الاستطلاع والكبرياء .

قالت مارچورى : « المصيبة انه مخلص جدا لزوجته » .

وغاص قلب سكارليت .

وقالت فيليسيتى « انها شىء ضئيل باهت .. غير ممتع » وشعرت سكارليت بتحسن فى حالتها . واضافت مارچورى .. « هذا رد فعل مباشر

لإخفاق بكل معنى الكلمة ، الم يخبرك احد ؟ لقد كان متزوجاً فى السابق من امراة خارقة الجمال . وقد هربت مع رجل آخر وتركت ريت باتلر طريحاً على الارض ، ولم يتغلب مطلقاً على هذه الأزمة . »

ـــ « تصورى .. يا مارچورى .. هل تتصورين ما يجب ان يكون عليه الرجل الآخر إذا كانت قد تركت باتلر من اجله ؟

وابتسمت سكارليت . فقد ارضاها كثيراً ان تعرف ان الشائعات تقول انها هى التى تركت ريت وليس العكس . فى اليوم التالى « اكتشف » الانجليز سكارليت .

واتفق الشبان الثلاثة على انها رومانسية إلى اقصى حد وارملة شابة غامضة .. وجميلة . وقال روجر ان شقيقاته يعتبرنه اصيب بالعمى .. فعلى الرغم من بشرتها الشاحبة وشعرها الفاحم وعينيها الخضراوين ، فإنها ليست جميلة فقط وإنما رائعة الجمال ، وكل ما تحتاجه هو بعض الملابس المناسبة وعندئذ سوف تدير الرؤوس اينماحلت .

واقتربت مارچورى من سكارليت ، وابدت إعجابها بالطفلة كات . وكان من السهل على سكارليت ان تخترع قصة ترضى شوقهم الشديد إلى القصص المفجعة الميلودرامية .. عن زواجها وكيف حرمها الموت من زوجها حتى جعلها ترتدى ملابس الحداد .

الانجليز جعلوا الرحلة مسلية . وشعرت بالأسف وهم يغادرون السفينة فى ليفربول .

الآن امامها يومان قبل الوصول إلى جالواى ، ولن تؤخر اكثر من ذلك التفكير فى ذلك اللقاء الذى حدث مع ريت فى شارلستون .

انه لم يكن لقاء حقيقيا . ولكن ، هل شعر بنفس صدمة التلاقى كما حدث لها عندما التقت عيونهما ؟

لقد شعرت بان بقية العالم تختفى وإنهما وحدهما فقط اللذان يتمتعان بالوجود فى مكان ما وزمن ما منفصل تماما عن كل شىء وكل شخص له وجود .

وعندما دخلت السفينة خليج جالواى .. وجدت فى نفسها القدرة على ان تودع هذا الحدث برمته الذى وقع فى شارلستون فى ذاكرتها مع ذكرياتها الغالية الأخرى مع ريت . فقد كانت بوليهارا فى الانتظار .. وموعد الحصاد يقترب .

عيـــد الحصـــاد

كان كولام في انتظار وصول السفينة في جالواى . ومرت حقائبها امام رجال الجمارك بلا أسئلة فيما عدا « كيف الحال فى أمريكا ؟ » و « كم عمر هذه الطفلة الجميلةالكبيرة الحجم » ؟

ولكن المفاجأة السارة التى كانت تنتظر سكارليت هى ماحدث لدى وصولها الى بوليهارا . فقد أقام سكان البلدة الأقواس المغطاة بالأغصان الخضراء والشرائط الذهبية على طول الطريق عبر البلدة . واصطف السكان امام الأقواس واخذوا يلوحون بمناديلهم وقبعاتهم للتعبير عن فرحتهم بعودتها .

وغلبها الانفعال . ولم تستطع مقاومة البكاء . وظلت الدموع تفيض من عينيها طول الطريق وهى تردد كلمة « شكرا » و « شكرا لكم » .

وفى البيت الكبير .. اصطفت مسز فيتزباتريك والخادمات الثلاث والعاملات الأربع فى مخزن الألبان والزبد والجبن والمسئول عن الحظيرة لتقديم التحية لها .

وبعد أقل من ساعة ، كانت سكارليت ترتدى ملابس الفلاحات التى سبق ان اشترتها من جالواى وتتجه بسرعة إلى الحقول وتستمتع بالمشى بعد ساعات وأيام واسابيع من الجلوس فى المكاتب والمقاعد وركوب العربات والقطارات والسفن .

حقول الذرة غنية باللون الاصفر وتبشر بمحصول وفير . الأوهارا فى بيتها مرة اخرى :

تم جمع محصول البطاطس فى اغسطس . وقال المزارعون انه احسن محصول حتى الآن ، وبعدها بدأ جمع الذرة . وكانت سكارليت تحب متابعة عمل المزارعين وتحل محل اى واحد منهم عند الضرورة . غير ان ما كان يحزنها هو انها ستحرم من رؤية كاثلين التى حل موعد زواجها من « كيفين اوكونور » .

وكانت سكارليت ترغب فى أن تقيم حفل زفاف كاثلين فى البيت الكبير ، ولكنها علمت ان التقاليد تحتم ان يقام الحفل فى البيت الذى سيعيش فيه الزوجان . وقبلت كاثلين هدية مائة جنيه من سكارليت التى شعرت بالملل من ملابس الحداد ورقصت كل رقصات الريل فى حفل الزفاف وهى ترتدى ثيابا تجمع بين اللونين الأزرق الفاتح والأخضر الداكن .

كانت سكارليت تستيقظ أحيانا فى الليل ، والظلام فى غرفتها يشبه السر القاتم فى عينى ريت خلال لقائهما بعينيها عندما كانت السفينة تغادر

شارلستون . ترى ، ماذا كان شعوره ؟

وحيدة فى صمت الظلمة ، وحيدة فى فراشها المزخرف الواسع ، وحيدة فى الفراغ الحالك لغرفتها الخالية من الضوء .. سكارليت تتساءل ، وتحلم بأشياء مستحيلة ، وأحيانا تبكى من ألم الشوق اليه .

● ● ●

« كات » تنظر فى المراة وتقول : « كات » .

اخيرا بدات تتكلم . وكانت سكارليت تخشى من ان طفلتها لن تنطق ابدا . وحاولت ان تحملها على ان تقول كلمة « ماما » .

— « معتدة بنفسها هذه الصغيرة المفترسة ، كل الأطفال يقولون « ماما » عندما يشرعون فى الكلام ، بينما هى تبدأ بان تقول اسمها ! »

وتحركت « كات » وهى تمشى بحماس وبلا مهارة .. وعندما ابتعدت قليلا ، قالت : « ماما » .

وقالت الأم للأب فلاين وهى تضحك : « لقد القت بالكلمة كما تلقى بالعظمة للكلب » .

● ● ●

البلدة كلها تحتفل بعيد الحصاد . نصبت الموائد على طول الشارع الرئيسى فى بوليهارا ووضعت فوقها أكوام من الطعام والشراب . وتجمعت حول كل مائدة مجموعة من الأشخاص يمرحون ويتحدثون .

واثناء الحفل وصلت جماعة من الشرطة : ثلاثة ضباط وثلاثة جنود . وخفتت اصوات المحتفلين . وسأل احد الضباط : « أين الطريق إلى البيت الكبير ؟ اريد صاحبته » . وقدمت نفسها . وفى البداية لم يصدق الضابط ان هذه السيدة ذات الشعر الأشعث التى ترتدى ملابس الفلاحات يمكن ان تكون صاحبة البيت الكبير ، بينما كان الخوف ينهش أعماقها .

كان الضابط يحمل خطابا الى السيدة أوهارا ينص على ان الحامية سوف تقيم مركزا تابعا لها فى بوليهارا من اجل الحماية .

قالت سكارليت : انها تشكر الكولونيل قائد الحامية ولكنها لاترى حاجة لوجود قوة حراسة فى البلدة حيث كل شىء على ما يرام علاوة على انه لايستطيع ان يرسل اى قوة بدون موافقتها .

قال الضابط : « شكرا مسز أوهارا ، ولكن .. اللوائح .. بالنسبة لى شخصيا فإن ما تقولينه هو الأفضل .. ولكن ، .. ولكن الكولونيل لن .. قد يظن .. » .

قالت سكارليت : « افهم ما تقصد . ربما .. فى وقت آخر ؟ »

أنا رجــل ميـــت !

اصبح تاييدها للثوار الإيرلنديين امراً شائعا فى حانة كنيدى فى بوليهارا . وكانت تذهب إلى الحانة كلما شعرت بالملل والوحدة ، ولكنها سئمت الأغانى التى تدور حول شهداء الحرية الإيرلندية والتهديدات عالية النبرة حول طرد الانجليز . وتحتاج سكارليت الآن إلى المزيد من العمال بسبب الحقول الجديدة ، ولكن كولام لم يكن راغبا فى دخول غرباء إلى بوليهارا رغم وجود أكواخ عديدة خالية من السكان فى البلدة . وتفهمت سكارليت الموقف . فهى تدرك حاجة « الفينيين » إلى السرية . واخيرا وجد كولام حلا وسطا وهو استخدام عمال لفترة الصيف فقط ، واقترح ان يذهبا معاً إلى « سوق العمال » فى دورجيدا حيث يجرى « استئجار » الأيدى العاملة وإلى سوق الخيول فى نفس البلدة لكى تشترى سكارليت الخيول التى تحتاج إليها ، وكانت توبخ نفسها على صفقة الخيول التى ابرمتها من قبل لان سرعة الخيول التى اشترتها لا تتجاوز .. سرعة السلحفاة على طريق صخرى . وهى لن تكون ضحية للغش مرة اخرى .

ويقول كولام لنفسه : سكارليت امراة مدهشة تتميز بكفاءة مذهلة فى اشياء عديدة ، ولكنها لن تستطيع ان تتفوق على تاجر خيول ايرلندى . وفى الطريق الى دورجيدا ، لفت كولام نظرها إلى ان هيئتها تشبه الفتاة القروية وانه لا احد يمكن ان يصدق انها سيدة من الطبقة العليا مالكة الاراضى وقادرة على دفع ثمن الخيول . فهى لا تبدو قادرة على دفع ثمن ركوب خيول المراجيح الدائرية .. اما سكارليت فإنها ترى انها إذا ظهرت بمظهر الثرية ، فإن اول ما سيفكر فيه التاجر هو رفع أسعاره كما يشاء .

دورجيدا سوق كبير جدا ، بل اكبر من اى سوق شاهدته من قبل . وكان كولام يعرف ان سكارليت تهوى جو الإثارة فى الاسواق ، كما انها تحب ان تكون الاشياء واضحة ومفهومة بسهولة .. الأمر الذى يثير قلقه لانها لاتعرف ابعاد الخطر الناشىء عن تورطها مع الأخوان الفينيين .. فالجهل يمكن ان يؤدى إلى كارثة .

وعند بلوغ مدخل السوق ، قال لها: ان سوق الرجال الذين يؤجرون قوتهم للعمل يقع فى احد طرفى الساحة ، بينما الخيول فى الطرف الآخر . واتفقا على ان يتولى ، هو اختيار الرجال بينما تتولى ، هى بنفسها ، شراء الخيول . واتفقا على أن ينضم إليها بعد ان يفرغ من مهمته . واتجهت إلى سوق الخيول فى إحدى زوايا السوق .. كولام على حق . ففى سوق دورجيدا ، توجد احسن الخيول فى ايرلندا . ورات خياماً فسيحة ضخمة

من الخيش نُصبت لاستخدامها كاسطبلات مؤقتة للخيول .

ولم تر من قبل مثل هذا العدد الهائل من الخيول يتجمع فى مكان واحد . وبعد ساعة من البحث .. وفحص لأسنان بعض الخيول وتدقيق بعين خبيرة . اختارت سكارليت ثلاثة خيول . وقد اصرت على أن يتم الفحص فى ضوء النهار وليس فى عتمة الخيمة ، فهى تريد ان تعرف أعمار الخيول . ثم تطلعت بحسد إلى الأشخاص الذين يشترون افراس الصيد .

كان قد مضى وقت غير قصير . ومازالت فى حاجة لشراء المزيد من الخيول التى تستخدم فى حرث الأرض . واعتادت عيناها على الجو المعتم داخل الخيمة . وبدات تشعر بالإرهاق . واتكات على احد حوامل الخيمة .

— اين بيجاسوس * الذى حدثتنى عنه يا بارت . اننى لا ارى شيئا يحلق فوق الحواجز » .

ماهذا ؟ انه .. انه . اننى لايمكن أن اخطيء .. فلا يوجد صوت فى العالم مثل صوت ريت . واستدارت بسرعة وهى تنظر بعينين نصف مفتوحتين إلى الميدان الذى تضيئه اشعة الشمس . هذا هو ظهره . اليس كذلك ؟ انه هو . اننى متاكدة من ذلك . لو انه قال شيئا آخر أو أدار راسه . ولكن لا يمكن ان يكون هذا هو ريت . ما الذى سياتى به الى ايرلندا ؟ غير اننى لايمكن ان اخطىء فى تحديد صاحب هذا الصوت .

واستدار ليتحدث الى الرجل الأشقر النحيل الذى يقف إلى جانبه . انه ريت . تحول لون مفاصل اصابعها إلى البياض . وتشبثت بحامل الخيمة بقوة . وانتفض جسمها كله . وقال الرجل الأشقر شيئا ما مشيرا بمقبض سوطه ، واوما ريت ثم سار الرجل مبتعداً عن ناظريها . ووقف ريت بمفرده . وقبعت سكارليت فى الظل وهى تنظر إلى الضوء . « لاتتحركى .. » هكذا اصدرت الأمر إلى نفسها عندما وجدت قدميها تتحركان وتسيران نحوه . ولم يصدع كيانها لهذا الأمر . فاندفعت من الظلال لكى تعدو ناحيته .

« « ريت » ! وتوقف مرتبكا . ولم يكن ريت من قبل يبدو متثاقلا إلى هذا الحد . واستدار بسرعة حول نفسه . ولم تستطع ان تتعرف على حقيقة مشاعره من خلال تعبيرات وجهه التى كانت تظهر ثم تختفى ، ولاحظت ان عينيه السوداوين تلمعان بشدة تحت حافة قبعته . وارتسمت على وجهه تلك الابتسامة الساخرة المعهودة التى تعرفها جيدا . وقال : « انت

---

* بيجاسوس : حصان مجنح تحدثت عنه الأساطير الإغريقية القديمة ، وهو رمز للإلهام الشعرى .

تظهرين بالفعل فى الاماكن التى لايمكن توقع ظهورك فيها .. ياسكارليت » . انه يسخر منى ، ولكنى لا ابالى . لا يهمنى شىء مادام يتلفظ باسمى ويقف إلى جوارى . وكانت تسمع خفقات قلبها. قالت : « اهلا ، ياريت . كيف حالك » ؟ كانت تعرف ان ما تقوله لايفى بالغرض وانه سخيف ، ولكنها كان ينبغى ان تقول شيئاً . واختلج فمه . وقال ببطء وهو يضغط على كلماته : « بالنسبة لرجل ميت ، فانا فى احسن حال ، ام اننى اخطات . اظن اننى لمحت ارملة فى مرسى ميناء شارلستون » .

« حسنا . نعم . كان لابد ان « اقول شيئاً » . لم اكن متزوجة . اقصد ، انه لم يكن لى زوج ... »

— « لا تحاولى ان تشرحى ياسكارليت . ليس هذا هو الجانب الذى تتجلى فيه موهبتك . » .

— ... « ماذا تقصد » ؟ - « لاتهتمى . ماذا جاء بك الى ايرلندا ؟ لقد ظننت انك فى انجلترا » .

— « ما الذى جعلك تعتقد ذلك » ؟

لماذا نقف هنا ونجرى محادثة حول لاشىء على الاطلاق ؟ لماذا لا استطيعّ ان افكر ؟ ولماذا اقول هذه الأشياء الغبية ؟ وقال ريت :

— « انت لم تنزلى من السفينة فى بوسطن » وقفز قلب سكارليت . معنى ما يقوله انه تكبد مشقة محاولة التعرف على المحطة الأخيرة لرحلتها ، وانه مهتم بها ، واراد ان يكون على علم بمكانها . وفاض قلبها بالسعادة . وقال ريت : « هل يحق لى ان افترض ان فترة الحداد على موتى قد انتهت مادمت ترتدين هذه الملابس التى تعبر عن ابتهاج صاحبتها .. الا تخجلين من نفسك ياسكارليت ، ان جثتى لاتزال دافئة فى قبرى » .

وتطلعت فى فزع الى ملابس الفلاحات التى ترتديها ، ثم إلى ملابسه الانيقة . وتساءلت : لماذا يجب ان يجعلها تشعر دائما بانها حمقاء ؟ ولماذا لم تشعر بالغضب على الاقل ؟ لانها تحبه . سواء صدق ذلك ام لم يصدق ، فهذه هى الحقيقة . وبدون تفكير .. وبدون تبصر فى العواقب ، نظرت سكارليت الى الرجل الذى كان زوجا لها لعدة سنوات من الاكاذيب ، وقالت : « احبك ياريت » . تفوهت بالعبارة ببساطة وكبرياء .. قال : « يالسوء حظك ياسكارليت . يبدو انك دائما تغرمين بزوج امراة اخرى » . ورفع قبعته فى ادب وقال : « عندى ارتباط آخر . ارجوك ان تسمحى لى بان اتركك الآن ، وداعاً . » وادار ظهره لها وابتعد . ونظرت اليه سكارليت ، وشعرت كما لو كان قد صفعها . هذا ما حدث بلا داع وبلا سبب معقول . انها لم تطلب منه شيئاً ، وإنما اهدته اعظم شىء

تعلمت ان تقدمه ، ولكنه سحق الهدية بقدميه فى الطين . وجعلها تبدو كالبلهاء . كلا ، هى التى جعلت من نفسها بلهاء .

وظلت سكارليت متجمدة فى مكانها وسط ضجيج سوق الخيول لفترة من الوقت لاتعرف مداها . ثم عاد العالم ليصبح فى مركز الرؤية فقد رأت ريت وصديقه بجوار خيمة أخرى وسط حلقة من المتفرجين على عمليات البيع والشراء . وتحركت سكارليت بطريقة آلية نحوهما . وعبرت المسافة التى تفصلهما دون ان تشعر بالأشخاص الذين تسير وسطهم .. فقد ذابوا تماما من الوجود .

كان البائع يعرض بضاعته كما لو كان يردد ترنيمة شعائرية .. ويقدم للجمهور حصاناً كبيرا يصفه بانه « الوحش النبيل » ويطرح سعراً للحصان على طريقة المزاد .. وكان البائع قد وصل إلى رقم جنيه وثلاثين بنسا . وتقدمت سكارليت وعرضت جنيها وأربعين بنسا . وتمت الصفقة . ونظرت سكارليت إلى صديق ريت وقالت : « امل الا تكون قد اصبت بخيبة امل شديدة » .

كانت تتحدث بصوت حلو . « لماذا ، بالطبع لا ، .. يمكن القول ... » وتدخل « ريت » - « بارت ، اقدم لك .... » وتوقف عن مواصلة التقديم . ودون ان تنظر سكارليت ناحية ريت ، قالت لصديقه الذى اختلط عليه الأمر : « مسز أوهارا .. انني ارملة » وقدم صديق ريت نفسه : « جون مورلاند » . ثم تناول يدها الكالحة وانحنى وقبلها . وابتسم وقال : « لابد ان رؤيتك وانت تقفزين فوق الحاجز .. متعة كبيرة يامسز اوهارا .. هل تقومين بالصيد على مقربة من هنا » ؟

وفوجئت سكارليت واضطرت للاعتراف بانها تصرفت بناء على نزوة امراة . وأنها احبت ان تمتلك هذا الحصان . وقال جون مورلاند انه يسعده ان تشارك مسز أوهارا في رحلة صيد تبدأ من منزله الذى يقع على مقربة من « دانسانى » .

كانت سكارليت قد سمعت عن « السير جون مورلاند » باعتباره من الكبراء وملاك الأراضى . وحدد مورلاند يوم السبت التالى موعدا لرحلة الصيد . وعندما نظرت سكارليت الى ريت بعد ذلك وجدته يتطلع اليها كما لو كان يفعل ذلك منذ وقت طويل . كانت عيناه تنطقان بانه يستمتع بما يشاهده .. وبشيء آخر لم تستطع تحديده .

ومدت سكارليت برشاقة يدها المتسخة وهى تقول بكياسة : « مستر باتلر ، لقد سررت بلقائك » . ونزع ريت قفازه ليتناول يدها . وقال وهو ينحنى : « مسز أوهارا » . ورفعت إحدى طبقات ثيابها واخرجت النقود وقدمتها للبائع ، وابتعدت . وقال جون مورلاند : يالها من امراة غير عادية » . وقال ريت موافقا وهو يبتسم : « مدهشة » .

فرسها كبير الحجم . ضحكت وهى تصفه فى حديثها مع كولام بأنه « فيل ». اسمه « الهلال » وهو يصلح لرجل ضخم الجثة ، اما هى فإنها تبدو ضئيلة للغاية وهى تمتطى هذا الفرس . وخشيت سكارليت ان تكون موضع سخرية خلال الصيد . وكانت مقتنعة بان ريت سوف يثلج صدره ان يراها تتصرف بضعف وجبن . واستقبلها جون مورلاند مرحباً ، وقال :

— « لم اصدق انك ستاتين » . وضاقت عينا سكارليت وسالته : « هل هذا ما قاله ريت » ؟

— « على العكس . لقد قال ان الوحوش لن تمنعك من الحضور » . وكان السرج الجانبى الذى تستقر سكارليت فوقه بحيث تكون كلتا قدميها على جانب واحد من الفرس .. غير مريح بالنسبة لها ، وهى تخشى ان يؤدى إلى سقوطها على الأرض . وبدا الصيد . واصبح الحاجز وراءها . إذن فقد قفز الفرس فوقه دون ان تشعر بالقفزة . لاغرابة إذن فى ان جون مورلاند كان يرغب بشدة فى شراء هذا الفرس . وضحكت سكارليت بصوت عال . انها لم تشارك فى عملية صيد فى حياتها ولم تجلس فوق سرج جانبى منذ اكثر من خمسة عشر عاماً . وتوارت بعيدا الآن اشباح والدها وبونى .. اللذين توفى كل منهما على اثر السقوط من فوق الجواد .

● ● ●

حيثما ادارت راسها فى قلعة مورلاند .. ترى الرجال فى ذروة الأناقة والنساء الجميلات وزجاجات الشمبانيا فوق الصوانى الفضية والخدم والثروة والناس الذين يقضون وقتا طيبا ويمارسون حياة ممتعة . تماما كما كان الحال قبل الحرب . وبدا « ريت » هادئا وعلى سجيته فى الحفل الذى اعقب عملية الصيد وهى تتلقى التهانى بفوزها . كان يقف إلى جانبها عندما قال « تهنئتى ياسكارليت » . لم تكن قد راته يقترب منها . واهتز ذراعها .. وتناثرت الشمبانيا على ثوبها . : « اللعنة ، ياريت هل ينبغى ان تقترب منسلا على هذا النحو ، انك افزعتنى » . وقدم ريت منديله وهو يقول : « .. وانا أسف لسلوكى كالأجلاف فى سوق الخيول . وعذرى الوحيد هو اننى صدمت عندما رايتك هناك » . وقررت سكارليت ان تمتنع عن إظهار مدى اهتمامها .. والى اى حد جرح مشاعرها . قالت وعيناها تتالقان بالأضواء وشفتاها تنفرج عن ابتسامة : « كلانا تلقى صدمة .. تصور كيف كان منظرى . ماذا تفعل فى ايرلندا ؟ »

— « اشترى خيولا .. اننى مصمم على الفوز فى السباق فى العام

القادم . وتتمتع اسطبلات چون مورلاند بالشهرة فى انتاج صغار الخيول . وسأسافر إلى باريس يوم الثلاثاء لأبحث عن المزيد . ما الذى جاء بك إلى دورجيدا فى ملابس محلية» ؟ وضحكت سكارليت !! انت تعلم ياريت ولعى بارتداء أحسن الملابس ، ولكنى استعرت هذه الثياب من إحدى خادمات المنزل الذى اقيم فى ضيافته » .. وتلفتت حولها ، وقالت انها يجب أن تحيى المضيف وتغادر المكان قبل ان يغضب اصدقاؤها لتاخرها فى العودة . ونظرت إلى ريت لحظة ثم أسرعت إلى الخارج ، فهى لم تجرؤ على البقاء .. وعلى ان تكون قريبة منه .. فى نفس الغرفة .. أو حتى فى نفس المنزل .

● ● ●

ــ « كولام .. من هذا الرجل الذى يدعى بارنيل ؟ لقد كانوا يتحدثون عنه خلال تناول الإفطار يوم رحلة الصيد ، ولكننى لم افهم ما يقولونه » .

قال كولام انه بروتستانتى وانجليزى وانه لايستحق ان يشغل تفكيرها . وارادت سكارليت أن تناقشه . ولكنها كانت تعلم ان مثل هذه المناقشة مضيعة للوقت ، ذلك ان كولام قد استقر على افكار نهائية بصدد الانجليز ، وخاصة الانجليز من ملاك الأراضى فى ايرلندا الذين عرفوا باسم الانجلو ـ ايرلنديين . وكان يضايق سكارليت انه لا يعترف بأن بعض الانجليز يمكن ان يكونوا أشخاصا ظرفاء . لقد أحبت الشقيقات الانجليزيات اللاتى كن معها على السفينة المتجهة من أمريكا إلى ايرلندا كما أحبت كل شخص كان لطيفا معها فى رحلة الصيد . وفى إحدى المرات وجهت سكارليت سؤالها إلى مسز فيتز عن عائلة باتلر الإيرلندية التى يكرهها الجميع . وجاءت مدبرة المنزل بخريطة لايرلندا . وقالت :

« هذه هى مقاطعة كيلكينى ، انها موطن باتلر ، انهم من عائلة الدوق أورموند ، وقد يكونون أقوى عائلة انجليزية فى ايرلندا » . ونظرت سكارليت عن كثب إلى الخريطة . انها مقاطعة كبيرة مثل مقاطعة ميث التى توجد بها الآن . وعلى مسافة قريبة من مدينة كيلكينى .. رأت اسم « كهف دانمور » وتذكرت « دانمور لاندينج » اسم مزرعة ريت القريبة من شارلستون .. وبدأت سكارليت تغرق فى الضحك . كانت تشعر بأنها متفوقة لأن الأوهارا كانوا يحكمون ١٢ الف فدان ، وها هى ذى عائلة باتلر تحكم مقاطعة كاملة . ودون ان يرفع اصبعه .. فاز ريت مرة أخرى . انه يفوز دائما . كيف يمكن القاء اللوم على امرأة لأنها تحب مثل هذا الرجل ؟

● ● ●

جاء السيرجون مورلاند (بارت) .. لزيارتها ليبدى إعجابه بحظائر الخيول لديها وليرى الفرس « الهلال » . وحرصت سكارليت على ان تدفعه للحديث عن « ريت » .. قال انه لايعرفه ، وإن بعض الأصدقاء القدامى كتبوا إليه منذ شهر لابلاغه بانهم سيرسلون ريت ليرى خيوله ، ثم وصل ريت حاملا خطاب تقديم منهم .. « انه رجل متميز ، وهو مهتم للغاية بالخيول ، ويعرف الكثير ايضا . كنت اتمنى لو اقام لفترة اطول . هل انتما صديقان قديمان ؟ انه لم يحدثنى بشىء » .

وقالت سكارليت: « التقيت به عندما كنت ازور عائلتى فى شارلستون » .

وقال بارت : « إذن لابد انك التقيت مع الزوجين بروتون ، انهما صديقان لى . عندما كنت فى كيمبردج ، اعتدت ان ازور لندن فى الموسم على امل ان تكون سالى بروتون هنا . اننى متيم بها .. مثل الجميع » . وقالت سكارليت بدون تفكير : « سالى بروتون ! وجه القرد » ؟ وظل بارت يتحدث عن سالى على مدى نصف الساعة التالية .. وسكارليت نصف مصغية ، إلى ان التقطت اذناها اسم ريت ، فانتبهت تماما . كان بارت يقهقه وهو يروى الشائعات التى تحدثت عنها سالى فى خطابها . فقد سقط ريت فى اقدم مصيدة فى التاريخ فيما يبدو . قال بارت :

« والحكاية ان جماعة من دار للأيتام كانت تقوم بنزهة فى مزرعته . وعندما حانت لحظة العودة إلى الدار اتضح ان إحدى اليتيمات مفقودة .. فما كان من ريت سوى ان ذهب مع إحدى المدرسات للبحث عنها . وانتهى كل شىء على خير وجه ، فقد تم العثور على الطفلة ولكن بعد حلول الظلام ، الأمر الذى يعنى بطبيعة الحال فضيحة بالنسبة للمدرسة العانس مما فرض على ريت ان يتزوجها . واضاف بارت :

« اظرف ما فى هذه الحكاية انه كان قد اضطر منذ سنوات للهرب من البلدة عندما رفض ان يتزوج فتاة تصرف معها تصرفا طائشاً ، وكان المتصور ان يكون قد تعلم أن يكون حريصا بعد تلك المرة . ولابد ان يكون هذا الرجل شارد الذهن .. الا تجدين فى ذلك ما يبعث على الضحك ياسكارليت .. سكارليت .. سكارليت »..

— « كانئى ، اقول ان شرود ذهن مستر باتلر هو الأفضل بالنسبة له ، فإن نظراته هى نظرات رجل تسبب فى الكثير من المتاعب للكثير من الفتيات عندما لم يكن شارد الذهن أو ذاهلا » وانفجر بارت فى نوبة من الضحك . أما سكارليت ، فقد ابتهجت مما سمعت ومع ذلك شعرت وكانها توشك على البكاء . إذن ، هذا هو السبب فى ان ريت كان متعجلا فى الطلاق والزواج مرة أخرى . يالها من ماكرة هذه الفتاة « آن هامبتون » .

لقد خدعتنى تماما .. وربما لم تفعل ولكن الحظ التعس يلاحقنى مما جعل العثور على اليتيمة التائهة يستغرق وقتا طويلا ، ومما جعل ايضا « آن » هى المفضلة عند السيدة اليانور باتلر ومما جعلها تشبه كثيرا الراحلة « ميلى »

• • •

سيدة تدعى شارلوت مونتيج طلبت ان تقابلها وتذكرت بعد جهد انها التقت بسرعة معها فى حفل أقامته السيدة اليس هارينجتون التى تعرفت بها سكارليت فى رحلة الصيد عند قلعة جون مورلاند .

كانت شارلوت مونتيج اكبر سنا من سكارليت وتضع على رأسها قبعة من الريش . وظهر من البداية انها من النوع العملى ، ولا تريد إهدار الوقت فى الحديث عن الطقس . فقد علمت ان سكارليت سيدة أعمال ناجحة سواء فى ايرلندا أو فى أمريكا . « لا تنزعجى ، فإن ما أعرفه احتفظ به لنفسى ، ان هذه هى أهم صفاتى الحسنة ، علاوة على انى أملك الوسائل التى أعرف بها الأشياء التى لايعرفها الآخرون . اننى سيدة أعمال ايضا . » .

أوضحت شارلوت مونتيج انها ترملت بعد ان مات زوجها فى حادثة صيد ، وانه حتى قبل ان يموت ، كانت قد بدأت تسأم من الاستمرار على هامش الحياة ، تعنى بالمظاهر وتمارس نمط الحياة المتوقع من السيدات والسادة الذين أحسنت تربيتهم ، ولكنهم فى حاجة مستمرة إلى المال . انها تملك الذكاء والتعليم والذوق والعلاقات مع احسن العائلات والبيوتات فى أيرلندا بدون استثناء .. وهى علاوة على انها كاتمة أسرار .. فإنها مضيفة محترفة وتقدم المشورة حول كل ما يتعلق بالأزياء وديكورات المنازل والحفلات وطرق تمضية الوقت ، كما انها تتولى ترتيب الزيجات ومواعيد الغرام ، وتتقاضى عمولات سخية من محلات الأزياء والخياطات وصناع الأحذية ومحال المجوهرات وتجار الأثاث والسجاجيد . وهى تقول عن نفسها انهاماهرة وخبيرة فى وضع الخطط ويندر ان يتمكن أى شخص من اكتشاف انها تتقاضى ثمن ما تؤديه من اعمال .

واستمعت اليها سكارليت بمزيج من الصدمة والإعجاب . ولكن لماذا تصارحها السيدة بذلك كله دون جميع الناس ؟

« اقول لك ذلك لاننى متاكدة من أنك لست غبية يامسز أوهارا . انك سوف تتعجبين ـ ومعك حق ـ إذا عرضت ان أساعدك بدافع من النزعة الطيبة الكامنة فى قلبى . ولاتوجد فى قلبى نزعة طيبة إلا بالقدر الذى

يعزز مصالحي الخاصة . وانا عندى اقتراح لك في صميم العمل . انك تستحقين ما هو اكثر من حفل دون المستوى تقيمه سيدة دون المستوى مثل إليس هارينجتون . فانت تملكين الجمال والعقل والمال . تستطيعين ان تكوني سيدة مبتكرة إذا وضعت نفسك بين يدى وتحت وصايتي . سأجعل منك السيدةالتي تتمتع بإعجاب الكافة اكثر من اى سيدة اخرى ، وسأجعل منك المراة التي يسعى وراءها الكافة اكثر من اى امراة في ايرلندا . سوف يستغرق مني ذلك ما بين سنتين وثلاث سنوات . وبعدها سيكون العالم كله مفتوحا أمامك لكي تفعلي به ما تشائين . وستصبحين مشهورة . وسيتوافر عندى المال الذى يكفي لكي اتقاعد بعد ان اكون قد حققت لنفسي أسباب ووسائل الترف والرفاهية » .

وابتسمت مسز مونتيج وهي تقول : « لقد انتظرت قرابة عشرين سنة لكي التقي بواحدة مثلك .. واصلك الأيرلندى سيكون إضافة إلى اسطورتك .. اكتبى لي إذا اتخذت قرارك » .

● ● ●

روت سكارليت لمسز فيتزباتريك ما قالته لها شارلوت مونتيج ، وعلقت على ما سمعته منها بقولها : « لقد ابلغتها ان هذا امر مضحك وسخيف طبعا . انني ايرلندية ، ولا أريد ان يسعى الانجليز ورائي » . وقالت مسز فيتز « انت محقة تماما ، فالمراة هي مجرد لصة في ضوء ما تقوله عن نفسها » .

وثار كولام غضباً عندما علم من روزالين فيتزباتريك بحكاية الزائرة . وقال منفعلا : « لماذا سمحت سكارليت لها بمجرد الدخول من الباب » ؟ وحاولت روزالين تهدئته : (إنها وحيدة ياكولام . وهي محرومة من الأصدقاء ما عداك انت وانا ، صحيح أن الطفلة هي كل العالم بالنسبة لأمها ، ولكنها ليست الصحبة الكافية . واعتقد ان بعض النشاط الاجتماعي قد يكون خيراً لها .. ولنا إذا فكرت في الأمر .. ولا تنس ان العمل يوشك ان ينتهي في فندق كنيدى . وسيكثر عدد الرجال القادمين والخارجين قريبا جدا . اليس من الأفضل ان يكون هناك قادمون وخارجون غيرهم .. ومن يروح ويغدو غيرهم لإبعاد انظار الانجليز؟ لقد فهمت هذه المراة مونتيج من أول نظرة ، انها من النوع الجشع ، وأول ما ستفعله هو إقناع سكارليت بان البيت الكبير يحتاج إلى تاثيث وتجديد . وسوف تمارس هذه الـ مونتيج الاعيبها فيما يتعلق باسعار كل شيء . غير ان سكارليت قادرة على الدفع . وسياتي غرباء من بلدة تريم إلى بوليهارا كل

يوم طوال السنة حاملين طلاءهم وأقمشتهم المخملية وأحدث أنواع المفروشات الفرنسية . وعندئذ لن يلتفت أحد إلى مسافر أو اثنين يأتون عبر نفس الطريق . وهناك من يتساءل الآن بالفعل عن السبب الذى يمنع الأمريكية الحسناء من البحث عن زوج وأنا أرى ان الافضل ان نرسلها إلى الانجليز فى حفلاتهم حتى لايشرع الضباط الانجليز فى الحضور الى هنا للتودد اليها » .

ووعدها كولام بالتفكير فى الأمر . وخرج من بيته فى تلك الليلة ، وسار على قدميه عدة أميال محاولا ان يستقر على رأى يوفق بين ما هو أحسن لسكارليت وما اهو أحسن للإخوان الفينيين فى نفس الوقت . كان ما يقلقه هو انه لم يعد يفكر دائما بطريقة صافية فى الآونة الأخيرة . فهناك معلومات تصل إليه تؤكد ان بعض الرجال يتخلون عن التزامهم بالحركة الفينية .

عامان متواليان من الحصاد الوفير جعلا الرجال ينعمون بالراحة والاسترخاء وأقل استعدادا للمخاطرة بكل شىء . كذلك علم الفينيون الذين اخترقوا جهاز الشرطة .. شائعات عن وجود شخص فى الاخوان الفينيين يتولى نقل أخبارهم إلى الشرطة . والجماعات السرية تتعرض لخطر دائم من الجواسيس فى داخلها - انتفاضتان فى الماضى تم تدميرهما بسبب الخيانة . أما هذه المرة فقد تم التخطيط لها بعناية وببطء . واتخذت جميع الاحتياطات ولم يترك شىء للمصادفة وبالتالى يجب الا يحدث خطأ الآن . فالوقت كان يقترب . والمجالس الأعلى للحركة كانت تعتزم إعطاء إشارة التحرك فى الشتاء المقبل عندما يكون ثلاثة ارباع الميليشيا الانجليزية بعيداً عن حامياتهم ومشغولة فى صيد الثعالب . الآن جاءت تعليمات بتأخير كل شىء لحين الكشف عن شخصية الخائن والتخلص منه . والانتظار يرهق كولام ويمزقه .

عند شروق الشمس ، توجه كولام إلى روزالين لإبلاغها بأنها على حق فى وجهة نظرها بصدد حكاية شارلوت مونتيج مع سكارليت . وبعد ساعات كانت مسز فيتزباتريك تعتذر بلباقة إلى سكارليت وتعترف لها بأنها كانت متسرعة ومتحاملة . وحثت سكارليت على أن تبدأ فى خلق حياة اجتماعية لنفسها بمساعدة شارلوت مونتيج . غير أن سكارليت ردت عليها بقولها : « لقد توصلت إلى ان الفكرة سخيفة ، اننى مشغولة جدا » .. وعندما نقلت روزالين إلى كولام رد سكارليت انفجر ضاحكا .

* * *

جاء موسم الحصاد واحتفالاته وأيام الخريف الذهبية .. وبدأت

تتساقط أوراق الشجر . واقامت سكارليت حفلا ضخماً بمناسبة بلوغ كات عامها الثانى وتذوق الأطفال المدعوون لأول مرة فى حياتهم الآيس كريم فى البيت الكبير . واكتشفت سكارليت ان « كات » قد أحضرت لنفسها هدية عيد ميلادها .. وهى قطة صغيرة ..

وذات صباح كانت سكارليت فى نزهة تدريب لفرسها « الهلال » عندما سمعت صوت البوق ثم أصوات كلاب الصيد فى مكان قريب . لابد ان هناك رحلة صيد وربما يكون « ريت معهم » . واستطاعت ان تجعل الهلال يتخطى ثلاث حفر واربعة حواجز ، ولكنه لم يعد نشطا كما كان . وكتبت إلى شارلوت مونتيج فى اليوم التالى . وبعد اسبوعين ، وصلت ثلاث عربات تحمل اثاث مسز مونتيج . ووصلت السيدة بعد ذلك فى مركبة انيقة ومعها وصيفتها .. وقالت لسكارليت فور وصولها : « الآن ، سنبدأ » .

● ● ●

واطلقت سكارليت ايدى شارلوت مونتيج فى إعادة تخطيط وترتيب وتأثيث البيت الكبير والنفقات الباهظة التى يتطلبها هذا العمل الضخم . واقترحت عليها شارلوت ان تسمع نصيحة جون مورلاند بشأن الخيول . وكانت سكارليت تريد ذريعة لرؤية بارت (مورلاند) .. فقد تكون لديه بعض الأخبار عن ريت . وسر بارت لرؤيتها ووعدها بان يساعدها على العثور على افضل خيول الصيد فى ايرلندا ..

وكما لو كان السؤال عابرا .. قالت سكارليت « الم تسمع اى شىء عن صديقك الأمريكى يابارت ؟ »

تقصدين ريت ، نعم انه اكثر جدية فى كتابة الرسائل . وهو مصمم على أن يدخل المهرة التى اشتراها منى .. فى سباق شارلستون .. » وكفت سكارليت عن الإصغاء . فهو لايتوقف إذا بدأ الحديث عن الخيول .

كانت تريد أن تعرف أخبار ريت .. هل هو سعيد ؟ هل اتى على ذكرها ؟ واضطرت لتوجيه سؤال مباشر إلى بارت : « هل قال ريت شيئاً عنى » ؟ . وقال بارت : « آه ، نعم .. لقد سالنى عما إذا كان فى الامكان ان تبيعى الهلال . انه يفكر فى إعادة عمليات الصيد الى دانمور . وطلب منى ان ابقى مفتوح العينين .. حتى اعثر له على خيول من نوع الهلال » . وقالت سكارليت ، وهى تتمنى ان تسمع ما يؤكد توقعاتها : « عليه ان يعود إلى هنا من أجل الشراء » .. غير ان إجابة بارت دفعتها إلى هاوية الياس : كلا . ان عليه ان يثق بى . ان زوجته تنتظر طفلا ، ولن يستطيع ان يتركها .. »

وتنقلت سكارليت من غرفة إلى اخرى تدعو كل شخص إلى تناول ما يشاء والتمتع برؤية لوحة الملوك العظام لايرلندا . ووقفت شارلوت مونتيج فى هدوء على جانب السلم وقد بدا على وجهها عدم الرضا ولكن سكارليت تجاهلتها ، كما حاولت ان تتجاهل ارتباك وعدم ارتياح ابناء وبنات عمومتها والقرويين . ولكن بعدنصف ساعة من وصولهم ، كادت سكارليت تذرف الدموع .

قالت روزالين فتيزباتريك : « الأمر لاعلاقة له بك .. فهذا ضد التقاليد . لم يضع مزارع قدمه على الإطلاق داخل عتبة بيت كبير فى ايرلندا . اننا شعب محكوم بالعادات القديمة ، ولسنا مستعدين للتغيير » وقالت سكارليت : « كنت اظن ان الفينيين يريدون تغيير كل شىء » وتنهدت مسز فيتز ، ثم قالت : « هذا صحيح ، ولكن التغيير يهدف للعودة إلى سالف الأيام .. إلى ما قبل الأيام التى حالت دون دخول البيت الكبير . كنت اود ان أستطيع ان اشرح بوضوح اكثر . »

— « لاتزعجى نفسك يامسز فيتز . لقد اخطأت . هذا كل شىء ولن اكرر ذلك مرة اخرى .

واغتصبت سكارليت ابتسامة . ولكنها كانت تشعر بحيرة وارتباك وقلق . ما أهمية وجود كل هذه الغرف ذات الديكور الايرلندى إذا لم يشعر الايرلنديون بالراحة فى داخلها ؟ ولماذا عاملها ابناء وبنات عمومتها كما لو كانت غريبة داخل بيتها ؟

وأخذت سكارليت تطوف بالغرف وحدها بعد ان غادر الضيوف . المنزل رائع واروع مما يمكن ان يكون عليه « دانمور لانديتيج » فى يوم من الأيام . وتمنت لو كان ريت معها الآن .. يتطلع حوله بحسد وإعجاب . وقفزت بخطوات سريعة على السلم لتدخل غرفة كات وتراها وهى تصب اللبن لقطتها التى اطلقت عليها اسم « أوكراس » ومعناها « الجوع » باللغة الايرلندية . لو كان ريت حاضراً حفل الشاى الذى اقامته هذا المساء .. ولكنه لم يكن ، ولن يكون ابداً وعليها ان تتقبل ذلك . سوف يحضر حفلات شاى مع طفله الآخر أو اطفاله الآخرين من « آن » .

ولم تنم سكارليت فى تلك الليلة . جلست فى وسط سريرها الفرنسى الأنيق المغطى بالحرير .. الذى يلتف حولها ليدفئها .. الدفء والراحة اللذان تريدهما هى ان تشعر بذراعى ريت حولها وأن تسمع صوته العميق يسخر من حفلتها المشئومة .. إلى أن تضحك مما فعلته ومن الخطأ الذى وقعت فيه . كانت تريد التسرية عنها بعد خيبة الأمل التى احست بها .

وتنقلت سكارليت من غرفة إلى اخرى تدعو كل شخص إلى تناول ما يشاء والتمتع برؤية لوحة الملوك العظام لايرلندا . ووقفت شارلوت مونتيج فى هدوء على جانب السلم وقد بدا على وجهها عدم الرضا ولكن سكارليت تجاهلتها ، كما حاولت ان تتجاهل ارتباك وعدم ارتياح ابناء وبنات عمومتها والقرويين . ولكن بعدنصف ساعة من وصولهم ، كادت سكارليت تذرف الدموع .

قالت روزالين فتيزباتريك : « الأمر لاعلاقة له بك .. فهذا ضد التقاليد . لم يضع مزارع قدمه على الإطلاق داخل عتبة بيت كبير فى ايرلندا . اننا شعب محكوم بالعادات القديمة ، ولسنا مستعدين للتغيير » وقالت سكارليت : « كنت اظن ان الفينيين يريدون تغيير كل شىء » وتنهدت مسز فيتز ، ثم قالت : « هذا صحيح ، ولكن التغيير يهدف للعودة إلى سالف الأيام .. إلى ما قبل الأيام التى حالت دون دخول البيت الكبير . كنت اود ان أستطيع ان اشرح بوضوح اكثر . »

— « لاتزعجى نفسك يامسز فيتز . لقد اخطأت . هذا كل شىء ولن اكرر ذلك مرة اخرى .

واغتصبت سكارليت ابتسامة . ولكنها كانت تشعر بحيرة وارتباك وقلق . ما أهمية وجود كل هذه الغرف ذات الديكور الايرلندى إذا لم يشعر الايرلنديون بالراحة فى داخلها ؟ ولماذا عاملها ابناء وبنات عمومتها كما لو كانت غريبة داخل بيتها ؟

وأخذت سكارليت تطوف بالغرف وحدها بعد ان غادر الضيوف . المنزل رائع واروع مما يمكن ان يكون عليه « دانمور لاندينيج » فى يوم من الأيام . وتمنت لو كان ريت معها الآن .. يتطلع حوله بحسد وإعجاب . وقفزت بخطوات سريعة على السلم لتدخل غرفة كات وتراها وهى تصب اللبن لقطتها التى اطلقت عليها اسم « أوكراس » ومعناها « الجوع » باللغة الايرلندية . لو كان ريت حاضراً حفل الشاى الذى اقامته هذا المساء .. ولكنه لم يكن ، ولن يكون ابداً وعليها ان تتقبل ذلك . سوف يحضر حفلات شاى مع طفله الآخر أو اطفاله الآخرين من « آن » .

ولم تنم سكارليت فى تلك الليلة . جلست فى وسط سريرها الفرنسى الأنيق المغطى بالحرير .. الذى يلتف حولها ليدفئها .. الدفء والراحة اللذان تريدهما هى ان تشعر بذراعى ريت حولها وأن تسمع صوته العميق يسخر من حفلتها المشئومة .. إلى أن تضحك مما فعلته ومن الخطأ الذى وقعت فيه . كانت تريد التسرية عنها بعد خيبة الأمل التى احست بها .

كانت تريد الحب والفهم والحنان الناضج . لقد تعلم قلبها أن يحب . وهو يفيض بالحب ، وهى لاتجد من تقدم له هذا الحب . اللعنة على ريت لأنه يعترض طريقها ! لماذا لاتستطيع ان تحب بارت مورلاند ؟ انه طيب وجذاب ، وتستمتع بصحبته . ولو أرادته سكارليت حقاً ، فإنها لاتشك لحظة في قدرتها على ان تجعله ينسى حبه اليائس لمن تدعى جريس هاستنجز التى تزوجت منذ عشرين عاما .. ولكن سكارليت لاتريده . وهذه هى المشكلة . فهى لاتريد شخصا آخر غير ريت . هذا ليس عدلا .

ومثل الأطفال .. ظلت تبكى حتى غلبها النوم . وعندما استيقظت كانت قد استعادت سيطرتها على نفسها . ماذا لو كره الجميع حفلتها ؟ وماذا لو لم يمكث كولام سوى عشر دقائق فى هذه الحفلة ؟ ان لديها أصدقاء آخرين . وسوف تكسب المزيد من الأصدقاء .

● ● ●



مجتمــــع القمــــة

عادت سكارليت من رحلة صيد مع بارت موورلاند وأصدقائه . وشرعت تتحدث فى حماس مع كولام حول افكار مستر بارنيل عضو البرلمان الذى يمثل مقاطعة ميث والذى كان فى صحبة بارت . ولكن كولام يكرهه . وتحولت سكارليت من الحماس إلى الشرح إلى الغضب : « لا استطيع ان افهم أبدا كيف تكون عنيداً إلى هذا الحد ياكولام ، انك لم تكلف نفسك مشقة سماع كلام الرجل .. حسنا انا سمعته . انه ساحر .. وهو يريد بالدقة ما تحدثت انت عنه دائما : ايرلندا للايرلنديين .. والكف عن عمليات الطرد من الأرض ، بل والكف عن الحصول على إيجارات والغاء وجود ملاك الأرض . ماذا تريد اكثر من ذلك » ؟ ونفد صبر كولام : « أرجو الا تثقى هذه الثقة العمياء بهذا البارنيل ! ألا تعلمين انه هو نفسه من كبار ملاك الأراضى .. وبروتستانتى ، وتلقى تعليمه فى جامعة اكسفورد الانجليزية . انه يسعى وراء الأصوات وليس وراء العدالة ، والرجل سياسى .. وسياسته هى محاولة إيقاظ الانجليز ليكونوا اكثر حرصاً على مصالحهم .. واغراء الحمار الايرلندى الجاهل الفقير .. »

وقالت سكارليت :

— « لا جدوى من الحديث معك يا كولام ! لماذا قال الرجل صراحة انه يؤيد الفينيين » وامسك كولام بذراعها « هل تحدثت بشىء » ؟ وابتعدت عنه وهى تقول : « لا ، بطبيعة الحال .. لست حمقاء رغم انك تتحدث معى وتتعامل معى كما لو كنت كذلك . واعتقد انه لامبرر لتهريب البنادق والبدء فى حرب إذا كنت تستطيع ان تحصل على ما تريده بدونها . لقد عشت حرباً اثارتها عصبة من المتهورين بسبب بعض المبادىء وكل مافعلته تلك الحرب هى انها قتلت معظم اصدقائى ودمرت كل شىء من اجل لاشىء . وانا اقول لك منذ الآن يا كولام اوهارا : ان هناك وسيلة لإعادة ايرلندا إلى الايرلنديين بدون قتل أو حرق . وهذا ما أدافع عنه . لا اموال اخرى لستيفن لشراء بنادق بها . هل تسمعنى ؟ ولا بنادق اخرى يتم إخفاؤها فى بلدتى . اريد اخراجها من الكنيسة . لايهمنى ما ستفعله بها .. كل ما أريده هو التخلص منها . » .

— « والتخلص منى أيضا ، ألا تقولينها ؟ » .

— « إذا اصررت ، إذن .... » وامتلأت عينا سكارليت بالدموع :

— ما الذى اقوله ؟ ما الذى تقوله ؟ آه ، ياكولام ، لا تسمح بحدوث ذلك . انت احسن اصدقائى .. وتكاد تكون شقيقى . ارجوك ، ارجوك لا تكن متصلبا . لا أريد ان اتشاجر » ..

وفاضت دموعها . ووضع كولام يدها فى يده وضغط عليها . وقال .
— « انه الطبع الايرلندى فينا هو الذى يتحدث .. وليس كولام او سكارليت ، اغفرى لى .. »
— « كولام .. انت تسحر الطيور على الشجر مرة أخرى ، ولكننى لن أدعك تسحرنى إلى حد النسيان . عدنى بانك ستتخلص من هذه البنادق ، اننى لا اطالبك بالتصويت لصالح تشارلس بارنيل . وإنما ان تعدنى فقط بالا تبدا حربا » . ووعدها كولام . وبعد ان افترقت عن كولام ، توجهت على الفور الى الكنيسة الصغيرة لتعترف امام الأب فلاين . وكان احتدادها فى الحديث مع كولام جزءا من الاعتراف ولكنه لم يكن الجزء الهام . لقد ذهبت للاعتراف لكى تتحرر من خطيئة كبيرة وهى انها شكرت الله عندما ابلغها جون مورلاند بأن زوجة ريت فقدت جنينها منذ ستة اشهر .
ولم يمض وقت طويل على مغادرة سكارليت للكنيسة حتى دخلها كولام ليعترف امام القس . فقد كذب على سكارليت وارتكب خطيئة كبرى . وبعد التفوه بعبارات التوبة ، توجه إلى ترسانة الكنيسة الانجيلية لكى يطمئن على ان الأسلحة فى مخبأ أمين يصعب اكتشافه إذا فكرت سكارليت فى ان تتحرى الأمر .

● ● ●

الآن يقتضى برنامج شارلوت مونتيج لتقديم سكارليت الى مجتمع القمة .. السفر إلى مدينة دبلن . ولم تكن سكارليت تعرف ان المدينة قريبة جدا من بلدتها . وفى الطريق إلى فندق جريشام .. اخذت تراقب زحام الشوارع الواسعة وهى تشعر انها ستحب هذه المدينة . وفى المساء وصلت مسز سيمز إلى غرفة الفندق حيث كانت شارلوت مونتيج وسكارليت فى انتظارها لإعداد ثياب السهرة . ثم وصل مسيو « فرانسوا هيرفى » بناء على اتفاق مع شارلوت لكى يرسم لوحة زيتية لسكارليت . وجاءت السيدة الإيطالية سيرافينا لتصفيف شعرها .. وعندما نظرت سكارليت فى المرآة ، قالت إنها تبدو مثل صورة الجدة روبيلا فى شبابها ، فقد أصبحت امرأة متحدية واثقة من نفسها .. وهمست شارلوت مونتيج لنفسها : « هذه هى المرأة التى ستعصف بايرلندا ، وبالعالم إذا أرادت » .
بعد عشرة ايام من التسوق والجلوس أمام الرسام .. غادرت سكارليت دبلن .. اول مدينة حقيقية تراها فى حياتها وتضم أكثر من ربع مليون نسمة ، فقد كانت اتلانتا عبارة عن عشرين ألفا فقط . إنها تتشوق لرؤية « كات » التى تحمل إليها مجموعة كبيرة من الهدايا
فى المرة التالية ، نزلت سكارليت وشارلوت فى جناح بفندق شلبورن

فى دبلن لقضاء فترة الموسم . انه أفخر فنادق المدينة وقالت لها شارلوت .

« لقد اخترت المناسبة لكى يرانا المجتمع » . كان كل شىء فى الفندق رائعا : الضيوف .. والخدم والغرف ، والأجنحة . وعلاوة على الجناح .. فقد تم حجز غرفة استقبال من أجل سكارليت ، ووضعت فيها اللوحة التى رسمها الفنان الفرنسى . ونظرت سكارليت الى اللوحة فى استغراب . هل تشبه حقاً هذه الصورة ؟ ان المرأة فى اللوحة لاتخاف من أى شىء . وقالت شارلوت « سوف تقيمين حفل شاى وقهوة فى غرفة استقبالك كل مساء والضيوف سوف يجلبون الضيوف لرؤيتك . وأرادت سكارليت ان تسأل : من الذى سيجلب الضيوف ومن هم الأشخاص الذين سيأتون بغيرهم ؟ ولكنها لم تشغل ذهنها بالأمر . فقد كانت شارلوت تعرف دائما ما تفعل .

تم تسليم المظروف الأبيض السميك الذى يحمل خاتم الياوران الملكى إلى الفندق فى اليوم التالى لوصول سكارليت .

خارج الأبواب المزدوجة المغلقة لقاعة العرش ، وقفت سكارليت وسط مجموعة من الفتيات والسيدات بملابسهن البيضاء . وشعرت بانها تنتظر فى هذا المكان دون ان تفعل شيئا منذ مائة عام . لماذا وافقت على ذلك كله ؟ لم تستطع سكارليت ان تجيب على سؤالها ، فالمسالة بالغة التعقيد . من ناحية ، فإن الأوهارا مصممة على ان تقهر الانجليز ، ومن ناحية اخرى ، فإنها فتاة أمريكية تشعر بانبهار أمام عظمة الأبهة الملكية للامبراطورية البريطانية . وفى أعماقها ، كان يتسلط عليها إحساس بانها لن تتراجع عن التحدى ، فهى لم تفعل ذلك قط .

لقد تركتها شارلوت وحدها ، القت بها إلى الذئاب . وها هى ذى تنتظر النداء باسمها

« مدام الأوهارا من بوليهارا » .. ودخلت سكارليت قاعة « العرش » الآن لابد ان أسير أميالا فوق السجادة الحمراء واقبّل نائب الملك ، وهو ابن عم ملكة انجلترا . سارت أوهارا مثل امبراطورة لتواجه العظمة ذات اللحية الحمراء وتقدم خدها لكى يطبع عليها قبلة الترحيب الاحتفالية . وجاء دور قرينة نائب الملك والآن عليها ان تتراجع إلى الوراء فى خط مستقيم .. ثلاث خطوات ثم تمد يدها لكى يضع واحد من الحجاب ذيل ثوبها فوق ذراعها قبل ان تستدير وتبتعد

وعندما عادت إلى الفندق تلقت التهنئة من شارلوت على نجاحها الذى فاق كل التوقعات . وانهالت الدعوات . ولم تعد سكارليت مترددة لقد حققت نجاحا . ولفتت كل الأنظار ولايهمها الآن بعد أن انفقت ثمن محصول العام الماضى فى شراء وصنع الملابس الجديدة ، ان تنفق محصول هذا العام فى التسوق .

أصبحت سكارليت هى نجمة الموسم وحديث المجتمع الراقى . وتزاحم السادة لمقابلة الأرملة الثرية الجميلة . وتدفقت الأمهات ومعهن بناتهن ، على حفلات الاستقبال الخاصة التى تقيمها سكارليت حتى تلتقى البنات بالسادة الذين يمكن ان يكونوا أزواج المستقبل . وكفت شارلوت بعد يوم واحد عن شراء باقات الورد لحجرة استقبال سكارليت ، لأن المعجبين أرسلوا الكثير جدا من هذه الباقات الى ان ضاق بها المكان . وكان العديد من الباقات يحتوى على علب جلدية من أفخم محال المجوهرات فى دبلن ، ولكن سكارليت كانت تعيد ، على مضض ، كل هذه المجوهرات إلى اصحابها وهى تقول : « حتى الفتاة الأمريكية من مقاطعة كليتون فى جورجيا تعرف انها إذا قبلت هذه الهدايا فسوف ينتظر منها ان ترد الجميل» . وأكدت لشارلوت « لا أحد سيطوق عنقى بجميل .. »

وأصبحت صحيفة « ايريش تايمز » اليومية تنشر بأملئة أنباء تحركات ونشاطات سكارليت فى عمود « حديث المدينة » وأحيانا تستفيض الصحيفة فى نشر التفصيلات . واعتاد أصحاب المتاجر الحضور بأنفسهم إلى الفندق ليعرضوا بضاعتهم على أمل ان تحوز إعجابها فكانت تشترى العديد من قطع المجوهرات التى سبق ان رفضت قبولها كهدايا وقد رقص نائب الملك مرتين معها فى حفل راقص جديد

● ● ●

توقفت لحظة عند مدخل قاعة العرش لكى تستمتع بالمشهد وعندما دخلت القاعة أومأت برأسها عدة مرات لابتسامات وانحناءات من وجوه مالوفة . كانت القاعة تلمع بالذهب فى كل بقعة منها . وما أن قدمت التحية الى نائب الملك وقرينته .. حتى عزفت الموسيقى . وسمعت صوتا يقول :

— « هل تسمحين لى بهذه الرقصة ؟ » انه تشارلس ريجلاند ، العسكرى الانجليزى الذى التقت به فى إحدى الحفلات ، وظل يزورها كل يوم فى حجرة الاستقبال فى الفندق من يوم وصولها إلى دبلن ، ولم يخف إعجابه بها . كان رجلا جذابا يتميز بطلاوة الحديث . ووضعت يدهابخفة على ذراعه ورافقها للاشتراك فى الرقصة الرباعية . وقال لها . « أنت

رائعة الجمال الليله ياسكارليت » . وظهر امامها شريك جديد لأن شركاء الرقص يتبدلون فى الرقصة الرباعيه ونظرت إلى وجهه ، وقالت بصوت عالٍ :

— « يا إلهى » . كان الذى يقف فى مواجهتها هو ريت الذى قال بنصف ابتسامة : « ياله من اطراء يرضى غرورى » لايوجد من له مثل هذه الابتسامة ..

سكارليت تبدو الآن مرحة ورشيقة ومضيئة . وشعرت بانها تطفو فوق ارضية القاعة تحلق من السعادة . وقبل ان تتمكن من مواصلة الحديث . اخذته الرقصة الرباعية بعيدا . وابتسمت بطريقة تلقائية لشريكها الجديد .

كان الحب يتلالأ فى عينيها ، وتفكيرها يدور بسرعة : لماذا جاء ريت إلى هنا ؟ هل لأنه أراد أن يرانى ؟ أم لأنه وجد نفسه راغباً فى ان يرانى ولم يستطع ان يبقى بعيدا ؟ » وانتظرت سكارليت بنفاد صبر ان تنتهى الرقصة . وفور انتهائها ، وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام تشارلس ريجلاند . وشكرته وتمتمت بعبارة اعتذار سريعة قبل ان تتلفت بحثاً عن ريت . والتقت عيناها بعينيه فى الحال كان يقف على مسافة متر منها ومنعها كبرياؤها من ان تخطو نحوه ، فقد ادرك اننى أبحث عنه . وحدثت نفسها غاضبة : من يظن نفسه ، لكى يجول فى عالمى ثم يقف هناك ويتوقع منى أن القى بنفسى بين ذراعيه ؟ هناك الكثير جدا من الرجال فى دبلن ، وحتى فى هذه القاعة . وهم يحاصروننى باهتمامهم ، ويتحلقون حول حجرة استقبالى ويرسلون لى الزهور كل يوم وكذلك الخطابات وحتى المجوهرات . فما الذى يجعل السيد العظيم الجبار مستر ريت يتصور ان كل ما يجب أن يفعله هو ان يرفع اصبعه الصغير فاذهب اليه عدوا ؟

أعجبتها النبرة الفاترة فى صوتها وهى تقول . « يا لها من مفاجأة سارة » . ومد ريت يده ، ووضعت يدها بلا تفكير فى يده وهو يقول : هل تسمحين لى بهذه الرقصة يا مسز .. إر ... أوهارا » ؟ وحبست سكارليت أنفاسها فى خوف : « ريت ، لاتفسد الأمور الجميع يعتقدون اننى أرملة » ! وابتسم وأخذها بين ذراعيه عندما بدأ عزف الموسيقى وقال « سرك مصون ياسكارليت » . كان فى إمكانها ان تشعر بصوته يلسع بشرتها وبأنفاسه الدافئة . وأحست بانها أكثر ضعفا . وسألته « ماذا تفعل هنا بحق الشيطان » ؟ كان يجب ان تعرف . فوق خصرها ، كانت يده دافئة وقوية و .. تسندها وتوجه جسمها كلما استدارت . وأحست بانها

تستمتع بقوته وبأنها تتمرد على سيطرته وهي تتابع خطواته الدائرية في دوامة الفالس . ضحك ريت وقال « لم استطع مقاومه فضولي . كنت في عمل في لندن ، ووجدت الجميع يتحدثون عن الأمريكية التي اقتحمت قلعة دبلن كالعاصفة وسألت نفسي هل يمكن أن تكون هي نفسها سكارليت ذات الجوارب المخططة التي رايتها في سوق الخيول ، وكان يجب أن اعثر بنفسي على الإجابة واكد بارت مورلاند سكوكي ولم أستطع ان اجعله يكف عن الحديث عنك بل لقد حملني على أن اركب معه لكي نتجول في بلدتك وطبقا لاقواله . فقد قمت بإعادة بنائها بأيديك »

وتأملتها عيناه من رأسها حتى قدميها وقال بهدوء

— « لقد تغيرت يا سكارليت ان الفتاة القاسية قد اصبحت امرأة انيقة ناضجة احبك .. احبك بصدق .

الصدق غير المزخرف والدفء في صوته جعلا سكارليت تنسى غضبها قالت « شكرا . ياريت » وسألها — هل انت سعيدة في ايرلندا ياسكارليت »

— « نعم » « انا مسرور بذلك » كانت كلماته مشحونة بمعان اعمق ولأول مرة طوال السنوات التي عرفته خلالها شعرت بأنها تفهمه الى حد ما على الأقل لقد جاء لكي يراها وكان يفكر في شخصي طوال ذلك الوقت . يتساءل عن مكاني وعن احوالي . ولم يتوقف عن الاهتمام بي بصرف النظر عما يقوله انه يحبني وسوف يحبني دائما . تماما كما سأحبه على الدوام . وهذا الذى توصلت إلى فهمه جعلها تشعر بالسعادة وأخذت تتذوقها وترشفها مثل الشمبانيا على مهل لكي تدوم . كان ريت هنا معها وكانا في تلك اللحظة ، اقرب إلى بعضهما من اي وقت مضى

واقترب منهما احد رجال الياوران عندما انتهت رقصة الفالس . وقال « ان صاحب السعادة يطلب التشرف بمشاركتك الرقصة التالية يا مسز أوهارا » . ورفع ريت حاجبيه في سخرية مرحة فضولية . واحتضنت سكارليت بابتسامتها وهي تقول للياور « قل لصاحب السعادة انني سأكون مسرورة بذلك » . ونظرت إلى ريت وهي تتأبط ذراع الياور وتمضي قائلة « في مقاطعة كليتون نقول في مثل هذه المناسبات انيا في القطن العالي (في منتهى السعادة) » وسمعت ضحكاته تتبعها وهي تبتعد ونظرت إلى الخلف من فوق كتفها لتراه لايزال يضحك وكانت عيناها الخضراوان تتألقان بالضحك وهي تحيي نائب الملك قبل ان يشرعا في الرقص ولم تكن مفاجأة لسكارليت ان ريت لم يعد موجودا في الحفل

عندما بحثت عنه مرة أخرى . فطوال المدة التى عرفته خلالها ، كان يظهر ويختفى بلا تفسير . ولم يكن يحق لى ان أدهش عندما رأيته هنا الليلة . لقد كنت أشعر وكأننى ساندريللا ، فلماذا لايكون الأمير الساحر الوحيد هنا ؟ ولولا انها كانت لاتزال تشعر بذراعيه حولها كما لو كان قد ترك علامته .. لظننت ان ذلك كله ـ بما فى ذلك القاعة المذهبة والموسيقى ـ كان وهماً وسراباً . وعندما عادت إلى جناحها فى فندق شلبورن ، اشعلت المصباح ووقفت امام المرآة فى الضوء الساطع لتنظر إلى نفسها وترى ما رآه ريت . بدت جميلة وواثقة من نفسها مثل صورتها فى اللوحة ، ومثل صورة جدتها روبيلار . وفى منتصف الليل ، استيقظت سكارليت أوهارا من نومها فى غرفتها الفاخرة لكى تبكى وتكرر عبارة « لو .. فقط » ...

● ● ●

قالت سكارليت لنفسها « اتمنى أن ينتهى الموسم ، فإننى افتقد كات بشدة ، ترى ماذا تفعل الآن » ؟

فى ذلك الوقت ، كانت كات تعدو فى غابات بوليهارا وسط الضباب الذى يخيم فى ساعات الصباح المبكرة . ولم تستطع ان ترى طريقها . وتعثرت وسقطت ، ولكنها نهضت على الفور . فهى لابد ان تواصل الجرى حتى لو كانت تلهث . واحست بقطعة اخرى من الحجر توشك ان تسقط فوقها ، وخفضت راسها وراء جذع شجرة لتحمى نفسها . كان الأطفال يطاردونها ويصرخون : « الساحرة » ، « الساحرة » . وكادوا يمسكون بها . ولم يسبق لهم ان خاطروا بالاقتراب من البيت الكبير حتى هذه المسافة ، ولكنهم كانوا يعرفون من احاديث آبائهم ان الأوهارا فى دبلن مع الانجليزية . وصاح احدهم مشيرا إلى كات : « ها هى » ، ورفع الآخرون ايديهم لإلقاء الحجارة ، ولكن الجسم الذى خرج من وراء الشجرة لم يكن « كات » وإنما « الساحرة » وهى تشير باصبعها محذرة .. وارتعدت فرائص الصبية وأطلقوا سيقانهم للريح وقالت « جرينى » : « تعالى معى ـ ساقدم لك الشاى » . ووضعت كات يدها فى يد العجوز . وخرجت « جرينى » من مخبئها وسارت ببطء . ولم تجد كات صعوبة فى متابعة خطواتها وسالتها .. هل سيكون الكعك مع الشاى » ؟ وقالت الساحرة : « نعم »

● ● ●

فى كل مساء ، كانت مسز فيتز تاخذ صحيفة « إيريش تايمز » إلى حانة كنيدى لكى تطلع الرواد على صور الأوهارا لكى يعرفوا إلى أى حد

أصبحت سيدة بوليهارا ملء السمع والبصر ويوما بعد يوم ، حل التفاخر بالأوهارا التى أصبحت محل إعجاب أكثر من النساء الانجليزيات محل التذمر من ولع سكارليت بالانجليز أما كولام فقد كان يميل إلى التشاؤم وهو يردد : « الانجليز سوف يكسبونها إلى صفهم » .. غير انه لم يكن هناك فى دبلن من يريد من سكارليت ان تكون أقل إحساسا بأصلها الايرلندى ، فقد كانت « ايرلنديتها » جزءاً من جاذبيتها . ومما أثار حيرة سكارليت ان هؤلاء الانجلو ـ ايرلنديين كانوا يعتبرون أنفسهم ايرلنديين على نفس مستوى عائلة أوهارا فى ادمز تاون . وقالت لها شارلوت يوما فى انفعال : « ان هذه العائلات ـ الانجلو ايرلندية ـ عاشت فى ايرلندا منذ ما قبل استيطان أمريكا .. كيف يمكن ان تعتبريهم غير ايرلنديين » ؟ غير ان ما كان يهم سكارليت هو أنها اصبحت تملك عالم مزارع بوليهارا الايرلندية وعالم قلعة دبلن الإيرلندية فى وقت واحد . وسوف تملك « كات » هذين العالمين . وهذا أفضل بالنسبة لسكارليت مما لو كانت قد بقيت فى شارلستون .

انتهى موسم احتفالات قلعة دبلن . وأعلنت شارلوت ان مهمتها قد انتهت وان سكارليت لم تعد فى حاجة إليها ويكفى أن تستمر سكارليت فى التعامل مع مسز سيمز حتى تضمن لنفسها ارتداء أفخر الثياب ، كما ان مسز فيتز هى أكفأ مدبرة منزل فى نظر شارلوت .. وقالت « انت الآن فى الدنيا ». ـ « وماذا ستفعلين ياشارلوت » ؟ ـ سأفعل ما كنت اريده دائما شقة صغيرة . طعام جيد ، نبيذ جيد ، والتمتع بضوء الشمس .. أننى أمقت المطر » ..

• • •

عادت سكارليت إلى البيت الكبير فى بوليهارا ووجدت كات سعيدة بمهرها الصغير « كينج » الذى أطلقت عليه اسم « رى » . قالت : انه لايحب ان أمتطيه فوق سرج .. وانها هى أيضا لا تفضل السرج .

ستبلغ كات الرابعة من عمرها فى أكتوبر القادم ، فهى تجاوزت عمر بونى عندما سقطت من فوق مهرها . وطلبت منها « كات » التوجه معا لرؤية جرينى وتجمدت سكارليت «كيف عرفت جرينى»؟ لقد سبق للمرأة الحكيمة ان طلبت منها ان تمتنع عن زيارتها هى و« كات » وان تحرص على بقائها قريبة من البيت من الذى اخذ « كات » إليها ؟ ولماذا ؟ وقالت كات « لقد قدمت لكات بعض اللبن » كانت « كات » تتحدث عن نفسها بضمير الغائب عندما يتسبب شىء ما فى إثارتها أو غضبها وسألتها

سكارليت « ما الذى لم تحببه فى شخص جريني يا كات » ؟ ـ « انها تظن ان كات فتاة صغيرة أخرى اسمها دارا ، وقد أوضحت لها كات . ولكنها لم تسمع » . « لا ياصغيرتى ، إنها تعرف انك انت ولكن هذا اسم خاص جدا أطلقته عليك عندما كنت طفلة صغيرة جدا انه باللغه الايرلندية القديمة ودارا معناه شجرة البلوط ، انها أحسن وأقوى الأشجار »

— « هذا سخيف الفتاة لايمكن أن تكون شجرة ، فليس لها أوراق » وبعد برهة قالت كات « اننى أحب البرج » .

● ● ●

مشهد مريع .. الناس يتزاحمون للفرجة على جندى من الجيش ينفذون فيه عقوبة الجلد بالسياط لم تستطع سكارليت ان تحرك مركبتها بعيدا بسبب الحشود المتراصة التى خاب املها عندما سمعت الجلد يتوقف بعد الضربة رقم مائة على ظهر الجندى التعس الذى كان مقيدا من اليدين والقدمين لفظ الجندى أنفاسه ، وأسرعت امرأة ترتدى عباءة سوداء تتوسل إلى الجنود قائلة ان الضابط وعدها بان يسلمها الجثة لدفنها . وتوجهت سكارليت إلى بلدة تريم لإحضار طبيب لإعداد الجثة للدفن . كان الجندى الضحية يدعى دانيل كيلى وأرملته هاريتستيوارتوعندهما ابن فى الثامنة يدعى بيلى وقد ألقى القبض على دانيل كيلى عندما اعتدى على ضابط انجليزى فى إحدى الحانات وصدر عليه الحكم بمائة جلدة وأصرت سكارليت على الحاق هاريت ستيوارت بالعمل فى البيت الكبير كمربية لكات التى أصبحت صديقة لبيلى وتتبعه كظله

ومع نهاية شهر مايو انخفضت المياه فى نهر بوين حتى انها لم تعد تغطى الأحجار العتيقة التى وضعت هناك منذ قرون ليستخدمها الناس لعبور النهر وبدأ المزارعون يتطلعون فى قلق إلى السحب التى تدفعها الرياح الغربية فقد كانت الحقول تحتاج إلى المطر وتوجهت سكارليت لحضور حفل منزلى فى أوائل شهر يونيو وسرها لقاء عدد كبير من صحبة دبلن ، وكان الشخص الوحيد الذى لم تتحمس لرؤيته هو تشارلس ريجلاند « إذا كانت كتيبتك هى التى جلدت ذلك الرجل حتى الموت ياتشارلس فإننى لن انسى ولن أغفر أبداً ، وارتداء الملابس المدنية لايغير من حقيقة انك عسكرى انجليزى وان العسكريين وحوش » وصدمها ان تشارلس لم يكن يشعر بأن هناك شيئا يستحق ان يعتذر عنه « اننى اسف بحق ياسكارليت لأنك رأيت المشهد . الجلد عملية قذرة ، ولكننا نرى ما هو أسوا ويجب وقف هذه الأشياء الأسوأ »

ورفض ان يذكر امثلة لما هو « أسوأ » .. ولكن سكارليت سمعت من احاديث عامة عن حوادث عنف ضد كبار ملاك الاراضي تقع في كل انحاء ايرلندا .. وعن حقول جرى إحراقها بالمشاعل وابقار قطعت رقابها ، وكمين نصب لناظر مزرعة كبرى قرب جالواى وقتله وتمزيقه إرباً على ايدى مجهولين . وهمسات قلقة عن عودة « الغلمان البيض » للظهور ، وهم عبارة عن عصابات منظمة من محترفي السلب والنهب كانوا قد اثاروا فزع كبار ملاك الأراضى منذ اكثر من مائة سنة . وقال العقلاء : ان هذا غير معقول وأن الحوادث الاخيرة متفرقة ومتباعدة وإنها من تدبير مثيرى متاعب معروفين غير ان هؤلاء الذين يستقلون المركبات الفاخرة فقدوا الإحساس بالراحة وهم يلحظون نظرات الفلاحين من مستاجرى الأرض اثناء مرور مركباتهم .

• • •

كانت سكارليت تشعر بسعادة قصوى عندما تسمع من هاريت ستيوارت (كيلى) ما يقنعها بان طفلتها « كات » شبه عبقرية ، فهى ترى الآن أن ابنتها يمكن ان تفعل اى شيء قبل أن تصل إلى السن التى تؤهلها لذلك ، وافضل مما يفعله غيرها . ولذلك عندما اصيبت كات بحروق فى يدها اثناء محاولتها الإمساك بوعاء ساخن .. اصابها هلع شديد ولم تجد وسيلة سوى حملها إلى « جرينى » لكى تعالجها من هذه الحروق . وكثرت الأقاويل فى القرية حول وقوع الأوهارا تحت تاثير السحر .. وهناك من قال ان الساحرة والطفلة التى حلت محل الطفلة الاصلية تتحدثان بلغة لايعرفها البشر ! .. وان بقرة « آنى ماكجينتى » التى كانت تدر اكبر كمية من اللبن فى بلدة تريم قد جف ضرعها .. وان الطفلة المسحورة تمتطى ذئباً متنكراً فى شكل مهر اثناء النهار .. وان ظلها وقع على مخاضة اللبن فاستحال الحصول على زبد .. وان هؤلاء الذين يعرفون يؤكدون انها ترى فى الظلام وان عينيها تومضان بالنيران .. وقيل ايضا انه تم القاء التعاويذ على السحب حتى تبتعد دون ان تمطر .

وذات صباح وجدت مسز فيتز باتريك قطة « كات » مخنوقة على عتبة باب البيت الكبير وقد تم اخراج احشائها من جوفها . وجمعت اشلاء القطة داخل قطعة من القماش وذهبت إلى النهر والقت بها دون أن يلحظها احد . واسرعت روزالين فيتز باتريك إلى كولام لتحذره من ان دم الطفلة كات سوف يلوث يديه لكى يضع حداً لهذه الاقاويل . وكان كولام قد بدا يغرق نفسه فى الخمر « حدادا على موت آمال ايرلندا » .. فقد ظهر تيار قوى يهيمن على قيادة الثوار الايرلنديين يميل إلى المهادنة مع الانجليز ،

الأمر الذى أصابه بيأس قاتل . ومع ذلك فقد اذعن كولام لنصيحة مسز فيتز وقام بجولة وسط القرويين واقترح على سكارليت ان تقيم حفلا للترحيب بعودة ستيفن من ساقانا ولمعرفة أخبار أمريكا والتقت سكارليت فى الحفل بكاثلين التى انجبت ولداً وتنتظر طفلا آخر . وتبين لها ان كاثلين لم تفتقدها على الإطلاق طوال الفترة الماضية . وعلمت من ستيفن ان جدها روبيلار قد مات ، وان خالتيها بولين وأولالى قد ورثتا كل أملاكه ، وتقيمان الآن فى البيت الوردى .

قضى الجفاف على المزروعات . ولم تعد بوليهارا تنتظر الحصاد . ولكن سكارليت وعدت سكان بلدتها بأنهم لن يتعرضوا للجوع ، وتوجهت إلى « تريم » و « نافان » و « دورجيدا » لشراء مئونة الشتاء رغم ارتفاع الأسعار . وقوبل موقف سكارليت بالتحيه من القرويين ، أما فى الليل ، فقد كانوا يجلسون إلى جوار مواقدهم يتحدثون عن الساحرة والطفلة البديلة والبرج حيث أثارت الطفلة المسحورة شبح اللورد المشنوق فتحرك للانتقام .

واستمرت سكارليت فى قبول الدعوات للحفلات . ولكنها فى هذه المرة كانت تسعى وراء المعلومات عن الأحوال الجارية من ملاك الأراضى الآخرين .. فلم يحدث من قبل ان حل الجفاف فى ايرلندا طوال تاريخها .. ولم يعد هناك ركن فى البلاد إلا ويحتاج إلى المطر ، ولابد ان تحدث متاعب فى سبتمبر عندما يحين موعد سداد الإيجارات . فالفلاحون لن يكونوا قادرين على دفع ما عليهم من إيجارات . وما دامت لن تستطيع حملهم على الدفع ، فكيف تتوقع من المستأجرين فى البلدة أن يدفعوا إيجارات البيوت والدكاكين والحانات وحتى عيادة الطبيب .. التى تعتمد على ما ينفقه الفلاحون .

والتقت سكارليت فى حفل يوم ١٤ يوليو ـ عيد الباستيل ـ بتشارلس ريجلاند الذى قطع مسافة خمسين ميلا لكي يراها .. لقد دأب على مغازلتها بعبارات رقيقة .. بينما واصلت روزالين فيتز باتريك تضميد جراح كولام . كان يعذبه الإحساس بالفشل وبأن هناك من يغدر به فبعد عشرين سنة من العمل فى سبيل حرية ايرلندا وبعد نجاحه فى تأدية المهام المطلوبة منه .. وبعد ان أقام ترسانة الأسلحة فى الكنيسة البروتستانتية فى بوليهارا .. وجد كولام من يقول له ان ذلك كله لاقيمة له .. وان نشاط بارنيل السياسى ينطوى على قيمة أكبر . وكان كولام على استعداد دائم للموت فى سبيل بلاده ، فهو لا يتحمل ان يعيش دون ان يؤمن بأنه يخدم هذا البلد وكانت روزالين فيتز باتريك تشارك كولام عدم الثقة

فى بارنيل والاحباط الناشيء عن تجاهل الزعماء الفينيين لنشاط كولام ونشاطها ، ولكنها كانت تضع مشاعرها جانبا وتنفذ الأوامر . وربما كانت درجة التزامها بالقضية أكبر من كولام لأنها كانت تتشوق إلى الانتقام الشخصى أكثر مما تسعى إلى تحقيق العدل . ولذا فإنها لن تسمح لكولام بأن يدمر نفسه بفعل شكوكه وغضبه ، وتلح عليه لكى يخرج من صمته وسلبيته ولا يترك للآخرين من المتحمسين لبارنيل ان يحكموا وحدهم وبصورة خاطئة .. فالناس يناضلون من تلقاء أنفسهم ويدفعون ثمنا غالياً بسبب غياب القائد ، وهم لايريدون بارنيل وإنما يريدون كولام فى رأى روزالين .. وكولام هو الذى صنع الأدوات اللازمة لبناء جيش . فلماذا لايذهب الآن ويبنى هذا الجيش بدلا من ان يغرق نفسه فى الشراب

واستمع كولام إلى روزالين وبدأت عيناه تستعيدان ببطء نظرة معبرة عن الأمل

● ● ●

المصدر الوحيد الباقى للمال الذى يصل إلى أيدى سكارليت هو حصيلة أرباح بناء المنازل الصغيرة فى أطراف اتلانتا . ولم يعد هذا المال يصب فى الحركة الثورية التى ينتمى إليها كولام . غير ان هذا المال لايكفى نفقات البيت الكبير والقرية . ودبلن

وطرأت فكرة ارسال هاريت كيلى على ذهن سكارليت . ستكون زوجة مثالية لآشلى انهما متشابهان . يعيشان على قراءة الكتب ويائسان فى دنيا الواقع . وبدرجة ما ، فإن هاريت ساذجة ولكنها تقدس واجباتها وقد ظلت إلى جانب زوجها الجندى ، الذى لم يكن طيباً .. قرابة عشر سنوات ، ووجدت فى نفسها الشجاعة لكى تذهب إلى الضابط وهى ترتدى حذاء ممزقاً لكى تتوسل إليه أن يبقى على حياة زوجها . وأشلى يحتاج إلى شخص يرعاه من طراز هذه السيدة الفولاذية . والمشكلة الوحيدة هى ان « كات »ستفقد صديقها « بيلى » ابن هاريت . فقد حزنت طوال اسبوع عندما « هربت » قطتها .

وفى بداية سبتمبر .. ذهبت سكارليت وكات إلى ميناء كينجزتاون لتوديع هاريت وبيلى اللذين يسافران إلى أمريكا وهما يحملان رسائل من سكارليت إلى أشلى والعم هنرى هاميلتون لمساعدتهما على إيجاد مكان للإقامة ووظيفة مدرسة لهاريت .

وعقب العودة إلى بوليهارا . قامت سكارليت بمساعدة « كات » على تحويل البرج إلى صومعتها الخاصة التى لا يمكن زيارتها فيها إلا بدعوة وتولت كات تنظيف المكان من الأتربة ، وحملت سكارليت دلواً بعد دلو من

مياه النهر لتنظيف الجدران والأرضية . واستغرقت عملية التنظيف أسبوعا كاملا . واستعدت سكارليت بعدها لإقامة حفل عيد الحصاد كما لو كانت سنة عادية ، ولكن كولام نصحها بإلغائه لأنه لايوجد ما يدعو للاحتفال بسبب القحط ، وساعدها على توزيع أكياس الدقيق والسكر والملح والبطاطس والكرنب التى وصلت إلى بوليهارا فوق عربات كبيرة من كل التجار الذين استطاعت سكارليت ان تعثر لديهم على مواد تموينية . وحدثت سكارليت نفسها بمرارة : « لم اسمع منهم حتى كلمة شكر .. أنا ايضا ضحية للجفاف . الذى دمر مزروعاتى كما حدث معهم ، كما أننى أخسر كل ما كنت أحصل عليه من إيجارات .. ومع ذلك فقد اشتريت لهم كل هذا التموين » .. الأرض . أرض أوهارا ، تحولت ضدها ، وكذلك الناس .. سكان بوليهارا .. ووضعت كل طاقتها فى برج « كات » . فهى تقضى الآن ساعات فى تاثيثه وتزيينه وهى التى لم تكن تبالى بما يحدث فى بيتها وكانت الكلمة الأخيرة .. هى كلمة « كات » بشأن قطع الأثاث والأغطية والسجاجيد فهى مصممة على ان تخلق عالما يرضيها حتى لو لم يعد « بيلى » جزءاً منه . لقد أصبحت « كات » فى الرابعة من عمرها الآن

● ● ●

مثل كل سكان ايرلندا .. قرأت سكارليت الصحف فى هذا الخريف وهى تشعر بانزعاج يتحول إلى غضب . سبب الانزعاج هو زيادة عمليات إجلاء وطرد الفلاحين من بيوتهم ، وهى تتفهم جهود المزارعين لمقاومة هذه الاجراءات . فلم يكن الخطأ هوخطأ المزارع اذا كان الجفاف قد تسبب فى ضياع المحصول . أما ملاك الأراضى فإن موقفهم يختلف عن سكارليت وهم يقولون وهم يستنكرون مقاومة المزارعين : « اللعنة ، ماذا ينتظرون إذا لم يدفعوا الإيجارات.. ؟ هل ينتظرون ان يستمروا فى بيوتهم انهم يعرفون العواقب . وليس هناك جديد . وما يجرى الآن هو تمرد دموى ... » .

غير ان موقف سكارليت لم يكن يختلف عن موقف جيرانها من ملاك الأراضى عندما ظهر نشاط « الغلمان البيض » الذين اصبحوا أكثر تنظيما وأشد قسوة وليلة بعد ليلة تقع حوادث حرق مخازن الحبوب وحظائر الماشية وذبح الأغنام والدواب والخنازير وقطع سيقان الحمير وخيول المحراث وتحطيم نوافذ المتاجر والقاء مشاعل النار فى داخلها ، ومع اقتراب الشتاء وقعت هجمات على العسكريين .. من الجنود الانجليز والشرطة الايرلندية وعلى النبلاء وهم داخل مركباتهم أو فوق جيادهم .

وأصبحت سكارليت تشعر بقلق مستمر على « كات » . فالطفلة مشغولة دائما بمشروع معين أو لعبة ما تخترعها لنفسها . وهي لا تخاف ، تفكر وتتصرف باستقلالية تامة .. تتجول في الاسطبلات والمخازن والحديقة ومزرعة منتجات الألبان .. والغابات والحقول مثل مخلوق برى .. ويصعب تحديد مكان « كات » ، فهي قد تكون في أى مكان ، ولكنها تأتى دائما إلى البيت في مواعيد الطعام والاستحمام . ولم تستطع سكارليت ان تعرف الكيفية التى تعرف بها الطفلة هذه المواعيد .. خاصة انها لم تتأخر عنها قط ..

● ● ●

اشترت سكارليت من بارت مورلاند فرساً ممتازة اسمها « كوميت » « المذنب » تفوق الهلال في روعة قفزاته .. وفي إحدى الحفلات ، أمضت لحظة حميمة مع تشارلس ريجلاند ثم غادرها عندما تذكرت « ريت » وترك تشارلس رسالة يقول فيها : انه توجه ليلتحق بكتيبته وانه سيحبها إلى الأبد .

وقررت سكارليت المشاركة في أهم رحلات الصيد في الموسم ، فقد برعت الآن في هذا المجال . وخلال الرحلة . شاهدت رجلا ذا وجه يشبه الصقر فوق حصان أسود يقفز أمامها . كان يتخذ سيماء الرجل الذى لايعرف الخوف .. ولكنه متغطرس . والتف حوله المدعوون وكلهم يتحدثون بينما يتحدث هو نفسه قليلا . كان طويل القامة . وجهه كالنسر في ملامحه .. اسود العينين والشعر . وسألت سكارليت عن اسم هذا الرجل . وقالت لها إحدى المدعوات : « انه فوق مستوى الكلمات . كل شخص يقول انه أكثر الأشخاص خطورة وميلا إلى الشر في بريطانيا . واسمه فنتون » . « فنتون ماذا ؟ » ـ : « لوك فنتون فقط . انه الايرل فنتون » .

واتخذ فنتون الخطوة الأولى في التحدث والتودد إليها . وعلمت انه صاحب الأملاك الشاسعة على الناحية الأخرى من نهر بوين .. هناك في أدمز تاون . ويعمل بعض أبناء عمومتها في أرضه كمستأجرين . أما الإيرل فإنه لايعرف أسماء مستأجرى أرضه كما انه لم يحرص على أن يقدم نفسه مفترضاً انه غني عن التعريف !

تلقت سكارليت خطابا من هاريت كيلى . ووجدت ما كانت تبحث عنه في الخطاب : لقد طلب أشلى يد هاريت . هذا ما كانت تريده . اليس كذلك ؟ إذن ، فمن السخف ان تشعر بلسعة الغيرة . متى موعد الزفاف حتى تبعث

بهديتها الفاخرة ؟ أما أنديا ويلكس التى كانت تعتبر نفسها « التجسيد الحى لقضية الجنوب الأمريكى النبيلة » . فقد أصبح لها حبيب من اليانكى ، وسوف تتزوجه وستنسى انه كانت هناك حرب بين الجنوب والشمال .

● ● ●

فاجاها فنتون بالزيارة فى البيت الكبير ودعا نفسه لتناول القهوة . وكثرت زياراته . وبدأ يتسابق مع سكارليت بفرسيهما على الطريق بين بوليهارا وتريم . وتأكدت سكارليت ان الرجل الذى لم يحضر إلى أدمز تاون على الإطلاق . قد حضر ليراها وليس لإقامة حفلات الصيد واستقبال الضيوف .

عيناه الساحرتان وشعره الأسود وملابسه الأنيقة تذكرها بـ « ريت » ، غير أن هناك شيئاً ما يختلف عن ريت ولاتستطيع تحديده ورفضت سكارليت أكثر من مرة دعوات إيرل فنتون لتناول العشاء فى أدمز تاون .

● ● ●

توجه كولام إلى حانة كنيدى فى بوليهارا . قال « الآن .. كفوا عن هذا الكلام الأحمق الفظ . انتم جميعا ما الذى كان فى استطاعة المرأة المسكينة ان تفعله أكثر من ذلك ؟ اننى أسالكم ، الم تتنازل عن تفاضى الإيجارات منكم ؟ ألم توزع عليكم الطعام لفصل الشتاء ؟ ألا تحتفظ فى المخازن بالمزيد من الحبوب ودقيق الذرة حتى تلبى طلباتكم إذا نفد ماالديكم ؟ إننى أشعر بالخجل وأنا أرى رجالا ناضجين مثلكم يلوكون بالسنتهم سيرة طفلة .. ويخترعون الشكاوى كمبرر لتناول المزيد من الشراب فمن حق الشخص ان يسمم معدته ويشوش رأسه .. ولكن ليس من حقه ان يلقى بمسئولية ضعفه على الأوهارا .» وارتفعت صيحات الغضب من أركان الحانة « لقد انضمت إلى كبار ملاك الأراضى » ... وتمرح مع اللوردات والسيدات طوال الصيف . »

.. « لا يكاد يمضى يوم حتى تنهب الأرض فى سباق مع الشيطان الأسود مالك أدمز تاون .. » . وصاح كولام بدوره فى وجوههم « أى نوع من الرجال هذا الذى ينهمك فى القيل والقال مثل جماعة من النسوة حول ملابس وحفلات وغراميات امرأة أخرى ؟ » .. وهدأ سخط الرجال . وارتفعت الأغانى الجماعية فى الحانة إعلانا عن المصالحة

ووجهت مسز فيتز تحذيرا إلى سكارليت من أن سكان البلدة يشعرون بضيق من سلوكها قالت مدبرة المنزل بصراحة « الأوهارا تفقد

احترامهم لها حياتك الاجتماعية مع الانجليز هناك مختلفه ، بعيدة عنهم أما هذا اللهو الصاخب مع ايرل فنتون فإنه يضايقهم ، كما يعنى انك تقفين إلى جانب العدو » وثارت سكارليت فى وجه مسز فيتز ، وقالت . ان حياتها لاتعنى أحداً سواها

هل تحبه ؟ ليست لديها إجابة مقنعة بعد ان طرحت عليها مسز فيتز هذا السؤال . انه رجل مشهور ، ويمتلك إحدى أكبر الثروات فى بريطانيا له أملاك فى انجلترا وسكوتلندا علاوة على ممتلكاته فى ايرلندا ، وهو وثيق الصلة بأمير ويلز ، ويقيم فى قصره فى لندن حفلات سكر وتهتك وتسليه ولهو ، وهو الهدف المفضل لوسطاء الزيجات على مدى عشرين سنة منذ ورث اللقب والثروة مع بلوغه سن الثامنة عشرة ، ولكنه افلت من الوقوع فى « الأسر » وخيب آمال حسناوات طامحات يمتلكن ثروات كبيرة ايضا وثمة قصص يتهامس بها المجتمع عن كسيرات قلوب وفتيات خسرن سمعتهن .. بل وحوادث انتحار ، والتقى به اكثر من زوج فى ساحة المبارزة انه رجل لا أخلاقى وقاس وخطر والبعض يقول انه شرير وغامض . ولذلك قد يكون فى نظر البعض الاخر اكثر الرجال سحرا وجاذبية فى العالم !

وتخيلت سكارليت جو الإثارة الذى سيصنعه نجاح ارمله ايرلندية ـ أمريكيه فى الثلاثينات من عمرها ـ فيما فشلت فيه كل الفاتنات الانجليزيات من ذوات الألقاب وفى الحال اختفت الابتسامه التى كادت ترتسم على شفتيها وقالت لنفسها فنتون لم يظهر اى علامة تشير إلى انه رجل وقع فى الحب انه ينوى ان يمتلكها لا ان يتزوجها

وضاقت عيناها انني لن ادعه يضيف اسمي إلى القائمه الطويله لغزواته وانتصاراته

● ● ●

مشـــــروع عقـــــد

قال لوك فنتون « إلى متى سترفضين دعواتى للعشاء » ؟ وردت سكارليت قائلة . « لماذا لاترتدى جلد الحيوانات وتجرنى جراً من شعرى إلى بيتك » ؟ كانت تعرف انه سيفقد اهتمامه بها فى اللحظة التى يتمكن فيها من امتلاكها . ولم تكن سكارليت تريد ان تفقده ، بل انها قد تحبه . وقد تعرف علي « كات » . وكانت سكارليت مقتنعة بأن فنتون هو آخر رجل على الأرض يمكن أن يحب الأطفال ، غير ان « كات » سحرته . وقد تعامل معها بالطريقة الصحيحة .. لأنه عاملها بجدية . فقد كان صبر الطفلة ينفد مع الأشخاص الذين يعاملونها كطفلة صغيرة . وسيطرت انفعالات مفاجئة على سكارليت . كان ينبغى أن يكون «ريت » هو الرجل الذى يتمتع بسحر ابنته الآن ويشاركها طعام الإفطار ويسير إلى جانبها . لو كنت قد اخبرته بشأن كات قبل ان يكون الوقت قد فات لو كنت قد بقيت فى شارلستون .. لو .. ولكن ما مضى قد مضى ، وعليها ان تفكر فى المستقبل .

قالت سكارليت : « انتبه يالوك . سوف اشعر بالغيرة . انت تتصرف كما لوكنت قد وقعت فى غرام ابنتى » . رفع فنتون حاجبيه . وقال . « الحب هو صناعة أصحاب الدكاكين وموضوع الروايات الرخيصة » .. وغادر فنتون البيت الكبير بعد ان شرب القهوة .. واقتنعت سكارليت بان الرجل « المنيع » يخاف من كلمة « الحب » وانه يعانى من « اعراض » وقوعه فى الحب رغم إرادته .

● ● ●

صخب كبير فى ليلة رأس سنة ١٨٨٠ . كولام يسير فى الشارع يقرع الطبلة ويتبعه اثنان يعزفان الكمان .. وروزالين فيتز باتريك تضرب على آلة موسيقية أيرلندية . وأيقظت سكارليت « كات » من نومها لتعيشا معاً أول لحظات عام ١٨٨٠ وسط الموسيقى والحب ورفضت سكارليت ان تصحب كولام إلى حانة كنيدى بعد ان لاحظت انه أكثر من الشراب ، وعادت إلى البيت ، وهناك وجدت إيرل فنتون فى انتظارها بعد عودته من رحلة قصيرة إلى لندن . والتفتت سكارليت ورأت « كات » إلى جانبه تحاول ان تثبت فوق رأسها تاجاً مرصعاً بالجواهر . وقال فنتون « كات ترتدى شارة اللقب الخاصة بك ياكونتيسة . لقد جئت لترتيب الزواج » . وطلب فنتون من كات أن تذهب إلى غرفتها لانه يريد التحدث إلى امها . والتفت إلى سكارليت ودعاها إلى التوجه إلى المكتبة للتمتع بنيران المدفأة وبزجاجة شمبانيا لتناول نخب ابرام « الصفقة » . وعندما جلسا

فى المكتبة سألته سكارليت « لماذا ذكرت كلمة صفقة » ؟ لماذا لم يقل إنه يحبها ويريدها زوجة له وشرح لها فنتون وجهة نظره ، فهو يرى أن الزواج هو مجرد صفقة وان المحامين من الطرفين يجب ان يلتقيا لصياغة العقود .

وضعت سكارليت كأسها على المائدة ، وغاصت فى مقعدها ببطء . ثمة شيء ما ..خطأ .. وخطأ مروع لايوجد دفء فى وجهه أو كلماته . بل أنه لاينظر إليها . قال : « هذه طبعا شكليات . أنت تعرفين بالتأكيد ما هو المنتظر منك . أنت لست فتاة بريئة » . وقالت سكارليت بتمهل : « أريد من فضلك ان أعرف ما هو منتظر منى » . هز كتفيه كما لو كان قد نفد صبره ، وقال : انها ستجده كريما فهو من أغنى الناس فى انجلترا ولابد انها تعرف ذلك . ويمكنها ان تحتفظ بأموالها ، وسيتولى هو توفير كل ما تحتاجه من ملابس ومركبات ومجوهرات وخدم .. وتستطيع ان تحتفظ بـ بوليهارا طوال حياتها . وبعد موتها .. سوف يرث ابنهما بوليهارا ، كما ان هذا الابن سوف يرث أدمز تاون بعد موته هو

ولقد كان ضم الأراضى المتجاورة من الأسباب الرئيسية للزواج دائما . أما البند الرئيسى فى الصفقة فهو ان تنجب سكارليت وريثا لإيرل فنتون .. فهو « آخر العنقود » فى أسرته ، وواجبه يحتم عليه ان يستكمل الشجرة . وما أن يحصل منها على ابن وريث حتى تصبح حياتها ملكا لها مع الاهتمام المألوف بالحرص على المظاهر الخارجية . ويرغب فنتون فى ان يكون ولده مثل « كات » يتمتع بصحة قوية ومن النوع الذى لايهاب شيئاً . فقد اصبح نسل فنتون هزيلا نتيجة الزواج من الاقارب ، وهو يريد تطعيم هذا النسل ومعالجته بحيوية الفلاحين التى تسرى فى عروق سكارليت . كما انه يلاحظ أن مستأجرى أرضه من عائلة أوهارا يعيشون طويلا .. ومعمرون . إنه يريد وريثا يفخر به . ولا تلوث سكارليت سمعة هذا الوريث او والده فى المجتمع .

كانت سكارليت تحدق فى فنتون كما لو كانت حيوانا تسمر عندما فوجيء أمامه بثعبان . ورفعت كأسها والقت به فى النار . واشعل الكحول السنة اللهب . وقالت : « هذا هو نخب ابرام صفقتك يا لورد فنتون . اخرج من بيتى »

وقال اللورد انه يشعر بخيبة امل فيها .. وكان يظنها اكثر ذكاء . فهو سيوفر لها مركزا فى العالم لنفسها ولابنتها التى ستحصل على الأحسن من كل شيء . وعند الزواج ، فإن كل ما ستفعله هو ان تختار من تشاء وقالت

سكارليت : ان كات ليست فى حاجة إلى الألقاب الثمينة ولا إلى « الأحسن من كل شيء » وكذلك ، هى نفسها . فقد عاشتا .. عيشة طيبة للغاية بدونه وسوف تستمران فى طريقهما .. هى وابنتها . ولكن فنتون يؤكد لها انه واحد من رجال قلائل يملكون القدرة على إزالة الوصمة عن طفلة غير شرعية .. ويقول : « كلا .. ادخرى احتجاجاتك .. ولا تهمنى القصة التى ستلفقينها .. فما كان من الممكن ان تكونى فى هذا الركن الذى نبذه الله من ايرلندا إذا كنت أنت وطفلتك موضع ترحيب فى أمريكا .. أكتبى لى إذا عدت إلى صوابك ياسكارليت . فانت ستوافقين على صفقتى . اننى أحصل دائما على ما أريد » .

واتجه فنتون نحو الباب . وقالت سكارليت : « انك لا تستطيع ان تجبر كل شيء فى الدنيا على ان ينفذ ما تريد يافنتون ، هل خطر ببالك ان انثى الخيل المخصصة للانجاب التى ستتزوجها قد تلد بنتاً وليس ولداً » .

واستدار فنتون ليقول : « انت امرأة قوية تتمتع بالصحة ، سوف أحصل فى النهاية على ولد .. وحتى إذا لم تلدى سوى بنات ، فسوف ارتب زواج أحداهن من رجل يرغب فى التخلى عن اسمه والحصول على اسمها .. وعلى ذلك سيظل دمى يرث اللقب ويستمر النسل ... »

وبنفس البرود الذى يتحدث به .. القت سكارليت بسؤالها التالى : « انت تفكر فى كل شيء . أليس كذلك ؟ لماذا لاتفترض اننى عاقر أو انك غير قادر على الانجاب » ؟ وابتسم فنتون : « رجولتى يبرهن عليها ابناء السفاح المبعثرين فى كل مدن أوروبا ، ولذلك فإن محاولتك إهانتى .. قد اخطات طريقها . أما عنك .. فانت لست عاقرا .. والدليل هو .. كات » .

وغادر فنتون المكان .. والقت سكارليت نفسها على السجادة فى غرفة المكتبة بعد أن اغلقت أبوابها .. لكى تبكى . كيف تصورت انها يمكن أن تتعلم ان تحب رجلا لا يعرف الحب ولا يوجد حب فى قلبه ؟ وماذا ستفعل الآن ؟ وصاحت من خلال دموعها : « ريت .. نحن نحتاج إليك بشدة »

• • •

دعت سكارليت ابنتها كات للنزهة سيرا على الأقدام . ولكن كات قالت انها تود زيارة جرينى .

سوف يسر « كات » ان تذهب الى البرج . ان ذلك يمنحها شعوراً بالصفاء . وجذبت سكارليت السلم المصنوع من الحبال إلى الباب العالى للبرج لاختباره . كان قد حال لونه وتلطخ بالبقع رغم انه متين بالدرجة الكافية . ورات أنه من الافضل صنع سلم جديد من الحبال . لم تتغير ملامح المرأة الحكيمة وقالت كات : « سأملأ الأبريق من مياه الينبوع » .

كانت عينا جريني تتابعانها بمحبة . وقالت « دارا تزورني من وقت لآخر بدافع من طيبتها ، إنها روح وحيدة . لم يطاوعني قلبي لإبعادها ، فهي ترى الصواب . الوحيد يعرف الوحيد . » وقالت سكارليت غاضبة :

— « انها تحب ان تكون وحدها . وهي ليست مضطرة إلى ذلك ، وقد سألتها مراراً إذا كانت تحب ان يكون معها أطفال يشاركونها اللعبة . وكانت ترفض دائما » وقالت جريني « إنها طفلة حكيمة ، فهم يحاولون ضربها بالحجارة ، ولكن دارا أسرع منهم » . ولم تصدق سكارليت ما تسمعه . وطلبت من جريني أن تكرر ما قالته .. فعرفت منها ان أطفال البلدة يطاردون دارا في الغابة كأنها وحش ، وهي تسمعهم قبل ان يصلوا إليها بوقت طويل ، وأكبرهم فقط هم الذين يقتربون لمسافة تكفي لإلقاء الأحجار التي يحملونها . وتعرف دارا كيف تهرب حتى من هؤلاء ، وهم لايتجاسرون على ملاحقتها حتى برجها ، فهم يخافون من البرج لأنه مسكون بشبح اللورد الشاب المشنوق .

كانت سكارليت تسمع في ذهول .. فجوهرتها الثمينة « كات » تتعذب على أيدي أطفال بوليهارا ! سوف تجلد كل واحد منهم بيديها وستطرد آباءهم من الأرض والبيت وتحطم كل قطعة أثاث لديهم . ونهضت من مقعدها . وقالت جريني « سوف تضعين حطام بوليهارا على كاهل الطفلة .. أجلسي يا امرأة .. انهم يخشون أي شخص يكون مختلفا عنهم . وما يخافونه يحاولون إبعاده » . جلست سكارليت مرة أخرى . كانت تعلم ان المرأة الحكيمة على حق . لقد دفعت هي نفسها ثمن أن تكون مختلفة عن الآخرين .. وبكت

— « لا أستطيع أن أقف جامدة . هذا لايحتمل ، لابد ان أوقفهم » .

— « لايمكن وقف الجهل . لقد وجدت دارا طريقها ، والأحجار لا تجرح روحها ، وهي آمنة في غرفتها في البرج »

وقالت سكارليت في رجاء : « اخبريني ماذا أفعل ؟ »

— « يجب أن تفعلي ما هو مقدر لك ان تفعليه الله يحمي دارا » . كانت قد هدأت وهي تغادر المكان . وقبل ان تسافر إلى دبلن أصدرت أوامرها بصنع سلم من حبل جديد أقوى

حطام رجـــل

ذهبت سكارليت إلى بانشيستاون لمشاهدة سباق الخيل هذا العام . والتقت مع بارت مورلاند . كان فى قمة السعادة . انه يحب الخيول على نحو غير عادى . وظل يتحدث مع سكارليت طويلا حول اكتشافه الجديد « الفرس ديجون » الذى سيفوز ويصبح بطلا . ثم حدثها عن اضراب المستأجرين الذى دعت إليه « رابطة الأرض »

وكان كولام قد شرح لها نشاط هذه الرابطة من قبل .. وقال انه عندما يحل موعد تسديد الايجارات فى الربيع .. يتقدم مزارع واحد من كل مزرعة ويدفع الإيجار، ويرفض جميع الباقين الدفع ، فإذا طردهم المالك ، يتوجهون جميعا للإقامة فى الكوخ الوحيد الذى تم تسديد إيجاره وإذا حاول المالك أن يؤجر لآخرين فإن المزارعين المطرودين سيرغمون هؤلاء الذين يفكرون فى قبول عرض المالك .. على رفض العرض وبدون مزارعين سيفقد المالك الإيجارات وكذلك سيخسر المحاصيل لأنه لا أحد يتولى العناية بها .

وقال جون مورلاند : ان المستأجرين تركوه بلا نقود تكفى حتى لشراء الشوفان . وارتاعت سكارليت . لم تكن تتصور ان « رابطة الأرض » سوف تكون اداة ضد رجل مثل بارت مورلاند الذى انحصر تفكيره الآن فى الفوز فى السباق ثم فى السباق الكبير التالى فى جالواى . وعندما سألته سكارليت عما ينوى أن يفعله بصدد الإضراب عن دفع الإيجارات . قال انه ليس له دخل آخر سوى هذه الإيجارات ، وانه لم يسبق له فى حياته ان طرد أحداً من بيته ولكنه قد يضطر إلى ذلك الآن .

ثم قال مورلاند « سكارليت نسيت ان اخبرك ، لقد تلقيت انباء طيبة جدا من صديقنا الأمريكى ريت باتلر » . وقفز قلب سكارليت : « هل سيأتى ؟ » وأجاب مورلاند : « كلا ، لقد كنت انتظره ، وكتبت له عن ديجون ، ولكنه كتب لى ليقول انه لن يحضر . فهو سيصبح أبا فى يونيو ، وقد اتخذا احتياطات اضافية وقائية هذه المرة .. ولزمت الزوجة الفراش لعدة أشهر حتى يزول الخطر ولا يتكرر ما حدث فى المرة السابقة . ولكن كل شيء ممتاز الآن .. ولم أر فى حياتى رجلا يحرص على ان يكون أبا فخوراً مثل ريت »

واستندت سكارليت على أحد المقاعد .

لقد ولت نهائيا أحلام اليقظة والآمال الخفية .

وأثناء السباق . كان تفكيرها يتجه فى ناحية أخرى الخيارات التى تواجهها .. الإيجابيات والسلبيات فى حياتها . المؤكد ان زواجها من لوك فنتون سيكون أمراً شائناً إلى اقصى حد . فالرجل يريد طفلا . وهى

لا تستطيع ان تمنحه هذا الطفل ..

وفاز ديجون .. والتف الجميع حول جون مورلاند . والتفتت سكارليت إلى لوك فنتون الذى كان يقف بجوارها : « قل لمحاميك ان يتوجه لمقابلة محاميّ بشأن العقود . انني أختار أواخر سبتمبر موعداً للزفاف .. بعد الحصاد » ..

● ● ●

قالت سكارليت : « كولام ، سوف اتزوج ايرل فنتون » . وظن فى البداية انها تلقى دعابة . ولكن ضحكته توقفت كما لو كانت قد قطعت بحد الموسى عندما تبين انها جادة فيما تقول ، وحملق فى وجهها الشاحب الذى تبدو عليه ملامح التصميم . « لن أسمح بذلك . الرجل شيطان وانجليزى » . ويحمر وجه سكارليت : « لن .. تسمح .. ؟ .. لن .. تسمح... من تظن نفسك يا كولام .. اله ؟ » واقتربت منه ، والشرر يتطاير من عينيها : « اسمعنى يا كولام أوهارا ، واسمعنى جيدا . لا أنت ولا أى شخص آخر على وجه الأرض يستطيع ان يحدثنى بهذه الطريقة . لن أقبل ذلك » .

مواجهة صاعقة تحجرت خلالها القلوب للحظات تبدو بلا نهاية .. والعيون تتبادل النظرات الغاضبة . وأمال كولام رأسه جانبا وابتسم . « سكارليت حبيبتى . انه المزاج الحاد لعائلة أوهارا يكمن فينا .. نستخدم كلمات لانقصدها .. أرجوك ان تسامحينى » . وقالت سكارليت انها لاتصدقه وانها جاءت لتتحدث إليه كصديق ولم تجد الصديق وربما لم يوجد فى يوم من الأيام . ومع ذلك فإن الأمر لايهمها . لقد حزمت أمرها وستتزوج فنتون وتنتقل إلى لندن فى سبتمبر .

وارتفع صوت كولام : « انت عار على أهلك ياسكارليت أوهارا » . وقالت سكارليت وقد بدا انها ضجرت من كل شىء : « هذا كذب قل ذلك لدانيل المدفون فى أرض أوهارا التى فقدت لمئات السنين ، أو للفينيين العظام من رجالك الذين ظلوا يستخدموننى طول الوقت لاتقلق يا كولام ، لن اتخلى عنكم . فسوف تبقى بوليهارا كما هى عليه ، بالفندق للرجال المطاردين والحانات لكم جميعا لكى تتحدثوا فيها ضد الانجليز ، وسأجعلك وكيل المزرعة الذى ينوب عنى فى كل شىء ، وستتولى مسز فيتز إدارة البيت الكبير كما هو الحال الآن . هذا فى الحقيقة هو كل ما يهمك .. وتحرص عليه .. ولست أنا » .

وانطلقت صرخة من شفتى كولام : « لا .. ياسكارليت ، أنت مخطئة تماما . انت كبريائى وبهجتى . وكانتى كولام تحمل قلبى بين يديها

الصغيرتين . المسألة فقط ان ايرلندا هى روحى ويجب ان تأتى أولا »
ومد يديه نحوها فى استرحام « قولى انك تصدقيننى ، لأننى أقول لك الحقيقة الكاملة » .

وخلال الأيام التالية .. لم يقل كولام شيئا ، ولكن الغضب والاهتمام كانا فى عينيه . كذلك كانت مسز فيتز . ماذا يعرفان عن احزانها ومخاوفها . وبدأت سكارليت تعتقد انها ترى نظرات الاعتراض فى كل مكان ، حتى فى وجوه أصحاب المتاجر فى بوليهارا وقالت لنفسها لا تكونى حمقاء ، انت تتخيلين هذه الأشياء لأنك لست متأكدة مما سوف تفعلينه

جاء رسول من فنتون يحمل صندوقا يحتوى على عقد وسوارين وقرط من الذهب الخالص لكى يكون ثوب الزفاف متلائما مع هذه المجوهرات وقالت مسز سيمز ان الثوب يحتاج إلى وقت وستكون خمسة شهور مدة قصيرة ، ولكنها سوف تستعين بمساعدتين إضافيتين وكل شىء يتوقف على ان تتولى راهبات دير جالواى إعداد الشريط المزركش للثوب . وبعدها سوف يتحدث الناس عن هذا الثوب لسنوات أخرى قادمة .

كانت سكارليت تشعر بالبهجة من العمل فى الحقول لقد اطمانت إلى أن محصول هذاالعام سيكون رائعا الى ان تلقت برقية مكتوبة بلهجة عصبية من مسز سيمز تقول فيها ان الشريط المزركش لم يصل إليها من دير جالواى كما انها لم تتلق ردا على رسائلها وبرقياتها .

ابتسمت سكارليت وهى تتجه بمركبتها إلى محطة قطار تريم .. فإن لديها خبرة فى العراك مع رئيسات الاديرة ، وهى مسرورة لأن لديها مبرراً واضحاً للقتال الآن .

فى القطار ، فوجئت سكارليت بان صحيفة « ايريش تايمز » نشرت على صفحتها الأولى أنباء زواجها المرتقب ، وأضافت تعليقات كثيرة إلى البيان الرسمى : « الأوهارا من بوليهارا .. زينة جميلة للدوائر التى تقع فى مركز القلب داخل مجتمع نائب الملك ، وهى فارسة جريئة شديدة التأنق » .

وصل القطار إلى جالواى ، وتوجهت سكارليت إلى الفندق ، ولم تستطع الحصول على غرفة إلا بعد ان كشفت عن شخصيتها للمدير الذى قرأ خبر صحيفة « ايريش تايمز » . فالزحام شديد بسبب مهرجان سباق الخيل وفى الحقيقة ان سكارليت لم تكن فى حاجة إلى جناحها فى الفندق ، فهى تأمل أن تعود إلى دبلن فى قطار بعد الظهر لكى تأخذ من هناك القطار المتجه إلى تريم وهى تريد ان تعرف ما إذا كانت الراهبات سيتأثرن باسم ايرل فنتون كما حدث مع مدير الفندق . وخرجت من باب

الفندق إلى الميدان وواجهت زحاما شديدا واصطدمت بجون مورلاند كان يبدو كما لو كان مريضا للغاية اختفى اللون من وجهه كما تلاشى الضوء من عينيه الدافئتين « بارت ياعزيزى . هل انت بخير ؟ » وبذل جهدا حقيقيا لكى يحدد المكان الذى ينبعث منه صوتها حتى ينظر إليها في هذه الساعة من النهار ؟ ليس جون مورلاند من النوع الذى يتشرب كثيرا في اى وقت وليس قبل الغداء بكل تأكيد وأمسكت به بقوة من ذراعه وقادته إلى مطعم الفندق وهي تقول « ستشرب معى القهوة ثم تتناول بعض الطعام » كانت خطواته غير ثابتة وبعد ان تناول كمية كبيرة من القهوة انهار الرجل وانفجر باكيا وهو يروى لها ماحدث له

« لقد احرقوا اسطبلاتي ياسكارليت كنت قد اخذت ديجون معى لسباق بالمريدان انه ليس سباقا كبيرا . ولكننى رايت ان الفرس تحب ان تجرى على الرمال وعندما عدنا إلى البيت كانت الاسطبلات قد اصبحت مجرد ركام اسود يا الهى . الرائحة ! يا إلهى إننى اسمع الخيول تصرخ في احلامى . وفي راسى عندما لا انام » . شعور بالغثيان لدى سكارليت جعلها تضع فنجان القهوة على المائدة هذا لا يمكن ان يحدث . لا احد يمكن ان يرتكب هذا العمل المروع . لابد أنه مجرد حادث قال مورلاند « انهم المستأجرون عندى ، بسبب الايجارات . كيف يكرهوننى إلى هذا الحد ؟ حاولت ان أكون مالكا طيبا . دائما كنت احاول . لماذا لم يحرقوا منزلى ؟ لماذا لم يحرقونى أنا والمنزل . لايهمنى . .. لايهمنى أى شيء إذا كانوا قد تركوا الخيول ماذا فعلت خيولى المسكينة المحروقة لهم » ؟

لم يكن هناك ما تستطيع ان تقوله . كان قلب بارت كله في اسطبلاته ولكن .. لحظه . لقد كان بعيدا مع ديجون .. مفخرته وفرحته .. قالت « معك ديجون يا بارت ، تستطيع ان تبدأ من جديد ، انها فرس مدهشة ، أجمل فرس رأيتها ويمكنك ان تستخدم اسطبلات بوليهارا . لقد اعجبتك . هيا لاتستسلم » .

عينا جون مورلاند أشبه بالجذوة الخامدة « سأذهب الليلة إلى انجلترا في زورق الساعة الثامنة لا أريد أن أرى وجهاً ايرلنديا أو أسمع صوتا ايرلنديا بعد الآن . وقد وضعت ديجون في مكان آمن بينما عرضت كل ممتلكاتي للبيع .. وعندما ينتهي السباق بعد الظهر ستكون ديجون قد بيعت وستكون أيرلندا قد انتهت بالنسبة لي » ..

عيناه ثابتتان وجافتان الآن وتمنت سكارليت لو يبكي حتى يشعر بشيء على الأقل لأنه يبدو في هذه اللحظة كما لو كان قد فقد القدرة على ان يشعر بأى شيء بعد الآن بدا رجلا ميتا .

بارت أكثر اهمية من الجرى وراء شريط مزركش . وها هو ذا قد استعاد رباطة جاشه وعاد إلى الحياة بعد أن استجمع إرادته . وطلب منها ان تغفر له ثم دعاها للذهاب إلى حلبة السباق ، وهو يقول انه سيراهن بورقة من فئة الخمسة جنيهات على ديجون من أجلها . وقالت له إنها ستراهن بنفس المبلغ وسيحتفلان معاً بالفوز .

نظام السباق الذى يشترك فيه بارت فى هذه اللحظة والذى اختاره لبيع ديجون .. يقضى بأن كل الخيول المشتركة فى السباق معروضة للبيع بالأسعار التى حددها اصحابها . وفى نهاية السباق يستطيع اى شخص أن يطلب حق شراء اى من الخيول ، والمالك مرغم على البيع بالسعر الذى حدده من البداية وبلا مساومات . ولم تتصور سكارليت ان الخيول يمكن أن تكون قد بيعت قبل ان يبدأ السباق بصرف النظر عن القواعد الموضوعة . واستاذنت سكارليت من بارت قبل الوصول إلى الحلبة لبضع دقائق . وذهبت إلى مكتب حلبة السباق وهى تأمل ان يكون بارت قد حدد سعراً مرتفعا لديجون ، فقد قررت ان تشتريه لكى ترسله إليه فيما بعد عندما يستقر فى انجلترا .

— « ماذا تعنى بأن ديجون قد بيع بالفعل المفروض الا يحدث هذا إلا بعد انتهاء السباق » .

— « لست الوحيدة التى تتميز ببعد النظر ياسيدتى . فالسيد الذى حجزه لنفسه امريكى ايضا » .

— « سوف اضاعف السعر » .

— « هذا غير ممكن أيتها السيدة أوهارا » .

— « لنفترض اننى اشتريت ديجون من صاحبه قبل أن يبدأ السباق » .

— « مستحيل » .

وشعرت سكارليت باليأس . لابد ان تحصل على هذا الحصان من أجل بارت .

المخرج الوحيد هو ان تسعى سكارليت لشراء الحصان من هذا الأمريكى وستدفع له اى مبلغ يطلبه وما على الموظف سوى ان يشير باصبعه إلى ذلك الرجل . والقى الموظف نظرة على أوراق امامه وقال :

— « سوف تجدينه فى فندق چورى . لقد سجل عنوانه على هذا الفندق . والرجل اسمه باتلر » .

كانت سكارليت قد بدأت تستدير لكى تنصرف . وكان صوتها غريبا

عندما تكلمت : « هل هناك أى احتمال ان يكون هذا الرجل هو مستر ريت باتلر » ؟ .. كما لو كان قد انقضى دهر عندما نظر الموظف مرة أخرى إلى ورقة فى يده ثم قرأها .. ثم تكلم : « نعم ، هذا هو الاسم » .

ريت ! هنا ! لابد أن بارت كتب إليه بشان حرق الاسطبلات .. وبيع ديجون . ولابد انه يفعل ما كنت أنوى أن أفعله . لقد قطع الطريق من أمريكا لمساعدة صديق .. او ربما لشراء حصان يفوز به فى سباق شارلستون القادم . واسرعت لرؤية ريت . وادركت انها تعدو وتدفع الناس فى الطريق دون ان تعتذر . إلى الشيطان ، كل شخص ، وكل شىء . ريت هنا على مسافة مائة ياردة . كانت تبحث عن المقصورة رقم (٨) .. بينما الجميع يتصايحون ويستحثون الخيول على الجرى والفوز ، ولكنها لم تسمع شيئاً من كل هذا الضجيج .

رأت « ريت » يراقب السباق بمنظار مكبر . ورغم انها وقفت على مسافة عشر اقدام ، وصلت إلى أنفها رائحة الويسكى المنبعثة منه . كان مخموراً . هل يمكن أن يكون هذا هو ريت ؟ لقد كان دائما يضع حدا لما يشربه . هل تكون كارثة بارت قد هزته بعنف .

صيحات التهليل من ناحية والتذمر من ناحية أخرى ارتفعت فى خاتمة السباق . وأنزل ريت المنظار من فوق عينيه بيد مرتعشة . قالت : « كيف حالك ياريت » . والتفت بسرعة . ورأت عينيه السوداوين ، ولم يكن فيهما سوى الغضب منها . وقال وهو ينظر إليها من قدميها حتى قبعتها : « أهلا بالكونتيسة ، المؤكد أنك كما يبدو .. غالية الثمن » وتحول فجأة نحو جون مورلاند : « كان يجب ان تحذرنى يا بارت ، حتى أبقى فى الحانة ، دعنى أمر » . ودفع مورلاند وسار مبتعدا عن سكارليت . وتبعته عيناها فى يأس وهو يختفى فى الزحام . ثم امتلأت العينان بالدموع . وربت جون مورلاند على كتفها وهو يقول : « اعتذر ياسكارليت بالنيابة عن ريت . لقد شرب كثيراً . لقد قابلتك بمشكلتين اليوم . لم تجدى ما يسرك كثيراً » .

« ما يسرنى كثيرا » .. هل هذا هو ما يصف به بارت سلوك ريت المهين . ما الذى يعطيه الحق فى أن يغضب ويوجه الإهانة ؟ ألا أستطيع ان اتزوج مرة أخرى بعد ان القى بى بعيداً كما تلقى النفايات ؟ اللعنة عليه . ليذهب إلى الجحيم . لماذا يكون شيئا رائعا وممتازاً بالنسبة له ان يطلقنى لكى يتمكن من الزواج من فتاة تنتمى إلى شارلستون بكل معنى الكلمة وينجب اطفالا من شارلستون بكل معنى الكلمة لكى يكبروا ويصبحوا مواطنين شارلستونيين صالحين ، أما بالنسبة لى فإنه من العار ان اتزوج مرة اخرى واوفر لطفلته كل الأشياء التى كان ينبغى أن

يكون هو الذى يوفرها لها . وقالت لبارت مورلاند : « آمل أن يسقط فوق قدميه المتعثرتين وتكسر عنقه »

— « لاتكونى شديدة القسوة على ريت ياسكارليت . لقد تعرض لمأساة حقيقية فى الربيع الماضى . اننى خجلان لشعورى بالحزن على نفسى وعلى اسطبلاتى بينما هناك أشخاص مثل ريت يعانون متاعب أكبر . سبق ان اخبرتك حول الطفل الذى كان ينتظره ، أليس كذلك ؟ شىء مخيف قد وقع . لقد ماتت زوجته وهى تنجب الطفل ، كما مات الطفل نفسه بعد ولادته بأربعة أيام » .

— « ماذا ؟ ماذا ؟ قل ذلك مرة أخرى » . وهزت ذراع بارت بوحشية حتى سقطت قبعة الرجل . وتطلع إليها بمزيج من الصدمة والخوف . وصاحت لتسأله . «أين ذهب ؟ بارت ، لابد انك تعرف او لديك فكرة ما . ما هو المكان المرجح أن يكون فيه ريت الآن » ؟ : « لا أعرف ياسكارليت . الحانة . فندقه ، أى حانة ، أى مكان » .

— « هل سيسافر إلى انجلترا معك الليلة » ؟

— « كلا فقد ذكر انه سيلتقى ببعض الأصدقاء . انه شخص مدهش حقاً . اننى استغرب انه شرب كثيراً اليوم ، فهو لم يفعل ذلك قط . وكان عاديا ليلة أمس . ولكن عندمانزلت إلى بهو الفندق صباح اليوم ، قال لى الحاجب أن ريت طلب قهوة والجريدة خلال انتظاره لى ، وفجاة اندفع خارجاً كالسهم دون حتى دفع ثمن القهوة .. سكارليت لماذا تبكين ؟ هل أخطأت فى شىء ؟ هل قلت شيئا ضايقك ؟ .. »

فيضان من الدموع فى عينى سكارليت .. لا ، لا ياأعز الأصدقاء ، لم تخطىء فى شىء على الإطلاق انه يحبنى . وهذا هو أصدق وأصوب شىء سمعته حتى الآن . لقد جاء ريت يبحث عنى . هذا هو سبب حضوره إلى ايرلندا . فهو لم يأت من أجل فرس بارت . كان يمكن أن يشتريها ويشترى سواها بالبريد . جاء من أجلى فور ان أصبح حراً مرة أخرى . لابد انه كان يريدنى كما كنت أريده . ويجب الآن أن أعود إلى البيت . فأنا لا أعرف أين أجده ، أما هو فإنه يستطيع أن يجدنى . لقد صدمه خبر زواجى عندما قرأه فى الجريدة . وهذا يسرنى . ولكن هذا الخبر لن يوقفه ، فلا شىء يوقف ريت عن السعى وراء ما يريد . وريت باتلر لايهتز أمام الألقاب والفراء والتيجان الماسية . انه يريدنى وسوف يأتى ليأخذنى . أعرف ذلك . وأعرف انه يحبنى . وقد كنت على صواب فى إحساسى طول الوقت . أعرف انه سيأتى إلى بوليهارا . ويجب أن أكون

هناك عندما يأتى .
وقالت سكارليت : « وداعا يا بارت » .

● ● ●

لم تصدق وهى تقترب من بوليهارا على صهوة جواد انها عبرت أيرلندا مرتين منذ ساعة الإفطار ، وأنها قطعت المسافة من جالواى بالقطار ثم اضطرت لاستكمال جزء من الطريق وهى تمتطى هذا الجواد الذى اشترته فى رحلة العودة . أصابها ارهاق شديد . سوف تنام الليلة ، كما لم تنم فى حياتها . وهى الآن على مسافة خمس دقائق من بوليهارا .

شىء ما غير عادى . ها هى ذى بوليهارا . ولا بصيص ضوء فى النوافذ . وفى العادة تتالق اضواء الحانات فى مثل هذا الوقت مثل الاقمار . واجتازت المنازل الخمسة المظلمة الاولى قبل ان ترى جمعاً من الناس عند مفترق الطرق أمام شارع البيت الكبير . معاطف حمراء ميليشيا . ماذا يفعلون فى بلدتها ؟ لقد سبق ان قالت لهم انها لا تريدهم هنا . ياله من إزعاج فى هذه الليلة بالذات ، عندما تكاد تسقط من الاعياء . إذن ، هذا هو السبب فى أن النوافذ مظلمة . سوف اتخلص منهم وتعود الأمور إلى حالتها الطبيعية .. وترجلت من فوق حصانها . وشاهدت ضابطاً ينسلخ من مجموعته عند مفترق الطرق ويتجه نحوها . وأصدر امراً :

— « انت هناك يا من نزلت من فوق الحصان . قف . وإلا ساطلق النار » . وتوقفت ليس بسبب الأمر ، وإنما لأنها عرفت صاحب الصوت . يا إلهى ، انه الصوت الوحيد فى العالم الذى تمنت الا تسمعه أبداً وهى على قيد الحياة .

— « لمن يوجد منكم داخل منازلكم .. أقول انه لن تكون هناك متاعب إذا ارسلتم القس كولام أوهارا . معى أمر بالقبض عليه . لن يصاب أحد بأذى إذا سلم نفسه » .

وكانت سكارليت مقتنعة تماما بان الضابط تشارلس ريجلاند الذى كان يهمس فى آذانها بكلمات الحب هو الوحيد فى الجيش البريطانى الذى سينفذ ما تريده . وما عليها إلا أن تقول له أن يذهب بعيداً ويتركها ويترك ابن عمها وبلدتها ويرحل . وتركت لجام الحصان وخطت نحوه وهى تناديه : « تشارلس » ؟ وما أن نطقت باسمه حتى صرخ تشارلس ريجلاند « قفى ! » واطلق رصاصة فى الهواء . وأجفلت ، وصاحت : « تشارلس ريجلاند هل جننت » ؟ ودوت طلقة ثانية .. بددت صوت كلماتها . وبدا أن ريجلاند قفز فى الهواء ثم سقط . وبدات سكارليت تعدو « تشارلس ،

تشارلس » . وسمعت المزيد من الطلقات النارية والصرخات . وتجاهلت ذلك كله : « تشارلس » .

ومن الاتجاه الآخر سمعت من ينادى « سكارليت » .. ومرة اخرى « سكارليت » .. ثم سمعت اسمها مرة ثالثة ولكنه صدر من تشارلس بصوت واهن عندما وقفت بجواره . كانت الدماء تنزف من رقبته بشدة وتلطخ بزته الرسمية الحمراء .

وسمعت صوت كولام من مكان ما قريب : « سكارليت ياحبيبتى .. انبطحى ارضا » ولكنها لم تستطع ان تلتفت نحوه فى تلك اللحظة .. ضوضاء مخيفة حولها .. وازيز يطن ويكاد يلامس راسها . يا إلهى ، ماذا يحدث ؟ إنها طلقات نارية . هناك من يطلقون الرصاص . البريطانيون يحاولون قتل شعبها . لن تسمح بذلك . ولكن عليها اولا ان تحضر طبيبا لتشارلس . وسمعت وقع أقدام مسرعة ، وكولام يصرخ . يا إلهى ساعدنى . ماذا أفعل لكى أوقف هذا . يا إلهى يد تشارلس اصبحت باردة . تشارلس . لاتمت ! وصاح أحدهم : « هذا هو القسيس » ! وانطلقت أعيرة نارية من النوافذ المظلمة لبيوت بوليهارا . وترنح جندى وسقط .

ذراع احاطت بسكارليت من الخلف . وأطلقت ذراعيها لتدافع عن نفسها ضد مهاجم لاتراه . وقال ريت : « فيما بعد ، يا عزيزتى ، لا عراك الآن ، هذه هى افضل فرصة سوف تتهيأ لنا . سوف احملك . اتركى جسمك ليرتخى » . والقى بها فوق كتفه ووضع ذراعه وراء ركبتيها ، واخذ يعدو وهو يحنى راسه فى الظلال . وسال : « اين الطريق الخلفى للخروج من هنا ؟ » .

وقالت سكارليت : « ضعنى على الارض وسوف ادلك على الطريق » وانزلها ريت على قدميها ، وامسك بكتفيها وجذبها نحوه وقبلها بسرعة وقوة ثم تركها تسير . واستطاعت ان تتبين الضحك فى صوته وهو يقول : « أكره ان اتلقى رصاصة دون ان احصل على ما جئت من اجله » .. « والآن ياسكارليت اخرجينا من هنا » . وامسكت بيده واتجهت بسرعة نحو ممر مظلم ضيق بين منزلين . وقالت : « اتبعنى ، هذا الطريق يفضى الى دغل .. ولا احد يستطيع ان يرانا إذا وصلنا إليه ». وقال ريت : « تقدمى » .. كان سياج الشجيرات عاليا وكثيفاً وما ان قطعا عدة خطوات داخل الدغل حتى خفت ضجيج المعركة . وادركت اخيرا انهما معاً . وخفق قلبها بالسعادة ولكن صوت الأعيرة النارية جعلها تتذكر .. تشارلس ريجلاند مات ، وقد رأت جنديا يصاب وربما قتل . والمليشيا تطارد كولام وتطلق النار على سكان بلدتها وربما تقتلهم . وكان يمكن ان تقتلها ايضا ،

هى وريت . وقالت : « يجب ان نذهب إلى البيت ، سنكون سالمين هناك ، يجب ان احذر الخدم ليبتعدوا عن البلدة إلى ان ينتهى كل هذا . اسرع ياريت » . وأمسك بذراعها وهى تستعد للتحرك · « انتظرى ياسكارليت ، ربما لا يصح ان تذهبى إلى البيت لقد جئت لتوى من هناك . انه يسبح فى الظلمة ، كما انه خاو يا حبيبتى ، وجميع ابوابه مفتوحة ، لقد رحل الخدم » . وانتزعت ذراعها من قبضته وصدرت عنها صرخة رعب ورفعت ذيل ثوبها واخذت تعدو باسرع ما تستطيع . كات . اين كات ؟

● ● ●

فى الشارع الرئيسى لبلدة بوليهارا .. كان هناك خمس جثث فى الزى الأحمر الرسمى .. وثلاثة جثث اخرى فى ملابس الفلاحين الرثة . ورقد بائع الكتب على عتبة نافذته المهشمة والدماء تخرج فى شكل فقاقيع من فمه مع كلمات الصلاة . وصلى معه كولام أوهارا ثم رسم علامة الصليب على جبينه عندما توقف قلب الرجل عن الخفقان . وانطلق كولام يجرى فى الشارع متجها نحو الكنيسة الانجليزية المهجورة وهو يصيح ـ « اتبعونى ايها الجزارون الانجليز وسنموت معاً من اجل حرية ايرلندا » .

واخترقت رصاصتان صدر كولام ، وسقط على ركبتيه ، ولكنه تحامل على نفسه وسار سبع خطوات اخرى متعثرة إلى ان اصيب بثلاث رصاصات اخرى جعلته يستدير ناحية اليمين ثم اليسار ثم اليمين مرة اخرى قبل ان يتهاوى على الأرض .

● ● ●

فى داخل البيت الكبير ، تندفع سكارليت من مكان إلى آخر ومن غرفة إلى اخرى وسط الظلام وهى تصيح : « كات » ويتردد صدى الاسم بلا مجيب . وامسك بها ريت مرة اخرى ليجد وجهها ممتقعا وعينيها شاحبتين : « يجب ان نهرب ياسكارليت . لابد ان الخدم عرفوا شيئا . البيت ليس آمنا » . وصرخت سكارليت « كات ». وهزها ريت « كفى عن هذا . القطة ليست مهمة .. اين الاسطبلات ؟ نحن فى حاجة إلى خيول » . وقالت سكارليت وصوتها المتوتر مشحون بشفقة المحبة العاشقة : « آه ، ايها الأحمق . انت لا تدرى ما تقول . دعنى اتحرك . يجب ان اعثر على كات .. كاتى أوهارا التى تسمى كات . انها ابنتك » .

واطبقت يدا ريت على ذراعى سكارليت « عن اى شىء تتحدثين بحق الشيطان » ؟ وتطلع إلى وجهها ولكنه لم يتبين تعبيرات هذا الوجه فى الظلام . وسألها وهو يهز جسمها «اجيبينى يا سكارليت» ـ : « اللعنة

عليك . دعنى أتحرك لا وقت للشرح الآن . لابد أن تكون كات هنا فى مكان ما . ولكن الدنيا ظلام ، وهى وحدها . دعنى أبحث عنها ياريت . ووجه أسئلتك فيما بعد ... » .

● ● ●

« كولام » ! أطلقت روزالين فيتزباتريك الصرخة وهى تنطلق مسرعة من حانة كنيدى وتخترق صفوف الجنود الانجليز وتدفع كل من فى طريقها لكى تصل إلى جثمان كولام الممدد على الأرض . وصاح ضابط : « لا تطلق النار ، إنها امرأة » . والقت روزالين نفسها على ركبتيها ، ووضعت يديها على جروح كولام وهى تبكى بصوت عالٍ .

حزنها الكبير فرض الاحترام . وحوّل الرجال عيونهم بعيدا . واغلقت جفنى كولام باصابع رقيقة ملطخة بدمه وهمست باللغة الايرلندية القديمة : وداعا . ثم امسكت بالمشعل ووقفت . وبدا وجهها مخيفا فى ضوء المشعل . وقبل أن يدرك الجميع ما يجرى ، كانت روزالين قد قفزت إلى الممر المؤدى إلى الكنيسة ، وصاحت بلهجة الانتصار : « من أجل ايرلندا وشهيدها كولام اوهارا » واندفعت نحو ترسانة الأسلحة والقت بالمشعل . وخيم الصمت لحظة ثم انفجر السور الحجرى للكنيسة بعرض الشارع وصنع برجاً من اللهب ودوياً يصم الآذان .



اقتحـــام الحصـــار

الانفجارات جعلت الليل يتحول إلى نهار . وأخذت سكارليت تلهث وهى تصيح « يا إلهى » . وغطت أذنيها بيديها وهى تقفز من ركن إلى ركن وتنادى على ابنتها بينما الانفجارات تتوالى حتى أصبحت بلدة بوليهارا قطعة من اللهب . جرت إلى الطابق الأعلى ، وريت بجانبها ثم فى الدهليز إلى غرف كات . وتوقفت سكارليت لتقول : « المطبخ ، انها تحب المطبخ ، ونزلت إلى الطابق الأرضى مرة أخرى ، وريت فى أعقابها ، واتجهت إلى غرفة مسز فيتزباتريك ، ووقفت فى وسطها ومالت على الحاجز الذى يفصل الغرفة عن المطبخ ونادت بصوت ناعم وهادىء لا يسبب خوفا للطفلة « كيتى كات . أرجوك ان تردى على ماما إذا كنت موجودة .. فهناك شىء هام ياحبيبتى » .

وارهفت السمع وهى تحدق فى الظلام . وأوشكت ان تغادر المكان عندما نطق الصوت الصغير « اذنا كات تشعران بالأذى » . وتهللت سكارليت ، وقالت لريت : « كنت فى رعب ، خائفة ان يكونوا قد أخذوها أو الحقوا بها الأذى » . وقال ريت : « انظرى يا سكارليت » وأشار إلى النوافذ . كانت المشاعل تتحرك وتقترب من البيت . وأثناء خروجهم من المطبخ .. كانت تصل إلى أسماعهم صرخات غاضبة وسألته كات عن اسمه قال : « ريت » وكانت « كات » هى الشخص الوحيد بين الثلاثة الذى يعرف ان هناك بابا من المطبخ يفضى إلى الحديقة .. وعندما « أدركت الطفلة ان الخطر يقترب قالت انها تعرف أن هناك نفقاً يؤدى إلى جناح الخدم ، وانه طريق اقصر . وقال ريت · « كات ، ارشدينا إلى النفق من فضلك . هل تمانعين فى أن احملك أم تفضلين الجرى » ؟

— « إذا كان لابد ان نسرع ، فالأفضل أن تحملنى انا أستطيع ان اجرى بنفس سرعتك » . وحملها ريت على ظهره ولفت ذراعيها حول عنقه . وقال ريت : « هيا ياسكارليت . كات سوف تنقذ أعناقنا التى لا تستحق الانقاذ » . ومن جناح الخدم .. قادتهما « كات » من احد الأبواب الى ساحة الاسطبل .

كانت قصة جون مورلاند لا تزال حية فى ذاكرتها . ولذلك فإنه ينبغى إطلاق سراح الخيول على الفور ماعدا « كوميت » و « الهلال » . وركب الثلاثة . وتوقفوا عند البرج . وقال ريت « كات تقول انها تدعونا إلى حجرتها » وترجلوا من على ظهر الجوادين وأطلقوا سراحهما وانطلق الجوادان نحو ضفة النهر .

النيران تتصاعد نحو السماء وراءهم . وقالت سكارليت · « انهم يقتربون ». وصعدوا إلى البرج .

الاصوات والمشاعل اقتربت أكثر فاكثر .. « لقد ذهبت الأوهارا إلى الانجليزى . الم اقل لكم منذ وقت طويل ؟ » .. « انت قلت ذلك يا برندان وانا كنت غبيا عندما عارضتك » .. « هل رايتها ، الآن ، عندما ركعت على ركبتيها إلى جانب ذى المعطف الأحمر » ؟... « قتلها بالرصاص شيء طيب بالنسبة لها ، انا ارى شنقها بحبل خانق » .. « احراقها هو الأحسن .. إحراقها هو ما نريد » .. « الطفلة التى جاءت بها الجنيات هى التى يجب ان نحرقها .. الداكنة اللون التى جلبت علينا البلايا ، الطفلة الجنية سحرت الأوهارا وسحرت الحقول وسحرت المطر فى السحب ذاتها ... » وحبست سكارليت انفاسها . الأصوات قريبة جدا ، .. غير بشرية ، مثل عواء الوحوش المفترسة .

كان ريت قابعا فى حالة تاهب إلى جوار فتحة السلم . سوف يقتل أى شخص يتجاسر على صعود السلم . ولكن ما الذى يمنع رصاصة تنطلق إذا اظهر نفسه . ووصل الغوغاء إلى البرج وتوقفوا . وتناقشوا فيما بينهم : هل الأوهارا فى البرج أم انه خال ؟ وفى النهاية أحرقوا الحبال التى تستخدم كسلم . فإذا كانت الأوهارا فى البرج مع الطفلة فسوف تموتان من الجوع أو ستحاولان الهبوط فيدق عنق كل منهما . وعندما شمت سكارليت رائحة الحبل المحترق ارادت ان تصرخ من الفرحة . الآن هم فى أمان ! ولا أحد يستطيع ان يصعد الآن . وغدا يمكن أن تصنع حبلا من قماش الأغطية والسجاجيد . وانتهت المحنة . وعندما يطلع النهار سيتجهون إلى تريم .

ومضى وقت طويل قبل ان تتلاشى أصوات وقع الأقدام . وعندئذ اقترب ريت من سكارليت وكات واحتضنهما بين ذراعيه . ونامت كات نوماً عميقا . وقالت سكارليت بثقة : « سوف نتمكن من الهرب ، يوجد طريق سرى من كوخ الساحرة » . « من ماذا ؟ » « انها ليست ساحرة فى الحقيقة ، على الأقل انا لا أعتقد ذلك ، ولايهم على أية حال ماذا تكون . سوف تدلنا على الطريق ، أو ستعرف كات طريقا ترشدنا إليه ، فهى طول الوقت فى الغابة » .

— : « هل هناك شيء لاتعرفه كات » ؟

— : « انها لاتعرف أنك أبوها » . وتصلبت عضلات فكه . وقال : « فى يوم ما ساضربك .. لانك لم تخبرينى » .

— « كنت سأخبرك ، ولكنك تصرفت على نحو جعلنى لا أستطيع ان افعل . فقد طلقتنى عندما كان المفترض ان ذلك مستحيل .. ثم ، وقبل أن ادير رأسى حدث انك تزوجت ، ماذا كان من المفروض ان افعل ؟ اتسكع

على باب بيتك وطفلتي ملفوفة في وشاحي مثل امراة ساقطة ؟ . » قال « مرة أخرى يحدث هذا يا عزيزتي السريعة الانفعال ، المدهشة . سكارليت . هل تدركين اننا عانينا طويلا من إشارات ضائعة وفرص ضائعة وسوء فهم متبادل ، بحيث يجب ألا يتكرر ذلك مرة أخرى علينا أن نكف عن ذلك ، لقد تقدم بي السن بحيث لا أحتمل هذه الدراما . » .

— : « قل انك تحبني »

— : « ما الذي جعلك تظنين هذا ؟ انني أحضر على هذه البواخر المتهالكة لانني أستمتع بالمناخ هنا كثيراً » . وضحكت ، وضربته على كتفيه بقبضتيها .

— : « قل انك تحبني » . وأمسك بمعصميها وقال « أحبك .. أينها المندفعة الفاسدة وسأقتل الفاسق لنتون إذا حاول أن يأخذك مني » .

— « ريت ، لا تكن سخيفا . انني لا أطيقه ، انه وحش مروع .. كنت أريد ان اتزوجه لانني لم أستطع الوصول إليك . » .

حاجباه المتشككان ارتفعا إلى أعلى مما أرغمها على ان تواصل الحديث

« حسنا . لقد استهوتني فكرة لندن .. وان أكون كونتيسة .. وانتقم منه لانه اهانني .. فاتزوج منه واستولي على كل امواله لصالح كات .. » وتالقت عينا ريت ، وهو يضحك في اعماقه . وتحدثا طوال الليل . ولم يشعر بانه اكتفى مما سمعه عن كات . وحذرها قائلا : « سافعل كل ما أستطيع لاجعلها تحبني اكثر مما تحبك » . وقالت سكارليت بثقة . « ليست امامك ادنى فرصة ، كل منا تفهم الأخرى ولن تقبل ان تعاملها كطفلة وتدللها بطريقتك » .

— : « وماذا عن عبادتها » ؟ - : « لقد اعتادت ذلك مني » .

— : « سنرى ، ان لي طريقتي مع النساء . هذا ما قيل لي » - : « وهي لها طريقتها مع الرجال ... » .

وحدثته عن اشياء اخرى كثيرة .. اشلي الذي تزوج ، وانديا ويلكس التي عثرت اخيراً على زوج .. وحدثها عن شقيقته روز ماري التي لم تتزوج والأرجح في راى ريت انها لن تتزوج ، فهي تقيم في دانمور لانديـنج تجمع الأموال من إصلاح حقول الأرز وتصبح تدريجيا مثل چوليا اشلي .

وقال ريت انه ترك شارلستون ولن يقيم فيها بعد الآن بل سيزورها فقط ..

— : « لقد تغيرت ياسكارليت ، اصبحت ناضجة ... » وقالت سكارليت :

« ان السماء تمطر .. وسوف تخمد الحرائق ، وعندما تشرق الشمس سنرى إذا كان هناك شيء قد تبقى » ونامت واستيقظت مع شروق الشمس . وعندما فتحت عينيها كان ريت هو أول من وقع بصرها عليه . وعندما نظرت سكارليت من نافذة البرج .. تجمدت . كانت اعمدة سوداء من الدخان تتصاعد من كل ناحية وتلطخ اللون الوردي للسماء . وامتلأت عيناها بالدموع . ووضع ريت ذراعه حول كتفيها :

— « نستطيع ان نبنيها مرة اخرى يا عزيزتي » .

— لا ياريت ، لا اريد ذلك . كات ليست امنة في بوليهارا . وربما انا ايضا . ولن أبيع ، فهذه ارض أوهارا ولن اتركها . ولكنى لا اريد بيتا كبيراً آخر او بلدة اخرى . ويستطيع أبناء عمومتي أن يجدوا بعض المزارعين ليفلحوا الأرض . ومهما حدث من إطلاق أعيرة نارية أو عمليات حرق ، فالايرلنديون يحبون دائما الأرض . وقد اعتاد والدى ان يقول انها مثل الأم بالنسبة للأيرلندى . غير انني لا انتمى إلى هذا المكان بعد الآن . وربما لم انتم إليه حقا في اى وقت ، وإلا ما كنت لأذهب إلى دبلن وحفلات المنازل والصيد . ولا أعرف إلى اين انتم ياريت . حتى في تارا ، لم اعد اشعر انني في بيتي »

ودهشت سكارليت عندما أطلق ريت ضحكة مرحة . وقال : « انت تنتمين لى ياسكارليت ، ألم تعرفى ذلك حتى الآن ؟ والعالم هو المكان الذى ننتمي إليه . كل العالم لسنا من نوع الناس الذين يجلسون إلى جانب المدفأة في بيوتهم . نحن مغامرون .. نقتحم كل انواع الحصار .. وبدون تحديات سنكون نصف أحياء . الآن نستطيع ان نذهب إلى أى مكان ، وما دمنا معاً سينتمي هذا المكان لنا ، ولكننا لن ننتمي إليه ابداً ياصغيرتي .. »

وتوقف لحظة لكي يتأمل تعبيرات وجهها .. « .. والآن قولى الحقيقة في أول صباح لحياتنا الجديدة ، هل تحبينني من قلبك ، أم انك تريدينني لأنك لم تستطيعى ان تحصلى علىّ » ؟

— « لماذا ياريت .. ما هذا الذى تقوله ! احبك من كل قلبى وسأفعل دائما » . وضحك ريت وقال : « استطيع ان أرى أن حياتنا لن تكون مملة أبداً . وأكاد لا استطيع ان انتظر أن تبدأ هذه الحياة » .

وشعر بيد تلمس ساقه وسمع صوتا يقول .

— « وكات ستذهب معك » .

ورفعها إلى كتفه والمشاعر تتدفق من عينيه ، وسأل سكارليت : « هل انت مستعدة يا مسز باتلر .. الحصار ينتظرنا لكى نخترقه » ..

وضحكت « كات » فى سعادة ونظرت إلى سكارليت بعينين قررتا إذاعة الأسرار « السلم القديم تحت غطاء فراشى . كانت جرينى قد طلبت منى ان أحتفظ به » .

انتهـــــــت

المحتـــويات

رقم الإيداع ٤٤٥٩ / ٩٢
الترقيم الدولى I. S. B. N.
977 - 08 - 0389 - 8

طبعت بمطابع دار اخبار اليوم

القراء الذين تجاوز عددهم ٢٨ مليونا ممن قرأوا رواية «ذهب مع الريح» بلغتها الانجليزية منذ خمسين وستين سنة.. وبلغ عدد المشاهدين الذين شاهدوا الفيلم الذي يحمل نفس الاسم، وتجاوز عددهم ٢٠ مليونا، ظلوا ينتظرون منذ نصف قرن ظهور تتمة لأشهر رواية في هذا القرن بعد صدور الرواية عام ١٩٣٦ وعرض الفيلم عام ١٩٣٩ والقراء والمشاهدون يداعبهم الأمل في عودة «سكارلت أوهارا» و«ريت باتلر» بطلي الرواية إلى الحياة. خاصة وأن نهاية «ذهب مع الريح» تسمح بتوقع ظهور تتمة في يوم ما للرواية التي جذبت اهتمام الناس في كل مكان أكثر من أي رواية أخرى على مدى ٥٦ سنة. ففي المشهد الأخير من الرواية ينتهي باتلر بعيدا وسط الضباب وتقول سكارلت وهي تودع زوجها الذي هجرها «غدا يوم آخر» ولذلك ترقب المشاهدون والقراء مجيء هذا الغد وعودة سكارلت وباتلر إلى الحياة.

وهكذا ظهرت رواية «سكارلت» في أربعين دولة فور صدورها وترجمت إلى كل لغات العالم تقريبا بسرية تامة. وسجل توزيعها أعلى الأرقام القياسية في جميع العواصم. فالرواية ليست مجرد قصة حب رائعة، وإنما هي نظرة نفاذة إلى أعماق النفس البشرية والمجتمع الأمريكي وآثار الحرب الأهلية في الجنوب الأمريكي وهي نظرة فاحصة للناس والعلاقات البشرية والحياة. وفي نفس الوقت فإنها تعكس روح المغامرة والاقتحام في الأدب الأمريكي.

● **نبيل زكي**

مطابع دار أخبار اليوم